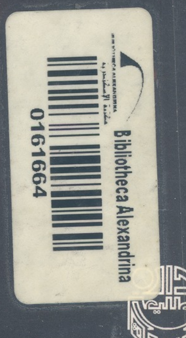
لودو مارتينز

ستالين
نظرة أخرى



ترجمة حسن عودة

ستالين

نظرة أخرى

لودو مارتينز

ستالين

نظرة أخرى

ترجمة: حسن عودة

العنوان الأصلي للكتاب: Un Autre Regard Sur Staline

اســــم المــؤلف: Ludo Martens

اســــم المتــرجم: حســن عودة

الطبعة الأولى ـ 1998

دار الطليعة الجديدة

سوريا ـ دمشق ـ ص.ب 34494

تليفاكس: 7775872

اخراج: هالـة فطوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

استهلال

أن يجد منشق سوفييتي مشهور، يقيم الآن في ألمانيا «الموحدة»، منشق كان قد بلغ من عدائه لستالين أثناء فترة شبابه أنه قام بإعداد محاولة لاغتيال ستالين، وحرر العديد من الكتب، ليدمغ السياسة الستالينية بكل المساوئ والشرور التي خطرت له، أن يجد مثل هذا الرجل نفسه مرغماً في أواخر أيام حياته على أن يزجي آيات الاحترام لستالين، فإن ذلك يدعو إلى التفكير والتأمل.

كثير من الرجال الذين يزعمون بأنهم شيوعيون لم يجدوا في أنفسهم مثل هذه الجرأة، إذ ليس من السهل، في الحقيقة، أن يرفع أحد صوته الضعيف ليواجه زوبعة الدعاية المعادية للستالينية.

زد على ذلك، أن عدداً كبيراً من الشيوعيين يحسون بعدم الارتياح إزاء هذا الموضوع. فقد جاء خروشوف ليؤكد عام 1956 كل ما كان يردده أعداء الشيوعية خلال خمس وثلاثين سنة. ومنذ ذلك الوقت فإن الإجماع على إدانة ستالين، من النازيين وحتى التروتسكيين. ومن الشريكين كسينجر ـ برزجينسكي إلى الثنائي خروشوف ـ غورباتشيف بدا كما لو أنه أكبر دليل على الحقيقة، وهكذا غدا الدفاع عن العمل الذي قام به ستالين وعن منجزات الحزب البلشفي أمراً لا يخطر على بال، أمراً شائناً ومستقبحاً. حتى أن العديد من الرجال الذين يجابهون علناً فوضى الرأسمالية العالمية المهلكة يتورعون عن القيام بذلك.

إن معاينة الجنون المدمر الذي استشرى في الاتحاد السوفييتي. هذه الأيام، وما يجره معه من ويلات المجاعة والبطالة والجريمة والبؤس والفساد والدكتاتورية الصريحة والحروب بين القوميات قاد رجلاً مثل زينوفييف إلى إعادة النظر في أحكامه المسبقة المتجذرة في أعماقه منذ يفاعته.

ما من ريب بأنه سيتوجب على أولئك الذين يريدون الدفاع عن المثل الاشتراكية والشيوعية أن يفعلوا مثلما فعل زينوفييف. وعلى امتداد العالم، ستجد المنظمات الشيوعية والثورية نفسها مرغمة على إعادة تدقيق آرائها وأحكامها التي صاغتها منذ عام 1956 حول العمل الذي قام به ستالين. ما من شخص يمكنه أن يزوغ أمام البداهة القائلة، بأنه بعد خمس وثلاثين سنة من الإدانة البالغة الحدة «للستالينية»، وهو ما مهد لغورباتشيف أن يشطب فعلياً كل ما أنجزه ستالين، فإن لينين كان قد غدا «شخصاً غير مرغوب فيه» في الاتحاد السوفييتي. فمع دفن الستالينية كانت اللينينية أيضاً قد دفنت تحت الثرى.

إن اكتشاف الحقيقة الثورية حول حقبة الرواد لهي مهمة جماعية لا مندوحة عنها أمام كافة شيوعيي العالم. وهذه الحقيقة الثورية ستنجلي عبر مقابلة المصادر الأصلية والشهادات والتحليلات، وستكون أساسية وحاسمة هنا، المساهمة العظيمة التي قدمتها الماركسية اللينينية السوفييتية، والتي يمكن اعتبارها المدخل إلى الكثير من المصادر والشهود. غير أنه ينبغي العمل، اليوم، في أصعب الشروط.

تحت عنوان: نظرة أخرى إلى ستالين ننشر أفكارنا وتحليلاتنا حول هذا الموضوع، فالطبقة التي تتكون مصلحتها الأساسية من الاستغلال والطغيان تفرض علينا يومياً وجهة نظرها عن ستالين. وتبنّي وجهة نظر أخرى يعني رؤية الشخصية التاريخية لستالين من منظور الطبقة المناوئة، طبقة المستغلين والمقهورين.

ليس هذا الكتاب سيرة لستالين، إنه يرمي إلى التصدي، في وقت واحد، للهجمات الموجهة إلى ستالين، والتي هي الأكثر تردداً على مسامعنا: «وصية لينين»، التأميم المفروض، البيروقراطية الخانقة، إبادة الحرس البلشفي القديم، التطهيرات الكبرى، التصنيع القسري، التواطؤ بين ستالين وهتلر، تقصير ستالين أثناء الحرب العظمى..الخ وقد التزمنا توضيح بعض «الحقائق الكبرى» عن ستالين، تلك التي أجملت ببعض جمل آلاف المرات، على صفحات الصحف، وفي محاضرات التاريخ، وفي الحوارات، والتي تسللت والحق يقال، إلى أعماق اللاشعور.

«ولكن، كيف يكون ذلك ممكناً» قال لنا أحد الأصدقاء، «الدفاع عن رجل مثل ستالين؟».

كانت الدهشة والسخط يرشحان من سؤاله. وقد ذكرني ذلك بما كان قد قاله لي، ذات يوم عامل شيوعي عجوز، تحدث لي عن أحداث عام 1956، حينما تلا خروشوف على مسامع العالم تقريره السري الشهير، وما أثار ذلك من جدالات صاخبة داخل صفوف الحزب الشيوعي. في خضم هذه الجدالات برز صوت امرأة عجوز، شيوعية ومتحدرة من أسرة يهودية شيوعية، كانت قد فقدت ولديها في الحرب، وأبيد جميع أفراد أسرتها في بولونيا. هتفت تقول: «ولكن كيف سيكون بوسعنا ألا ندافع عن ستالين. هو الذي بنى الاشتراكية، وهو الذي هزم الفاشية، وهو الذي جسد كل آمالنا وأحلامنا؟»

في لجة العاصفة الأيديولوجية التي كانت قد اجتاحت العالم آنذاك، وحيث الآخرون كانوا قد استكانوا أو رضخوا، ظلت هذه العجوز وفيّة للثورة، ولهذا السبب كان لديها نظرة أخرى عن ستالين، ولابد أن جيلاً من الشيوعيين سيقاسمها هذه النظرة.

مدخل

راهنية ستالين

في 20 آب من عام 1991 دوّى صوت انقلاب ياناييف، غير المألوف في جميع أرجاء العالم، كما لو أنه اللحن النشاز الذي سبق التصفية النهائية للآثار الأخيرة الباقية للشيوعية في الاتحاد السوفييتي. وسرعان ما تهاوت تماثيل لينين، وأدينت أفكاره. وقد أثار هذا الحدث العديد من السجالات في قلب الحركة الشيوعية.

وقال البعض، بأن ما جرى قد جرى بطريقة غير متوقعة إطلاقاً.

في نيسان، عام 1991 نشرنا كتاب: الاتحاد السوفييتي والثورة المضادة المخملية، وقد عالجنا فيه بصورة جوهرية التطور السياسي والأيديولوجي للاتحاد السوفييتي ولأوربا الشرقية منذ عام 1956. وبعد انقلاب يلتسين الحرفي، وإعلانه الزاعق عن الإصلاحات الرأسمالية، لم نغيّر شيئاً مما قلناه سابقاً.

إن النزاعات المستترة بين ياناييف وغورباتشيف ويلتسين لم تكن، في الواقع، سوى الاختلاجات الأخيرة لنظام محتضر، وإظهار للملأ، قرارات المؤتمر الثامن والعشرين المنعقد في تموز عام 1990.

في نهاية عام 1989 قمنا بتحليل ماركسي للانقلابات المتسارعة في الاتحاد السوفييتي، وتوصلنا إلى النتيجة التالية:

«يزيّن غورباتشيف التطور البطيء، التدريجي ولكن المنهجي نحو إحياء الرأسمالية، وفيما يجد نفسه، في الداخل، مزعزعاً وظهره إلى الحائط، فإنه يسعى أكثر فأكثر إلى إيجاد دعائم سياسية، بقدر ما هي اقتصادية، من جانب

العالم الإمبريالي، وفي مقابل ذلك، يترك لقوى الغرب أن تتصرف على هواها داخل الاتحاد السوفييتي».

بعد عام من ذلك، أي في نهاية عام 1990 كان بإمكاننا أن نصوغ تحليلنا على النحو التالي:

«منذ عام 1985 شن اليمين هجومه، موجة إثر موجة، ومع كل موجة جديدة، كان غورباتشيف ينجرف أبعد فأبعد نحو اليمين. وإزاء العدوانية المزدوجة من القوميين، والفاشيين المدعومين من يلتسين لم يكن بمستطاع غورباتشيف التراجع إلى الخلف من جديد وكل ذلك سيؤدي، برأينا، من دون شك إلى تفتيت الحزب الشيوعي، والاتحاد السوفييتي معاً».

«إن البلقنة الجارية على قدم وساق في أفريقيا وفي العالم العربي قد ضمنت الشروط المثلى للهيمنة الإمبريالية. والعقول الغربية الأكثر شطحاً في الخيال بدأت تحلم فيما هو أبعد من إحياء الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي. إنها تحلم الآن في استعباده اقتصادياً وسياسياً».

نحن نذكر هنا، عن قصد، بهذه الاستخلاصات التي كان العديد من الماركسيين اللينينيين قد توصلوا إليها عامي 1989 و 1990، والواقع أن نسف تماثيل لينين قد ترافق مع انفجار الدعاية التي تعلن زاعقة فشل الماركسية اللينينية. ومع ذلك، فإن التحليل الماركسي هو بالتأكيد التحليل الوحيد الصائب في النهاية، وهو وحده الذي أتاح اكتشاف القوى الاجتماعية الحقيقة الفاعلة خلف الشعارات الديماغوجية «الديمقراطية والحرية، الغلاسنوست والبرويسترويكا».

في عام 1956، أثناء الثورة المضادة الدموية في هنغاريا، دُكّت تماثيل ستالين، وبعد خمسة وثلاثين عاماً تحولت تماثيل لينين إلى هشيم. إن إزالة تماثيل ستالين ومن ثم لينين تحدّد نقطتي القطيعة مع الماركسية. لقد هاجم خروشوف عام 1956 أعمال ستالين بغية تغيير الخط الرئيسي لاتجاه الحزب الشيوعي، وتبع ذلك انحطاط تدريجي للنظام السياسي والاقتصادي، قاد في النهاية إلى القطيعة النهائية مع الاشتراكية، والتي تحققت بيسر على يد غورباتشيف.

ما تطالعنا به وسائل الاعلام كل يوم هو بالتأكيد الهزيمة النهائية للشيوعية في العالم ولكن علينا أن نسجّل بأنه إذا كان هناك ثمة هزيمة في الاتحاد السوفييتي. فليست هي هزيمة الشيوعية وإنما هزيمة التحريفية

Revisionnisme التي أدخلها خروشوف إلى الاتحاد السوفييتي منذ خمسة وثلاثين عاماً، فهي التي هُزمت وأفضت إلى تقويض النظام السياسي، والاستسلام أمام الإمبريالية، وإلى الكارثة الاقتصادية، إن الهياج المنفلت الذي نشهده اليوم للرأسمالية الوحشية، وللفاشية في الاتحاد السوفييتي يُظهر بوضوح إلى أين قاد التنكر للمبادىء الثورية في الماركسية اللينينية في النهاية.

خلال خمس وثلاثين سنة بذل التحريفيون كل ما بوسعهم لتقويض ستالين، وما أن تمّ تقويض ستالين، حتى جرى تصفية لينين في لحظة من الزمن. لقد استبسل خروشوف في حملته ضد ستالين، ثم أعقبه غورباتشيف ليقود خلال خمس سنوات حرباً صليبية ضد الستالينية. هل لاحظتم بأن تحطيم تماثيل لينين لم يكن مسبوقاً بحملة سياسية ضد أعماله وأفكاره؟ فالحملة ضد ستالين كانت كافية. فما أن هوجمت الأفكار السياسية لستالين وتمّ تحقيرها وتهديمها حتى انتهى الأمر إلى التخلص من أفكار لينين في الوقت نفسه.

بدأ خروشوف عمله التدميري مؤكداً بأنه إنما كان ينقد أخطاء ستالين من أجل أن «يعيد للينينية نقاءها الأصلي»، ويصلح النظام الشيوعي. ثم جاء غورباتشيف فأطلق الوعد الديماغوجي ذاته كي يبدّد قوى اليسار. ولو لجأنا اليوم إلى البداهة لوجدنا أنه تحت ذريعة «العودة إلى لينين» جرت العودة إلى القيصر، وتحت ذريعة «إصلاح الشيوعية» تمّ بعث الرأسمالية الوحشية.

اطّلع أغلب الشيوعيين على بعض المؤلفات التي تناولت نشاط وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA، وأجهزة المخابرات الغربية، وعرفوا جميعاً بأن الحرب النفسية هي فرع مستقل وبالغ الأهمية في الحرب الحديثة الشاملة. فالافتراء، وإفساد النفوس، والتحريض، واستغلال الخلافات، ومفاقمة التناقضات، وتشويه صورة الخصم، وارتكاب الجرائم لإلصاقها بظهر الخصم هي تكتيكات معروفة تلجأ إليها أجهزة المخابرات الغربية.

أما والحال هذه، فقد لجأت الإمبريالية «الديمقراطية» منذ عام 1945 إلى استخدام وسائل هائلة في حربها ضد الشيوعية: حرب عسكرية، حرب استخبارية، حرب سياسية، وحرب نفسية، أوليس بديهياً إذن، أن الحملة ضد ستالين كانت دائماً في قلب كافة المعارك الأيديولوجية الموجهة ضد الاشتراكية؟ إن كسينجر ـ برزجنيسكي، الناطقين الرسميين باسم ماكينة الحرب الأمريكية قد أجزلا المديح لمؤلفات سولجنستين وكونكيست، اللذين هما

أيضاً وبمحض الصدفة رائجين في أسواق الاشتراكيين الديمقراطيين، والتروتسكيين والفوضويين. أليس من الأفضل إذن أن نكشف حقيقة خيوط الحرب النفسية والسياسية التي تحركها CIA بدلاً من «اكتشاف الحقيقة عن ستالين» التي يدعو إليها الاختصاصيون المعادون للشيوعية؟

ليس من باب المصادفة بالتأكيد، أن نعثر، اليوم، في كافة المنشورات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة الذائعة الصيت على سيل من الافتراءات والأكاذيب بصدد ستالين والتي كنا نقرؤها في الصحافة النازية أثناء الحرب. ذلك دليل واضح على أن الصراع الطبقي على مستوى العالم يغدو شرساً أكثر فأكثر، وعلى أن البرجوازية الكبيرة تعبئ كل قواها كي تدافع وعلى جميع الاتجاهات، عن «ديمقراطيتها».

حينما ألقينا بضع محاضرات حول حقبة ستالين، قرأنا أمام الحضور نصاً طويلاً حافلاً بالعداء للستالينية، وسألناهم عما يوحي إليهم ذلك النص. أكد الجميع تقريباً بأن النص، على الرغم من عدائه الشديد للشيوعية، يظهر بوضوح حماساً لدى الشبيبة والفقراء تجاه البلشفية، وتجاه الإنجازات التكنولوجية في الاتحاد السوفييتي، وأن النص، في المحصلة، متنوع الأفكار والأحكام. كشفنا للحضور حينذاك عن أن هذا النص الذي علقوا عليه كان نصاً نازياً، وقد نشر في مجلة سينيال عدد 24 عام 1943 في غمرة الحرب العظمى. وها هي ذي الحملات المعادية للستالينية، والتي تشنها «الديمقراطيات» الغربية في أعوام 1989 ـ 1991 أكثر شراسة وافترائية من تلك التي أطلقتها النازية في الثلاثينات، في الوقت الذي لم يعد فيه الآن إنجازات الثلاثينات الشيوعية كي توازن هذه الافتراءات وتدحضها، ولم يعد ثمة قوى سياسية ذات شأن كي تحمل لواء الدفاع عن التجربة السوفييتية في ظل ستالين.

حينما تصرخ البرجوازية بالإخفاق النهائي للشيوعية تستعمل ورقة الهزيمة المزرية لأصحاب نهج التحريف كي تؤكد من جديد حقدها المرير ضد الإنجازات الجبارة التي تحققت في عهد لينين وستالين، وفيما هي تقوم بذلك، فإنها تفكر بالمستقبل أكثر مما تفكر بالماضي. إنها تريد أن ترسخ في الأذهان قناعة ثابتة بأن الماركسية اللينينية قد تلاشت وولى عهدها نهائياً، وهي تفعل ذلك لأنها على يقين بمدى راهنية التحليل الشيوعي وفاعليته. تمتلك البرجوازية وفرة من الكوادر العلمية القادرة على إجراء تقويم علمي للتطور الإنساني كما أنها تتوقع أزمات كبرى، واضطرابات ذات أبعاد كوكبية،

وحروباً من كل لون. فبعد إرساء الرأسمالية في أوربا الشرقية والاتحاد السوفييتي ستتفاقم تناقضات النظام الإمبريالي العالمي وتكشف عن وجهها القبيح. وحين يواجه العالم بأسره هاوية البطالة والبؤس والاستغلال والحرب. والتي تفتح أشداقها لتلتهم جماهير العاملين في العالم بأسره فليس غير الماركسية اللينينية وحدها من يمكنه أن يدل على طريق الخلاص. وهي وحدها من يمكنه أن يقدم لجماهير الشغيلة في العالم الرأسمالي، وإلى جماهير الشعوب المقهورة في العالم الثالث أسلحة تحررها. وكل الضجيج المدوي حول نهاية الشيوعية لا يرمي إلا إلى تجريد جماهير المظلومين في العالم من أسلحتها فيما هي تخوض نضالها الشامل.

لذا فإن الدفاع عن عمل ستالين، والذي هو في الأساس دفاع عن الماركسية اللينينية هو المهمة الراهنة والملحة في سبيل مواجهة واقع الصراع الطبقي، في ظل النظام العالمي الجديد.

إن العمل الذي أنجزه ستالين يمتاز براهنية حية ومتوقدة، سواء في البلدان الاشتراكية السابقة، أم في البلدان التي ما تزال متمسكة بالنهج الاشتراكي، أم في بلدان العالم الثالث، أم في البلدان الإمبريالية.

ستالين في مركز الأحداث في البلدان الاشتراكية القديمة

بعد إحياء الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي يكتسي العمل الذي أنجزه ستالين أهمية كبرى، من أجل فهم آلية الصراع الطبقي في ظل الاشتراكية.

ثمة رابط بين إحياء الرأسمالية الذي نشهده اليوم وبين الحملة المسعورة ضد ستالين التي سبقت في الزمان. إن انفجار الحقد ضد رجل رحل عن الدنيا عام 1953 يبدو للوهلة الأولى غريباً، إن لم يكن غير مفهوم. فخلال العشرين عاماً التي سبقت مجيء غورباتشيف جسّد بريجنيف البيروقراطية والركود والفساد والنزعة العسكرية، غير أننا لم نشهد، لا في الاتحاد السوفييتي ولا في العالم «الحر» هذه الحملة الشرسة والساخطة ضد بريجنيف، مثلما شهدناها حرباً صليبية ضد ستالين. هكذا يغدو بديهياً أن كافة الأنصار المتعصبين للرأسمالية والإمبريالية يتخذون من ستالين هدفاً لحملاتهم، وذلك من أجل الخلاص النهائي من آثار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي.

إن الانحراف المدمر الذي بدأه خروشوف يُظهر للعيان، ومن خلال المقارنة، كم كانت الأفكار التي عبر عنها ستالين صائبة وملائمة. لقد أكد

ستالين على أن الصراع الطبقي لا يتوقف في ظل الاشتراكية. وأن القوى القديمة للإقطاع والرأسمالية ستواصل القتال من أجل عودتها إلى المسرح، وأن الانتهازيين في قلب الحزب، من تروتسكيين وبوخارينيين، وقوميين برجوازيين لن يكفوا عن مد يد العون للطبقات والشرائح المعادية للاشتراكية من أجل تجميع قواها. ثم جاء خروشوف وأعلن أن هذه الموضوعات باطلة، وأنها تقود إلى العسف والتسلط. غير أن صورة القيصر الجديد بوريس يلتسين التي برزت عام 1992 تشهد على نحو لا يقبل الجدل على صحة تحليل ستالين.

إن أعداء دكتاتورية البروليتاريا لم يكفّوا يوماً عن التأكيد بأن ستالين لم يكن يجسد دكتاتورية البروليتاريا، وإنما دكتاتورية الاوتوقراطية الخاصة به. وغدت كلمة جولاج مرادفة «للدكتاتورية الستالينية»، غير أن هؤلاء الذين كانوا في الجولاج أيام ستالين أصبحوا الآن في عداد الطبقة البرجوازية الجديدة على قمة السلطة. إن تدمير ستالين لم يكن يعني سوى ولادة الديمقراطية الاشتراكية من جديد. ولكن ستالين دفن فانبثق هتلر من قبره. وأعيد الاعتبار في روسيا وأوكرانيا ورومانيا وسلوفاكيا إلى جميع الأبطال السود، إلى فلاسوف، وبانديرا، وانتونسكو، وتيسو وأضرابهم، وإلى آخرين من عملاء النازية. لقد سقط جدار برلين، وسجلت لحظة سقوطه صعود نجم النازية الجديدة في ألمانيا، وفيما نحن نشهد انفلات غول الرأسمالية والفاشية في الشرق ندرك إدراك اليقين بأن ستالين كان المدافع الحقيقي عن السلطة العمالية.

ستالين في قلب الجدل السياسي

في البلدان التي مازالت تتمسك بالاشتراكية

تحاول وسائل الإعلام أن تذكرّنا بأنه ما يزال موجوداً، للأسف، مربعَ أخير للستالينينة على سطح الكوكب. إنه فيديل كاسترو الذي يواصل الطريق في جزيرته الصغيرة مثل ديناصور ستاليني، وكيم ايل سونغ الذي فاق ستالين في عبادة الشخصية، وجلادو ساحة تيان مين الصينيون الذين هم الورثة الجديرون بستالين، وبعض الدوغمائيين الفيتناميين الذين يرفعون دائماً صور هوشي منه وستالين. وباختصار، فإن هذه البلدان الأربعة التي تحافظ، بطريقة أو بأخرى على نهجها الاشتراكي، لا تمت إلى العالم «المتمدن» بأية صلة، وكل ذلك باسم ستالين. ألا يبدو أن غاية هذا الصخب المتواصل هي إحياء وتعزيز التيار «المعادي للستالينية» أعني تيارات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة.

عمل ستالين يكتسب راهنية في واقع بلدان العالم الثالث

إن كافة القوى المناهضة للبربرية الإمبريالية في العالم الثالث، تجد نفسها اليوم مطاردة ومنشقة على نفسها وذلك باسم النضال ضد «الستالينية» على هذا النحو، فإن الحزب الشيوعي الفيليبيني «واقع في قبضة شيطان التطهيرات الستاليني» على حد قول صحيفة اللوموند. ويحسب إحدى النشرات التي تصدرها زمرة ميزون فإن «الستالينيين» في الجبهة الشعبية لتحرير تيغري قد استلموا السلطة في أديس أبابا، وفي البيرو أيضاً، ومازلنا نسمع كلاماً عن الاطروحات الماويّة ـ الستالينية «هذه اللغة الميتة لعصر آخر» على حد زعم السيد مارسيل نييد يرغانغ في صحيفة اللوموند. كذلك فإن زمرة المسوسين الذي طردوا الأب الشجاع اريستيد من هاييتي يؤكدون بجدية تامة بأن هذا الأب كان قد أقام «دكتاتورية شمولية».

أعمال ستالين ذات راهنية فعلية وحية بالنسبة إلى كل الشعوب التي انخرطت في النضال لتحرير نفسها من الهيمنة الإمبريالية

يمثل ستالين، مثله مثل لينين تماماً، الصلابة في النضالات الطبقية الأشد شراسة والأكثر قسوة. فقد بيّن بوضوح بأنه في الأوضاع الأشد حراجة وصعوبة، فإن الموقف الصلب والحازم تجاه العدو الطبقي هو وحده الذي يتيح حل المشكلات الأساسية لجماهير الشغيلة، أما الموقف المساوم والانتهازي، والانهزامي، والجبان فإنه يقود بالضرورة إلى الكارثة، وإلى الانتقام الدموي من قبل القوى الرجعية.

إن جماهير الشغيلة في العالم الثالث، تجد نفسها اليوم غارقة في أشد الأوضاع صعوبة والتي لا مخرج منها كما يبدو في الظاهر، على غرار الأوضاع التي مرّ بها الاتحاد السوفييتي في أعوام 1920 ـ 1933. ففي موزمبيق، قامت أكثر القوى رجعية في المجتمع، بدعم وتخطيط من قبل C I A ودوائر المخابرات الأفريقية الجنوبية بإبادة تسع مائة ألف موزمبيقي. وقام الأصوليون الهندوس المحميون من قبل حزب المؤتمر، والمدعومون من جانب قسم من البرجوازية الكبيرة الهندية بإغراق الهند في مستنقع الإرهاب، وفي كولومبيا يعمل الحلف القائم على التواطؤ والتنافس بين الجيش والبوليس الرجعيين، وبين وكالة المخابرات المركزية C I A وتجار المخدرات على إغراق الجماهير

الشعبية في حمامات الدم، وفي العراق، أودى العدوان الأمريكي المجرم بحياة مائتي ألف ضحية، والحصار المفروض على العراق من قبل كبار المدافعين عن حقوق الإنسان ما يزال مستمراً ليفتك بحياة مزيد من الضحايا.

إزاء كل هذه الأوضاع البالغة الصعوبة فإن مثال ستالين يبيّن بوضوح كيف تجري تعبئة الجماهير لخوض معركة ضارية لا رحمة فيها، معركة ظافرة ضد الأعداء المستعدين لفعل أي شيء.

غير أن عدداً من الأحزاب الثورية في العالم الثالث، معروفة بنضالها الضاري ضد الامبريالية، شرعت تجنح نحو الانهزامية والاستسلام. أما سيرورة انحدارها فقد بدأت تقريباً، وباستمرار، عبر حملات هجومية على العمل الذي أنجزه ستالين. والتطور الجديد للأحزاب التي تتكون منها جبهة F M NL في السلفادور مثال نموذجي على ذلك.

وفي داخل الحزب الشيوعي الفيلبيني تطور منذ عام 1985، على الأقل، تيار انتهازي أعلن عن عزمه على وضع نهاية للحرب الشعبية، والدخول في «مصالحة وطنية». وانخرط أنصار غورباتشيف هؤلاء، والمدافعون عن نهجه، بالهجوم الضاري على ستالين. لقد برز هذا التيار الانتهازي كشكل من أشكال «اليسار»، واضعاً نصب عينيه الوصول سريعاً إلى السلطة، فاقترح بعض رموزه نهج العسكرة، وسياسة العصيان المدني، ونظمّ قادته حملة تطهير في داخل الحزب في ميندانو زاعمين بأنهم يريدون وضع حد لتسلل البوليس إلى صفوف الحزب، فأعدموا عدة مئات من الأعضاء في شروط مخالفة لكل القواعد الحزبية. ولكن، حين اتخذت اللجنة المركزية للحزب قراراً بتطهير الحزب من العناصر الفاسدة بادر هؤلاء الانتهازيون إلى توحيد صفوفهم ضد «التطهير الستاليني». وقد كتب الرفيق جوزيف ماريا سيزون عن ذلك مايلي:

«إن هؤلاء الذين يعارضون بأشرس ما تكون المعارضة حركة تطهير الحزب من العناصر المخرِّبة، هم أنفسهم الذين يتحملون أكبر الوزر عن النزعة العسكرية في الحزب، وعن التقليص الواسع لقاعدة الحزب الجماهيرية، وعن مطاردة الأعضاء، على غرار مطاردة الساحرات، التي اتخذت أبعاداً مريعة، وعن الانحطاط نحو الغانغسترية. وهم الذين انخرطوا منذ زمن بعيد في حملات الافتراء وحبك الدسائس. هؤلاء المارقون المتنكرون للمبادئ قد التحقوا في الواقع بصفوف مصالح الاستخبارات الأجنبية، وباختصاصيي الحرب النفسية في نظام الولايات المتحدة ـ راموس في محاولة مستميتة لمنع الحزب الشيوعي الفيلبيني من توطيد قواه أيديولوجيا وسياسياً وتنظيمياً.

وافتتحت صحيفة (فلسطين الديمقراطيـة) الـتي تصدرهـا الجبهـة الشعبية لتحرير فلسطين حواراً حول ستالين: «ثمة جوانب سلبية في فترة حكم ستالين ويأتي في مقدمتها حسب رأينا التأميم القسري وقمع التعبير الحر، والقضاء على الديمقراطية في الحزب والمجتمع، ومركزية اتخاذ القرارات في الحزب، والدولة السوفييتية والحركة الشيوعية العالمية...»

جميع هذه المزاعم «النقدية» لستالين ليست شيئاً أكثر من الاستعادة، كيفما اتفق، للحملات القديمة المعادية للشيوعية من قبل الاشتراكية الديمقراطية.

إن التطور الجديد للجبهة الساندينية للتحرر الوطني يلقي ضـوءاً علـى هـذا الموضوع. ففي حوار مع فيديل كاسترو، هاجم توماس بورج بألفاظ جارحة جداً «الستالينية»، وتحت هذا القناع تحولت الجبهة الساندينية إلى تنظيم اشتراكي ديمقراطي برجوازي.

العمل الذي قام به ستالين يتخذ معنى جديداً في الوضع الناشئ في أوربا منذ إحياء الرأسمالية في الشرق

تُظهر الحرب الأهلية اليوغسلافية بوضوح ساطع، في لهيب أي مجزرة يمكن لمجموع القارة الأوربية أن تنزلق من جديد، فيما لو أفضت النزاعات المتنامية بين القوى الإمبريالية إلى إشعال فتيل حرب جديدة كبرى. ومثل هذا الاحتمال لم يعد من الممكن استبعاده، فالخارطة العالمية اليوم تقدم بعض أوجه الشبه مع الوضع العالمي فيما بين 1900 و1914 حين اشتد التنافس بين القوى الإمبريالية من أجل الهيمنة الاقتصادية. وفي وقتنا الراهن، أصبحت العلاقات بين المراكز الرأسمالية الستة الكبرى: الولايات المتحدة، بريطانيا العظمى، اليابان، ألمانيا، روسيا وفرنسا في غاية التقلقل وعدم الاستقرار، لقد دخلنا مرحلة، حيث التحالفات فيها تنعقد وتنحل، وحيث الصراع في الميدان الاقتصادي والتجاري على أشده وتشكل الكتل الإمبريالية الجديدة المستعدة للمجابهة فيما بينها، يدخل في حيز الإمكان. إن حرباً بين القوى الإمبريالية الكبرى ستجعل من مجموع أوربا يوغسلافيا هائلة. وفي مواجهة مثل هذا الاحتمال تستحق أعمال ستالين وأفكاره دراسة جديدة.

ثمة سمات مشتركة تميز الصراع الأيديولوجي في داخل الأحزاب الشيوعية في أنحاء العالم، حول مسألة ستالين. فالضغط الاقتصادي والسياسي والأيديولوجي الذي تمارسه البرجوازية على الشيوعيين في كافة البلدان

الرأسمالية شديد الوطأة إلى أقصى حد. وهذا الضغط يشكل مصدراً دائماً للانحطاط، والخيانة والانزلاق البطيء نحو المعسكر الآخر، غير أن كل خيانة تقتضي تبريراً أيديولوجيا عند من يرتكبها، وبصورة عامة، فإن الثوري الذي انزلق نحو الانتهازية «يكتشف الحقيقة عن ستالين»، ويستعيد كيفما اتفق، الرواية البرجوازية عن تاريخ الحركة الثورية في ظل حكم ستالين. والواقع أن المرتدين لا يقومون بأي اكتشاف، وإنما هم ينسخون أقوال البرجوازية ودعاياتها. ولكن، لِمَ يسعى العديد من المرتدين إلى «اكتشاف الحقيقة عن ستالين»؟: (من أجل تحسين وضع الحركة الشيوعية بالتأكيد). ترى، لماذا لا يسعى أي واحد منهم إلى «اكتشاف الحقيقة عن تشرشل»؟ وهو اكتشاف سيكون أكبر أهمية بكثير من أجل «تحسين» وتيرة الصراع المعادي للإمبريالية. إن لتشرشل، خلال نصف قرن، سجل حافل بالجرائم، في خدمة الإمبراطورية البريطانية: «الحرب في أفريقيا الجنوبية، الإرهاب في الهند، الحرب العالمية الأولى بين القوى الإمبريالية، ومن ثم التدخل العسكري ضد الجمهورية السوفييتية، الحرب ضد العراق، الإرهاب في كينيا، إطلاق شرارة الحرب الباردة، العدوان ضد اليونان المناضلة ضد الفاشية...الخ» ما من شك بأن تشرشل هو السياسي الأوربي الوحيد في هذا القرن الذي ضاهى هتلر.

يجري تحديد أيّ كتابة سياسية وتاريخية من خلال الموقف الطبقي لمؤلفها، ومعظم المنشورات الغربية عن الاتحاد السوفييتي، منذ العشرينات وحتى عام 1953 كانت مسخرة لخدمة الصراع البرجوازي والبرجوازي الصغير ضد الاشتراكية السوفييتية. أما كتابات أعضاء الأحزاب الشيوعية ومثقفي اليسار، المدافعة عن التجربة السوفييتية فقد شكلت تياراً معاكساً ضعيفاً في معركة الدفاع عن الحقيقة حول التجربة السوفييتية. وبدءاً من عام 1956 استعاد خروشوف والحزب الشيوعي السوفييتي، لحسابهم الخاص، قطعة بعد قطعة، كل الإرث البرجوازي حول فترة ستالين.

منذ ذلك الحين خضع كافة الثوريين في العالم الغربي لضغط أيديولوجي متواصل يتركز على المراحل الأساسية لاندفاعة الحركة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي، وخصوصاً على مرحلة ستالين. فإذا كان لينين هو من قاد ثورة أوكتوبر، ورسم التوجهات الكبرى لبناء الاشتراكية، فإن ستالين هو من شاد البنيان الاشتراكي خلال فترة الثلاثين عاماً من حكمه، لذا فإن كل الحقد البرجوازي انصب على العمل الجبار الذي تمّ إنجازه في ظل قيادة ستالين. وعليه، فإن شيوعياً لا يتبنى موقفاً طبقياً صلباً إزاء الإعلام الموجّه والوحيد

الجانب، والمبتور، والكاذب، مما تبثه البرجوازية لهو ضائع لا محالة. والحقيقة أنه ما من موضوع آخر في التاريخ الحديث دفع البرجوازية إلى تسويد صفحة خصومها وتحقيرهم مثل موضوع ستالين. وهذا ما يرتب على كل شيوعي أن يتبنى موقف الشك المنهجي تجاه كافة «المعلومات» التي تقدمها البرجوازية إليه (والخروشوفية أيضاً) حول فترة حكم ستالين. وأن يبذل قصارى جهده من أجل اكتشاف المصادر البديلة للمعلومات، والتي تنصف ستالين، وتدافع عن العمل الثوري الذي قام به.

غير أن الانتهازيين في مختلف الأحزاب لا يتجرؤون على التصدي للهجمة الأيديولوجية المعادية لستالين، والتي يتجلى هدفها المعادي للشيوعية بكل وضوح. والانتهازيون ينحنون بصغار ولسان حالهم يقول: «نعم لنقد ستالين» زاعمين أنهم ينقدون ستالين «من مواقع اليسار».

بمقدورنا اليوم أن نقوم بجردة حساب لسبعين عاماً من «نقد اليسار» مصوغ بجملته ضد تجربة الحزب البلشفي تحت قيادة ستالين. وفي حوزتنا بعض المؤلفات المكتوبة بقلم الاشتراكيين الديمقراطيين، والتروتسكيين والبوخارينيين، ومثقفي اليسار «المستقلين» إن وجهات نظرهم بمجموعها مكررة ومطورة عن الخروشوفيين والتيتويين. وبوسعنا اليوم أن ندرك على نحو أفضل، الاتجاه الحقيقي للطبقة التي تقف وراء مثل هذا الأدب. ترى هل أفضت هذه الحملات النقدية إلى ممارسة أكثر ملائمة من تلك التي تجسدها ممارسات ستالين؟ إن محاكمة النظريات، في نهاية المطاف، تتم من خلال محاكمة الممارسة الاجتماعية التي تخلقها، والممارسة الثورية التي قامت بها الحركة الثورية العالمية في ظل قيادة ستالين قلبت العالم بأسره، ورسخت توجهاً جديداً لتاريخ الإنسانية. لقد أتيح لنا، خلال الأعوام 1985 ـــ 1990، أن نرى بأن كل مزاعم «نقاد اليسار» ضد ستالين كانت أشبه بجداول صغيرة انصبت في النهر الكبير، نهر العداء للشيوعية، فالاشتراكيون الديمقراطيون، والتروتسكيون، والفوضويون، والبوخارينيون، والتيتويون، والخروشوفيون، وحماة البيئة وجدوا أنفسهم جميعاً في عباب الحركة التي ترفع شعار «من أجل الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان» والتي قامت بتصفية كل ما كان قد تبقى من الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي. وتمكن كل هؤلاء «النقاد اليساريون» لستالين من أن يمضوا حتى العواقب النهائية لخيارهم السياسي. وساهم كل منهم في إرساء رأسمالية وحشية، وخلق دكتاتورية برجوازية عديمة الرحمة، وتقويض المكتسبات الاجتماعية والسياسية والثقافية لجماهير الشغيلة. وفي

بعض الحـالات ساهموا في انبثـاق الفاشية، وإشـعال فتيـل الحـروب الأهليـة الرجعية.

ثمة شيوعيون قاوموا عام 1956 نزعة التحريف، واتخذوا جانب الدفاع عـن ستالين. وقد كشفت عنهم وعرفتنا بهـم الحمـلات المعاديـة للسـتالينية بشـكل خاص.

عام 1956 وقف الحزب الشيوعي الصيني بجـرأة موقـف الدفـاع عـن عمـل ستالين، والوثيقة التي أصدرها الحـزب بعنـوان: «مـن جديـد، بصـدد تجربـة دكتاتوريـة البروليتاريـا» قدمـت مسـاعدة ذات شـأن للماركسـيين اللينينيـين في العالم بأسره. وأدلى الشيوعيون الصينيون أيضاً، بوحــي مـن تجربتهـم الخاصـة بوجهات نظر نقدية لبعض الجوانب في أعمال ستالين. وهذا أمر طبيعــي تمامـاً في الحوار بين الشيوعيين.

غير أنه، ومع مرور الوقت، ظهر أن الكثير من نقدهم كان مصوغـاً بأشـكال عمومية جداً. وهذا ما أثر سلباً على العديد من الشـيوعيين الذيـن مـا لبثـوا أن منحوا المصداقية لكل أنواع النقاد والانتهازيين.

بهذا النحو، على سبيل المثال، تحدث الرفاق الصينيون عن أن ستالين لم يكن يميز بوضوح في بعض الأحيان بين نمطين من التناقضات: تلك التي توجد في وسط الشعب، والتي يمكن تجاوزها من خـلال التربيـة والنضـال، والأخـرى الموجودة بين الشعب وأعدائه والتي تستلزم أشكالاً من النضال الملائمة لها. مـن هذا النقد العام جـداً اسـتنتج البعـض بـأن سـتالين لم يعـالج علـى نحـو جيـد التناقضـات مـع بوخـارين، وانتهـى بهـم الأمـر إلى اعتنـاق الخــط السياســي الاشتراكي الديمقراطي لبوخارين.

أكد الرفاق الصينيون على أن ستالين كان يتدخل أحياناً في شؤون الأحزاب الشيوعية الأخرى، واستخلص البعض بأن سـتالين كـان علـى خطـأ في إدانتـه لتيتو، ثم انتهى بهم الأمـر إلى القبـول بالتيتويـة علـى أنهـا «شـكل يوغسـلافي خاص للماركسية اللينينية» غير أن الوقائع الجديدة في يوغسلافيا بينت بوضوح كيـف أن تيتـو، ومنـذ قطيعتـه مـع الحـزب البلشـفي سـلك سياسـة قوميـة ــ برجوازية، وسقط في الكوب الأمريكي.

لقد حدث الكثير من الـتردد والشـطط الايديولوجـي إزاء مسـألة سـتالين في كافة الأحزاب الماركسية اللينينية تقريباً.

يمكننا أن نستخلص الآن من كل ذلك خلاصة ذات أهمية عامة: حين نحكم على أية واقعة جرت بين عام 1923 ـ 1953، علينا أن نبذل قصارى جهدنا لمعرفة النهج والسياسة اللذين دافع عنهما الحزب البلشفي ودافع عنهما ستالين. ولا يجوز أن نقبل أي نقد للأعمال التي أنجزها ستالين من دون أن ندقق في المعطيات الأولية للمسألة المطروحة، وأن نصل إلى الرواية التي قدمتها القيادة البلشفية.



الفتى ستالين يحترف النضال

في مطلع هذا القرن، كانت القيصرية هي النظام الأكثر رجعية والأشد عدوانية في أوربا. وكان ذلك يعني سلطة اقطاعية، قروسطية، مطلقة، تنيخ بكلكلها فوق شعب مؤلف في جوهره من الفلاحين والأميين. كان الفلاحون هؤلاء غارقين في لجة من الظلامية، وفي حالة من البؤس الأشد قسوة وفتكاً. ومن المجاعة المزمنة. وبين الحين والحين كانت المجاعات تعم البلاد، تعقبها انفجارات رهيبة لثورات الجياع.

ما بين عامي 1800 و 1854 شهدت البلاد خمسة وثلاثين عاماً من القحط والمجاعة، وبين أعوام 1891 و1910 عرف الناس ثلاثة عشر عاماً من شحّ المحاصيل، وثلاث سنوات من المجاعة.

كان الفلاح يعمل في قطع صغيرة من الأرض، يُعاد توزيعها في فترات منتظمة وتتقلص من عام إلى آخر. وكانت عبارة عن رقع ضيقة، منفصلة عن بعضها بمسافات شاسعة. لم يكن لدى ثلث العائلات الفلاحية محراث معدني. كما أن ربع هذه العائلات لم تكن تمتلك حصاناً ولا ثوراً لحراثة الأرض، وكان الحصاد يتم بالمنجل. وبالمقارنة مع فرنسا وبلجيكا، فإن الفلاحين الروس عام 1900 كانوا يعيشون مثلما كان يعيش فلاحو هذين البلدين في القرن الرابع عشر.

في السنوات الخمس الأولى من هذا القرن، انفجرت في الجزء الأوربي من روسيا مئات الثورات الفلاحية. وراحت عشرات القصور والمباني طعمة للنيران، وأزهقت أرواح العديد من الملاكين العقاريين. هذه الهبّات الثورية كانت محلية على الدوام، وكان البوليس والجيش يسحقها دون رحمة. وقد أوشكت هذه الثورات المتفرقة، بعد أن امتدت على نطاق واسع عام 1902، أن تتحول إلى ثورة عارمة في خاركوف وبولتافا، فقد شاركت في هذه الحركة مئة

وثمانون قرية، وهوجم أملاك ثمانين من السادة الاقطاعيين. وقد علّق القائد العسكري للمنطقة على انتفاضتي ساراتوف وبالاشوف الفلاحيتين قائلا:

«بعنف مثير للذهول أحرق الفلاحون، ودمروا كل شيء. لم تبق قطعة آجرّ في مكانها، فقد نُهب كل شيء، القمح، والمخازن، والأمتعة، والأدوات المنزلية، والحيوانات، وألواح السقوف الحديدية. وبكلمة واحدة، كل ما يمكن حمله. أما ما تبقى فكان طعاماً لألسنة النيران».

تلك الطبقة البائسة والساذجة، أُلقيت في أتون الحرب العالمية الأولى. وفي خضم تلك الحرب، كان القيصر المعبود دائماً، كما لو أنه نصف إله، من قبل أغلبية الفلاحين، يتطلع إلى غزو أراض جديدة، باتجاه البحر المتوسط، بصورة رئيسية. وقد حصدت هذه الحرب أرواح مليونين ونصف من القتلى في داخل روسيا، جلّهم من الفلاحين المجندين في الجيش، وهكذا انضاف إلى البؤس المزمن دمار رهيب خلّفته الحرب، وضحايا لا يحصيهم العد.

غير أن قوى انتاجية جديدة شرعت تتجذر في داخل روسيا الإقطاعية هذه، بدءاً من نهاية القرن التاسع عشر. فقد جرى تدشين مشروعات ضخمة، وسكك حديدية وبنوك، إلا أنها مرتبطة، بغالبيتها، برأس المال الأجنبي، وهكذا فإن طبقة عمالية ظهرت إلى الملأ، وعلى نحو مركز أكثر فأكثر، رازحة تحت وطأة استغلال وحشي، غدت بفعل تحريض حزب البلاشفة القوة القائدة في الصراع ضد القيصرية.

في بداية عام 1917 كان المطلب الرئيسي لكافة القوى الثورية، هو إيقاف هذه الحرب الإجرامية. وقدم البلاشفة لطبقة الفلاحين شعارين اثنين: السلام الفوري، وتوزيع الأرض على الفلاحين. وفجأة، بدا كما لو أن النظام القيصري الرجعي القديم قد تلغم بالكامل. ثم ما لبث أن انهار فجأة في شباط عام 1917، وسيطرت الأحزاب التي تحبذ إقامة نظام برجوازي حديث على مقاليد السلطة. وكان قادة هذه الأحزاب مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالبرجوازيتين الانكليزية والفرنسية اللتين كانتا تهيمنان على الحلف المعادي لألمانيا.

ما إن تربعت الحكومة البرجوازية على قمة السلطة، حتى انحاز إليها ممثلو مختلف الأحزاب «الاشتراكية»، بعضهم تلو البعض الآخر. في 27 شباط من عام 1917 كان كيرنيسكي هو «الاشتراكي» الوحيد من بين أحد عشر وزيراً في النظام الجديد. وفي 29 نيسان صوّت الاشتراكيون الثوريون، والمناشفة، والاشتراكيون الشعبيون، والعماليون على الدخول في الحكومة. كانت هذه

الأحزاب الأربعة تنتمي، بجملتها، إلى تيار الاشتراكية الديمقراطية الأوربية. وفي 5 أيار أصبح كيرنيسكي وزيراً للحرب والبحرية، وقد أجمل في مذكراته برنامج مجموعة أصدقائه «الاشتراكيين» على النحو التالي:

«ما من جيش في العالم يمكن أن يسمح لنفسه بالتساؤل حول هدف القتال الذي يخوضه. أما نحن فكان علينا أن نصرح بالحقيقة البسيطة التي تقول: عليكم أن تضحوا بأنفسكم من أجل انقاذ الوطن».

وبالفعل، قام «الاشتراكيون» بإرسال الفلاحين والعمال من جديد إلى المجزرة، كي يضحوا بأرواحهم في سبيل الملاكين العقاريين، ورأس المال. ومن جديد، حصدت الحرب أعمار مئات الآلاف من الرجال.

ضمن هذا السياق، جسّد البلاشفة التطلعات العميقة لجماهير العمال والفلاحين، من خلال إعدادهم لانتفاضة 25 تشرين الأول، تحت شعار: «الأرض للفلاحين»، و«السلام الفوري»، و«تأميم البنوك والشركات الكبرى». وانتصرت ثورة أوكتوبر العظمى، أول ثورة اشتراكية ظافرة في التاريخ.

نشاطات ستالين بين عامي 1900 ـ 1917

على هذه الخلفية التاريخية نعرض باختصار بعض الوقائع من حياة ستالين الشاب في الفترة الواقعة ما بين عامي 1900 و1917. فهي تتيح لنا أن نفهم على نحو أفضل الدور الذي لعبه فيما بعد.

سنستعيد هنا بعض تلك الوقائع من حياة ستالين التي وردت في كتاب: ستالين رجل التاريخ، من تأليف الكاتب يان غري، والذي هو، حسب علمنا أفضل سيرة مكتوبة بقلم مؤلف غير شيوعي:

ولد جوزيف فيساريونوفيتش دزيغاشفيللي في 21 كانون أول عام 1879 في مدينة غوري في جورجيا. تحدّر والده فيساريون، الذي كان يعمل اسكافياً، من عائلة من الفلاحين الأقنان. وكانت والدته يكاترينا جورجيفنا ابنة لعائلة من الأقنان أيضاً. كان والدا ستالين، الرازحان تحت وطأة البؤس والأمية، ينتميان إلى قاع الشعب، ولذا فقد كان ستالين واحداً من قادة البلاشفة النادرين من ذوي الأصول المتواضعة. وقد اجتهد طوال حياته على أن يكتب ويتحدث بطريقة مفهومة من قبل العمال البسطاء.

خلال سنواته الخمس الأولى في المدرسة الابتدائية، في غـوري، لفـت الفتـى جوزيف دزيغاشفيللي أنظار معلميه، بذكائه، وبذاكرته الخارقة. وحين تخـرج من المدرسة الابتدائية عام 1894، أوصى معلموه، باعتباره «التلميذ الأفضل» من أجل إدخاله إلى المدرسة الاكليركيـة في تفليـس، والـتي كـانت تعتـبر المؤسسـة التربوية العليا الأكثر أهمية في جورجيـا. ومركـز المعارضـة للنظـام القيصـري في الوقت ذاته. وفي عام 1893 قاد أحد الطلاب وهـو كيتشـوفيللي إضرابـاً، فصـل على أثره (87) طالباً.

حين بلغ الخامسة عشرة مـن عمـره، وكـان في السـنة الثانيـة مـن سنوات دراسته في الكلية اتصل ستالين بالحلقات الماركسية السرية، وجعـل يـتردد إلى مكتبة عامة. كان يرتادها بعض الشبان الراديكاليين لقراءة الكتب التقدميـة. في عام 1897 دوّن معاون المدير المسؤول عن مراقبة الطلاب ملاحظـة مفادهـا بأنـه قبض على دزيغاشفيللي متلبساً وهو يقرأ كتاب: تطور آداب الأمم للمؤلف ليتورنو. وكان قد ضبطه سابقاً يطالع كتاب: عمال البحر، ثم كتاب 93 لفكتـور هيغـو. وبوجه الاجمال، ضُبط الطالب دزيغاشفيللي ثلاث عشرة مرة يطالع كتباً محظورة.

عام 1898، انضم دزيغاشفيللي، وكان عمره ثمانية عشر عامـاً، إلى المنظمـة الاشتراكية الأولى في جورجيا، الـتي كـان علـى رأسـها زوردانيـا، وتشـكيدزه، وتسيريتيلي وقد أصبح ثلاثتهم من المناشفة المرموقين فيما بعد: وفي السنة الـتي تلت، قاد ستالين حلقة دراسـية عمالية. في تلـك الفـترة قـرأ سـتالين مؤلفـات بليخانوف، والكتابات الأولى للينين.

في عام 1899 فصل ستالين من المدرسة الاكليريكيـة، وهكـذا بـدأت مرحلـة احترافه الثوري.

أظهرستالين في مرحلـة شـبابه الأولى ذكـاء خارقـاً، وتمتـع بذاكـرة قويـة، واكتسب بجهوده الذاتية معـارف سياسـية واسـعة جـداً بفضـل نهمـه الشـديد للمطالعة.

وبغية الحط من شأن مؤلفاته وآثاره الفكرية والسياسية، يعمد كافة الكتـاب البرجوازيين تقريباً إلى استعادة وتكرار أكاذيب تروتسكي وأباطيله ضد سـتالين. يقول تروتسكي:

«إن أهمية آراء ستالين السياسـية جدّ محـدودة، ومسـتواه النظـري بدائـي كلياً، هذا التجريبي المتصلب، يبـدو، مـن خـلال تشـكله الذهـني، مفتقـراً إلى المخيلة الخلاقة».

في الأول من أيار عام 1900 خطب ستالين أمام اجتماع عمالي غير شرعي، ضم 500 عامل، اجتمعوا في الجبال المحيطة بتفليس، تحت صور ماركس وانجلز. كان المجتمعون يستمعون إلى الخطابات باللغة الجورجية، والروسية والأرمنية. وخلال الشهور الثلاثة التي تلت، انفجرت موجة من الإضرابات في المصانع، والسكك الحديدية في تفليس، وكان ستالين واحداً من المنظمين الرئيسيين لها. وفي بداية عام 1901 وزع ستالين العدد الأول من الصحيفة السرية، الايسكرا، التي كان لينين يصدرها في الخارج.

في 1 أيار عام 1901 نظّم ألفا عامل، للمرة الأولى، مظاهرة مفتوحة، في تفليس قمعها البوليس بعنف بالغ، وقد كتب لينين في الإيسكرا بأن هذا الحدث يرتدي «أهمية تاريخية» بالنسبة إلى القوقاز بأسره. وفي غضون السنة ذاتها، قاد ستالين وكيتشوفيللي وكراسين الجناح الراديكالي في الحزب الاشتراكي ــ الديمقراطي في جورجيا. وحصلوا على مطبعة، أعادوا طبع الإيسكرا بواسطتها. وأصدروا الصحيفة السرية الجورجية الأولى، بردزولا «النضال» وفي العدد الأول منها حملوا لواء الدفاع عن الوحدة فوق القومية للحزب، وشنوا هجوماً على «المعتدلين» من أنصار حزب جورجي مستقل متضامن مع الحزب الروسي.

في شهر تشرين الثاني عام 1901 جرى انتخاب ستالين في اللجنة المركزية الأولى لحزب العمال الاشتراكي ـ الديمقراطي الروسي، وأرسل إلى باطوم، وهي مدينة نصف سكانها من الأتراك. وفي شباط 1902 نظم ستالين إحدى عشرة حلقة سرية داخل المشاريع الصناعية الرئيسية في المدينة. وفي 27 شباط اشترك ستة آلاف عامل من عمال مصفاة النفط في مسيرة تظاهرية في قلب المدينة. وفتح الجيش نيران بنادقه على المتظاهرين، فسقط خمسة عشر قتيلاً منهم، واعتقل خمسمئة عامل.

بعد شهر واحد، اعتقل ستالين نفسه، وظل رهن الاعتقال حتى نيسان عام 1903، ثم حكم بثلاث سنوات في سيبيريا. ولكنه تمكن من الهرب وعاد إلى تفليس في شباط عام 1904.

خلال إقامته في سيبيريا بعث ستالين رسالة إلى صديق له في لايبزغ يطلب منه نسخاً عن الكراس الذي كتبه لينين بعنوان: رسالة إلى رفيق حول مهماتنا التنظيمية. وعبر في رسالته عن دعمه لمواقف لينين. ومنذ مؤتمر آب عام 1903 انشق الحزب الاشتراكي الديمقراطي إلى بلاشفة ومناشفة وقد انحاز المندوبون

الجورجيون إلى صف المناشفة. وانحاز ستالين، الذي قرأ كراس لينين: ما العمل، إلى صف البلاشفة دون أدنى تردد.

«كان قرار ستالين، في الانحياز إلى جانب لينين يتطلب إيماناً وشجاعة، فقد كان التأييد الذي يلقاه لينين والبلاشفة من ممثلي ما وراء القوقاز ضئيلاً جداً» هذا ما كتبه يان غري. وفي عام 1905 كتب زعيم المناشفة الجورجيين زوردانيا نقداً لأطروحات البلاشفة التي دافع عنها ستالين، وكان هذا مؤشراً على أهمية الموقع الذي احتله ستالين من الآن فصاعداً في الحركة الثورية الجورجية. وفي بحر السنة نفسها، دافع ستالين في كراسه «الثورة المسلحة وتكتيكنا» عن ضرورة النضال المسلح في سبيل القضاء على القيصرية، معارضاً أطروحات المناشفة.

حينما بلغ السادسة والعشرين من عمره، التقى ستالين بلينين، للمرة الأولى في فنلندا. وكان ذلك في شهر كانون الاول من عام 1905 إبان انعقاد مؤتمر البلاشفة.

ما بين عامي 1905 ـ 1908 كانت القوقاز مسرحاً لنشاط ثوري كثيف، وقد أحصى البوليس، خلال تلك الفترة 1150 «عملاً إرهابياً»، لعب ستالين فيها دوراً كبيراً. وفي عامي 1907 ـ 1908 قاد ستالين برفقة أورجونيكدزه وفوروشيلوف مكتب نقابة عمال البترول، منخرطين في نضال قانوني مشروع متسع الأبعاد، بين 50 ألفا من عمال الصناعة البترولية في باكو. وتمخض ذلك النضال عن انتزاع حق انتخاب ممثلي العمال للاجتماع في مؤتمر خاص، ومناقشة اتفاق مشترك يتناول الأجور، وظروف العمل. وقد حيّا لينين هذا النضال الذي ظهر في لحظة أوقفت فيها معظم الخلايا الثورية في روسيا كافة نشاطاتها.

في آذار من عام 1908 اعتقل ستالين للمرة الثانية في باكو، وحكم بالنفي إلى سيبيريا لمدة عامين. ولكنه فرّ في حزيران عام 1909، وعاد إلى باكو، حيث وجد الحزب يعيش أزمة حادة، وقد توقفت صحيفة الحزب عن الظهور.

بعد ثلاثة أسابيع من عودته إلى باكو جدّد ستالين حركة النشر ووجه، في مقال له، نقداً «للصحف المنشورة في الخارج، بعيداً عن الواقع الروسي والتي عجزت عن توحيد عمل الحزب». ودافع ستالين عن الحفاظ على سرية الحزب وطالب بتشكيل لجنة تنسيق حزبي في داخل روسيا، وإصدار صحيفة على المستوى القومي في الداخل، تقوم بالنشاط الإعلامي، وتعمل على تشجيع

وإرساء خط الحزب. وقد كرر هذه الاقتراحات في بداية عام 1910 متوقعاً إنطلاقة جديدة للحركة العمالية.

غير أنه في غمرة الإعداد لإضراب شامل في الصناعة البترولية، اعتقل للمرة الثالثة، في آذار عام 1910، وأبعد إلى سيبيريا. ومن ثم حكم بالنفي خمس سنوات. وقد هرب من جديد في شباط عام 1912، عائداً إلى باكو.

علم ستالين بأن البلاشفة في مؤتمر براغ شكلوا حزبهم المستقل، وأن مكتباً سياسياً للحزب، كان ستالين أحد أعضائه، قد باشر مهامه. وفي 22 نيسان 1912 أصدر ستالين في سانت بطرسبورغ الطبعة الأولى من الصحيفة البلشفية، البرافدا.

في اليوم نفسه، ألقي القبض على ستالين للمرة الرابعة، ومعه مولوتوف سكرتير تحرير الصحيفة، بعد أن وشى بهما مالينوفسكي، وهو عميل للبوليس كان قد انتخب في اللجنة المركزية للحزب. وحلّ شيرنومازوف محل مولوتوف كسكرتير للصحيفة، وكان عميلاً للبوليس أيضاً. ونفي ستالين إلى سيبيريا لمدة ثلاث سنوات، ولكنه هرب من جديد، واستعاد موقعه في رئاسة تحرير الصحيفة.

ورغم أنه على قناعة بضرورة القطيعة مع المناشفة، إلا أن وجهة نظره حول التكتيك الذي ينبغي اتباعه كانت مغايرة لوجهة نظر لينين. إذ ينبغي، حسب رأيه، الدفاع عن خط البلاشفة، من دون اللجوء إلى مهاجمة المناشفة في الوقت نفسه، مادام العمال يتطلعون إلى وحدة الحزب. وتحت قيادته بلغ توزيع البرافدا رقماً قياسياً، فقد كانت توزع يومياً 80.000 نسخة.

استدعى لينين في نهاية عام 1912 ستالين ومسؤولين آخرين إلى فرصوفيا كي يقنعهم بوجهة نظره حول القطيعة الفورية مع المناشفة. وقد أرسل ستالين إلى فيينا كي يتفرغ لكتابة مؤلفه: الماركسية و المسألة القومية. وهاجم ستالين في مؤلفه هذا «الاستقلال الثقافي ــ القومي» في داخل الحزب، وأدانه باعتباره النهج الذي يؤدي إلى الانقسام، وإلى تبعية الاشتراكية للقومية ودافع عن وحدة مختلف الجنسيات داخل حزب مركزي واحد.

لدى عودته إلى سانت بطرسبورغ، أوقع به العميل مالينوفسكي، فاعتقله البوليس للمرة الخامسة، وتمّ إبعاده، هذه المرة، إلى أقصى مناطق سيبيريا، بحيث يتعذر عليه الفرار منها، وكان عليه أن يقضي هناك مدة خمس سنوات.

لم يتمكن ستالين من العودة إلى سانت بطرسبورغ إلا بعد ثورة شباط عام 1917، حيث كان قد انتخب إلى رئاسة المجلس الأعلى للسوفييت الروسي، واستعاد موقعه في رئاسة تحرير البرافدا، وفي مؤتمر الحزب، الذي انعقد في نيسان عام 1917 كان ترتيبه الثالث في عدد الأصوات التي حصل عليها المرشحون لعضوية اللجنة المركزية. وحينما أغلقت الحكومة المؤقتة صحيفة البرافدا في شهر تموز، واعتقلت عدداً من قادة البلاشفة. كان على لينين أن يتوارى عن الأنظار، فلجأ إلى فنلندا، وقاد ستالين الحزب في تلك الفترة. وفي شهر آب، قدم تقريراً إلى المؤتمر السادس للحزب، باسم اللجنة المركزية. وتمّ تبني خطه السياسي بإجماع 167 مندوباً، وامتناع أربعة مندوبين عن التصويت. وقد صرح ستالين:

«لا يمكننا أن نستبعد إمكانية أن تكون روسيا هي البلد التي ستفتح الطريق نحو الاشتراكية. علينا التخلي عن الفكرة القديمة التي ترى بأن أوربا وحدها هي التي بمقدورها أن ترشدنا إلى الطريق».

في لحظة اندلاع ثورة الخامس والعشرين من أوكتوبر كان ستالين واحداً من أعضاء المركز العسكري الثوري، الذي كان يضم خمسة أعضاء من اللجنة المركزية وقد عارض كل من كامينيف وزينوفييف استلام السلطة من قبل البلاشفة، وأيّد موقفهم كل من ريكوف ونوجين ولونا تشارسكي وميلوتين. غير أن ستالين هو الذي رفض اقتراح لينين بفصل كامينيف وزينوفييف من الحزب. وبعد الثورة فإن «البلاشفة اليمينيين» أنفسهم طالبوا بحكومة ائتلاف تضم المناشفة والاشتراكيين الثوريين إلى جانب البلاشفة. وحين وجدوا أنفسهم مهددين بالفصل عدلوا مواقفهم، والتزموا بخط الحزب.

أصبح ستالين مفوض الشعب الأول لشؤون القوميات، وأدرك عاجلاً جداً بأن البرجوازية العالمية ستدعم البرجوازيات المحلية للأقليات القومية. كتب ستالين:

«إن حق تقرير المصير، ليس حقاً من حقوق الطبقة البرجوازية، وإنما هو حق جماهير العمال في أية أمة من الأمم. ينبغي أن يستخدم مبدأ حق تقرير المصير كأداة للصراع من أجل الاشتراكية. ولابد أن يكون هذا الحق خاضعاً للمبادىء الاشتراكية».

وهكذا، يمكننا أن نستخلص أنه ما بين عامي 1901 و1917، أي منذ ظهور الأصول الأولى للحزب البلشفي وحتى انتصار ثورة أوكتوبر كان ستالين نصيرا

موالياً للخط السياسي الذي أرساه لينين. ما من قائد بلشفي آخر كان يمكنه أن يباهي بمثل هذا النشاط الثوري المثابر والمتنوع الذي بذله ستالين. لقد سار، منذ البداية، على خطى لينين، في أحلك اللحظات التي لم يكن لينين يعتمد فيها إلا على عدد محدود من الأنصار بين جمهرة المثقفين الاشتراكيين. وخلافاً لأغلبية قادة البلاشفة الآخرين، كان ستالين على الدوام على تماس مع الواقع الروسي، ومع المناضلين في الداخل. لقد عرف ستالين عن كثب أولئك المناضلين بعدما خالطهم في غمرة النضال المفتوح والعلني، وفي ظروف السرية، في السجون، وفي منافي سيبيريا. وكان يمتلك مؤهلات بالغة الاتساع، فهو الذي قاد النضال المسلح في القوقاز مثلما قاد النضالات السرية، وقام بتنظيم النضالات النقابية، وبنشر وتوزيع الصحف السرية والشرعية، وكان على رأس العمل الشرعي والبرلماني، كما كان ملّماً تمام الإلمام بوضع الأقليات القومية، مثلما كان على دراية بالشعب الروسي.

إن تروتسكي لم يأل جهداً في مهاجمة ستالين وتشويه ماضيه الثوري بصورة منهجية. وقد استقى جميع الكتاب البرجوازيين تقريباً تشنيعاتهم على ستالين من تروتسكي. يقول تروتسكي:

«كان ستالين أقل الأعضاء ذكاء في حزبنا».

حين يتحدث تروتسكي عن «حزبنا» فذلك من قبيل التدليس والمراوغة، إذ لم يكن ينتمي إلى هذا الحزب البلشفي إطلاقاً سوى لينين وزينوفييف وستالين وسفيردلوف وثمة آخرون انضموا إلى صفوفه بين عامي 1903 و1917. أما تروتسكي فلم ينضم إلى الحزب إلا في تموز عام 1917.

كتب تروتسكي أيضاً:

«بالنسبة للمسائل اليومية، كان لينين يوكل الأمور إلى ستالين وزينوفييف وكامينيف. إذ لم أكن قط ملائماً للقيام بمثل تلك المهمات. كان لينين، بحاجة، في الميدان العملي، إلى مساعدين طيّعين لأداء مثل هذا الدور. ولم أكن مؤهلاً لذلك على الإطلاق».

هذا الكلام، في الحقيقة لا يسيء إلى ستالين البتة، بل يسيء إلى تروتسكي كلياً. فهو يسقط على لينين تصوره الارستقراطي والبونابرتي الخاص به عن الحزب: قائد محاط بمعاونين طيعين، يعالجون المسائل اليومية المستجدة.

«الاشتراكيون» والثورة

حدثت الثورة البلشفية، إذن، في 25 أوكتوبر عام 1917.

وفي الغداة، صوّت «الاشتراكيون» عبر سوفييت مندوبي الفلاحين على مذكرة، ستكون أول دعوة إلى الثورة المضادة:

«أيها الرفاق الفلاحون. إن كافة الحريات المكتسبة بدم أبنائكم تتعرض الآن لخطر جسيم. كما أن ضربة مميتة وُجهت إلى جيشنا، الذي يردّ عن الوطن والثورة خطر الهزيمة الخارجية. لقد شقّ (البلاشفة) قوى العمال، والضربة القاتلة الموجهة إلى جيشنا هي أولى الجرائم وأسوأها التي يقترفها حزب البلاشفة. في المقام الثاني، أطلق هذا الحزب شرارة الحرب الأهلية واستولى على السلطة بالعنف. إن (البلاشفة) لن يجلبوا إليكم السلام بل العبودية».

وهكذا، أعلن «الاشتراكيون» غداة ثورة أوكتوبر عن موقفهم المتمثل في مواصلة الحرب الامبريالية، واتهموا البلاشفة بإثارة الحرب الأهلية، وجلب العنف والعبودية.

وعلى الفور، سعت القوى البرجوازية، والقوى القيصرية القديمة، وكافة القوى الرجعية إلى التكتل، وإعادة تنظيم صفوفها خلف الطليعة «الاشتراكية»... ومنذ عام 1918 اندلعت ثورات مسلحة ضد البلاشفة ففي بداية 1918 شكل بليخانوف، وهو زعيم بارز من زعماء المناشفة «الاتحاد من أجل بعث روسيا» مع الاشتراكيين الثوريين، والاشتراكيين الشعبيين وكذلك مع زعماء الحزب البرجوازي، الكاديت. وقد كتب كيرينسكي:

«لقد قرّ رأي الجميع على ضرورة تشكيل حكومة قومية، تقوم على المبادىء الديمقراطية بمعناها الأكثر اتساعاً. كما ارتأوا إعادة تشكيل جبهة ضد ألمانيا بالتعاون مع حلفاء روسيا الغربيين».

في 20 حزيران 1918 ظهر كيرنيسكي في لندن باسم هذا الاتحاد، كي يتفاوض مع الحلفاء. مع الوزير البريطاني الأول لويد جورج. وصرح كيرينسكي:

«إن هدف الحكومة القومية المشكلة مواصلة الحرب إلى جانب الحلفاء. وتحرير روسيا من الطغيان البلشفي، وإقامة النظام الديمقراطي».

على هذا النحو، كانت البرجوازية الروسية العدوانية، تستخدم، منذ أكثر من سبعين عاماً كلمة «الديمقراطية» كي تغطي هيمنتها البربرية.

طلب كيرينسكي، باسم الاتحاد، «تدخل» الحلفاء في روسيا. وبعد فترة وجيزة أقيمت حكومة مديرين في سيبيريا تضم الاشتراكيين الثوريين، والاشتراكيين الشعبيين، وحزب الكاديت البرجوازي، والجنرالين القيصريين الكسييف وبولديريف وأوشكت الحكومتان الانكليزية والفرنسية على الاعتراف بها قبل أن تلعب ورقة الجنرال القيصري كولتشاك.

وهكذا تكتلت القوى، التي دافعت عن النظام الرجعي القيصري، وعن البرجوازية خلال الحرب الأهلية في روسيا: الفرق العسكرية القيصرية، وسائر قوى البرجوازية ـ من الكاديت وحتى الاشتراكيين ـ متحالفة مع فرق التدخل الأجنبية.

انطلقت شرارة الحرب الأهلية عام 1918، وامتد لهيبها في كل مكان، وحتى في بتروغراد وموسكو. ولم يعد أحد قط آمناً على حياته وممتلكاته. وضرب الاسطول الانكليزي حصاراً، بمساندة من سائر البلدان الامبريالية الأخرى. مانعاً دخول المواد الغذائية والألبسة والأدوية، ومادة التخدير المستخدمة في العمليات الجراحية. وتم إنزال الجيوش الانكليزية والفرنسية واليابانية والإيطالية والأميركية في مورمانسك واركانجيسك في الشمال. وفي فلاديفوستوك في الشرق الأقصى وفي باطوم وأوديسا في الجنوب لمساندة القطعات القيصرية بقيادة دينيكين وكولتشاك وجودينيتش وفرانجل الذين شنوا عملياتهم الحربية على امتداد الأراضي الروسية، أما الفرق القديمة للأسرى التشيكيين فقد سيطرت على الجزء الأكبر من سيبيريا. ودمرت الجيوش الألمانية والبولونية الجزء الغربي من البلاد، واحتلت أوكرانيا.

من عام 1918 وحتى 1921 خلفت تلك الحرب الأهلية تسعة ملايين قتيل، كانوا ضحايا المجاعة في الأساس غير أن هذه الملايين التسعة كانوا ضحايا التدخل الأجنبي بوجه خاص، ضحايا الحصار المضروب من قبل القوى الغربية. ولكن اليمين، وضع هذه الأرواح في عنق البلاشفة بكل ما عُرف به من خسة ومكر. ثمة معجزة خارقة في أن حزب البلاشفة الذي كان تعداده ثلاثة وثلاثون ألف عضو عام 1917 نجح في تعبئة قوى شعبية كانت من الكثافة والاتساع بحيث أفلحت في إلحاق الهزيمة بالقوى المتفوقة عليها من البرجوازية، ومن النظام القيصري القديم، مدعومة من «الاشتراكيين»، ومعزّزة من قبل الجيوش الأجنبية الغازية. وذلك يعني أنه لو لم يكن ثمة تعبئة مكثفة لجماهير الفلاحين والعمال، ولو لم تكن هذه الجماهير متمتعة بالثبات والإرادة

الصلبة في تحقيق الحرية، لما استطاع البلاشفة على الاطلاق تحقيق النصر النهائي.

من الجدير بالتنويه أن المناشفة، ومنذ بداية الحرب الأهلية، أدانوا «دكتاتورية البلاشفة»، و«النظام التعسفي، الارهابي» للبلاشفة، و«الارستقراطية الجديدة» البلشفية. في عام 1918، لم يكن ثمة «ستالينية» تشيع في الجو، ومع ذلك فإن عبارة «دكتاتورية الارستقراطية الجديدة» هي التي كانت ترددها الاشتراكية الديمقراطية لترمي بها، ومنذ البداية، النظام الاشتراكي الذي أرساه لينين.

لقد دبّج بليخانوف القاعدة النظرية التي استندت إليها هذه الاتهامات، وذلك من خلال تأكيده على أن البلاشفة مارسوا سياسة «رجعية من الناحية الموضوعية» تسير بعكس اتجاه التاريخ. وأقاموا طوباوية رجعية ترتكز على إدخال الاشتراكية في بلد لم تنضج فيه الظروف بعد. وتحدث بليخانوف عن «الفوضوية الفلاحية» التقليدية ولكن حين اتسع نطاق التدخل الأجنبي كان بليخانوف أحد القادة المناشفة القلائل الذين عارضوا ذلك التدخل.

إن انضواء القادة الاشتراكيين في صف البرجوازية قد استند إلى ذريعتين: تتمثل الأولى في أنه من المستحيل «فرض» الاشتراكية داخل بلد متخلف، وأما الثانية فمفادها، أن البلاشفة ماداموا يريدون، مع ذلك، فرض الاشتراكية «بالقوة»، فإنهم سيولدون الاستبداد والدكتاتورية، وسيشكلون ارستقراطية جديدة فوق الجماهير.

تلك «التحليلات» التي صاغها الاشتراكيون الديمقراطيون المعادون للثورة والتي قاتلت ضد الاشتراكية بعنف سنتصدى لها فيما بعد: فهذه الحملات الافترائية ضد اللينينية سيجري تضخيمها ببساطة، فيما بعد، ضد الستالينية.

ستالين أثناء الحرب الأهلية

لنتأمل قليلاً في الدور الذي قام به ستالين خلال الحرب الأهلية.

ثمة العديد من المنشورات البرجوازية جعلت من تروتسكي «المبدع والمنظم للجيش الأحمر». ووضعته على قدم المساواة مع لينين، بصفتهما العبقريين اللذين أحرزا النصر العسكري للبلاشفة. أما إسهام ستالين في القتال ضد جحافل البيض فقد ضرب عنه صفحاً في الغالب. مع ذلك، فخلال أعوام 1918 ـ 1920 قاد ستالين شخصياً المعارك العسكرية في العديد من الجبهات

الحاسمة. ولم يكن لزينوفييف وكامينيف وبوخارين أي إسهام في المجال العسكري.

في شهر تشرين الثاني عام 1917 شكلت اللجنة المركزية مجلساً مصغراً لمعالجة المسائل العسكرية الملحّة، مؤلفاً من لينين وستالين وسفيردلوف وتروتسكي. وقد كتب مساعد ستالين:

«طوال ساعات اليوم كان لينين يستدعي ستالين عدداً لا يحصى من المرات. وكان ستالين يقضي الجزء الأكبر من يومه مع لينين.»

حين جرت مفاوضات السلام مع ألمانيا في ديسمبر، كانون أول عام 1917 كان لينين وستالين يصران على قبول الشروط الجائرة التي فرضتها ألمانيا من أجل إيقاف الحرب. وذلك بغية إنقاذ السلطة السوفييتية الوليدة، مهما كلف الثمن. فقد كانا يضعان في اعتبارهما وضع الجيش الروسي الذي كان، بوجه عام، عاجزاً عن القتال. أما بوخارين وتروتسكي فكانا يرفضان تلك الشروط ويرفعان راية «الحرب الثورية». وكان ذلك يعني، بالنسبة إلى لينين، الوقوع في الفخ الذي نصبته البورجوازية، تلك التي كانت تنادي بالنزعة القومية المتطرفة، وذلك بهدف إسقاط سلطة البلاشفة وحين بدأت المفاوضات صرح تروتسكي:

«إننا ننسحب من الحرب، ولكننا نرفض توقيع معاهدة السلام». وقد أكد ستالين بأنه لم يكن ثمة علامات تشير إلى حدوث ثورة وشيكة في ألمانيا. وأن حركة تروتسكي الاستعراضية لم يكن لها مغزى سياسي. وقد استأنف الألمان هجومهم فعلاً، فوجد البلاشفة أنفسهم مضطرين حالاً إلى التوقيع على شروط سلام أكثر إجحافاً. وبصدد هذه المسألة أوشك الحزب على السقوط في الكارثة.

في كانون الثاني من عام 1918 جند الجنرال القيصري الكسييف جيشاً من المتطوعين في أوكرانيا ومنطقة الدون. وفي شباط احتل الجيش الألماني أوكرانيا كي «يضمن استقلالها» عن روسيا. وفي أيار عام 1918 احتل ثلاثمئة ألف من الجنود التشيكيين جزءاً واسعاً من سيبيريا. وخلال الصيف، وبتحريض من وينستون تشرشل تدخلت كل من إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا واليابان عسكرياً للقضاء على البلاشفة.

منذ شهر آذار عام 1918 أصبح تروتسكي مفوض الشعب لشؤون الدفاع. كان على عاتقه مهمة تشكيل جيش جديد من العمال والفلاحين تحت قيادة أربعين ألفاً من ضباط الجيش القيصري القديم.

في حزيران عام 1918، كانت منطقة شمال القوقاز، وهي منطقة زراعة الحبوب الوحيدة ذات الأهمية التي كانت في يد البلاشفة، مهددة بالاكتساح من قبل جيش الجنرال الأبيض كراسنوف. وقد أرسل ستالين إلى تسارتسين، والتي ستصبح ستالينغراد فيما بعد، من أجل تأمين استلام محاصيل الحبوب. فوجد الوضع هناك غارقاً في سديم من الفوضى الشاملة.

«من دون أية إجراءات شكلية، سأطرد أنا بنفسي هؤلاء القادة العسكريين والقوميساريين الذين هم على وشك دفع الوضع إلى الانهيار الكامل». كتب ستالين إلى لينين طالباً تفويضه السلطة العسكرية في المنطقة.

في 19 تموز تمّ تعيين ستالين رئيساً للمجلس الحربي في الجبهة الجنوبية. وبعد ذلك، دخل ستالين في نزاع مع جنرال المدفعية القديم في الجيش القيصري سيتين الذي كان قد عيّنه تروتسكي قائداً عسكرياً للجبهة الجنوبية، وكذلك مع القائد العام الكولونيل القيصري القديم فاتسيتي. وتكللت جهود الدفاع عن مدينة تسارتسين بالنجاح. وقد اعتبر لينين الإجراءات التي اتخذها ستالين في مدينة تسارتسين نموذجاً يحتذى.

في تشرين أول عام 1918 عيّن ستالين رئيساً للمجلس العسكري في أوكرانيا وكان على عاتقه مهمة قلب نظام سبوروبادسكي الذي اصطنعه الألمان.

في كانون أول، اختل الوضع في الأورال اختلالاً خطيراً، وبات قاب قوسين من الانهيار، من جراء التقدم الحثيث للقطعات العسكرية الرجعية بقيادة كولتشاك. وأرسل ستالين على الفور مفوضاً بكامل السلطات، من أجل الحد من الحالة الكارثية التي أحاقت بالجيش الثالث، ولإقصاء القوميساريين غير الأكفاء. ولدى معاينته للوضع عن كثب وجه ستالين نقداً لسياسة تروتسكي والكولونيل فاتسيتي. وفي المؤتمر الثامن للحزب المنعقد في آذار 1919 خضع تروتسكي لنقد العديد من المندوبين بسبب «مواقفه الدكتاتورية» و«ولعه بالاختصاصيين العسكريين» و«سيل برقياته المشوشة وغير المفهومة».

في أيار عام 1919 أُرسل ستالين من جديد، بكامل السلطات، لتنظيم الدفاع عن بتروغراد ضد الهجوم الذي شنه جيش الجنرال الأبيض جودنيتش. وفي 4 حزيران بعث ستالين ببرقية إلى لينين، يؤكد فيها، استناداً إلى وثائق حصل عليها، بأن عديداً من الضباط من ذوي الرتب العليا في الجيش الأحمر يعملون سراً لصالح البيض.

على الجبهـة الشرقية، انفجـر نـزاع خطـير بـين قـائد هـذه الجبهـة س. كامينيف وبين القائد العام فاتسيتي، وأيدت اللجنة المركزية للحـزب الجـنرال س كامينيف فقدم تروتسكي استقالته التي رفضتها اللجنة المركزية. وتمّ توقيف فاتسيتي للتحقيق معه.

في آب 1919 احتل الجيش الأبيض الأراضي الواقعة على ضفة الدون في أوكرانيا، وفي جنوب روسيا، متقدماً باتجاه موسـكو. ومن تشرين الأول 1919 حتى آذار 1920 قاد ستالين الجبهة الجنوبية، ودحر جيش دينيكين.

في أيار عام 1920 أرسل ستالين إلى الجبهة الجنوبية الغربيـة، حيث كـان الجيش البولوني يدق أبواب مدينة لغوف في أوكرانيا، وكـانت قـوات فرانجـل تهدد مدينة كريمي. كان البولونيون قد احتلوا قسـماً كبيراً مـن أوكرانيـا، بمـا فيها مدينـة كييـف. وفي الجبهـة الغربيـة شنّ القائد الأحمـر توخاتشيفسـكي هجوماً مضاداً، دحر فيه المعتدين، وتعقب فلولهم حتى مشارف فرصوفيا. كـان لينين يأمل بكسب الحرب ضد بولونيا الرجعيـة، لـذا فقـد وافـق علـى تشـكل حكومة سوفييتية بولونية مؤقتة. ولكن ستالين حذّر من عواقب ذلك:

«إن الصراعات الطبقية في بولونيا لم تبلغ بعد من القوة بحيث تتغلب علـى مشاعر الوحدة القومية البولونية».

ومـن جـراء فقـدان التنسـيق، وتلقـي أوامـر متضاربـة تعرضـت قـوات توخاتشيفسكي لهجوم بولوني مضاد باتجاه جناحها المكشوف، فولت الأدبار.

في اللحظة ذاتها، كان على ستالين تركيز معظم قواتـه ضـد فرانجـل الـذي كان قد احتل الأراضي الواقعة شمـال بحـر آزوف، والـذي كـان يهـدد بإقامـة اتصال مع القوات المعادية للشيوعيين على الدون. وقد تم القضـاء علـى جيـوش فرانجل البيضاء قبل نهاية عام 1920.

في كانون أول عام 1919 قلّد كل من ستالين وتروتسكي وسـام العلـم الأحمـر لقاء مآثرهما العسكرية. وهو وسام صُنع حديثاً... كـان لينـين واللجنـة المركزيـة يعتبرون كفاءات ستالين في قيـادة النضـال المسلح، في المواقـع الأشـد خطـورة تضاهي كفـاءات تروتسـكي الـذي أسـس وقـاد الجيـش الأحمـر علـى المستوى المركزي. ولكن تروتسكي كان أبرع بكثير في إبراز قدره والاحتفـال بنفسـه وقـد كتب تروتسكي:

«طوال فترة الحرب الأهلية ظل ستالين شخصية من الدرجة الثالثة.»

غير أن مـك نيـل الـذي كـان، في الغـالب، مشبعاً بالأحكـام المسبقة ضـد ستالين، كتب بهذا الصدد:

«كان ستالين قد برز كقائد سياسي وعسكري. حيث أن إسهامه في تحقيق النصر للجيش الأحمر لا يوازيه إلا إسهام تروتسكي. كان دوره في تأسيس الجيش الأحمر، بوجه عام، أقل من دور منافسه تروتسكي، ولكن دوره في قيادة الجبهات الحاسمة أكثر أهمية وخطورة. وإذا كانت شهرته كبطل بعيدة عن أن ترقى إلى شهرة تروتسكي، فلم يكن مرد ذلك إطلاقاً إلى الجدارة الموضوعية لتروتسكي وإنما بالأحرى لما كان يفتقر إليه ستالين من موهبة الدعاية الذاتية لإظهار نفسه كبطل فذ».

في كانون أول عام 1919 اقترح تروتسكي «عسكرة الحياة الاقتصادية» وكان ينوي أن يطبق، في تعبئة العمال، نفس المناهج التي كان يطبقها في قيادة الجيش وعبر هذا المنظور، تم تعبئة عمال السكك الحديدية في ظل نظام من الانضباط العسكري واجتاحت الحركة النقابية موجة من الاحتجاجات. وصرح لينين بأن تروتسكي قد ارتكب أخطاء تعرّض ديكتاتورية البروليتاريا للخطر، من جراء مضايقاته البيروقراطية للنقابات وهو يجازف بشق حزب الجماهير العمالية.

إن فردية تروتسكي، واحتقاره العلني للكوادر البلشفية، وأسلوبه في القيادة المستبدة، ونزوعه إلى الانضباط العسكري. كان قد أثار القلق لدى العديد من الكوادر الحزبية. وكانوا يرون بأن من الممكن فعلاً لتروتسكي أن يلعب دور نابليون بونابرت. وأن يقوم بانقلاب عسكري، ويؤسس نظاماً استبدادياً مضاداً للثورة.

«وصية» لينين

إذا كان تروتسكي قد عاش برهة قصيرة من المجد عام 1919، في معمعان الحرب الأهلية، فمما لا جدال فيه أن ستالين كان بين عامي 1921 ـــ 1923 الشخصية الثانية في الحزب بعد لينين.

منذ المؤتمر الثامن للحزب عام 1919 كان ستالين عضواً في المكتب السياسي إلى جانب لينين، كامينيف، تروتسكي، كريستينسكي. وهذا التركيب ظل على حاله حتى عام 1921. كان ستالين بالإضافة إلى ذلك عضو المكتب التنظيمي المؤلف هو أيضاً من خمسة أعضاء من اللجنة المركزية. ولدى انعقاد المؤتمر الحادي عشر عام 1922 شن بريو برجنسكي نقداً على واقعة أن ستالين كان يقود مفوضية القوميات، بالإضافة إلى مفتشية العمال والفلاحين (المكلفة بالرقابة على جهاز الدولة بأسره) وقد رد عليه لينين:

«نحن بحاجة إلى رجل، يمكن لأي ممثل من ممثلي القوميات أن يذهب إليه، ويروي له بالتفصيل كل ما يحدث لديه، ولن يكون بمقدور بريو برجنسكي أن يقترح مرشحاً آخر لهذا المنصب غير ستالين. والأمر نفسه بالنسبة إلى مفتشيه العمال والفلاحين. فهذا عمل هائل يقتضي أن يكون على رأسه رجل يتمتع بسلطة كاملة، وإلا فإننا سنغوص في الوحل.»

في 23 نيسان، وباقتراح من لينين، عُين ستالين أيضاً سكرتيراً عاماً للمكتب السياسي.

وهكذا كان ستالين، هو الشخص الوحيد الذي يشارك في عضوية اللجنة المركزية، والمكتب السياسي، والمكتب التنظيمي، وسكرتارية الحزب البلشفي.

كان لينين قد تعرض لهجمة المرض الأولى في أيار 1922. وفي 16 كانون أول عام 1922 تعرض لهجمة ثانية. وكان الأطباء يدركون بأنه لن يعود قط إلى حالته الصحية الطبيعية.

في 24 كانون أول أخبر الأطباء ستالين، وكامينيف وبوخارين، بوصفهم ممثلين عن المكتب السياسي، بأن أي جدال سياسي مع لينين يمكنه أن يستثير نكسة جديدة لديه، مشؤومة هذه المرة. وقرر الأطباء بأنهم «يسمحون للينين بأن يملي لمدة خمس دقائق أو ست في كل يوم. وأنه لا يستطيع استقبال زائرين سياسيين. أما رفاقه، وأولئك الذين حوله، فليس بمقدورهم أن يحيطوه علماً بالشؤون السياسية.

كان المكتب السياسي قد كلف ستالين بالاتصال بلينين، وبالأطباء. وتلك كانت مهمة شاقة ما دام لينين لم يكن يستطيع التخلص من الشعور بالإحباط إلى أقصى درجة، بسبب وطأة الشلل الذي ألم به، وبسبب إبعاده عن الشؤون السياسية. كان لا بد لحنقه، أن ينصب بالضرورة على الرجل المكلف بالاتصال معه. كتب يان غري:

«تتضمن النشرة اليومية التي كان يصدرها سكرتيرو لينين، من 21 تشرين الثاني وحتى 6 آذار عام 1923، تفاصيل النشاط الذي كان يقوم به لينين، يوماً بعد يوم، وتفاصيل زياراته، وصحته. وبعد 13 كانون أول تضمنت صورة عن أبسط أفعاله وتصرفاته، كان على لينين، إذن، بعد أن استحكم الشلل برجله ويده اليمينيتين أن يبقى في السرير، منقطعاً عن الشؤون الحكومية، وبالأحرى عن العالم الخارجي، وكان الأطباء قد حظروا أي إزعاج له. ولأنه غير قادر

على العدول عن عاداته في الإمساك بزمام الأمور، فقد كان يكافح للحصول على الملفات التي كان يريدها. كان لينين يعتمد على زوجته، كروبسكايا، وعلى أخته ماريا إيلشنا، وعلى ثلاث سكرتيرات أو أربع.

ولكونه معتاداً على قيادة كل جوانب الحياة الأساسية في الحزب والدولة فقد حاول بجهد مستميت التدخل في السجالات الدائرة، والتي أصبح عاجزاً جسدياً عن ضبط كافة عناصرها. لقد حظر عليه الأطباء كل نشاط سياسي. الأمر الذي أزعجه إلى أقصى حد، وحين أحس بدنو أجله سعى إلى تسوية المشكلات التي كان يراها جوهرية والتي لم يعد، مع ذلك، مسيطراً عليها. وقد حظر عليه المكتب السياسي كل عمل سياسي مرهق، غير أن زوجته كانت تسعى جهدها كي تحصل له على الوثائق التي كان يطلبها. وكان كل طبيب يطلع على مثل هذه الأوضاع يقول بأن صراعاً نفسياً وشخصياً شاقاً كان لا مهرب منه.

في نهاية كانون الأول من عام 1922 كتبت كروبسكايا رسالة كان لينين قد أملاها. وقد عنفها ستالين على ذلك عبر الهاتف فاشتكت إلى لينين وإلى كامينيف.

«أنا أعرف أفضل من الأطباء ما يمكن قوله، وما لا يمكن قوله إلى اليتش، لأنني أدرى بما يزعجه وما لا يزعجه. وفي كل الأحوال، فأنا أعرف ذلك أفضل مما يعرف ستالين.»

بصدد تلك الفترة كتب تروتسكي فيما بعد:

«في أواسط شهر كانون الأول عام 1922 تدهورت حالة لينين الصحية من جديد وتحرك ستالين على الفور، كي يستفيد من الموقف، مخفياً عن لينين قسماً كبيراً من المعلومات المتجمعة في سكرتارية الحزب. كان يبذل ما بوسعه لعزل لينين. وكانت كروبسكايا تفعل كل ما تستطيع كي تحمي المريض من هذه المناورات العدائية».

هذه الأقوال الفظيعة للغاية قمينة بشخص دساس. فقد كان الأطباء قد حظروا على لينين أن يتسلم أي تقرير. وها هو ذا تروتسكي يتهم ستالين بأنه يقوم بمناورات عدائية تجاه لينين، وبأنه «يخفي عنه المعلومات».

هكذا، وفي تلك الظروف، أملى لينين بين 23 ـ 25 كانون أول عام 1922 ما يسميه أعداء الشيوعية «وصية لينين». تلك الملاحظات التي أملاها لينين والتي أتبعت بحاشية مؤرخة في 5 كانون الثاني عام 1923.

أضفى المؤلفون البرجوازيون هالة كبرى على هذه «الوصية» المزعومة من لينين، والتي تقضي، حسب زعمهم، بإقصاء ستالين لصالح تروتسكي. وقد كتب هنري برنارد، الأستاذ الشهير في المدرسة العسكرية الملكية ما يلي:

«كان من الطبيعي أن يصبح تروتسكي خليفة لينين. إذ كان لينين يفكر به كخلف له، فقد كان يجد ستالين فظاً للغاية».

في عام 1925، نشر التروتسكي الأمريكي ماكس إستمان «وصية لينين» مرفقة بكلمات المديح لتروتسكي. حينذاك وجد تروتسكي نفسه مرغماً على نشر توضيح في صحيفة البلشفي جاء فيه:

«يؤكد إيستمان أن اللجنة المركزية أخفت «الوصية» المزعومة عن الحزب ونحن لا نستطيع أن نسمي ذلك سوى وشاية ضد اللجنة المركزية لحزبنا (...) إن فلاديمير اليتش لم يترك أية وصية، فطبيعة علاقاته بالحزب تحديداً وكذلك طبيعة الحزب نفسه تستبعد كل فكرة عن «وصية». وبوجه عام، فإن صحافة المهاجرين الروس، والصحافة الأجنبية البرجوازية والمنشفية تشير بتلك التسمية إلى إحدى رسائل فلاديمير إيليتش تحتوي على توصيات ذات طبيعة تنظيمية. محرِّفة إياها إلى حد الزعم بأنها قد غيرت وغدت غير واضحة المعالم. أما سائر الثرثرات التي تدور حول إخفاء وصية لينين أو إنكارها فليست سوى افتراءات خبيثة».

بعد مرور سنوات على ذلك، سيطلق تروتسكي ذاته، وفي سيرته الذاتية، صرخات حانقة بخصوص «وصية لينين التي جرى إخفاؤها عن الحزب».

فلنعد إلى تلك الملاحظات الشهيرة التي أملاها لينين ما بين يوم 23 كانون أول عام 1922 ويوم 15 كانون الثاني من عام 1923.

يقترح لينين توسيع اللجنة المركزية، «إلى حوالي مئة عضو».

«سيكون ذلك ضرورياً لزيادة قدرة اللجنة المركزية، ومن أجل تحسين عمل جهازنا الحزبي على نحو جدي. وللحؤول، أيضاً، دون أن تتمكن النزاعات بين بعض المجموعات الصغيرة في اللجنة المركزية من أن تشكل خطورة كبيرة جداً. في وسع حزبنا أن يلتمس من الطبقة العاملة 50 إلى 100 عامل للجنة المركزية».

وهذا يعني «اتخاذ إجراءات لمنع وقوع انقسام في صفوف الحزب».

«النقطة الجوهرية في مسألة تماسك الحزب، تتمثل في وجود أعضاء في اللجنة المركزية، من أمثال ستالين وتروتسكي. فالعلاقة بينهما تشكل، في رأيي، الخطر الرئيسي الذي يهدد بحدوث هذا الانقسام».

هذا بالنسبة للجزء «النظري»

ينطوي هذا النص على شيء من التشوش اللافت للنظر. ويبدو بوضوح أنه قد أملي من قبل رجل أنهكه المرض. ترى ما الذي يمكن لـ 50 إلى 100 عامل، يضافون إلى اللجنة المركزية أن يقوموا به حتى «يزيدوا من قدرة اللجنة المركزية» أو يقللوا من خطر الانقسام؟ وفيما لم يتحدث لينين عن أية تصورات سياسية، أو أية تصورات عن الحزب لدى ستالين أو تروتسكي، فقد أكد على أن العلاقات الشخصية بين هذين القائدين هي التي كانت تهدد وحدة الحزب.

بعد ذلك، يملي لينين «أحكاماً» حول القادة الرئيسيين الخمسة في الحزب ونحن نذكرها هنا بكاملها:

«بعد أن غدا الرفيق ستالين السكرتير العام للحزب، ركّز بين يديه سلطة هائلة، ولست متأكداً بأن في مقدوره دائماً أن يستخدمها بتبصر.

من ناحية أخرى، فإن الرفيق تروتسكي، الذي اشتبك سابقاً في صراع مع اللجنة المركزية بشأن مفوضية الشعب لطرق المواصلات، لم يلفت الأنظار إلى قدراته العالية فحسب، بل ربما كان الرجل الأكفأ في اللجنة المركزية. ولكنه مفرط في الثقة بالنفس، وفي الولع الشديد بالجانب الإداري من الأمور بوجه خاص.

هذه الخصال التي يتسم بها القائدان البارزان في اللجنة المركزية الحالية سيكون بمقدورها، في ظروف طارئة، أن تؤدي بالحزب إلى الانقسام.

سأكتفي بالتذكير بأن الموقف الذي اتخذه كل من كامينيف وزينوفييف في أوكتوبر لم يكن بالتأكيد موقفاً عابراً أو لا مقصوداً. غير أنه لا ينبغي لنا أن ندينهم بهذه الجريمة، بصفة شخصية، أكثر مما ندين تروتسكي على أنه لم يكن بلشفياً.

ليس بوخارين منظراً رفيع القيمة وحسب، بين غيره من أعضاء الحزب الأشد تأثيراً. ولكنه يتمتع، دون جدال، بمحبة الحزب بأسره، ومع ذلك، فإن رؤاه النظرية لا يمكن أخذها كلياً على أنها مطابقة للماركسية، إلا بأكبر قدر من التحفظ، ذلك لأن فيه شيئاً من السكولاستيكية (المدرسية الجامدة) (فهو لم يدرس مطلقاً، بل وأفترض، أنه لم يفهم على الإطلاق، الديالكتيك تمام الفهم)»

لنلاحظ بأن القائد الأول الذي أتى لينين على ذكره هو ستالين «هذا التجريبي المؤهل لأن يلعب أدواراً من الدرجة الثانية والثالثة» كما قال عنه تروتسكي. وسيقول تروتسكي أيضاً:

«إن روح الوصية يتمثل في خلق الشروط التي ستتيح لي الإمكانية لأن أحل محل لينين، وأن أكون الرجل الذي يخلفه.»

على ذلك، فما من شيء، يصلح لأن يوضح ما جاء في تلك التخطيطات التي أملاها لينين. مما كتبه يان غري بحق:

«برز ستالين على أنه الأشد نقاء ونصاعة. فهو لم يلطخ سجله السياسي بأية لطخة. أما النقطة الوحيدة التي جرى التساؤل حولها فهي: هل سيتمكن ستالين من أن يُظهر تبصراً في أحكامه خلال ممارسة سلطاته الواسعة، المتركزة بين يديه»

فيما يخص تروتسكي، فقد سجل عليه لينين أربعة عيوب كبيرة: فهو يتبنى توجهات مغلوطة، على غرار صراعه مع اللجنة المركزية في مسألة «عسكرة النقابات». ولديه فكرة مبالغ بها عن نفسه، وهو يعالج المشكلات بطريقة بيروقراطية، وأخيراً فإن لا بلشفيته لم تكن حدثاً عارضاً.

فيما يخص كامينيف وزينوفييف، فإن الشيء الوحيد الذي أخذه عليهما لينين هو أن خيانتهما لحظة اندلاع الثورة لم تكن مصادفة.

أما بوخارين، فهو منظر كبير، غير أن أفكاره ليست مطابقة للماركسية تماماً، بل إنها بالأحرى سكولاستيكية، وغير ديالكتيكية.

لقد أملى لينين هذه الملاحظات بغية تجنب انقسام داخل القيادة، ولكن الكلمات التي ساقها بصدد كل من القادة الخمسة، تبدو وكأنها قد صيغت لتنسف مكانة كل واحد منهم، ولتفسد العلاقة فيما بينهم.

حين أملى لينين تلك الأسطر «كان يشعر بالاستياء»، كما تحدثت سكرتيرته فوتييفا. «فالأطباء كانوا يعارضون حواراته مع سكرتيرته، ومع عاملة الاختزال».

ثم إنه، وبعد عشرة أيام، أملى «ملحقاً» يشير فيه إلى التعنيف الذي كان ستالين قد وجّهه إلى كروبسكايا قبل ذلك باثني عشر يوماً.

«إن ستالين فظ للغاية. وهذا العيب الذي يمكن أن يكون محمولاً تماماً في وسطنا، وفي العلاقات التي تربط بيننا، نحن الشيوعيين. لا يعود كذلك، في وظائف السكرتير العام. أقترح إذن على الرفاق أن يتدارسوا طريقة لإبعاد

ستالين عن هذا المنصب. وتعيين شخص آخر مكانه، لا يتميز عن الرفيق ستالين سوى بميزة واحدة. أن يكون أكثر تسامحاً، وأكثر صراحة وأشد تهذيباً، وأرق حاشية تجاه رفاقه. وأن يكون مزاجه أقل تقلباً، إلخ. يمكن أن لا تبدو هذه السمات أكثر من تفصيل بسيط للغاية. ولكنها، كما أرى، تصون حزبنا من الانقسام، آخذين بالحسبان ما كنت قد نوهت به سابقاً بصدد علاقات ستالين بتروتسكي. فليس ذلك تفصيلاً، بل إنه شأن يمكن أن يرتدي أهمية حاسمة».

إن لينين الذي هدّه المرض، وغدا نصف مشلول، كان يزداد تعلقاً بزوجته واعتماداً عليها أكثر فأكثر، حتى أن بضع كلمات شديدة الخشونة، وجهها ستالين إلى كروبسكايا، دفعت لينين إلى أن يطلب استقالة السكرتير العام. ولكن كي يبدله بمن؟ برجل له كل مزايا ستالين، إضافة إلى «ميزة وحيدة، أن يكون أكثر تسامحاً، وتهذيباً ومجاملة» إن ما يشف عنه النص بوضوح، هو أن لينين لم يفكر، على الأخص، بتروتسكي. بمن فكر إذن؟ بلا أحد.

إن «الفظاظة» التي يتميز بها ستالين، «محمولة تماماً من الشيوعيين.» ولكنها ليست كذلك بالنسبة «لمهمته كسكرتير عام». مع ذلك، فإن السكرتير العام، كان في تلك الفترة، منشغلاً، في الأساس، بمسائل التنظيم الداخلي للحزب.

في شباط عام 1923 «تفاقمت حالة لينين الصحية تفاقماً خطيراً. كان يكابد آلاماً عنيفة في رأسه. فحظر عليه الطبيب حظراً تاماً قراءة الصحف، والزيارات والأخبار السياسية. وطلب فلاديمير اليتش محاضر المؤتمر العاشر للسوفييتيات. ولكن طلبه لم يستجب. فشعر بأسى بالغ». حاولت كروبسكايا، كما يبدو، الحصول على الوثائق التي كان يطلبها لينين. وقد روى ديميتريفيسكي واقعة أخرى بينها وبين ستالين:

«حين اتصلت كروبسكايا عبر الهاتف مرة أخرى، تطلب الحصول منه على بعض المعلومات، ردّ عليها ستالين بلهجة جارحة. فانفجرت كروبسكايا في نوبة بكاء شديدة، وذهبت على الفور لتشتكي إلى لينين. ولما كان لينين يعاني من أشد حالات التوتر، فإنه لم يستطع أن يتمالك نفسه وقتاً أطول».

وفي 5 آذار، أملى لينين ملاحظة جديدة:

«الرفيق ستالين المحترم. لقد كان فظاظة منك أن تستدعي زوجتي على الهاتف، كي تعنفها بألفاظ جارحة. ولست راغباً أن أنسى سريعاً بأن إساءتك كانت موجهة لي. فليس من المفيد أن أشدد على أنني أعتبر أي إساءة إلى

زوجتي هي إساءة لي أيضاً لهذا السبب أطلب منك أن تختار بجدّية بين أن تقبل بسحب ما قلته، وتقدم اعتذارك، أو إذا كنت تفضل، قطع العلاقات فيما بيننا».

إنه لما يثير أشد الألم، قراءة هذه الرسالة الخاصة، من رجل كان مشرفاً، جسدياً، على النهاية. وقد طلبت كروبسكايا نفسها من السكرتيرة أن لا ترسل هذه الرسالة إلى ستالين. أضف إلى ذلك، أن هذه الأسطر كانت هي الأخيرة التي استطاع لينين إملاءها. إذ أن نوبة خطيرة من المرض دهمته في اليوم التالي، وتركته عاجزاً عن القيام بأي عمل، في ما بقي له من حياته.

أن يجد تروتسكي نفسه مضطراً إلى استغلال أقوال مريض مشرف على شلل كلي، فإن ذلك يظهر بجلاء، السيماء الأخلاقية لهذا الشخص. والواقع، أن تروتسكي، كمزوّر حقيقي، أبرز هذا النص كدليل نهائي على أن لينين كان قد اختاره، من دون أدنى شك، كخلف له من بعده، وقد كتب تروتسكي:

«هذه المذكرة هي النص الأخير الذي تركه لينين. وهي في الوقت ذاته، المحصلة الحقيقية لعلاقاته مع ستالين».

بعد مرور أعوام، أي في عام 1927 قامت المعارضة الموحدة، والمؤلفة من تروتسكي، كامينييف، زينوفييف بمحاولة جديدة، لاستخدام «الوصية» ضد قيادة الحزب وتحدث ستالين، في تصريح علني، قائلاً:

«أثار المعارضون في قيادة الحزب ضجة كبيرة، زاعمين بأن اللجنة المركزية للحزب «أخفتْ وصية» لينين. لقد بُحثت هذه المسألة مرات عديدة خلال دورات انعقاد اللجنة المركزية للحزب، وفي المجلس المركزي للرقابة (بصوت عال)، آلاف المرات، وقد ثبت المرة تلو المرة بأن أحداً لم يخفِ أي شيء مهما كان مما سمي وصية لينين التي أرسلها إلى المؤتمر الثامن للحزب. وأن هذه «الوصية» تليت خلال ذلك المؤتمر (وبصوت عال قطعاً)، وأن الحزب قرر بالإجماع عدم نشرها مع غيرها من الوثائق لأن لينينً نفسه لم يكن يرغب بذلك ويتمناه». «يقال بأن لينين اقترح في هذه «الوصية» إجراء نقاش حول «فظاظة» ستالين. وفيما إذا لم يكن بالإمكان استبدال ستالين، كسكرتير عام للحزب، برفيق آخر. هذا صحيح كلياً. نعم أيها الرفاق. أنا فظ تجاه أولئك الذين يحطمون ويشقون الحزب بطريقة فظة، وغادرة. في السابق، وإبان الانقسام الأول الذي حدث في دورة انعقاد اللجنة المركزية، بعد انعقاد المؤتمر الثامن للحزب، طلبت إعفائي من منصب السكرتير العام. وكان المؤتمر نفسه قد بحث

ملياً هذه المسألة. وكل وفد من وفود المندوبين ناقش هذه المسألة مع كافة الوفود الأخرى. غير أن الجميع، بمن فيهم تروتسكي وزينوفييف وكامنييف، أرغموا ستالين على البقاء في منصبه، وبعد سنة على ذلك، وجهت طلباً جديداً إلى اللجنة المركزية لإعفائي من منصبي ذاك. ولكنهم أجبروني مرة أخرى على البقاء فيه.»

وكما لو أن جميع هذه الدسائس حول «الوصية» لم تكن كافية، فإن تروتسكي لم يتردد، في نهاية حياته، عن اتهام ستالين بأنه قتل لينين.

ولكي يسند كشفه هذا بأية حجة، فإن الدليل الوحيد الذي قدمه هو «اعتقاده الجازم».

في كتابه «ستالين» كتب تروتسكي:

«ما الدور الذي لعبه ستالين إبان مرض لينين؟ ألم يفعل المريد شيئاً كي يعجِّل بموت معلمه؟ (...) إن موت لينين هو وحده الذي كان يمكنه أن يفتح الطريق أمام ستالين. (...) إنني على يقين جازم بأن ستالين ما كان بإمكانه الانتظار، على نحو سلبي، في وقت كان مصيره في مهب الريح».

لم يزودنا تروتسكي فعلاً، بأي دليل يؤيد اتهامه هذا. ولكنه يخبرنا، مع ذلك، كيف خطرت له تلك الفكرة.

«في نهاية شباط عام 1923، وفي اجتماع المكتب السياسي. أخبرنا ستالين بأن لينين استدعاه فجأة، وطلب منه جرعة من السم. فقد كان يعتبر أن حالته الصحية ميؤوس منها. وكان يتوقع هجمة أخرى من الشلل. كما أنه لم يكن يثق بأطبائه. وكانت آلامه لا تطاق.»

حينئذ، وفيما كانوا ينصتون إلى ما يقوله ستالين، أوشك تروتسكي أن يكشف القناع عن قاتل لينين المقبل. كتب تروتسكي:

«بدت لي تعابير وجه ستالين غاية في الغموض. كانت تعلو وجهه ابتسامة صفراء، كما لو كانت فوق قناع».

لنتابع، إذن، المفتش كلوزو ــ تروتسكي، وهو يقوم بتحقيقاته، فنعلم التالي: «لماذا توجه لينين، الذي كان، في ذلك الحين، يرتاب بستالين إلى أقصى حد، إلى ستالين بالذات، بمثل هذا الطلب؟ لقد كان لينين يرى في ستالين الرجل الوحيد القادر على أن يقدم له السم. لأنه كان ذا مصلحة مباشرة للقيام بذلك. وكان لينين يعرف المشاعر الحقيقية لدى هذا الرجل تجاهه».

ليحاول أحد تأليف كتاب، مستنداً إلى هذا النوع من الأدلة. يتهم فيها الأمير ألبرت بأنه قد دسّ السم للملك بودوين. «إذ كان للأمير مصلحة مباشرة بفعل ذلك. سيساق مؤلف مثل هذا الكتاب إلى السجن حتماً. ولكن تروتسكي يسمح لنفسه باجتراح مثل هذه الدناءات الشنيعة، كي يفتري على القائد الشيوعي الرئيسي. وقد هنأته البرجوازية بأسرها على «نضاله الدؤوب ضد ستالين».

إليكم الآن بيت القصيد، في التحقيق الجنائي، للشرطي الحاذق، المفتش تروتسكي:

«أتصور أن الأمور جرت على النحو التالي: طلب لينين السم في أواخر شباط عام 1923، إبان فصل الشتاء، فقد بدأت حالة لينين في التحسن، وعاودته قدرته على النطق ولما كان ستالين يريد السلطة، فقد كان الهدف قريباً منه، ولكن الخطر الداهم الذي يشكله لينين على ستالين كان أقرب أيضاً. كان على ستالين أن يحزم أمره، وأن يتصرف دون تأخير. فإذا كان ستالين قد أرسل السم إلى لينين بعد أن أعلمه الأطباء بأنه لم يعد ثمة أمل في شفاء لينين. أو أنه لجأ إلى وسائل أخرى، فإنني أجهل ذلك».

حتى أكاذيب تروتسكي جاءت مهلهلة. فإذا لم يعد هناك أمل في شفاء لينين، فلماذا كان على ستالين أن «يقتل» لينين؟

منذ 6 آذار عام 1923 وحتى وفاته كان لينين، يعاني من شلل مستمر تقريباً. وكان عاجزاً عن النطق. كانت زوجته، وأخته، وسكرتيرتاه قرب سريره. ولم يكن بوسع لينين أن يتناول السم دون أن يعرفن ذلك. والنشرة الطبية عن هذه الفترة توضح تماماً بأن وفاة لينين كانت لا مناص منها.

أما الطريقة التي فبرك فيها تروتسكي اتهاماته ضد «ستالين، القاتل»، وكذلك الطريقة التي استخدم فيها على نحو مخاتل «وصية» لينين المزعومة، فإنها تدحض كلياً كل مساعيه ضد ستالين.

الفصل الثاني

بناء الاشتراكية في بلد واحد

في الفترة الانتقالية بين حقبة لينين وحقبة ستالين، انطلقت حركة السجال الواسعة حول بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي.

فبعد اندحار قوى التدخل الأجنبية، والجيوش الرجعية، توطدت بثبات سلطة الطبقة العاملة، مدعومة من قبل الفلاحين الفقراء والمتوسطين.

لقد تغلبت دكتاتورية البروليتاريا سياسياً وعسكرياً على خصومها، ولكن هل ستكون قادرة على بناء الاشتراكية؟ هل كانت الاشتراكية ممكنة في بلد متخلف يسوده الدمار؟

كان جواب لينين على هذه المسألة مكثفاً في تلك الصيغة الشهيرة:

«الشيوعية، هي سلطة السوفييتيات، بالإضافة إلى كهربة البلاد بأسرها»

فالسوفييتيات، هي الشكل الذي اتخذته سلطة الطبقة العاملة متحالفة مع الجماهير الأساسية للفلاحين.

وكهربة البلاد، هي، في الجوهر، خلق وسائل الإنتاج. ومن خلال هذين العنصرين يمكن بناء الاشتراكية.

عبّر لينين، على هذا النحو، عن ثقته ببناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي، وعن عزمه على إنجاز هذا البناء.

«من دون كهربة البلاد، يستحيل أن ننهض بالصناعة، تلك المهمة التي تتطلب منا نفساً طويلاً لا يقل عن عشر سنوات (...) ومن غير الممكن ضمان النجاح الاقتصادي إلا بعد أن تركز الدولة البروليتارية الروسية بين يديها فعلاً طاقات آلة صناعية عظيمة، متكاملة، تقوم على قاعدة التقنية الحديثة، (...) إنها لمهمة ذات أبعاد واسعة سيتطلب إنجازها زمناً أطول بكثير مما استغرقناه في الدفاع عن وجودنا ضد الغزاة ولكن هذه المهلة من الزمن لن تخيفنا».

لقد رفض لينين الحجة التي طرحها المناشفة، والتي مفادها: أن فلاحي روسيا ما يزالون مغرقين في البربرية، وأنهم متأخرون جداً من الناحية الثقافية بحيث يستحيل عليهم فهم الاشتراكية. والآن، قال لينين، وبعد أن حققنا السلطة البروليتارية، منذا الذي يستطيع أن يمنعنا من أن ننجز في وسط هذا الشعب «البربري» ثورة ثقافية؟

على هذا النحو، صاغ لينين المهمات الأساسية الثلاث، من أجل بناء المجتمع الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي: تطوير الصناعة الحديثة بإشراف الدولة السوفييتية، بناء التعاونيات الفلاحية وإطلاق ثورة ثقافية، من خلال محو أمية جماهير الفلاحين، ورفع المستوى التقني والعلمي لسكان الاتحاد السوفييتي.

في أحد نصوصه الأخيرة بعنوان: حول العمل التعاوني. حدد لينين فكرته مزيداً من التحديد، يقول لينين:

«سلطة الدولة على جميع وسائل الإنتاج الرئيسية، سلطة الدولة بيد الطبقة العاملة، التحالف بين البروليتاريا وملايين الملايين من الفلاحين والفلاحين الصغار، قيادة الفلاحين من قبل الطبقة العاملة على نحو ثابت، أليس هذا هو كل ما نحتاجه من أجل أن نبني، انطلاقاً من العمل التعاوني مجتمعاً اشتراكياً كاملاً؟». استناداً إلى هذا المنظور تمكن لينين وحزب البلاشفة من أن يستثيروا حماساً فياضاً لدى الجماهير. وخاصة لدى جماهير الشغيلة، ورسخوا فيهم روح التضحية في العمل، ومنحوهم الثقة بمستقبل الاشتراكية. إن سياسة النيب كانت في نظر لينين خطوة إلى الوراء، ولكنها ستسمح، في المستقبل القريب بتحقيق ثلاث خطوات إلى الأمام. وفيما تقدم هذه السياسة تنازلات إزاء البرجوازية الصغيرة، فإن لينين لم ينس، مطلقاً، الآفاق المنظورة للاشتراكية. وفي تشرين الثاني من عام 1922 خطب لينين أمام سوفييت موسكو، متحدثاً بالتحديد عن سياسة النيب. قال لينين:

«النيب سياسة اقتصادية جديدة، تسمية غريبة. وقد سُميت بالجديدة لأنها تسير إلى الخلف. نحن نتراجع اليوم، ويبدو علينا أننا نتراجع. ولكننا نقوم بذلك، متراجعين في البداية، من أجل أن نستجمع قوانا ونعد أنفسنا لنقوم بقفزة أوسع إلى الأمام».

وختم خطابه بهذه الكلمات:

«من روسيا السياسة الاقتصادية الجديدة ستولد روسيا الاشتراكية». تلك هي مسألة إمكانية بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي، التي أثارت، منذ عام

1922 سجالاً امتد حتى عام 1926ـ 1927 وكان تروتسكي أول من قلب ظهر المجن لأفكار لينين.

عام 1919 ارتأى تروتسكي أن من المناسب إعادة نشر نص له بعنوان «نتائج وآفاق». وهو أحد النصوص التي نشرها عام 1906. وفي المقدمة التي كتبها لطبعة عام 1919 سجل تروتسكي:

«إن الأفكار المعروضة التي نجدها في هذا الكتاب تمسّ عن كثب، وبخطوطها الرئيسية، الظروف التي نمر بها اليوم».

فما هي الأفكار النيّرة التي يتضمنها مؤلف تروتسكي المنشور عام 1906 والتي يرغب أن يراها تسود في أوساط حزب البلاشفة؟

يشير تروتسكي إلى أن طبقة الفلاحين تتسم «بالبربرية السياسية» وبهشاشة النضج الاجتماعي ونضج الطبيعة الإنسانية، وبالتخلف. وليس لدى هذه الطبقة أي شيء يمكنه أن يشكل قاعدة لسياسة بروليتارية متماسكة يمكن الركون إليها.

وبعد الاستيلاء على السلطة «ستكون البروليتاريا مضطرة إلى نقل الصراع الطبقي إلى الأرياف (...) غير أن تدني المستوى الذي بلغه التمايز الطبقي لدى طبقة الفلاحين سيخلق عقبات أمام إدخال صراع طبقي متطور إلى وسط هذه الطبقة، بحيث يمكن للبروليتاريا المدينية أن تعتمد عليه. إن خمول طبقة الفلاحين، وسلبيتها السياسية، بالإضافة، أيضاً، إلى المعارضة القوية للشرائح العليا فيها لا يمكن إلا أن تترك أثرها على جزء من المثقفين، والبورجوازية الصغيرة في المدن. وهكذا فكلما صارت السياسة البروليتارية محددة وحاسمة، كلما تقلص مجال هذه السياسة، وأصبح طريقها محفوفاً بالمخاطر». إن صعوبات البناء الاشتراكي التي عددها تروتسكي هي صعوبات واقعية. وهي تلقي الضوء على ضراوة الصراع الطبقي في الريف. فحينما سيتبنى الحزب عام 1929 نهج التجميع الزراعي سيحتاج الأمر إلى عزم ستالين الذي لا يتزعزع، وإلى قدراته التنظيمية، كي يجتاز النظام هذا الامتحان الشاق. غير أن الصعوبات، بالنسبة إلى تروتسكي ستكون هي نقطة الانطلاق لسياسة انهزامية استسلامية، متبّلة بدعوات فوق ثورية للهروب نحو الأمام.

لنعد إلى الاستراتيجية السياسية التي عرضها تروتسكي عام 1906، ثم أكد عليها عام 1919.

«إلى أي حد يمكن تطبيق السياسة الاشتراكية لطبقة العمال ضمن الظروف الاقتصادية لروسيا؟ ثمة شيء يمكن قوله بكل ثقة: ستصطدم هذه السياسة لا محالة، بعراقيل سياسية، قبل أن تصطدم بالتخلف التقني المريع للبلاد. ومن دون الدعم الدولي المباشر من قبل البروليتاريا الأوربية فإن طبقة العمال الروسية لن تتمكن من البقاء في السلطة، ومن تحويل هيمنتها الآنية إلى دكتاتورية اشتراكية ثابتة. بصدد هذا الموضوع، ما من شك يمكن أن يراود المرء».

«وفيما إذا تُركت الطبقة العاملة الروسية معتمدة على مواردها الذاتية الخاصة، فلا مناص من أن تسحقها الثورة المضادة، حالما تنقلب عليها طبقة الفلاحين. ولن يكون ثمة إمكانية أخرى أمامها سوى ربط مصير سلطتها السياسية، وبالتالي مصير الثورة الروسية بأسرها، بمصير الثورة الاشتراكية في أوروبا. فهذه الأخيرة ستلقي في ميزان الصراع الطبقي في العالم بأسره، وزنها السياسي والدولي الهائل الذي سيقدم للثورة الروسية مساعدة آنية خلال إنجازها لثورتها البورجوازية».

أن يكرر تروتسكي هذه الأقوال عام 1919 فإن ذلك يمثل انعطافاً نحو الانهزامية إذ ليس هناك «أي شك» حسب رأيه، بأن طبقة العمال الروسية «ستكون عاجزة عن الاحتفاظ بسلطتها» ومن المؤكد أنها «ستسحق حتماً» إذا لم تنتصر الثورة الاشتراكية في أوروبا. وتترافق هذه الموضوعة الاستسلامية مع دعوة مغامرة إلى «تصدير الثورة»:

«ينبغي» على البروليتاريا الروسية، بمبادرتها الخاصة أن تقود الثورة في الأراضي الأوربية. «ستنطلق الثورة الروسية مقتحمة أوروبا الرأسمالية العجوز».

ولكي يظهر تروتسكي إلى أي حد كان حريصاً على تصوراته المعادية للينينية، نشر في عام 1922 طبعة جديدة لمؤلفه الصادر عام 1906، وأثراه بمقدمة يؤكد فيها صحة وجهات نظره السياسية السابقة، وذلك بعد خمس سنوات من السلطة الاشتراكية، وقد أعلن تروتسكي:

«في الفترة الواقعة بين 9 كانون الثاني وبين إضرابات أوكتوبر عام 1905، تشكلت لدى المؤلف، التصورات حول الطابع الذي سيتخذه التطور الثوري في روسيا، هذه التصورات التي اتخذت تسمية نظرية «الثورة الدائمة». (...) فلكي تضمن الطليعة البروليتارية النصر سيكون عليها، منذ الأيام الأولى لهيمنتها أن تشن أشد الهجمات ضراوة، ليس على الملكية الإقطاعية وحسب، بل وعلى الملكية البرجوازية أيضاً. وما إن تقوم بذلك حتى تدخل في تصادمات عدائية،

ليس فقط مع سائر الحكومات البرجوازية، التي كانت ستدعم كفاحها الثوري ضد الإقطاع، في البداية، ولكن أيضاً مع الجماهير الغفيرة من الفلاحين أيضاً التي كانت مؤازرتها قد دفعت هذه الطليعة إلى السلطة. إن التناقضات التي تكتنف وضع الحكومة العمالية في بلد متخلف، أغلبية سكانه الساحقة من الفلاحين، يمكن أن تجد حلها الوحيد، على المستوى العالمي، في حلبة الثورة البروليتارية العالمية».

ثم يجيب تروتسكي في مقدمته لطبعة عام 1922 لكتابه برنامج السلام، على تساؤل أولئك الذين يرون فيما يقوله تروتسكي تناقضاً مع الواقع الذي تواصل دكتاتورية البروليتاريا ترسيخه في روسيا منذ خمس سنوات:

«إن الواقع الذي ترسخ فيه حكومة عمالية أقدامها في بلد واحد، بلد متخلف فوق ذلك، ضد العالم بأسره ليشهد على القوة الجبارة للبروليتاريا، إن تلك القوة التي هي في البلدان الأخرى أكثر تطوراً، وأشد تحضراً، سيكون في وسعها بالتأكيد أن تجترح المعجزات. ولكننا إن كنا كدولة قد حافظنا على وجودنا سياسياً وعسكرياً إلا أننا لم نتوصل بعد إلى خلق مجتمع اشتراكي. بل ولم نصبح قريبين منه. فالمفاوضات التجارية مع الدول البرجوازية، والتنازلات التي نقوم بها، ومؤتمر جنيف، إلخ. هي دلائل واضحة جداً على استحالة بناء اشتراكية معزولة ضمن نطاق دولة قومية واحدة. إن النهوض الحقيقي للاقتصاد الاشتراكي في روسيا، لن يكون ممكناً إلا بعد انتصار البروليتاريا في البلدان الأوربية الرئيسية.»

وهذا يعني بجلاء: أن العمال الروس ليس بمقدورهم اجتراح المعجزات المتمثلة في تشييد البنيان الاشتراكي. أما حين يطل اليوم الذي يهب فيه العمال البلجيكيون والهولنديون واللوكسمبورغيون، والألمان، فإن العالم سيشهد المعجزات الحقيقية. لقد علق تروتسكي كل آماله على بروليتاريا البلدان الأكثر تقدماً والأعرق «تمدناً» ولكنه قلما علق أهمية على واقع أن البروليتاريا الروسية وحدها قد برهنت عن كونها في الواقع، ثورية حتى النهاية، بينما كانت الموجة الثورية المتدفقة منذ عام 1918 في أوروبا الغربية، تنتمي، في جوهرها، إلى الماضي.

منذ عام 1902، وعلى نحو متواصل، عارض تروتسكي الاحتمالات والآفاق التي رسمها لينين للثورة الديمقراطية والثورة الاشتراكية في روسيا، وأكد، قبل وفاة لينين بالتحديد، بأن دكتاتورية البروليتاريا لا بد لها من أن تدخل في

صدام مع جماهير الفلاحين. وأن الاشتراكية السوفييتية، بالتالي، لن تحصل على السلام خارج الثورة الظافرة في البلدان الأكثر تمدناً. وحاول تروتسكي أن يحل برنامجه الخاص محل برنامج لينين.

من خلال لغو يساري حول «الثورة العالمية» استعاد تروتسكي فكرته الأصلية المنشفية، والمتمثلة في استحالة بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي. لقد كان المناشفة يعلنون على الملأ بأنه، لا الجماهير، ولا الشروط الموضوعية كانت ناضجة لبناء الاشتراكية، أما تروتسكي فقال، بأنه لا بد للبروليتاريا، من جهة كونها طبقة متميزة، ولجماهير الفلاحين ذوي النزعة الفردية، من الدخول في صدام حتمي. ومن دون الدعم الخارجي، من قبل ثورة أوربية ظافرة ستكون طبقة العمال السوفييتية عاجزة عن بناء الاشتراكية. وبهذا الاستخلاص الذي توصل إليه تروتسكي فقد التحق برفاق شبابه، المناشفة.

في عام 1923، وفي خضم صراعه للإمساك بزمام السلطة في الحزب البلشفي، شنّ تروتسكي هجومه الثاني. فقد سعى إلى إبعاد الكوادر الحزبية القديمة ليحلّ محلها كوادر من الشباب، على أمل أن يحركها ويتلاعب بها، استعداداً منه للاستيلاء على زمام الأمور في قيادة الحزب، وعاد تروتسكي إلى تصوراته السابقة المضادة للينينية حول الحزب والتي كان قد طورها عام 1904. عاد ينبشها من جديد كلمة كلمة تقريباً.

فمنذ أصدر كتابه المعنون: «مهامنا السياسية» المنشور عام 1904 وحتى كراسه «مسارنا الجديد» تطالعنا نفس الروح العدائية تجاه المبادئ التي حددها لينين لبناء الحزب.

وهذا يُظهر بوضوح مدى تأصل التصورات البرجوازية الصغيرة لدى تروتسكي.

عام 1904 عارض تروتسكي بحدة لا مثيل لها التصور اللينيني عن الحزب فوصف لينين بـ«الانشقاقي المتعصب» وبـ«الثوري البرجوازي الديمقراطي» بـ«المهووس بالتنظيم» وبنصير «نظام الثكنة» ونعته بـ«الحقارة التنظيمية» وبـ«الدكتاتور الذي يريد أن يحل نفسه محل الحزب» وبـ«الدكتاتور الطامح لإنشاء دكتاتورية فوق الطبقة العاملة» والذي «يرى في طرح أي أفكار تخالف أفكاره ظاهرة مرضية». سيلاحظ القارئ بأن كل هذه التخرصات الحاقدة لم تكن موجهة إلى ستالين البغيض، بل إلى المعلم الذي كان معبوداً من الجميع، لينين. وهذا الكتاب الذي نشره تروتسكي عام 1904 يشكل مادة أساسية لفهم

إيديولوجيته. فقد أظهر نفسه فيه كبرجوازي فردي مغرق في الفردية، أما سائر الافتراءات والشتائم التي صبها خلال أكثر من خمس وعشرين سنة فوق رأس ستالين، فقد كان قذفها في وجه لينين.

ثابر تروتسكي على تصوير ستالين كدكتاتور متسلط على الحزب. وحين أسس لينين الحزب البلشفي اتهمه تروتسكي بأنه يقيم «ثيوقراطية أرثوذكسية» و«مركزية استبدادية آسيوية».

لم يتوقف تروتسكي عن التأكيد بأن ستالين يتبنى موقفاً براغماتياً من الماركسية، بعد أن قزّم الماركسية إلى صيغ جامدة كلياً، وفي عام 1904 وجه تروتسكي نقداً لكتاب لينين «خطوة إلى الأمام...»، كتب آنذاك:

«ما من أحد يمكنه أن يظهر استخفافاً بتراث البروليتاريا الإيديولوجي أكثر مما قام به الرفيق لينين. فالماركسية، بالنسبة إليه، ليست منهجاً للتحليل العلمي»

وفي كتابه المنشور عام 1904 ابتكر تروتسكي مصطلح «الاستبدالية Substitutionnisme» كي يهاجم الحزب ذا الطراز اللينيني وقيادة هذا الحزب:

«مجموعة الثوريين المحترفين.. تتصرف بديلاً عن البروليتاريا.. المنظمة بدلاً عن الحزب، واللجنة المركزية بدلاً عن المنظمة، وأخيراً الدكتاتور بدلاً عن اللجنة المركزية»

وفي عام 1923، هاجم تروتسكي قيادة الحزب البلشفي وستالين، مستخدماً، في الغالب، نفس الألفاظ التي استخدمها ضد لينين.

«اعتاد الجيل القديم، ولا يزال على التفكير واتخاذ القرار نيابة عن الحزب» وأشار تروتسكي إلى «نزوع لدى الجهاز القيادي إلى التفكير واتخاذ القرار نيابة عن التنظيم بأسره».

عام 1904 هاجم تروتسكي التصور اللينيني عن الحزب، مؤكداً بأن هذا التصور «يفصل النشاط الذهني عن النشاط العملي». «ثمة مركز، وما دونه هناك منفذون منضبطون يؤدون مهمات آلية». وفي تصوره البرجوازي الصغير، يرفض تروتسكي المراتبية، والمستويات المتمايزة داخل الحزب، مثلما يرفض الانضباط الحزبي. أما مثله الأعلى فكان يتجسد في «الشخصية السياسية الكلية التي تفرض احترام إرادتها على كافة «المراكز»، وبكل الأشكال الممكنة». ذلكم هو المبدأ الأساسي للفردوية وللفوضوية.

وقد عاود تروتسكي هذا النقد عام 1923. قال:

«يظهر الجهاز ميلاً إلى جعل بضعة آلاف من الرفاق، يشكلون الكادرات القيادية ينوبون عن بقية جماهير الحزب، التي هي بالنسبة لهؤلاء القادة ليست أكثر من أداة عمل».

عام 1904 اتهم تروتسكي لينين بأنه بيروقراطي يقلص الحزب إلى منظمة ثورية بورجوازية. فلينين يعمى أمام «المنطق البيروقراطي لهذه الخطة التنظيمية أو تلك». غير أن «فشل الولع التنظيمي لا مناص منه».

«إن زعيم الجناح الرجعي في حزبنا، الرفيق لينين يعطي للاشتراكية الديمقراطية تعريفاً يمثل اغتيالاً نظرياً للطابع الطبقي في حزبنا» «لقد صاغ لينين اتجاهاً، بدأ يبرز في حزبنا، هو الاتجاه الثوري البرجوازي».

وفي عام 1923 ساق تروتسكي ضد ستالين التهمة ذاتها، ولكن بلهجة مخففة أكثر: «إن بقرطة الحزب تهدد بتوليد انزلاق أكثر أو أقل نحو الانتهازية لدى الحرس القديم».

في عام 1904 كان البيروقراطي لينين متهماً «بإرهاب الحزب».

«تتمثل مهمة الإيسكرا (صحيفة لينين) بممارسة الإرهاب النظري على الإنتلجنسيا أما الاشتراكيون الديمقراطيون الذين تربّوا في هذه المدرسة فإن الأرثوذكسية هي أقرب ما تكون إلى تلك «الحقيقة» المطلقة التي يتفوه بها اليعقوبيون (الثوريون البرجوازيون). فالحقيقة الأرثوذكسية تحيط بكل شيء. ومن يعارض هذه الحقيقة ينبغي أن يُلقى به خارج صفوف الحزب. ومن يشك بها يوشك أن يُلقى به أيضاً».

وفي عام 1923 دعا تروتسكي إلى «استبدال البيروقراطيين المحنطين» من أجل أن لا يعود أي شخص يجرؤ، بعد ذلك، على ممارسة الإرهاب على الحزب.

ولكي نقف على بيّنة، لنضف بأن كراس « مسارنا الجديد» يظهر لنا تروتسكي أيضاً وصولياً يفتقر إلى المبادئ وإلى الذمة. ففي عام 1923 عزم تروتسكي، بغية الإمساك بزمام الأمور في الحزب البلشفي، على «تصفية» الحرس البلشفي القديم، الذي كان على اطلاع وافٍ على ماضيه كمناوئ عنيد لأفكار لينين. غير أنه ما من بلشفي قديم كان مستعداً لأن يتخلى عن اللينينية ليلتحق بالتروتسكية. كان تكتيك تروتسكي يتمثل في الإعلان عن «فساد» البلاشفة القدامى. ثم مداهنة الشباب الذين كانوا يجهلون ماضيه المعادي للينينية. وتحت شعار «دمقرطة» الحزب، أراد تروتسكي أن يضع في القيادة شباب البلاشفة الذين يؤيدونه.

بعد عشر سنوات، وحين يكشف رجال مثل زينوفييف وكامينيف عن معدنهم الانتهازي بكل وضوح، سيعلن تروتسكي بأن هؤلاء الرفاق يمثلون «الحرس البلشفي القديم» الذي يرزح تحت عسف ستالين. وسيضع يده في يد هؤلاء الانتهازيين متذرعاً بالماضي المجيد «للحرس القديم.»

في غضون السنوات 1924ـ 1926 كان نجم تروتسكي يأفل باستمرار داخل الحزب فجعل يشنّ هجماته بمنتهى الضراوة على قيادة الحزب.

وبانطلاقه من فكرة استحالة الاشتراكية في بلد واحد، استخلص تروتسكي بأن السياسة التي ينادي بها بوخارين في عامي 1925 ـ 1926، وكان بوخارين عدوه اللدود في تلك الفترة، كانت تجسد مصالح الكولاك والبرجوازيين الجدد، الملقبين «نيب مان» (رجال النيب). يقول تروتسكي: «إن السلطة تتجه إلى أن تصبح سلطة الكولاك. وتنحو نحو «الانحطاط» الشامل». وبما أن السلطة كانت تنحدر نحو الانحطاط، وتتحول إلى سلطة الكولاك، فقد أعطى تروتسكي لنفسه الحق في خلق انقسام داخل الحزب، وفي ممارسة عمل سري في وسطه.

خلال خمس سنوات ثار جدل صاخب ومفتوح حول الكثير من الموضوعات. وحينما أغلق باب النقاش عام 1927، بعد أن صوت الحزب على ذلك، فإن أولئك الذين كانوا يدافعون عن موضوع استحالة بناء الاشتراكية في بلد واحد، ويؤيدون النشاطات الانقسامية لتروتسكي حصلوا على 1ـ 1.25٪ من الأصوات في مؤتمر الحزب. وفُصل تروتسكي من صفوف الحزب، ثم أُبعد إلى سيبيريا. وأخيراً جرى إبعاده عن الاتحاد السوفييتي.



الفصل
الثالث

التصنيع الاشتراكي

بعد الخروج من جحيم الحرب الأهلية، ورث البلاشفة بلداً حاق به الدمار كلياً. وحلّ بالصناعة، بعد ثماني سنوات من العمليات العسكرية خراب شامل. كانت البنوك والمؤسسات الكبرى قد جرى تأميمها، واستطاع الاتحاد السوفييتي، من خلال جهد استثنائي أن يوقف الآلة الصناعية المتهالكة على قدميها من جديد.

في عام 1928 تجاوز إنتاج الحديد والفحم والإسمنت وصناعة النسيج والأدوات الآلية، المستوى الذي كان عليه ما قبل الحرب، ذلك أن الاتحاد السوفييتي قد طرح على نفسه آنذاك تحدياً بدا من المستحيل النهوض به، ألا وهو، القيام، عبر خطة خمسية بإرساء قواعد صناعة حديثة بالاعتماد، أساساً، على الطاقات الداخلية في البلاد. وبغية إنجاز الخطة بنجاح، تجندت البلاد بأسرها، كما لو أنها في حرب، للانطلاق في سير حثيث نحو التصنيع.

لقد مثّل التصنيع الاشتراكي العتلة الرئيسية في بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي. وصار كل شيء منوطاً بنجاحه.

وكان على التصنيع أن يضع الأسس المادية للاشتراكية.

فالتصنيع سيتيح تحويل الزراعة جذرياً على قاعدة المكننة والتقنية الحديثة.

وهو الذي سيدشن مستقبل الوفرة المادية والثقافية للشغيلة.

وهو الذي سيقدم الوسائل الكفيلة بنجاح ثورة ثقافية حقيقية.

وهو الذي سيخلق البنية التحتية لدولة حديثة، قوية.

وهو وحده، الذي سيمكنه أن يقدم للشعب العامل الأسلحة الحديثة من أجل الدفاع عن استقلاله ضد قوى الامبريالية العدوانية.

في 4 شباط من عام 1931 أوضح ستالين لماذا كان على البلاد أن تحافظ على إيقاعاتها البالغة السرعة من أجل عملية التصنيع. قال ستالين:

«هل تريدون أن تحيق الهزيمة بوطنكم الاشتراكي، ويفقد استقلاله؟ لقد تأخرنا خمسين إلى مئة سنة عن البلدان المتقدمة. وينبغي علينا قطع هذه المسافة خلال عشر سنوات. فإما أن ننجز هذه المهمة، أو أن ننسحق لا محالة»

خلال الأعوام الثلاثين من حكم ستالين حاول الفاشيون الألمان، تماماً مثلما حاول الإمبرياليون الفرنسيون والإنكليز، أن يصوروا بألوان فاقعة «الإرهاب» الذي رافق «التصنيع القسري». كان الجميع يجترّون حقدهم وظمأهم إلى الثأر لهزيمتهم في أعوام 1918ـ 1921، حين تدخلوا عسكرياً في الاتحاد السوفييتي. وكان الجميع يتوقون إلى رؤية الاتحاد السوفييتي هشاً يسهل تحطيمه.

وبمطالبته العمال ببذل جهود استثنائية، كان ستالين يضع نصب عينيه دائماً شبح التهديد الرهيب بالحرب، وبالعدوان الإمبريالي الذي كان يحوم فوق البلد الاشتراكي الأول.

أُطلق على الجهد الجبار الذي بُذل في سبيل تصنيع البلاد خلال أعوام 1928 ـ 1932 تسمية: «ثورة ستالين الصناعية». وهو عنوان الكتاب المكرس لتلك الفترة من تأليف هيرواكي كوروميا، الأستاذ في جامعة إنديانا. وقد جرى الحديث أيضاً عن «الثورة الثانية» أو «الثورة من فوق». والواقع فإن الثوريين الأكثر وعياً والأزخر طاقة كانوا يشكلون قمة هرم الدولة. ومن موقعهم هذا انبروا إلى إيقاظ وتحشيد وتنظيم عشرات الملايين من العمال ـــ الفلاحين الذين ظلوا حتى ذلك الوقت رازحين في غياهب الأمية، والظلامية الدينية الأرثوذكسية الخرافية. ويمكن إجمال الموضوعة المركزية لكتاب كوروميا على النحو التالي: أفلح ستالين في تعبئة العمال والشغيلة في سبيل التصنيع السريع، مصوراً هذا التصنيع على أنه حرب تخوضها طبقة المقهورين ضد الطبقات المستغلة القديمة، وضد المخربين الذين يبرزون داخل صفوفهم.

ولكي يكون الحزب قادراً على قيادة هذا المجهود الجبار المنصب على عملية التصنيع، كان عليه أن يوسع صفوفه. وقد قفز عدد المنتسبين إلى الحزب من 000 1300 عام 1928 إلى 000 1670 عضو عام 1930. وخلال الفترة ذاتها زادت نسبة الأعضاء من ذوي الأصول العمالية من 57٪ إلى 65٪. وكانت نسبة 80٪ من المنتسبين الجدد هم من العمال الصداميين. وكان هذا يعني بصورة عامة، عمالاً من الشباب نسبياً، تلقوا تأهيلاً تقنياً، وكانوا من نشطاء

الكومسمول، من الذين تميزوا كعمال مدربين، ساهموا في عقلنة الإنتاج، وفي تحقيق إنتاجية عالية. وهذا يدحض بالتأكيد أكذوبة «بقرطة» حزب ستالين، فقد عزز الحزب طابعه العمالي وطاقته النضالية.

رافقت عملية التصنيع انقلابات هائلة. فقد تمّ انتزاع ملايين الفلاحين الأميين من ظلمات العصور الوسطى، ودُفع بهم إلى العالم الآلي الحديث.

«في نهاية عام 1932 تضاعفت قوة العمل الصناعي قياساً إلى عام 1928، وبلغت ستة ملايين عامل.»

في الفترة نفسها، من السنوات الأربع انتقل إلى السكن في المدن، من مجمل القطاعات الإنتاجية 12.5 مليون شخص. وكان 8.5 مليون منهم فلاحين سابقين.

البطولة والحماس

يطيب للبرجوازية، مدفوعة بكراهيتها الشديدة للاشتراكية أن تشدد على الطابع «القسري» للتصنيع. غير أن أولئك الذين عايشوا أو اطلعوا على عملية التصنيع الاشتراكي، على مقربة من جماهير العمال نوّهوا بالسمات التالية لهذه العملية: البطولة في العمل، والحماس، والروح القتالية.

خلال الخطة الخمسية الأولى، كانت آنا لويز سترونج، وهي صحفية أمريكية شابة، تعمل محررة في الصحيفة السوفييتية: أنباء موسكو، وقد جابت البلاد من أقصاها إلى أقصاها. وحين شنّ خروشوف عام 1956 هجومه الغادر على ستالين، حرصت آنا على استذكار بعض الوقائع الهامة التي جرت إبان الخطة الخمسية الأولى بصورة خاصة، وأصدرت حكمها التالي:

«طوال مسيرة التاريخ لم يتم إنجاز مثل هذا التقدم بمثل هذه السرعة».

في عام 1929، وهو عام انطلاق الخطة الخمسية الأولى، بلغ حماس الجماهير العمالية مبلغاً دفع بأحد الاختصاصيين القدماء العاملين في روسيا ما قبل الثورة. والذي كان قد نفث حقداً أسود ضد البلاشفة عام 1918 إلى الاعتراف بأن البلد لم يعد هو البلد الذي كان يعرفه سابقاً. لقد عاش الدكتور إميل جوزيف ديللون في روسيا منذ عام 1877 وحتى عام 1914، وعلّم في العديد من الجامعات الروسية. وحين غادر تلك البلاد عام 1918 كتب يقول:

«في حركة البلاشفة، ليس ثمة ظل لأية فكرة بناءة أو لثورة اشتراكية. فالبلشفية ليست سوى الوجه الآخر للقيصرية. لقد فرضت على الرأسماليين معاملة هي من السوء بحيث لا تختلف عن المعاملة التي كان يفرضها القيصر على أقنانه».

غير أن ديللون حين عاد إلى روسيا بعد عشر سنوات لم يصدق ما رأت عيناه. وكتب:

«في كل مكان، كان الشعب يفكر، يعملٍ، ينظِم، يحقق ابتكارات علمية وصناعية، ما من أحد قط شهد بعينيه شيئاً مماثلاً. شيئاً يقترب من المعجزة، بتنوعه، وزخمه، وصلابته، وبالإصرار على الوصول به إلى مثله العليا. لقد دكت الحماسة الثورية حواجز هائلة. وصهرت في بوتقة شعب واحد كبير، عناصر بشرية غير متجانسة. ولا يعني هذا، في الواقع، أمة. بالمعنى الذي كان لها في العالم القديم، وإنما شعب قوي، متلاحم من خلال حماسة شبه دينية. لقد أنجز البلاشفة الكثير مما وعدوا به. بل وأكثر مما كان يبدو ممكناً إنجازه، وذلك من خلال تنظيم إنساني، أياً كان شأنه، وعبر شروط صعبة توجب على البلاشفة أن يعملوا في ظلها. لقد عبؤوا أكثر من 150 مليون من الكائنات البشرية الغارقة في الخمول والبلادة، الموتى الأحياء. ونفخوا فيهم روحاً جديدة».

أما آنا لويز سترونج فتعود إلى استذكار معجزات التصنيع، وتصف كيف تحققت تلك المعجزات:

«كان مصنع الجرارات في خاركوف يعاني من مشكلة، تتمثل في أنه بُني خارج نطاق الخطة الخمسية. وفي (عام 1929) شرع الفلاحون ينخرطون بسرعة أكبر في المزارع الجماعية. ولم يكن بالإمكان تلبية حاجتهم من الجرارات. كانت مدينة خاركوف الأوكرانية، بكل فخر، تبني معملها من خارج ما نصت عليه الخطة الخمسية، فقد كان الحديد والآجر والإسمنت وقوة العمل برمتها قد جرى تخصيصها سابقاً لمشاريع الخطة على مدى سنواتها الخمس. ولم يكن بمقدور خاركوف أن تحصل على حديدها (من أجل معمل الجرارات) إلا بدفع بعض مشاريع صناعة الحديد كي تنتج كمية أعلى مما حددته الخطة الخمسية. أما بشأن تغطية النقص في اليد العاملة فقد تطوع عشرات الآلاف من الأشخاص: موظفين، طلاب، معلمين، للعمل خلال أيام عطلهم. وفي كل صباح، عند الساعة السادسة والنصف، يقول السيد راسكين، وهو مهندس أميركي يعمل في مصنع خاركوف، كنا نشهد وصول القطار الخاص، ترفرف

فوقه الرايات والأعلام، وتنطلق منه أصوات الأبواق. في كل يوم كان ينزل من القطار فريق آخر مختلف عن سابقه، ولكنه جذل دوماً. وهكذا، فإن نصف العمل غير الاختصاصي أنجز على يد هؤلاء المتطوعين».

في عام 1929 تسارعت وتيرة التجميع الزراعي، على نحو غير متوقع ولم يكن مصنع الجرارات في خاركوف هو «التصحيح» الوحيد الذي أدخل على الخطة. فقد كان مصنع بوتيلوف في لينينغراد قد أنتج 1115 جراراً عام 1927 و3050 جراراً عام 1928. وبعد نقاشات حامية داخل المصنع، تم وضع خطة جديدة يُنتج بموجبها 10 آلاف جرار في سنة 1930. وقد أنتج المصنع بالفعل 8935 جرارا.

تأثرت معجزة التصنيع، خلال عقد من الزمن، في الواقع، بالتحولات الجذرية التي حدثت في الأرياف المتخلفة، وفوق ذلك، بتفاقم أخطار الحرب التي كانت تلوح في الأفق.

كان مصنع ماغنيتو غورسك لإنتاج الحديد مصمماً لإنتاج 656000 طن من الحديد. وفي عام 1930 أقرّت خطة ترمي إلى إنتاج 000 2.500 طن. ولكن سرعان ما جرى مراجعة خطط إنتاج الفولاذ من جديد، بغية زيادة إنتاجه. وفي عام 1931، احتل الجيش الياباني منشوريا، وهدد الحدود السيبيرية. وفي السنة التي تلت، وصلت النازية إلى السلطة في برلين معلنة علناً بأن أوكرانيا هي جزء من أراضيها. يستذكر جون سكوت، المهندس الأمريكي الذي كان يعمل في ماغنيتو غورسك، الجهود البطولية للعمال، وأهميتها الحاسمة في الدفاع عن الاتحاد السوفييتي. يقول جون سكوت:

«في عام 1942، أصبحت منطقة الأورال الصناعية قلب المقاومة السوفييتية النابض. فقد زوّدت مناجمها، ومصانعها، ومستودعاتها، وحقولها وغاباتها الجيش الأحمر بكميات هائلة من العتاد الحربي، وبكل المنتجات الضرورية لصيانة فرق ستالين العسكرية الآلية. ففي القلب من روسيا الشاسعة الأبعاد، وفي مربع مساحته 800 كم كانت تتوفر بكثافة ثروات باطنية هائلة من الحديد والفحم والنحاس والألمونيوم والرصاص والأميانت والمنغنيز والبوتاس والذهب والفضة والبلاتين والزنك والبترول. كانت هذه الكنوز، قبل عام 1930 شبه مهملة وغير مستثمرة. وخلال السنوات العشر التالية كانت المصانع تشاد فوقها. ثم ما لبثت أن دارت عجلة إنتاجها. كان كل ذلك يدين لحكمة جوزيف ستالين السياسية، ولصلابته ودأبه. فقد حطم كل ما كان يعوق دربه

كي ينجز برنامجه، بالرغم من النفقات الخيالية، والصعوبات العارضة التي فاقت التصور». لقد صمم ستالين على أن يخلق، قبل كل شيء قوة صناعية ثقيلة. وخلق تلك الصناعة في الأورال وسيبيريا، على بعد آلاف الكيلومترات من أقرب حدود للاتحاد السوفييتي، وخارج متناول أي عدو. من جهة أخرى لم يعد مقبولاً لروسيا أن تكون تابعة للأجنبي، فيما يتعلق بالتزود الكامل تقريباً من مادة الكاوتشوك، أو المنتجات الكيماوية، أو من الأدوات والجرارات. الخ. فقد كان ينبغي عليها أن تنتج كل ذلك بنفسها، وأن تؤمن، على هذا النحو استقلالها التقني والعسكري.

لم يكن بوخارين، وغيره من البلاشفة القدامى الآخرين يرون هذا الرأي فقد كانوا يميلون إلى تلبية الحاجات التموينية الشعبية، قبل الانخراط في برنامج التصنيع الواسع الأبعاد. وقد طوى الصمت والنسيان هؤلاء المنشقين، واحداً بعد الآخر، بعد أن اكتسحت وجهات نظر ستالين كل آرائهم. في عام 1932 تم الاحتفاظ بنسبة 50٪ من الدخل القومي الروسي من أجل تغطية النفقات الباهظة للتصنيع. لقد كان الجهد التمويلي استثنائياً. فالولايات المتحدة لم تستثمر في مشاريعها الصناعية الضخمة قبل سبعين عاماً سوى 12٪ من دخلها القومي السنوي، كما أن أوروبا زوّدت مشاريعها بجزء من رأسمالها. في حين أن الصين وإيرلندا وبولونيا الخ كانت تصدر اليد العاملة. وقد نهضت الصناعة السوفييتية من دون اللجوء إلى رأس المال الأجنبي تقريباً».

تقبلت أغلبية الطبقة العاملة بإيمان ووعي عميقين، الحياة الشاقة والتضحيات الجسيمة في سبيل التصنيع. ولكنهم كانوا يكدحون من أجل قضيتهم الخاصة. من أجل مستقبل ملؤه الكرامة والحرية لكافة الشغيلة. وقد علق هيرواكي كوروميا على ذلك قائلاً:

«ليس ثمة مفارقة يمكن أن تعادل ما نشهده هنا. فالتراكم الاضطراري لم يكن مبعثاً للفاقة والاضطرابات وحسب، بل كان أيضاً ينبوعاً للبطولة السوفييتية. وخلال السنوات الثلاثين وجدت الشبيبة السوفييتية معنى البطولة في العمل الدؤوب في درب البناء. وفي داخل المصانع، على غرار ما حدث في ماغنيتو غورسك، وكوزنيتسك».

«كان التصنيع السريع الذي نصت عليه الخطة الخمسية الأولى تجسيداً للغاية الجليلة والدرامية المتمثلة في بناء مجتمع جديد. وفيما كان الغرب غارقاً في الركود والبطالة الواسعة، كان السير على طريق التصنيع في الاتحاد

السوفييتي يفجّـر باستمرار الجهـود البطولية الرومانسـية، الحماسـية، وفـوق الإنسانية. إن كلمة الحماسة، مثلها مثل غيرهـا مـن الكلمـات لتصبـح سـخيفة ذاوية من فرط استعمالها في هذا المقام. هكذا كتب إيليا اهر نبورغ، ومع ذلـك، فما من كلمة أخرى تفي بالمرام من أجل تصوير الأيام الأولى للخطـة الخمسـية. إنها الحماسة، دون قيد أو شرط. الحماسة التي كانت تلهـم الشباب اجـتراح أفعال يومية شجاعة. لا أفعال استعراضية». وحسب شاهد معـاصر آخـر، فقـد «كانت تلك الأيـام حقـاً فـترة رومانتيكيـة، مفعمـة بالنشـوة (...) كـان النـاس يخلقون بأيديهم الخاصة، ما كان يبدو في السابق حلماً بعيد المنال، وكانوا على قناعة أكيدة بأن تلك الخطة الحالمة كانت شيئاً يمكن تحقيقه بالتأكيد».

الحرب الطبقية

كشف لنا كورميا كيف صور ستالين التصنيع لأعـين الجميـع كمـا لـو كـان حرباً طبقية يخوضها المضطهدون ضد الطبقات الاستغلالية القديمة.

والحق أن هذه الفكرة هي عين الصواب. ولكن لفرط ما كُتب في الغرب، من مؤلفات أدبية وتاريخية حول تلك الفترة، فقد دُفعنا دفعاً إلى التماهي مع أولئك الذيـن كـانوا تحـت رحمـة سـياط القمـع إبـان الحـرب الطبقيـة الـتي سُـميت بالتصنيع، والتجميع الزراعي، لقد علمونـا بـأن الاضطهـاد «لاإنسـاني دومـاً». وإنه من غير الجائز لأمة متحضرة أن تنزل الأذى بفئـة اجتماعيـة في داخلهـا. سواء أكانت هذه الفئة تستغل غيرها من الفئات، أو متهمة بأنها كذلك.

ماذا في وسعنا أن نرد على هذه الحجة التي تتمظهر، زوراً وبهتاناً، بمظهر إنساني؟

تُرى، كيف أُنجز التصنيع في «العالم المتحضر»؟ كيف خلق مصرفيونا وقادة صناعتنا اللندنيون والباريسيون قاعدتهم الصناعية؟ هل كان لتصنيعهم أن يكـون ممكناً لولا سلب الذهب والفضة من ملـوك الهنـود الحمـر؟ ذلـك السـلب الـذي رافقه إزهاق أرواح ستين مليوناً من هنود أمريكا. هل كـان لتصنيعهـم أن يكـون ممكناً من دون المجازر الدموية الرهيبة التي مارسوها في أفريقيا؟ والتي سميت، حينها، بتجارة العبيد؟ إن خبراء اليونسكو يقدّرون عدد الذين فقدوا في إفريقيـا بـ210 مليون شخص، قُتل بعضهم أثنـاء غـزو البيـض، ومـات بعضهـم خـلال الطريق، وبيع الباقون عبيداً. وهل كان لتصنيعنا أن يحدث من دون الاسـتعمار الذي جعل شعوب الأرض بأسرها عبيداً فوق أرضهم الأم؟

وهؤلاء الذين صنّعوا تلك الرقعة الصغيرة من العالم، المسماة أوربا بمساعدة ملايين الضحايا من «السكان الأصليين» في كل بقاع العالم يقولون لنا بأن القمع البلشفي ضد الطبقة المالكة كان بغيضاً لا يطاق. هؤلاء الذين لم يصنعوا بلدانهم إلا عبر طرد ملايين الفلاحين من أرضهم بمساعدة البنادق والذين استنزفوا النساء والأطفال من خلال يوم العمل الذي يستمر أربع عشرة ساعة، والذين يرغمون العمال على القيام بأشق الأعمال تحت ضغط البطالة والمجاعة. هؤلاء، يتفجرون سخطاً، على صفحات كتبهم ضد التصنيع «القسري» في الاتحاد السوفييتي:

إن كان قد توجب على التصنيع السوفييتي أن يتحقق عبر قمع خمسة بالمائة من الأغنياء والرجعيين، فإن التصنيع الرأسمالي هو وليد الإرهاب الذي مورس من قبل خمسة بالمئة من المتعاملين بالرهون ضد كامل جماهير الشغيلة في بلدهم بالذات، وفي داخل البلدان التي سيطروا عليها.

لقد كان التصنيع في الاتحاد السوفييتي حرباً طبقية ضد الطبقات القديمة المستغلة، التي استخدمت كافة الوسائل كي تحول دون نجاح التجربة الاشتراكية. وأنجزت هذه التجربة من خلال النضالات الشرسة أحياناً. في داخل طبقة العمال ذاتها: ثمة فلاحون أميون انتزعوا من عالمهم التقليدي، ودُفعوا إلى عملية الإنتاج الحديث، محتفظين في أعماقهم بكل أحكامهم المسبقة، وبكل تصوراتهم الرجعية القديمة. وثمة كولاك، تطوعوا للعمل في مختلف الورش من أجل أن يكرسوا أنفسهم لتخريبها. علاوة على ذلك فإن طبقة العمال نفسها تحمل في داخلها ارتكاسات وردود أفعال من حياتها السابقة، لأنها معتادة على أن تكون مستغلة من قبل رب العمل، ومعتادة على مقاومته، فقد استمرت تمارس نفس الأساليب القديمة في موقعها الجديد، في الوقت الذي أصبح العمال سادة المجتمع.

بهذا الصدد. إليكم شهادة حية للغاية عن الصراع الطبقي داخل المصانع السوفييتية. كتبها مهندس أمريكي هو جون سكوت، عمل خلال سنوات طويلة في ماغنيتو غورسك.

لم يكن سكوت شيوعياً. وهو غالباً ما انتقد النظام البلشفي. ولكنه إذ يروي ما شهده في ذلك المشروع ذي الأهمية الاستراتيجية الذي يمثله مجمع ماغنيتو غورسك يفتح أعيننا على العديد من المشكلات الجوهرية التي واجهت ستالين.

يصف لنا سكوت كيف أن معادياً للثورة كان قد خدم في صفوف جيوش البيض، ولكنه كان يظهر بعد انتصار الثورة دينامية وذكاء، كيف أنه استطاع بسهولة فائقة إظهار نفسه، بصورة عنصر بروليتاري، ثم تسلق المراتب القيادية في الحزب. وتكشف لنا رواية جون سكوت أيضاً، عن أن معظم أنصار الثورة المضادة النشيطين كانوا جواسيس محتملين للقوى الإمبريالية. ولم يكن من السهل إطلاقاً تمييز المعادين للثورة عن البيروقراطيين المفسَدين. وعن «المتسلقين» الذين يسعون إلى حياة سهلة ومرفهة.

يوضح لنا جون سكوت بأن التطهيرات التي حدثت عامي 1937 ـ 1938 في صفوف الحزب والدولة، لم تكن على الإطلاق عملية «سلبية» كما يصورونها في الغرب. بل إنها تمثل، بنحو خاص تعبئة سياسية واسعة للجماهير عززت الشعور المعادي للفاشية لدى العمال، ودفعت بالبيروقراطيين إلى تحسين عملهم، وسمحت بتطوير هام للإنتاج الصناعي. كانت هذه التطهيرات تساهم في إعداد نفسي معمق للجماهير الشعبية في سبيل مقاومة التدخل الإمبريالي القادم.

إليكم شهادة جون سكوت حول مجمع ماغنيتو غورسك:

«كان شفشنكو مديراً لمعامل الغاز بعمالها الألفين، عام 1936. كان رجلاً فظاً، حيوياً متغطرساً جداً. وكان في الغالب قاسياً ومبتذلاً، لم يكن شفشنكو مديراً سيئاً، فقد كان العمال يكنون له الاحترام، ويسارعون إلى تلبية طلباته. ولد شفشنكو في قرية أوكرانية صغيرة. وفي عام 1920، حين كانت قوات دينيكين تحتل أوكرانيا تطوع الشاب شفشنكو في صفوف الجندرمة، وكان عمره يومذاك تسعة عشر عاماً، وبعد أن دحرت قوات دينيكين، واستعاد الجيش الأحمر أراضي أوكرانيا دفعت غريزة البقاء شفشنكو إلى أن يتبرأ من ماضيه، ويهاجر إلى جزء آخر من البلاد، ليبدأ العمل في أحد المصانع. وبفضل ما يتمتع به من طاقة وحيوية تحول رجل الجندرمة القديم، والمحرض على ذبح اليهود، بسرعة خارقة، إلى موظف نقابي ذي خصال واعدة بالخير. تظاهر شفشنكو بحماس بروليتاري، فطفق يعمل بصورة جيدة، ولم يكن يتوانى عن استخدام أية وسيلة كي يتفوق في مهنته على حساب رفاقه، إن كان ذلك ضرورياً. ثم انتسب إلى الحزب، وإلى سلك القادة الحمر، وحصل على مواقع هامة مختلفة على رأس النقابات، وأرسل أخيراً عام 1931 إلى ما غينتو غورسك كمعاون لمدير المجمع.

عام 1935 وصل إلى المجمع عامل من مدينة أوكرانية، وروى بعض الوقـائع المتعلقة بنشاط شفشـنكو عـام 1920. وسـارع شفشـنكو إلى رشـوة هـذا العـامل، وتعيينه في موقع جيد في المصنع. غير أن الشائعات حول ماضي شفشنكو كانت قد أخذت طريقها إلى الآذان».

«أقام شفشنكو ذات مساء وليمة فاخرة في ماغنيتو غورسك. وواصل صـاحب الوليمة ومعاونوه تناول أشهى الطعام والشراب، والاحتفال البهيج طوال ليلتهـم وجزءاً من الليلة التالية».

«وجاء يوم، جُرِّد فيه شفشنكو من كافة مناصبه، وبرفقته نصف دزينـة مـن أعوانه المباشرين. وبعد خمسة عشر شهراً، حوكم شفشنكو وأدين، ليمضي بعـد ذلك عشر سنوات من الأشغال الشاقة».

«كان شفشنكو نصف لص، انتهازياً فاقداً للشـرف، عديـم الذمـة. ولم تكـن للقيم التي يحملها أية علاقة مع أولئك الذين يبنون الاشتراكية. مع ذلـك فهـو لم يكن جاسوساً في مصلحة الاستخبارات اليابانية إطلاقاً، مثلما اتهمـه قضاتـه ولم يكن يُضمر أية نوايا إرهابية تجاه الحكومة وقادة الحـزب. وأخـيراً فهـو لم يكن المسبب عن عمد للانفجار الذي حدث (عام 1935، وتسبب في مقتل أربعة عمال)».

«كانت زمرة شفشنكو مؤلفـة مـن حـوالي عشـرين شـخصاً. خضعـوا جميعـاً لأقصى العقوبات. البعض منهم كان من الانتهازيين والمحتالين أيضاً، وآخـرون كانوا، في الحقيقة، من المعادين للثورة. وكانوا يسعون عامدين إلى ممارسـة كـل مـا في وسعهم لتحطيـم قـوة السـوفييتات. ولكـن البعـض الآخـر، قـادهم سـوء طالعهم، بكل بساطة، إلى أن يعملوا تحت إمرة رئيس، كان لا بد أن يجتـذب صواعـق مصلحـة الـ NKVD الـتي سـتضع نهايـة لـه ولأعوانـه. فنيقـولا ميخائيلوفيتش أودكين مثلاً، هـو أحـد زمـلاء شفشـنكو، والابـن البكـر لعائلـة أوكرانية. كان نيقولا يشعر بأن أوكرانيا قد غدت محتلة، وأن أسـيادها الجـدد يقودونها إلى الخراب. وكان يعتقد بأن النظام الرأسمالي هو الأصلح لبلاده مـن النظام الاشتراكي. لقد كان رجلاً مهيـأً، ربمـا، لمساعدة الألمـان علـى «تحريـر أوكرانيا» وقد تلقى، هو أيضاً، عقوبة عشر سنوات بالأشغال الشاقة».

«العديد من هؤلاء، كانوا من البيروقراطيين الذين راحت ترتعد فرائصهـم في فترة التطهيرات، موظفون، ومدراء، من الذيـن لم يكونـوا، مطلقـاً، يصلـون إلى ورشات العمل فيما سبق قبل الساعة العاشرة صباحـاً، صـاروا الآن يصلـون في

الرابعة والنصف فجراً. نادراً ما كانوا يشعرون بالقلق، أو يتشكون من شيء أو يتجشمون صعوبة، في السابق. وصاروا الآن، يقبعون في مواقع عملهم لا يريمون، منذ مطلع الفجر وحتى حلول الليل. وبمزيد من الحميّة والإخلاص شرعوا يبذلون كل ما في وسعهم للسهر على إنجاز الخطة، وعلى الاقتصاد في النفقات وعلى تأمين الراحة والرفاهية لعمالهم وموظفيهم».

وبوجه عام تضاعف الإنتاج ما بين عامي 1938 ــ 1941. وفي نهاية عام 1938 كانت النتائج المشؤومة المباشرة للتطهيرات قد زالت تقريباً. وكانت مصانع ماغنيتو غورسك تنتج أكثر من طاقتها. ففي جميع المصانع، كان كل عامل مُثقلاً بالتوتر الذي كان مخيماً على الاتحاد السوفييتي بكامله، منذ مؤتمر ميونيخ. (جمع المؤتمر رؤساء كافة الدول الإمبريالية، عام 1938). إن الهجوم الرأسمالي على الاتحاد السوفييتي، والذي يجري الإعداد له، بات وشيكا، وهو سينطلق بين لحظة وأخرى، وفي كل مكان، كانت الإذاعة، والصحافة، والمعلمون، والخطباء والنقابات يكررون ذلك. وكانت ميزانية الدفاع الوطني تتضاعف كل عام. وتمّ خزن احتياطات ضخمة من الأسلحة، والآلات، والمحروقات، والمواد الغذائية. وتجاوز عدد أفراد الجيش الأحمر من مليوني رجل عام 1938 إلى ستة أو سبعة ملايين عام 1941. أما مصانع القاطرات, والآليات الميكانيكية في الأورال وفي آسيا الوسطى وسيبيريا فكانت تعمل بوتائر أعلى، وتمتص الفائض الزهيد للإنتاج الذي كان العمال قد بدؤوا في التمتع به ما بين أعوام 1935 و1938، على شكل دراجات، وساعات يدوية، وراديوهات، وشرائح جيدة من لحم الخنزير، أو غيرها من المنتجات الغذائية.

معجزة اقتصادية

خلال معركة التصنيع حقق العاملون السوفييت معجزات اقتصادية انتزعت الإعجاب على الدوام.

لقد أجمل كوروميا بحثه عن التصنيع الستاليني بهذه العبارات:

«وضعت الطفرة التي حققتها ثورة عامي 1928 ــ 1931 حجر الأساس للتوسع الصناعي الجبار الذي حدث خلال الثلاثين عاماً من قيادة ستالين، والذي أنقذ البلاد خلال الحرب العالمية الثانية. ففي نهاية عام 1932 كان الإنتاج الصناعي قد تجاوز الضعفين قياساً إلى عام 1928. وكلما كانت مشاريع الخطة الخمسية الأولى تدخل حيز التشغيل، واحداً بعد الآخر، في حوالي

منتصف عام 1930، كان الإنتــاج الصنـاعي يشـهد توسـعاً خارقـاً. وفي غضـون الأعوام 1934 ـ 1936 كانت البيانات الرسمية تشير إلى زيادة في الإنتاج بمعـدل 88٪ بالنسبة لإجمالي الإنتاج الصناعي. وخـلال عقـد السنوات الممتـد مـا بـين 1927 ـ 1937 كان الإنتاج الصناعي الإجمالي قد ازداد من 18.300 مليون روبـل إلى 95.500 مليون روبل وارتفع إنتاج الفولاذ من 3.3 مليون طن إلى 14.5 مليـون طن، والفحم من 35.4 مليون متر مكعب إى 128 مليـون مـتر مكعـب، والطاقـة الكهربائية من 5.1 مليار كيلواط سـاعي إلى 36.2 مليـار. والماكينـات الآليـة مـن 2.98 وحدة إلى 36.120 وحدة. وحتى إذا طرحنا المبالغة جانبـاً يمكننـا لقـول، بثقة، بأن ما تم إنجازه يبعث على الدوار».

كان لينين قد عبر عن ثقته بقدرة الشعب السوفييتي على بناء الاشتراكية في بلد واحد حين أعلن:

«الشيوعية، هي السلطة السوفييتية، إضافة إلى كهربة البلاد برمّتها»

ضمن هذا المنظور، اقترح لينين عام 1920 خطة عامة لتوليد الكهرباء كانت تنص على بناء 30 محطة كهربائية ذات اسـتطاعة مقدارهـا 1.75 مليـون كيلـو واط وذلك خلال الخمسة عشر عاماً القادمـة، وبفضـل الإرادة الصلبـة لسـتالين والقيادة البلشفية، فإن حجم الطاقــة الكهربائيـة في الاتحـاد السـوفييتي، عـام 1935 كان قد بلغ 4.07 مليون كيلو واط. وهكذا فإن حلم لينين الطموح كان قـد تحقق بنسبة 233٪ على يد ستالين»

ذلك دحض حاسم لكل أولئك المتثاقفين الذين قـرؤوا ذات يـوم، وفي مكـان ما، بأن بناء الاشتراكية في بلد واحد، بلد فلاحي فوق ذلك، هو أمر مستحيل. إن نظرية «استحالة بناء الاشـتراكية في الاتحـاد السـوفييتي» الـتي نـادى بهـا المناشفة والتروتسكيون لم تكن تعبر إلا عن التشاؤم وروح الاستسلام المعششـة في أعماق برجوازية صغيرة بائسـة. وكلمـا كـانت قضيـة الاشـتراكية تتقـدم، كـان حقدهم على الاشتراكية يتنامى في الواقع. فذلك الشيء الذي ما كان له أن يرى النور، لم يكن يفعل شيئاً سوى أن ينصقل ويتجوهر.

يقدّم نمو رأس المال الثـابت مـا بـين أعـوام 1913 ــ 1940، فكـرة واضحـة للغاية عن الجهد الجبار الذي أنجزه الشعب السـوفييتي. فانطلاقـاً مـن المؤشـر 100 في السنة السابقة للحرب العالمية الأولى بلغت رؤوس الأموال الثابتة الموظفة في الصناعة إلى الرقم 136 في لحظة انطلاق الخطــة الخمسـية الأولى عـام 1928. وعشية الحرب العالمية الثانية، أي بعد اثنتي عشرة سنة فـإن المؤشـر كـان قـد بلغ الرقم 1085 نقطة عام 1940 أي أنه كان قد تضاعف ثمانية أضعاف خـلال

اثنتي عشرة سنة. وكان رأس المـال الثـابت الموظـف في الزراعـة قـد تطـور مـن المؤشر 100 إلى 141 نقطة، وذلك بالتحديد، قبل البدء بالتجميع الزراعـي عـام 1928 ليصل إلى المؤشر 333 نقطة عام 1940.

خلال أحد عشر عامـاً، أي مـا بـين عـامي 1930 ـ 1940 عـرف الاتحـاد السوفييتي متوسطاً للنمو في الإنتاج الصناعي بلغ 16.5٪.

وفي أثناء التصنيع تم تكريس الجهـد الأساسـي لخلـق الشـروط الـتي تكفـل الحرية والاستقلال للوطن الاشتراكي. وفي الفترة نفسها أرسى النظام الاشـتراكي قواعد مجتمع الرفاه والازدهار المستقبلي. والواقـع أن الجـزء الأعظـم مـن نمـو العائد الوطني تم تخصيصه في سـبيل تحقيـق الـتراكم. وقلمـا كـان مـن الممكـن التفكير بتحسين مستوى الرفاه المعاشي المباشر. أجل لقـد كـانت حيـاة العمـال والفلاحين عسيرة للغاية.

لقد قفز رأس المال المتراكم من 3.6 مليار روبل عام 1928، وهو ما كان يمثل 14.3٪ من الدخل الوطني. إلى 17.7 مليـار عـام 1932، أي بمعـدل 44.2٪ مـن الدخل الوطني. وبالمقابل، فإن رأس المال المخصص للاسـتهلاك تقلـص قليـلاً، من 23.1 مليار روبـل عـام 1930 إلى 22.3 مليـار بعـد عـامين. وحسـب شـهادة كورميا، فإن الأجور الحقيقية لعمال موسكو، عام 1932 لم تكن تبلغ أكـثر مـن 53٪ من مستواها عام 1928، بينما تضاعف رأس المال الثـابت الصنـاعي عشـر مرات بالقياس إلى عام ما قبل الحرب. ولم يكن مؤشر البناء والمساكن ليبلغ عام 1940 سوى 225 نقطة وكان ذلك يعـني بـأن شـروط السـكن نـادراً مـا شـهدت تحسناً حقيقياً.

من التجـني علـى الحقيقـة القـول بـأن التصنيـع قـد أفضـى إلى «استغلال عسكري ـ إقطاعي للفلاحين» مثلما أكد ذلـك بوخـارين. فـالتصنيع الاشـتراكي الذي ما كان بمقدوره أن يتحقق بالطبع عبر استغلال المستعمرات، تم إنجـازه بفضل التضحيات الـتي بذلهـا جميـع الشـغيلة والعـاملين، وكذلـك الفلاحـون والمثقفون.

هل كان ستالين «خالياً من الإحساس بالمشاق المضنية لحيـاة العمـال؟» لقـد كان ستالين يدرك تمام الإدراك بأنه كان يتوجب أولاً وقبـل كـل شـيء ضمـان بقاء الوطن الاشتراكي، وأناس هذا الوطن، قبـل أن يكـون ممكنـاً طـرح مسـألة التحسين الجوهري والدائم لمستوى الحياة. أكانت المسألة بنـاء المسـاكن؟ ولكـن المعتدين النازيين هدموا وأحرقوا 1710 مدينة وأكثر من 70.000 قريـة وضيعـة، وتركوا 25 مليوناً من السكان من دون مأوى.

في عام 1921، كان الاتحاد السوفييتي بلداً مدمَّراً، وكان استقلاله مهدداً من قبل كافة القوى الامبريالية. وفي غضون عشرين عاماً من الجهود العملاقة شيّد العمال بلداً صار بمستطاعه أن يجابه بصلابة القوة الرأسمالية الأكثر تطوراً في أوربا، أعني ألمانيا الهتلرية. وأن ينصبّ هياج النازيين القدماء والقادمين ضد التصنيع «القسري» وضد «الآلام الممضة المفروضة على الشعب» فإن ذلك مفهوم. ولكن أي شخص عاقل، سواء أكان في الهند أم البرازيل، أم نيجيريا أم مصر يستطيع أن يمنع نفسه من أن يحلم؟ ترى، كم من الآلام قد كابدها أي شعب من شعوب هذه البلدان، منذ الاستقلال. هذه البلدان التي تبلغ نسبة العمال المأجورين فيها 90٪ من سكانها. ومن هو الذي استفاد من هذه الآلام؟ وهل أقبل عمال تلك البلدان، بملء رضاهم، على التضحية، على غرار ما فعل عمال الاتحاد السوفييتي؟ وتضحيات العامل الهندي والبرازيلي والمصري والنيجيري هل أفضت إلى إقامة نظام اقتصادي مستقل قادر على مقاومة الإمبريالية الأكثر وحشية وشراسة. مثلما فعل العامل الروسي في سنوات العشرينات والثلاثينات.

الفصل
الرابع

التجميع الزراعي

شكلت عملية التجميع الزراعي التي بدأت عام 1929 مرحلة استثنائية في الصراعات الطبقية المعقدة بقدر ما هي ضارية. وحسمت هذه العملية مسألة معرفة من ستكون القوة السائدة في الريف: البرجوازية الريفية أم البروليتاريا. لقد دمّر التجميع الزراعي القاعدة الاقتصادية للطبقة البرجوازية الأخيرة في الاتحاد السوفييتي. تلك الطبقة التي كانت تولد دوماً من رحم الإنتاج الصغير، والسوق الحر في الريف: وأنجز التجميع انقلاباً سياسياً واقتصادياً وثقافياً واسع الأبعاد، ووضع جماهير الفلاحين على طريق الاشتراكية.

من تجديد الإنتاج إلى المواجهة الاجتماعية

لكي نفهم عملية التجميع الزراعي لا بد لنا من العودة إلى الوضع السائد في الريف خلال أعوام العشرينات.

بدءاً من عام 1928، كان البلاشفة قد ركزوا جهودهم على تحقيق الهدف الرئيسي ألا وهو: إعادة تشغيل عجلة الصناعة على قاعدة اشتراكية.

ووضع البلاشفة نصب أعينهم، في الوقت ذاته، إعادة تشكيل قوى الإنتاج في الريف من خلال تطوير الاقتصاد الفردي، والرأسمالي الصغير، باذلين جهدهم في ضبطه وتوجيهه نحو أشكال تعاونية.

تمّ تحقيق هذين الهدفين حوالي عام 1928 وقد سجل ر.ف.دافييه، الأستاذ في جامعة برمنجهام ما يلي:

«فيما بين عامي 1922 ـ 1926 شهدت السياسة الاقتصادية الجديدة بمجملها نجاحاً منقطع النظير. فقد بلغ إنتاج الاقتصاد الفلاحي نفس السوية التي بلغها مجموع الإنتاج الزراعي، بما فيه إنتاج الملكيات العقارية، ما قبل الثورة. وبلغ إنتاج الحبوب المستوى الذي كان له قبل الحرب، على وجه التقريب. وتجاوز إنتاج البطاطا مستواه ما قبل الحرب بنسبة 45٪. وفي عام 1928 تجاوز عدد الحيوانات نسبة 7٪ إلى 10٪ عما كان عليه عام 1914، والمقصود هنا الأبقار والخنازير».

عادت الثورة الاشتراكية، على جماهير الفلاحين بفوائد جمّة. فالفلاحون المحرومون من الأرض كانوا قد تسلموا أرضاً. والأسر العديدة الأفراد صار في وسعها أن تتفرع إلى خلايا أسرية أخرى. في عام 1927 كان هناك 24 إلى 25 مليون أسرة فلاحية. في مقابل 19.5 مليون أسرة عام 1917. أما عدد أفراد الأسرة الواحدة فقد تقلص من 6.1 فرد إلى 5.3. وانخفضت الرسوم المباشرة والإيجارات عما كانت عليه في النظام البائد. وصار الفلاحون يحتفظون أو يستهلكون جزءاً أكبر من محاصيلهم.

«في عام 1927 لم تكن محاصيل الحبوب المخصصة للمدن والجيش والصناعة والتصدير تبلغ سوى 10 مليون طن، في حين أن هذا الرقم كان قد بلغ 18.8 مليون طن وسطياً فيما بين عامي 1909 ـ 1913، وذلك بالنسبة إلى المحصول نفسه في الفترتين، على الأقل».

في الوقت ذاته، شجع البلاشفة الفلاحين على تشكيل كل أنواع التعاونيات، وخلقوا، على سبيل التجريب، الكولخوزات الأولى (المزارع الجماعية). وكان ذلك يعني بالنسبة إلى البلاشفة تحديد الكيفية التي سيقودون فيها الفلاحين على النهج الاشتراكي، من دون أن يحددوا مسبقاً المهلة اللازمة لهذه التجربة، غير أن عناصر الاشتراكية في الريف كانت قليلة جداً عام 1927، بوجه الإجمال، فقد ظل يهيمن على هذا الريف فلاحون يعملون على نحو فردي. وحين حلّ عام 1927 كان 38٪ من الفلاحين قد أفلحوا في التجمع ضمن تعاونيات استهلاكية، غير أن اليد العليا في هذه التعاونيات كانت للفلاحين الأغنياء وقد تلقت هذه التعاونيات 50٪ من التسليفات الزراعية، ووُظف الباقي في مزارع خاصة على النمط الكولاكي، بوجه عام.

ضعف الحزب البلشفي في الريف

لا بد من الإشارة إلى أن الحزب البلشفي لم يكن يتمتع في بداية تجربة البناء الاشتراكي سوى بنزر يسير من القوة في الريف.

عام 1917 كان عدد الفلاحين البلاشفة في الاتحاد السوفييتي بكامله 16.700 عضو. وخلال السنوات الأربع التالية، والتي كانت سنوات الحرب الأهلية، تم تنسيب عدد كبير من شبيبة الفلاحين في صفوف الحزب. فبلغ عددهم عام 1921، 185.300 عضواً كانوا على الأخص، من أبناء الفلاحين الذين انضووا تحت لواء الجيش الأحمر. وحين استتب السلام كان لابد من إجراء فحص دقيق للتصورات السياسية التي يحملها هؤلاء الشباب المقاتلون. وقد نظم لينين أول عملية مراجعة ـ تطهير كتتمّة ضرورية لحملة التعبئة الأولى المكثفة. كان ينبغي تحديد الأعضاء الذين تنطبق عليهم المعايير الحزبية. وقد تم إقصاء 200.000 عضو من أبناء الفلاحين، أي ما نسبته 44٪ من مجموعهم.

في تشرين أول عام 1928 بلغ عدد الأعضاء المرشحين في الحزب البلشفي في الاتحاد السوفييتي بأكمله 1.360.000 عضو ومرشح، كان من بينهم 198000 عضو من الفلاحين والعمال الزراعيين أي ما نسبته 14.5٪ يعيشون في الريف. أو على نحو آخر، عضو واحد لكل 240 فرداً من السكان، و20700 خلية حزبية، أي خلية واحدة لكل أربع قرى. وهذا الرقم يرتدي أهمية أكبر حين نقارنه «بالمتكرسين» لخدمة الرجعية القيصرية، أعني الكهنة الأرثوذكس، ورجال الدين الآخرين، في أوج صولتهم وجولتهم. إذ لم يكونوا يتجاوزون 60.000.

كان الشبان الريفيون يشكلون الاحتياطي الكبير للحزب. وفي عام 1928 كانت منظمة الكومسمول تضم مليون عضو منهم. وكان الجنود الذين قاتلوا في صفوف الجيش الأحمر، إضافة إلى 180.000 من أبناء الفلاحين الذين كانوا ينتسبون كل عام إلى الجيش، حيث يتلقون فيه تربية شيوعية، كان هؤلاء جميعاً، بوجه عام من أنصار النظام الجديد.

ماذا كان الفلاح الروسي؟

تلكم هي المشكلة التي واجهها الحزب البلشفي.

في الواقع، كان الريف على الدوام، بجزئه الواسع، خاضعاً لهيمنة الطبقات القديمة ذات الامتيازات، ولسيادة الإيديولوجية الأرثوذكسية والقيصرية القديمة العهد. وظل الفلاحون غارقين في حالة مريعة من التخلف. يشتغلون في الأرض، مستخدمين بكثافة أدوات عتيقة مصنوعة من الخشب. وكان الكولاك، غالباً، يمسكون بزمام السلطة في داخل التعاونيات، ومؤسسات التسليف، وحتى في داخل السوفييتيات الريفية التي أنشئت حديثاً. وفي ظل النظام القيصري كان عدد من الاختصاصيين الزراعيين من ذوي الأصول البرجوازية قد استقروا في الريف، لتحقيق بعض الإصلاحات في مجال الزراعة. وقد ظل هؤلاء يمارسون تأثيراً كبيراً، باعتبارهم مؤسسين لاستثمارات زراعية خاصة عصرية. كانت نسبة 90٪ من الأراضي خاضعة للنظام التقليدي للكومونات القروية. ذلك النظام الذي كان الفلاحون الأغنياء يهيمنون فيه هيمنة كاملة.

كان الفقر والجهل، اللذان يرزح تحت وطأتهما الفلاحون، من بين أشرس الأعداء الذين واجههم البلاشفة. كان من السهل نسبياً الانتصار على القيصر وعلى الملاكين العقاريين. ولكن كيف كان من الممكن التغلب على الهمجية، والبلادة، والعقلية الخرافية؟ كانت الحرب الأهلية قد خلقت انقلاباً في الريف. فعشر سنوات من عمر النظام الاشتراكي كانت قد أدخلت إلى الريف العناصر الأولى لثقافة الجماهير العصرية. وحداً أدنى من التأطير الشيوعي. غير أن السمات التقليدية لطبقة الفلاحين كانت تنيخ بثقلها على الدوام.

عاش الدكتور جوزيف ديللون في روسيا منذ عام 1877 وحتى عام 1914. وقد جاب كل أنحاء الإمبراطورية الروسية، وكان على علاقة مع الوزراء والنبلاء، والبيروقراطيين، وأجيال الثوريين المتعاقبة. لذا فإن شهادته حول الفلاحين الروس جديرة بالتأمل:

«ينام الفلاح الروسي في الساعة السادسة، أو حتى الخامسة مساء، خلال الشتاء، لأنه عاجز عن شراء البترول من أجل إشعال سراجه، وكان طعامه مفتقراً إلى اللحم، والبيض والزبدة والحليب. وغالباً ما كان يفتقد الكرنب. إنه يعيش على الخبز الأسود، والبطاطا... يعيش؟ بل إنه يموت بسبب افتقاره إلى ما يقيم أوده».

ثم يتحدث ديللون عن حالة التخلف الثقافي والسياسي التي يرزح الفلاحون الروس تحت ثقلها:

«يعيش فلاحو روسيا حقبة قروسطية فيما يتعلق بمؤسساتهم، ووضعاً آسيوياً فيما يتعلق بآمالهم وتطلعاتهم، ومستوى ما قبل تاريخي فيما يتعلق بتصوراتهم عن الحياة: كان هؤلاء الفلاحون يعتقدون بأن اليابانيين انتصروا على روسيا في حرب منشوريا، عام 1905، لأنهم اتخذوا شكل مكروبات، كانت تنفذ إلى جزمات الجنود الروس، وتعمل في أقدامهم نهشاً فتاكاً يؤدي بهم إلى الموت. وحين يجتاح وباء إحدى المقاطعات كان الفلاحون غالباً ما يقتلون الأطباء بزعم أنهم «سمموا الينابيع ونشروا المرض» ويحرقون الساحرات دوماً بحماس منقطع النظير. وكانوا ينبشون القبور ويخرجون جثة الميت، كي يهدؤوا روحه الغاضبة، أما النساء اللواتي يرتكبن الخيانة الزوجية فكنّ يربطن إلى عربات، لتتجول بهن عاريات تماماً في أنحاء القرية. وحينما يتفق أن تتحلل الضوابط الوحيدة التي تبقي هذه الحشود البشرية ضمن حدود النظام، لسبب من الأسباب، فإن العواقب تكون كارثية بالنسبة إلى المجتمع بأسره. كان ثمة حاجز يفصل بين الشعب وبين الفوضوية الشاملة، خلال أجيال وأجيال، هو الفكرة الأولية عن الله والقيصر. ومنذ حرب منشوريا تقوّض هذا الحاجز بسرعة خارقة.

تفاوت جديد بين الطبقات

في عام 1927، وفي إثر التطور العفوي للسوق الحر، وجد 7٪ من الفلاحين أنفسهم، أي ما يعادل 2.700.000 رب عائلة، وجدوا أنفسهم من جديد دون أرض، وفي عام 1929 ارتفع عددهم إلى 3.200.000، أي أن ربع مليون من فقراء الفلاحين كانوا يفقدون حقلهم كل عام. أضف إلى ذلك أن هؤلاء الأشخاص لم يعودوا مقبولين داخل الكومون القروي التقليدي (مؤسسة تقليدية قديمة العهد كان يجري داخلها توزيع الأراضي والمراعي على الفلاحين كل عام بالتبادل) وفي عام 1927 كان سبعة ملايين من الفلاحين لا يملكون حصاناً ولا محراثاً. وفي أوكرانيا كان هناك 2.1 مليون أسرة من بين 5.3 مليون أسرة فلاحية لا يملكون حصاناً ولا بقرة. كان هؤلاء الفلاحون الفقراء يشكلون 35٪ من بين مجموع الفلاحين. وهذه الأرقام المعروضة كانت قد وردت في تقرير مولوتوف الذي جرت مناقشته في المؤتمر الخامس عشر للحزب.

كانت غالبية الفلاحين العظمى مؤلفة من الفلاحين المتوسطين. غير أن هؤلاء الفلاحين المتوسطين كانوا يعملون على الدوام بواسطة أدوات بدائية. وفي عام 1929 كان 60٪ من الأسر الفلاحية في أوكرانيا لا يملكون أي نوع من

الآلات الزراعية الحديثة. كذلك فإن 71٪ من العائلات شمالي القوقاز و87.5٪ من الحوض الأدنى للفولغا، و92.5٪ في المنطقة الوسطى للأراضي السوداء، كانوا يعيشون الوضع ذاته. وهذه المناطق هي مناطق زراعة الحبوب الرئيسية.

في الاتحاد السوفييتي بأسره، كانت نسبة الفلاحين الذين أصابوا الثراء تتراوح بين 5٪ و7٪، هم الكولاك. وحسب إحصاء عام 1927 فإن 3.2٪ من الأسر كانت تمتلك وسطياً 2.3 من حيوانات الجر و2.5 بقرة، مقابل معدل وسطي في باقي الأرياف يبلغ ما بين 1 و1.1 بقرة. وكان هناك، بالإجمال، 950.000 أسرة فلاحية أي نسبة 3.8٪ من مجموع الأسر الفلاحية، يعمل أفرادها عمالاً زراعيين، أو يستأجرون أدوات إنتاج.

من الذي يتحكم بأقماح التسويق؟

حتى يكون بالإمكان إطعام سكان المدن الآخذة بالتوسع، وبالتالي تغذية حركة التصنيع في البلاد، كان لابد من ضمان تزويد هؤلاء بالقمح التجاري الكافي.

وبما أن الفلاحين لم يعودوا مستَغلّين من قبل الملاكين العقاريين فقد جعلوا يستهلكون جزءاً أكبر بكثير من قمحهم. ولذا فإن مبيعات القمح في الأسواق خارج الأرياف كانت قد انخفضت إلى 73.2٪ من الكمية المباعة عام 1913.

ولكن هذه الحبوب المخصصة للتسويق كانت تأتي من مصدر آخر. فقبل الثورة كانت نسبة 72٪ من القمح التجاري تأتي من الاستثمارات الكبيرة (الخاصة بالملاكين العقاريين والكولاك). بالمقابل، سلم الفلاحون الفقراء والمتوسطون عام 1926 ما نسبته 74٪ من القمح التجاري. لقد استهلكوا 89٪ من إنتاجهم، ولم يجلبوا إلى السوق إلا 11٪ منه. أما المزارع الاشتراكية الكبيرة، الكولخوزات والسوفخوزات فلم تبلغ حصتها إلا 1.7٪ من مجموع الإنتاج الكلي للقمح و6٪ من القمح التجاري. ولكنها سوّقت 47٪ من إنتاجها، أي ما يعادل نصف محصولها تقريباً.

في عام 1926، كان الكولاك، وهم القوة السائدة في الريف يسيطرون على 20٪ من الأقماح التجارية.

وحسب إحصاء آخر، فإن الكولاك، إضافة إلى الشريحة العليا من الفلاحين المتوسطين، في الجزء الأوربي من الاتحاد السوفييتي، أي ما يعادل 10٪ إلى

11٪ من الأسر الفلاحية، كانوا قد أسهموا بنسبة 56٪ من مبيعات الحبوب في عامي 1927 ـ 1928.

في عام 1927 كان من الممكن حساب ميزان القوى بين الاقتصاد الاشتراكي والاقتصاد الرأسمالي على النحو التالي: سلمت الزراعة الجماعية 0.57 مليون طن من القمح إلى السوق، بينما سلم الكولاك 2.13 مليون طن.

إن القوة الاجتماعية التي تتحكم بالقمح المخصص للتسويق هي التي ستحسم مسألة تموين العمال، وسكان المدن. وبالتالي مصير التصنيع. وهكذا فإن الصراع سيبلغ أشدّه.

نحو المواجهة

في بداية العشرينات، دفعت الدولة سعراً مخفضاً نسبياً، للقمح بغية توفير الاعتمادات اللازمة للتصنيع.

في خريف عام 1924، كان المحصول رديئاً نوعاً ما، ولم تستطع الدولة شراء محصول الحبوب بسعر محدد. فاشتراه الكولاك وتجار السوق بالسعر الحر ثم رفعوا أسعاره في الربيع والصيف، عبر المضاربة.

في عام 1925 كان على الدولة أن تضاعف أسعار شراء الحبوب، بالقياس إلى أسعار شهر كانون أول عام 1924. وكان الاتحاد السوفييتي قد عرف ذلك العام محصولاً جيداً. وولد تطور الصناعة في المدن طلباً إضافياً على الحبوب، فظلت أسعار الشراء التي تدفعها الدولة مرتفعة من شهر تشرين أول حتى كانون أول عام 1925 ولكن ما إن شحّت في السوق منتجات الصناعة الخفيفة حتى رفض الفلاحون الأوفر محصولاً أن يبيعوا أقماحهم، فاضطرت الدولة إلى التراجع، والتخلي عن خططها الرامية إلى تصدير الحبوب، واستيراد التجهيزات الصناعية. ومن ثم تقليص الاعتمادات المخصصة للصناعة. تلكم كانت الأمارات الأولى على وجود أزمة خطيرة وعلى حدوث مجابهة بين الطبقات الاجتماعية.

في عام 1926 بلغ محصول الحبوب 76.8 مليون طن، في حين أنه كان في السنة السابقة 72.5 مليون طن، وقامت الدولة بجمع المحصول بأسعار أدنى مما كانت عليه عام 1925.

وفي عام 1927 هبط المحصول إلى المستوى الذي كان عليه عام 1925. ولم يكن الوضع في المدن زاهياً، فقد ظلت البطالة مرتفعة، وتفاقمت أكثر من جراء

تدفق الفلاحين الذين تدهورت أوضاعهم إلى المدن. وكان التفاوت في الأجور بين العمال و التقنيين يزداد اتساعاً. كان تجار السوق الذين يسيطرون دائماً على نصف كمية اللحوم المخصصة للبيع في المدينة يستعرضون ثراءهم بطريقة تفاخرية. وكانت نذر حرب جديدة تلوح في الأفق، وخاصة بعد قرار لندن قطع العلاقات الدبلوماسية مع موسكو.

موقف بوخارين

انعكست المواجهة الاجتماعية على صفوف الحزب. وقد شدد بوخارين، الذي كان في تلك الفترة الحليف الرئيسي لستالين في القيادة، شدد على أهمية التقدم نحو الاشتراكية عبر علاقات السوق. ودعا الفلاحين، عام 1925، إلى أن يغتنوا، ثم أضاف:

«سوف نتقدم إلى الأمام بخطوات الحلزون».

وفي رسالة وجهها إليه ستالين بتاريخ 2 حزيران عام 1925، أوضح ستالين: «إن شعار «اغتنوا» ليس شعارنا. وهو شعار مغلوط. أما شعارنا فهو التراكم الاشتراكي».

في تلك الفترة كان الخبير الاقتصادي كوندراتييف هو الاختصاصي الأشد تأثيراً في مفوضيتي الزراعة والمال، وكان يدعو بحماس إلى تفاوت أوسع في الريف، وإلى رسوم أقل وطأة على الفلاحين الأغنياء، وإلى تخفيض «الوتائر العالية جدا للتطوير الصناعي» وإلى إعادة توجيه الموارد نحو الصناعة الخفيفة بدلاً من الصناعة الثقيلة. وكان شايانوف، وهو اقتصادي برجوازي ينتمي إلى مدرسة أخرى، يشيد بفضائل تطوير «التعاونيات الرأسية» في مجال التسويق في البداية. ومن ثم في مجال التحويل الصناعي للمنتجات الزراعية، بدلاً من التوجه نحو التعاونيات الإنتاجية، أي الكولخوزات. تلك السياسة، كانت ستضعف الأسس الاقتصادية للاشتراكية، وتؤدي إلى تطوير قوى رأسمالية جديدة في الريف، وفي الصناعة الخفيفة. فعبر حماية الرأسمالية على صعيد الإنتاج ستهيمن البرجوازية الريفية، بالتالي، على تعاونيات التسويق.

كان بوخارين متأثراً، على نحو مباشر، بهذين الاختصاصيين. وبخاصة حين كان يطرح عام 1925:

«ليست المزارع الجماعية هي توجهنا الأساسي، ليست طريقنا الرئيسي الذي سيخطو فوقه الفلاحون صوب الاشتراكية».

في عام 1927 شهدت الأرياف محصولاً أقل من المتوسط، فانخفضت كمية القمح التجاري في المدن بطريقة مأساوية. واحتفظ الكولاك، الذين عززوا موقعهم، بأقماحهم كي يضاربوا بأسعارها، معتمدين على حاجة السوق وشحة المحصول، ويجنوا أرباحاً أكبر. وكان بوخارين يرى ضرورة رفع أسعار الشراء الرسمية، وإبطاء وتيرة التصنيع. وقد صرّح دافييه حينها:

«إن كافة الاقتصاديين، غير الأعضاء في الحزب يؤيدون عملياً استخلاصات بوخارين».

المراهنة على الكولخوز

أدرك ستالين أن الاشتراكية مهددة بالخطر من ثلاث جهات: خطر اندلاع ثورات الجياع في المدن، وخطر تعزيز وضع الكولاك في الريف، بحيث يصبح التصنيع الاشتراكي في حكم المستحيل، وخطر التدخلات العسكرية الأجنبية المثير للقلق.

وبحسب كالينين، رئيس جمهوريات الاتحاد السوفييتي، فإن لجنة من أعضاء المكتب السياسي، مهمتها تطوير الكولخوزات، وعلى رأسها مولوتوف، أنجزت «ثورة ذهنية». وتمخض نشاطها عن تبني قرار في المؤتمر الخامس عشر للحزب جاء فيه:

«أين هو السبيل للخروج من الأزمة؟ يعتمد السبيل للخروج من الأزمة على تحويل المزارع الفلاحية الصغيرة والمفتتة إلى مزارع شاسعة ومندمجة، تقوم على أساس العمل المشترك في الأرض، وعلى الانتقال إلى العمل الجماعي على قاعدة تقنية جديدة أكثر تطوراً. يرتكز طريق الخروج من الأزمة على توحيد مزارع الفلاحين الصغيرة والمحدودة، على نحو تدريجي، ولكنه ثابت، ليس عبر أساليب الضغط والإكراه، بل من خلال القدوة والمثال، والعمل عن اقتناع وثقة، لنجعل منها مشاريع ذات أبعاد واسعة، قائمة على أسس العمل المشترك والأخوي في الأرض، مزودين هذه المشاريع بالآلات الزراعية والجرارات، ومطبقين فيها الطرائق العلمية من أجل تكثيف الزراعة».

في عام 1927 أيضاً، تقرر تدعيم «سياسة الحد من نزعة الاستغلال لدى البرجوازية الريفية» ففرضت الحكومة رسوماً أعلى على مجموع عائدات الكولاك. وتوجب على هؤلاء استيفاء حصص أعلى لدى جمع الحبوب. وكان بإمكان سوفييت القرية أن ينتزع منهم الفائض من الأرض. كما أن عدد العمال الذين يمكنهم تشغيلهم غدا محدوداً.

أم المراهنة على الفلاح الفردي؟

في عام 1928، مثلما حدث في عام 1927، انخفض محصول الحبوب ما بين 3.5 إلى 4.5 مليون طنٍ عما كان عليه في عام 1926، وذلك بسبب الظروف المناخية الرديئة جداً. وقرر المكتب السياسي في كانون الثاني 1928 اللجوء إلى أساليب استثنائية تمثلت في مصادرة القمح من الكولاك ومن الفلاحين الميسورين، من أجل تحاشي مجاعة مرتقبة لدى سكان المدن.

«كان استياء العمال يتصاعد باضطراد، ولوحظت حالات من التوتر والتذمر في الأرياف. وبدا الوضع من دون مخرج. كان ينبغي، توفير الخبز، بأي ثمن، من أجل إطعام المدن». هذا ما سيكتبه بوخارينيّان عام 1988.

لم تر قيادة الحزب الملتفة حول ستالين سوى مخرج واحد. ألا وهو: تطوير الحركة الكولخوزية بأقصى سرعة.

عارض بوخارين ذلك، وأرسل في الأول من حزيران عام 1928 رسالة إلى ستالين، يقول فيها: «لا يمكن للكولخوزات أن تكون المخرج من المأزق، لأن وضعها في حيِّز التنفيذ سيحتاج إلى عدة سنوات. خاصة وأنه ليس بالمستطاع تزويدها فوراً بالآلات اللازمة».

«ينبغي تشجيع المزارع الفلاحية الفردية، وتطبيع العلاقات مع طبقة الفلاحين» وهكذا فإن تنمية الاستثمارات الزراعية الفردية ستغدو محور سياسة بوخارين. وهو يقرّ بأن تتملك الدولة جزءاً من عائدات الاستثمارات الفردية لصالح تطوير الصناعة، ولكن هذا «الضخ» حسب رأيه، ينبغي أن يتم عبر وساطة... آليات السوق. غير أن ستالين سيصرح في تشرين أول من تلك السنة موجهاً كلامه إلى بوخارين:

«ثمة في داخل حزبنا أشخاص يسعون، ربما من دون أن يفطنوا هم أنفسهم إلى ذلك، إلى تكييف عمل بنياننا الاشتراكي مع ميول وحاجات البرجوازية السوفييتية».

استمر الوضع في المدن على التدهور. وفي غضون عامي 1928ـ 1929 توجب تقنين الخبز، في البداية، ثم السكر، والشاي، واللحوم. وفيما بين الأول من تشرين أول عام 1927 وبداية عام 1929 ارتفعت أسعار المنتجات الزراعية بنسبة 25٪ وزاد سعر القمح في السوق الحرة حتى نسبة 289٪.

تحدث بوخارين في بداية عام 1929 عن «حلقات السلسلة الواحدة للاقتصاد الاشتراكي» وحددها على النحو التالي:

«ستعمد المراكز التعاونية الكولاكية إلى الاندماج بالطريقة ذاتها عبر وساطة البنوك، الخ. داخل النظام نفسه» «في الأرياف، تنفجر الصراعات الطبقية، هنا وهناك، بشكلها القديم. وهذا التفجر ينجم عادة بفعل العناصر الكولاكية» (...) ومع ذلك، فإن حالات الصراع الطبقي هذه تنشأ عادة، هنا وهناك لأن الجهاز السوفييتي المحلي مازال يعاني من الضعف. وكلما تحسّن عمل هذا الجهاز، تحسنت وتوطدت المنظمات المحلية للحزب وللشبيبة الشيوعية، وغدت الظواهر من هذا النوع نادرة، شيئاً فشيئاً، وتلاشت في النهاية دون أن تخلف أية آثار».

بمثل هذه المواقف طوّر بوخارين سياسة اشتراكية ـ ديمقراطية سياسة «السلام الطبقي»، لقد تعامى عن رؤية التصميم القاطع الذي يبيّته الكولاك في عدائهم للتجميع الزراعي بكل ما يملكون من وسائل. بحث بوخارين عن أسباب الصراع الطبقي في «ضعف» الجهاز الحكومي والحزبي، ولم يدرك بأن هذه الأجهزة، في الريف، مخترقة بكثافة من قبل الكولاك، ومتشبعة بتأثيرهم. وأن تطهير هذه الأجهزة سيكون، إذن، هو ذاته صراعاً طبقياً يرتبط لا محالة باقتحام مواقع هؤلاء الكولاك.

في دورة انعقاد اللجنة المركزية في نيسان عام 1929، اقترح بوخارين استيراد القمح، ووضع حدٍ للإجراءات الاستثنائية ضد «الفلاحين»، وزيادة أسعار شراء المنتجات الزراعية. وأكد بوخارين خلال الدورة على «الشرعية الثورية» لتخفيض وتيرة التصنيع، وتسريع صناعة وسائل الإنتاج الزراعية. وقد رد عليه كاغانوفيتش:

«لم تقدم لنا أي اقتراح جديد، فلستَ قادراً على ذلك، لأنه ما من اقتراحات في هذا المجال. والسبب هو أننا نواجه العدو الطبقي الذي شنّ هجومه ضدنا، ورفض تسليم الفائض من حنطته من أجلِ التصنيع الاشتراكي. والذي يعلن بملء صوته: قدموا لي جراراً، امنحوني حقوقاً انتخابية، حينذاك أقدم لكم الحنطة».

الموجة الأولى من التجميع الزراعي

قرر ستالين خلع القفاز في وجه الكولاك، ونقل الثورة إلى الأرياف، وخوض الصراع النهائي ضد الطبقة الرأسمالية الأخيرة في الاتحاد السوفييتي، طبقة الكولاك، البرجوازية الزراعية.

الكولاك

أكدت البرجوازية دائماً على أن التجميع الزراعي في الاتحاد السوفييتي «قد ألحق الخراب بالطبقة الدينامية في الريف» وأدى إلى بوار دائم في الزراعة. وتصف البرجوازية طبقة الكولاك بأنهم الفلاحون الفرديون «الديناميون والمبادرون». غير أن ذلك ليس إلا محض خرافة إيديولوجية غايتها تسويد صفحة الاشتراكية، وإعلاء شأن الاستغلال. ولكي نفهم الصراع الطبقي الذي دارت رحاه في الاتحاد السوفييتي لا بد من رسم صورة أكثر واقعية عن الكولاك الروس.

إليكم ما كتبه واحد من أفضل الاختصاصيين الروس في الحياة الفلاحية. أواخر القرن التاسع عشر:

«في داخل كل كومون قروي ثمة، على الدوام، ثلاثة أو أربعة من الكولاك، ومعهم حوالي نصف دزينة على الأقل من مصاصي الدم، على شاكلتهم. ليسوا بحاجة إلى أية مؤهلات ولا إلى بذل أي جهد شاق. وكل ما يحتاجونه تحديداً هو الاستجابة السريعة لاستخدام حاجات الناس وهمومهم وبؤسهم من أجل مصلحتهم الخاصة» «والسمة الغالبة على هذه الطبقة هي القسوة الفظيعة الباردة الأعصاب التي يتميز بها رجل يفتقد تماماً أي تربية إنسانية، يشق طريقه من الفقر إلى الغنى، متوصلاً إلى الاعتقاد بأن جمع المال بأية وسيلة، كائنة ما كانت، هو الغاية الوحيدة التي يمكن لرجل عاقل أن يكرس حياته من أجلها».

أما الأمريكي ي ج. ديللون الذي كان على معرفة معمّقة بروسيا القديمة فقد كتب: «من بين كل الوحوش البشرية التي التقيتها في يوم من الأيام خلال تجوالي في هذا العالم لا يمكنني أن أتذكر واحداً كان على هذا القدر الفظيع من السوء والبشاعة مثلما كان الكولاكي الروسي».

الكولخوزات تتفوق على طبقة الكولاك

إذا ما توصل الكولاك الذين يشكلون 5٪ من الفلاحين، إلى توسيع قاعدتهم الاقتصادية، وفرض أنفسهم فعلياً كقوة مهيمنة في الريف فلن يكون بمقدور السلطة الاشتراكية في المدن أن تصمد إزاء هذا التطويق الذي تعمد إليه القوى البرجوازية. كان الاتحاد السوفييتي ما يزال بلداً زراعياً بنسبة 82٪ من مجمل

اقتصاده فإذا لم يعد الحزب البلشفي قادراً على ضمان تزويد العمال بحاجتهم من القمح بأسعار مخفضة نسبياً فستواجه سلطة الطبقة العاملة تهديداً نابعاً من قواعدها بالذات.

من هنا نشأت ضرورة المبادرة السريعة إلى تجميع بعض القطاعات في الريف، في سبيل مضاعفة إنتاج الحبوب التجارية، على قاعدة اشتراكية. كذلك فإن المحافظة على سعر منخفض نسبياً للأقماح التجارية أمر جوهري لنجاح عملية التصنيع السريع. إن برجوازية ريفية صاعدة سوف لن تقبل قطعاً بسياسة كهذه. والفلاحون الفقراء والمتوسطون، المبادرون إلى التجمع في تعاونيات، هم وحدهم من يمكنهم دعم هذه السياسة. كما أن التصنيع سيتيح، في الوقت نفسه، تحديث الريف، وزيادة إنتاجيته، وتحسين مستواه الثقافي. والحال، كان لا بد من إنتاج جرارات وشاحنات وحصادات من أجل إرساء قاعدة مادية صلبة للاشتراكية في الريف. لذا فقد بات من الملح زيادة إيقاع حركة التصنيع.

في الأول من أكتوبر عام 1928 بلغ عدد العائلات الفلاحية في داخل الكولخوزات 286.000 عائلة، وارتفع عددهم إلى 1.008.000 عائلة في أول حزيران عام 1929 وفي غضون الأشهر الأربعة، ما بين حزيران وتشرين أول عام 1929 تضاعفت نسبة فلاحي الكولخوزات من 4٪ إلى 7.5٪.

في عام 1929 أنتجت الزراعة التعاونية 2.20 مليون طن من القمح التجاري، أي بقدر ما أنتج الكولاك قبل سنتين من ذلك، وتوقع ستالين بأن تقدم الزراعة التعاونية في السنة التالية لسكان المدن 6.60 مليون طن.

«نحن الآن، يقول ستالين في 27 كانون الأول، نمتلك القاعدة المادية الكافية لضرب الكولاك، وتحطيم مقاومتهم، وتصفيتهم كطبقة، والاستعاضة عن إنتاجهم بإنتاج الكولخوزات والسوفخوزات».

حركة شعبية مندفعة بحماس

ما إن طرحت اللجنة المركزية للحزب البلشفي فكرة تسريع التجميع الزراعي حتى هبت حركة عاصفة عفوية يحمل لواءها في كافة المناطق النشطاء والشبيبة والجنود السابقون في الجيش الأحمر، وجهاز الحزب المحلي.

ومنذ بداية أكتوبر عام 1929 كان 7.5٪ من الفلاحين قد انضموا إلى الكولخوزات وجعلت الحركة تتسارع وتشتد. أما الحزب البلشفي الذي كان قد

حدد التوجه العام نحو التجميع فقد فوجئ بالحركة الـتي تجـاوزت توقعاتـه، فقد كانت مندفعة بعفوية خالصة أكثر مما كانت منظمة من قبله.

«الحدث الجوهري في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية في اللحظـة الحـاضرة هو هذا الزخم الهائل لحركة التجميع الزراعي. يقول ستالين في 27 كانون أول. «إن انتزاع المبادرة من يد الكولاك قد تمّ الآن على يد جماهير الفلاحين الفقـراء والمتوسطين أنفسهم، الذين أنجزوا خطوة التجميع الكامل».

حين أُقرت الخطة الخمسية الأولى في نيسان كان الحزب يعوّل على تجميع 10٪ من الفلاحين خـلال العـامين 1932 ــ 1933. وقـد أنتجـت الكولخـوزات والسوفخوزات آنذاك 15.5٪ من محصول الحبوب. وكان ذلـك كافياً لاستبعاد الكولاك. وفي حزيران عام 1928 أكد سكرتير الحزب في منطقة شمـالي القوقـاز، أندرييف بأن 11٪ من العـائلات الفلاحيـة انضمـت إلى الكولخـوزات وأن هـذه النسبة ستبلغ، على وجه الاحتمال 22٪ عام 1929.

في 1 كانون الثاني عام 1930 كان 18.1٪ من الأسر الفلاحية أعضاء في أحـد الكولخوزات وبعد شهر من ذلك زادت النسبة إلى 31.7٪. وقد علقت لين فيـولا قائلة:

«شهدت حركة التجميع، بسرعة فائقة، دينامية حقيقية، ناشـئة، بصـورة جوهرية، من مبادرات الكوادر الريفية. وأوشك الحزب أن يفقد سيطرته علـى الحركة»

كانت الأهداف المحددة مـن قبـل اللجنـة المركزيـة في قرارهـا الـذي تبنتـه بتاريخ 5 كانون الثاني عام 1930 قد جرى «تصحيحها» بكثافـة، برفـع سـوية معدلاتها، وذلك من قبـل لجـان المنـاطق. ثـم رفعتهـا لجـان الأقـاليم فحـددت إيقاعات مذهلة. وفي كانون الثـاني عـام 1930 سجلت منـاطق الأورال وحـوض الفولغا الأدنى، وحوض الفولغا الأوسط أرقامـاً لحركـة التجميـع تراوحـت بـين 39٪ و56٪. وقد تبنت العديد من المناطق خطـة للتجميـع الكـامل خـلال سـنة واحدة، لا بل بضعة أشهر. وقد كتب معلق سوفييتي معاصر:

«إن تحدّث المركز عن نسبة 15٪ من الأسـر المنحـازة إلى الكولخـوزات فـإن المنطقة ترفع الرقم إلى 25 ويرفع الأوكروج الرقم إلى 40 وترفع المقاطعة الرقـم إلى 60٪». (الأوكروج، كان وحدة إداريـة قبـل العـام 1930، وقـد ألغيـت في ذلـك العام. وفي بداية ذلك العام نفسه كان هناك 13 منطقة مقسمة إلى 207 أوكـروج، وهذه مقسمة إلى 2.811 مقاطعة و71.780 سوفييت قرية).

الحرب ضد الكولاك

ترافق هذا السباق الجامح نحو التجميع مع حركة «نزع الكولاكية»، فقد صودرت أملاك الكولاك، وجرى طردهم في كثير من الأحيان. والواقع أن مشهداً جديداً برز في الصراع الضاري والطاعن في القدم بين الفلاحين الفقراء والفلاحين الأغنياء. فمنذ قرون كان الفقراء يُسحقون على نحو منهجي، فيما لو تجرؤوا بدافع من يأسهم، إلى التمرد أو الثورة. غير أنهم هذه المرة صاروا يمتلكون القوة الشرعية للدولة، لأول مرة. لنستمع إلى طالب مدرسي يعمل في أحد الكولخوزات يتحدث إلى الأمريكي هيندوس عام 1930:

«كانت الحرب بيننا وبين الكولاك قائمة ولا تزال. ينبغي أن نزيح الكولاك عن دربنا، بالقدر الذي نزيح فيه العدو على الجبهة تماماً. إنه العدو في الجبهة، وهو العدو للكولخوز». وها هو بريو برجنسكي الذي كان مؤيداً لتروتسكي حتى النهاية يدعم الآن بحماس المعركة من أجل التجميع. يقول بريو برجنسكي:

«لقد كانت جماهير العاملين في الريف مستغلة طوال قرون. أما الآن، وبعد سلسلة من الهزائم الدامية التي مُنيت بها انتفاضات الفلاحين في القرون الوسطى فإن حركتهم الجبارة قد حققت الظفر، لأول مرة في تاريخ الإنسانية».

هذه النزعة الجذرية السائدة في الريف ازدادت حيوية وانتعاشاً من جراء التعبئة الحاشدة والفورة المضطرمة اللتين كانت تشهدهما البلاد بوجه عام باتجاه التصنيع.

الدور الجوهري والحاسم للجماهير الأكثر معاناة من الجور

تطالعنا العديد من الكتب المعادية للشيوعية بأخبار عن أن التجميع الزراعي قد «فُرض» من قبل قيادة الحزب ومن ستالين بالذات، وتمّ إنجازه تحت سياط الإرهاب. وتلك أكذوبة بريئة من الصدق. فالتحريض الفعلي على حوادث العنف خلال التجميع كان يصدر عن جماهير الفلاحين الأكثر مكابدة للقهر والظلم. فهذه الجماهير لم تكن ترى مخرجاً لها خارج التجميع. وقد صرح أحد فلاحي منطقة الأراضي السوداء:

«عشت طوال حياتي بين العمال الزراعيين. وقد منحتني ثورة أكتوبر الأرض وتلقيت تسليفات من سنة إلى أخرى. اشتريت حصاناً رديئاً، ولم أتمكن

من حراثة الأرض. وها إن أطفالي البؤساء يعانون الجوع. وعجزت ببساطة عن تحسين حياة زوجتي، بالرغم من مساعدة السلطات السوفييتية. إنني على يقين من أنه ليس هناك سوى مخرج واحد: الالتحاق بطابور الجرارات، والعمل بمساعدته.

وكتبت لين فيولا:

«بالرغم من أن التجميع كان مطروحاً ومدعوماً من المركز، فقد نهض، على نطاق واسع، وعبر سلسلة من الإجراءات السياسية، كاستجابة للمبادرات المطلقة العنان، من قبل أجهزة الحزب والحكومة على مستوى المنطقة ومستوى المقاطعة. لقد تحقق التجميع وأقيمت المزارع الجماعية عبر النشاط اللامنضبط واللامسؤول للموظفين الزراعيين، وعبر التجريب الذي مارسه رؤساء المزارع الجماعية الذين كان عليهم أن يتدبروا أمرهم بسرعة، وعبر حقائق الريف المتخلف. أكثر مما تحقق عبر ستالين والسلطات المركزية.»

لقد شددت لين فيولا، بحق، على الدينامية الخاصة للقاعدة. ولكن تفسيرها للوقائع أحادي الجانب. فقد أساءت فهم الخط الذي سلكته جماهير الفلاحين والذي كان تطبيقاً منطقياً لتوصيات ستالين والحزب البلشفي. ذلك أن الحزب يضع التوجه العام، ثم يترك للقاعدة الحزبية وللكوادر الوسيطة النهوض بتجربته، وهذه الأجهزة كانت تقوم بإعداد التوجيهات الجديدة، وتعديلها، وتصويبها.

وتتابع لين فيولا:

«كانت الدولة تسيِّر الأمور عبر مذكراتها ومراسيمها، ولكنها كانت تفتقر إلى البنى التحتية التنظيمية، وإلى الملاكات الضرورية بغية إقرار نهجها، وضمان التطبيق السليم لسياستها في مجال إدارة الريف. إن جذور منهج ستالين في الريف لا تكمن في توسيع دور الدولة في الضبط والمراقبة، بل في غياب هذه المراقبة، وغياب نهج منظم للإدارة، وهو ما أدى بالتالي إلى أن يصبح القمع هو الأداة الرئيسية للسلطة في الريف».

هذا الاستخلاص المستمد من ملاحظة متيقظة للمسار الواقعي للتجميع تتيح لنا إبداء ملاحظتين:

إن موضوعة «الشمولية الشيوعية» الممارسة من قبل «بيروقراطية حزب كلي الحضور» ليس لها أدنى علاقة بواقع ممارسة السلطة السوفييتية تحت قيادة ستالين. تلك الصيغة التي نفثت البرجوازية ببساطة حقدها الأعمى تجاه

الاشتراكية عبر تردادهــا دون توقـف. ففـي أعـوام 1929ــ 1933 لم يكـن لـدى الدولة السوفييتية، لا الوسائل التقنية ولا ملاك الموظفين المؤهـل المطلـوب، ولا التأطير الشيوعي الكافي لتسيير الأمـور بأسلوب مخطـط ومنظـم خـلال عمليـة التجميع الزراعي. ووصف ذلك على أنه دولة كلية القدرة وشمولية، هو محـض عبث لا طائل منه.

ففي الريف كان الاندفاع الأساسي نحو التجميع صادراً عن الفلاحين الأشد قهراً. لقد أعد الحزب عملية التجميع وأوضح خطوطهــا. وتـولى شـيوعيو المـدن تأطيرها، بيد أن هذا الانقلاب الهائل لكل ما اعتاده الفلاحون ونشؤوا عليـه لم يكن يتهيأ له النجاح لو لم يكن الفلاحون الأشد بؤساً وشـعوراً بـالظلم مقتنعـين بضرورته. إن الحكم الذي أصدرته لين فيولا، والـذي مفـاده «إن القمـع أصبـح الأداة الرئيسية للسلطة» لا يتفق مـع الواقـع. ذلـك أن الأداة الرئيسـية كـانت تعبئة، وتوعية، وتشكيل، وتنظيم الكتلة الرئيسية من الفلاحين. غـير أن هـذا العمل البنائي كان يقتضي، فعلياً «القمع» أعني أن هـذا العمـل قـد أنجـز، ولم يكن بإمكانه أن يُنجز إلا عبر الصراعات الشرسة والعنيفة ضد رجـال وعـادات النظام القديم.

إن كل أعداء الشيوعية ليؤكدون بأن ستالين كان الممثـل الأول للبيروقراطيـة الكلية القدرة التي خنقت أنفاس القاعدة. أما الحقيقة فهي على النقيض تماماً. فقد كان علـى القيـادة البلشـفية في غـالب الأحيـان، مـن أجـل تطبيـق خطهـا الثوري، أن تدعو قاعدتها الثورية إلى وضع حد لممارسات بعض أقسـام الجهـاز البيروقراطي. وقد أقرّت لين فيولا بذلك:

«لم تكن الثورة التجميعية قد تحققت عـبر أقنيـة إداريـة علـى جـانب مـن التنسيق والانتظام. على النقيض مـن ذلـك. فقـد كـانت الدولـة توجـه دعـوات مباشرة إلى القواعد الحزبية وإلى القطاعات الأساسية مـن طبقـة العمـال بهـدف الإحاطة بالموظفين الريفيين ومراقبة عملهم. إن التعبئة المكثفة للعمـال وللكـوادر المدينية وتطويق النزعة البيروقراطية كانتا تهدفان إلى فتح ثغرات سياسية بغيـة إرساء الأسس للنظام الجديد».

المنهج التنظيمي للتجميع الزراعي

تُرى، كيف كـانت اسـتجابة سـتالين وقيـادة الحـزب البلشـفي، للاندفـاع العفوي والعنيف للتجميع الزراعي و«لنزاع الكولاكية» من الأرياف.

لقد سعوا بصورة أساسية إلى توجيه مسار الحركة سياسياً وعملياً، وإلى ضبط خطواتها وتعديلها. وتدخلوا بكـل مـا كـان في أيديهـم مـن سـلطة كـي تجـري أحداث ثورة التجميع الكبرى ضمن الشروط المثلى، وبأقل التكاليف. ولكن هذه القيادة لم يكن بمسـتطاعها أن تحـول دون انفجـار العـداوات المتأصلـة، ولا أن تقفز فوق حالة التخلف السائدة في الريف.

الجهاز الحزبي في الريف

كي نفهم سياسة الحزب البلشفي إبان حركة التجميـع الزراعـي لا بـد مـن معرفة أن الجهاز الحزبي والحكومي في الريف غداة عام 1930 كان ما يـزال في حالـة قصـوى مـن الضعـف والهـزال. أي أنـه كـان النقيـض الحقيقـي «للآلـة الشمولية الرهيبة» التي يتخيلها ويتشدق بها خصـوم الشـيوعية، وكـان ضعـف الجهـاز الشيوعي يشكل أحـد الشـروط الـتي أتـاحت للكـولاك أن يزجـوا بكـل قواهم في قتال ضار ضد المجتمع الجديد.

في الأول من كانون الثاني عام 1930 كان عدد الشيوعيين 339.000 شـيوعي من سكان الأرياف الذين يبلغ عددهم حوالي 120 مليون نسمة! أي 28 شـيوعي في منطقـة تعـداد سـكانها 10.000 نسـمة، ولم يكـن ثمـة سـوى 23.458 خليـة حزبية و70.849 سـوفييت قريـة. وحسـب شـهادة سـكرتير الحـزب في منطقـة الفولغا الوسطى خاتافيتش، فإن بعض سوفييتات القرى كانوا «عملاء مباشـرين للكولاك»، كما أن قدماء الكـولاك وقدمـاء موظفـي القيصـر الذيـن كـانوا ملمّين بأسرار الحياة العامة تسربوا على نحو مكثف إلى صفوف الحـزب. كـانت نـواة الحزب الأساسية مكونة من شبيبة الفلاحـين الذيـن قـاتلوا في صفـوف الجيـش الأحمر إبان الحـرب الأهليـة. وقـد شـكلت تجربتهـم هـذه أسـلوبهم في النظـر والسلوك. كانوا معتادين على القيادة. ولكنهم لا يكادون يفقهون شيئاً ما تعنيـه التربية السياسية أو التعبئة السياسية.

«كانت البنية الإدارية في الريف بطيئة الحركـة، والنسـق القيـادي مشوشـاً مرتبكاً، وحدود المسؤوليات والوظائف مبهمة وغير محددة. وبنـاء علـى ذلـك، فخلال تطبيق السياسة الريفية كانت الأمور تجنـح غالبـاً، إمـا باتجـاه أقصـى الشلل والجمود، أو باتجاه أسلوب التعبئة المندفع والجامح على غرار ما حدث إبـان الحـرب الأهليـة». بهـذا الجهـاز الـذي كـان في غـالب الأحيـان يعرقـل تعليمات اللجنة المركزية ويحرّف أصولها. كان ينبغي شنّ المعركة ضد الكـولاك والمجتمع القديم».

«وفي المحصلة، يقول كاغانوفيتش في 20 كانون الثاني عام 1930. كان علينا خلق منظمة للحزب في الريف، قادرة على قيادة حركة التجميع الزراعي الكبرى».

إجراءات تنظيمية استثنائية

وجدت قيادة الحزب نفسها وجهاً لوجه إزاء جذرية قواعدها، وإزاء موجة عنيفة جارفة من التجميع الزراعي الفوضوي، فانبرت في البداية إلى تركيز جهودها على السيطرة الفعلية على سير الأحداث.

وما أن تبيّنت اللجنة المركزية حالة العجز التي يتردى فيها جهاز الحزب وضعف إمكانية عمله وتأثيره حتى اتخذت عدة إجراءات تنظيمية استثنائية.

على الصعيد المركزي أولاً

أرسلت اللجنة المركزية للحزب، بدءاً من منتصف شباط عدداً من أعضائها، وعلى الأخص ارجونيكدزى، وكاغانوفيتش، ولاكوفوليف إلى الريف لإجراء تحقيقات حول ما يحدث هناك.

ثم جرى دعوة ثلاثة مجالس قومية ذات شأن للاجتماع تحت قيادة اللجنة المركزية لتكثيف الدروس المستفادة من التجربة. وقد خصص اجتماع 11 شباط لدراسة مشكلات التجميع الزراعي في مناطق الأقليات القومية. وعالج اجتماع 21 شباط وضع المناطق التي تعاني من نقص القمح، أما اجتماع 24 شباط فكان عبارة عن مؤتمر قومي شامل، دُرست فيه الأخطاء والتجاوزات المرتكبة خلال عملية التجميع.

ومن ثم على الصعيد القاعدي في الريف

جرى تجنيد 250.000 شيوعي في المدن بغية الانتقال إلى الأرياف. وتقديم المساعدة هناك خلال عمليات التجميع الجارية.

كان هؤلاء المناضلون يعملون تحت إمرة «مركز قيادة» التجميع المشكل خصيصاً على مستوى الأوكروج ومستوى المقاطعة. كما أن «مراكز القيادة» هذه تستفيد من مساعدة مسؤولي اللجان المنطقية واللجنة المركزية. وهكذا ففي أوكروج تامبوف شارك المناضلون القادمون من المدن في مؤتمرات وفي دورات تعليمية قصيرة المدة، على مستوى الأوكروج ثم على مستوى المقاطعة. قبل أن

يتوجهوا للعمل على أرض الواقع. وحسب التوجيهات التي لديهم يتوجب عليهم أن «يتبعوا طرائق العمل الجماهيري» إقناع النشطاء المحليين، سوفييت القرية، جماعات الفلاحين الفقراء، هذا في البداية. ومن ثم الانتقال إلى الجماعات الصغيرة المختلطة من الفلاحين الفقراء والمتوسطين. وأخيراً تنظيم اجتماع عام للقرية باستثناء الكولاك. وتوضح التوجيهات التي زُودوا بها أيضاً، بأنه «ينبغي أن لا يلجؤوا إلى استخدام الضغط الإداري لدفع الفلاحين المتوسطين إلى الالتحاق بالكولخوزات».

في أوكروج تامبوف نفسه، نُظمت، خلال شتاء عام 1929 ـ 1930 مؤتمرات ودورات تعليمية مدتها تتراوح بين يومين وعشرة أيام من أجل 10.000 فلاح، وامرأة كولخوزية وفلاحين فقراء، ورؤساء سوفييتيات.

وخلال الأسابيع الأولى من عام 1930 جرى تنظيم 3977 دورة لمدة محدودة لـ 275.000 فلاح في أوكرانيا.

بالإضافة إلى ذلك تم تدريب عدد كبير من سائقي الجرارات، ومن المتخصصين بالعمل الزراعي ومن الفنيين في السينما والإذاعة.

كان معظم القادمين من المدن ينخرطون في العمل في الريف خلال عدة أشهر ثم يعودون إلى مدنهم. وقد أقر في شباط عام 1930 تجنيد 7200 سوفييتي من سكان المدن للعمل مدة سنة على الأقل، في الريف أما رجال الجيش الأحمر والعمال الصناعيون فقد أقحموا للعمل بصورة دائمة في داخل الكولخوزات.

الـ 25.000

وجهت اللجنة المركزية دعوة إلى 25.000 عامل من ذوي الخبرة والتجربة من العاملين في المصانع الكبرى للالتحاق بالريف ودعم حركة التجميع الجارية هناك على قدم وساق. ولبّى الدعوة أكثر من سبعين ألف عامل، فانتخب منهم 28.000 من الشباب الذين كانوا قد خاضوا القتال على الجبهات أثناء الحرب الأهلية ومن أعضاء الحزب. والكومسمول.

كان هؤلاء الشبان يدركون جيداً الدور القيادي للطبقة العاملة في التحولات الاشتراكية الجارية في الأرياف. وقد كتبت لين فيولا:

«كانوا يرون في ثورة ستالين الأداة الفعالة لانتزاع النصر النهائي، بعد سنوات الحرب، والآلام، والحرمان. وكانوا ينظرون إلى هذه الثورة على أنها حل لكافة مشكلات التخلف، والشح المزمن في الغذاء، والتطويق الرأسمالي».

قبل الانطلاق نحو الريف، كان يُوضح لهؤلاء المتطوعين بأنهم عيون اللجنة المركزية وآذانها: وبفضل وجودهم في الخط الأمامي أمّلت القيادة بأن يكتسبوا معرفة عملية بالتحولات الجارية في الريف وبمشكلات التجميع الزراعي. وقد طُلب منهم أيضاً بأن ينقلوا إلى الفلاحين تجربتهم التنظيمية، التي اكتسبوها، بوصفهم عمالاً صناعيين، فالعادات الضاربة في القدم التي تعودها الفلاح في العمل الفردي كانت تشكل عراقيل خطيرة أمام الاستثمار الجماعي للأرض. وأخيراً، أوكلت إليهم مهمة النظر والحكم على المزايا الشيوعية لدى موظفي الحزب، وتطهير الحزب، إن كان ذلك ضرورياً، من العناصر الغريبة والفاسدة.

وفي غضون شهر كانون الثاني عام 1930 وصل إلى جبهة التجميع الزراعي 25.000 من هؤلاء العمال الصناعيين المجرّبين. والتحليل المفصل لنشاطاتهم وللدور الذي لعبوه هناك يتيح لنا تكوين فكرة عن ذلك النضال العظيم الذي خاضته الطبقة العمالية الثورية في معركة التجميع الزراعي. وقد تواصل هؤلاء العمال مع معاملهم ونقاباتهم عبر رسائل منتظمة. ورسائلهم تلك تتيح لنا أن نعرف على نحو دقيق بما كان يجري في القرى.

الـ 25.000 ضد البيروقراطية

في البداية، وحال وصولهم. كان على الـ 25.000 أن ينخرطوا تواً في نضال شرس ضد بيروقراطية الجهاز المحلي، وضد التجاوزات المرتكبة خلال التجميع.

«أيا كان موقفهم، فقد أجمع الـ 25.000 على توجيه النقد إلى تصرف أجهزة المقاطعة أثناء التجميع. وأكدوا بأن هؤلاء يتحملون المسؤولية عن التسابق في تحقيق أعلى المعدلات في عملية التجميع».

زاخاروف واحد من هؤلاء الـ 25.000، وقد كتب بأنه ما من عملٍ تمهيدي قد تم بين الفلاحين، الذين، لم يكونوا، بالنتيجة مستعدين كلياً من أجل التجميع الزراعي. والعديد منهم اشتكوا من تصرفات لا مشروعة، ومن قسوة الكوادر الريفية. أما ماكوفسكايا فقد هاجمت «موقف الكوادر البيروقراطي تجاه الفلاحين» وقالت بأن الموظفين يتحدثون عن التجميع «والمسدس في يدهم». وأكد باريشيف بأن عدداً كبيراً من الفلاحين المتوسطين مورست ضدهم سياسة «نزع الكولاكية». ووقف نوموف إلى جانب الفلاحين في صراعهم ضد الكوادر الحزبية الذين «اغتصبوا بعض الثروات المصادرة من الكولاك» واستخلصت لين فيولا:

«كان الـ 25.000 ينظرون إلى الموظفين الريفيين على أنهم أشخاص قساة غلاظ، وغير منضبطين، وفاسدين في الغالب، وفي عدد غير قليل من الحالات، ممثلين للطبقات المضادة للثورة».

«وبسبب مواجهتهم الصارمة للبيروقراطين، ولتجاوزاتهم اكتسب هؤلاء المناضلون الموفدون من المعامل ثقة الجماهير الفلاحية».

تُرى ألا يستحق كل هذا عناء الإشارة إليه والتشديد عليه، ما دام أن هؤلاء العمال كانوا والحق يُقال، مبعوثين من ستالين. كانوا تحديداً «ستالينيين». عملوا بتوجيهات ستالين ضد البيروقراطية وضد تجاوزاتها، ودافعوا عن النهج القويم للتجميع الزراعي.

الـ 25.000 ضد الكولاك

لعب الـ 25.000، من ثم، دوراً بارزاً في النضال ضد الكولاك.

توجب عليهم قبل كل شيء، مواجهة سلاح الإشاعات الرهيب، وحملات التشهير التي كان يمارسها الكولاك. كان الفلاحون غارقين في الأمية، يعيشون في شروط بربرية ويخضعون لتأثير الكهنة الأرثوذكس. لذا كان من السهولة بمكان التلاعب بهم. كان كاهن الكنيسة يزعم بأن مملكة أعداء المسيح قادمة، وكان الكولاك يضيفون إلى كلامه بأن كل من ينضم إلى الكولخوز يوقع عقداً مع أعداء المسيح.

من بين الـ 25.000، جرى الاعتداء على العديد منهم، وضُربوا ضرباً مبرحاً والعشرات منهم اغتيلوا، قتلوا برصاصة، أو ببلطة من قبل الكولاك.

الـ 25.000 وتنظيم الإنتاج الزراعي

غير أن الإسهام الجوهري لهؤلاء الـ 25.000 الموفدين إلى الأرياف، تمثل في إدخال نظام جديد كلياً على إدارة الإنتاج، إدخال نمط جديد في الحياة وفي العمل.

فالفلاحون الفقراء، الذين كانوا في الصف الأول من معركة التجميع، لم يكونوا يملكون أدنى فكرة عن تنظيم الإنتاج الجماعي، كانوا يبغضون الاستغلال. ولهذا السبب، كانوا حلفاء موثوقين للطبقة العاملة، ولكنهم بوصفهم منتجين فرديين فقد كانوا عاجزين عن خلق طريقة جديدة للإنتاج. وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت دكتاتورية البروليتاريا ضرورة ملحة.

فدكتاتورية البروليتاريا تجلّت بوضوح من خلال التوجيه الإيديولوجي والتنظيمي الذي مارسته الطبقة العاملة، ومارسه الحزب الشيوعي على الفلاحين الفقراء والمتوسطين.

حدد العمال يوم العمل في ساعات منتظمة مضبوطة بإجراء التفقّد الصباحي. وابتكروا نظام التسديد «بالقطعة»، وسُلمٍ الرواتب. وكان عليهم، في كل مكان أن ينشروا النظام والانضباط. إن كولخوزا من الكولخوزات لم يكن يعرف، في الغالب، حتى أين تنتهي حدوده ولم يكن لديه إحصاء لآلاته، وأدواته، وقطع الغيار. ولم تكن الآلات لتعرف أية صيانةٍ. لم يكن ثمة اصطبلات للماشية، ولا احتياطي من العلف.وأدخل العمال تقليداً جديداً، هو مؤتمرات الإنتاج، حيث يجتمع الكولخوزيون ليتداولوا تجربتهم العملية.. ونظم العمال المباريات الاشتراكية بين مختلف فرق العمل. وأنشؤوا محاكم عمل، حيث كانت مخالفة القواعد وأخطاء الإهمال تخضع للمحاكمة فيها.

كان الـ 25.000 عامل يجسدون كذلك دعم البروليتاريا للفلاحين الكولخوزيين. وبناء على طلب هؤلاء العمال من «معاملهم»، كانت هذه المعامل ترسل فوراً المعدات الزراعية، وقطع الغيار والمولدات والكتب والصحف وأشياء أخرى يعزّ وجودها في الريف. وكانت فرق عمالية تأتي من المدينة للقيام ببعض الأعمال التقنية، وإصلاح المعدات المتعطلة، من أجل دعم المحصول وإنمائه.

غدا العامل أيضاً معلماً في المدرسة، فكان يعلم المعارف التقنية، وغالباً ما كان عليه القيام بشؤون المحاسبة، مدرِّباً. بالإضافة إلى ذلك، محاسبين من الشبان. وكان يلقي محاضرات سياسية وزراعية أولية، وفي كثير من الأحيان كان ينشغل بمحو الأمية المستشرية بين الفلاحين.

كان الإسهام الذي قدمه الـ 25.000 هائلاً. ففي السنوات العشرينات «كان البؤس، والأمية والخرافة المزمنة، بالإضافة إلى المجاعات الدورية تسم بميسمها جزءاً كبيراً من المشهد الريفي»، وقد ساعد العمال الـ 25.000 على إعداد البنى التنظيمية لقاعدة الزراعة الاشتراكية لربع القرن القادم. كتبت لين فيولا:

«إن نظاماً جديداً في الإنتاج الزراعي قد توطد، وأياً كانت المشكلات التي كان يعاني منها، فقد وضع حداً للأزمات الدورية التي كانت تميز علاقات السوق. تلك العلاقات التي كانت موجودة سابقاً بين الريف والمدن».

التوجيه السياسي لحركة التجميع الزراعي

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التدابير التنظيمية على قدم وساق، أعدّت اللجنة المركزية للحزب تدابير وتوجيهات سياسية للسير بحركة التجميع في الاتجاه الصحيح.

ينبغي في البدء الإشارة إلى أن نقاشات حية وواسعة الأبعاد دارت في الحزب حول السرعة والزخم اللذين تميز بهما التجميع.

في عام 1929، وفي أوكروج خوبر في منطقة الفولغا السفلى بلغت نسبة العائلات المشاركة في التجميع في شهر تشرين أول 55٪ فيما كانت في شهر حزيران من العام نفسه تبلغ 2.2٪. فأرسلت على الفور لجنة من اتحاد الكولخوزات الذي ارتاب في أمر سرعة التجميع واتساع مداه في هذه المنطقة لفتح تحقيق حول ذلك. وصرح بارانوف نائب رئيس اللجنة بما يلي:

«اتبعت السلطات المحلية أسلوب «عمل الصدمة». وإعداد «الحملة» وتمثّل الشعار المطروح في: كلما كان أكثر، كلما كان أفضل. وتحولّت التعليمات أحياناً إلى شعارات من مثل: من لا يلتحق بالكولخوز فهو عدو السلطة السوفييتية. لم يكن، ثمة نشاط تعبوي مكثف بين جماهير الفلاحين. وفي بعض الحالات كانت الوعود البراقة بالجرارات وبالتسليفات تكال جزافاً: ستحصلون على كل شيء. التحقوا بالكولخوز».

بالمقابل، فإن شيبو لداييف، سكرتير الحزب في منطقة الفولغا السفلى أعلن في صحيفة البرافدا دعمه وتأييده للتوسع السريع الذي تميز به التجميع في خوبر. وحيّا «الحماسة والنشاط الفياض للزراعة التعاونية» وقد أكد بأن 5٪ إلى 10٪ من القرويين عارضوا التجميع. وهذا يشكلّ حركة جماهيرية عظيمة تجاوزت بمسافات إطار مفهومنا عن التجميع.

كان ثمة آراء متعارضة في كافة الوحدات الفلاحية. ففي 2 تشرين الثاني من عام 1929 تحدثت صحيفة «كراسنيا خوبر» بحماس عن الزراعة التعاونية وعن تشكيل الكولخوزات الجديدة. ولكن مقالة في العدد نفسه حذرت من تجميع متسارع على هذا المنوال، ومن المخاطرة بدفع مزيد من فقراء الفلاحين إلى داخل الكولخوزات. وأكدت مقالة أخرى بأن الكولاك في بعض المناطق كانوا يستحثون سكان القرية برمتهم للالتحاق بكل سرعة، بالكولخوز لكي يشوهوا سمعة التجميع ويفقدوه قيمته.

لدى انعقاد دورة اللجنة المركزية للحزب في تشرين الثاني عام 1929 دافع شيبولداييف سكرتير الحزب في الفولغا السفلى عن تجربة خوبر بـ«طوابير خيولها». ففي غياب الجرارات «فإن توحيد وتجميع المزارع يمكنه أن يزيد من إنتاجية العمل». وصرح بأن التجميع الذي جرى في خوبر لم يكن سوى «حركة عفوية لجماهير الفلاحين الفقراء والمتوسطين» وأن 10 إلى 12٪ فقط من الفلاحين صوّتوا ضده.

«لا ينبغي للحزب أن «يكبح» هذه الحركة. فذلك خطأ من وجهة النظر السياسية والاقتصادية. يتوجب على الحزب أن يبذل كل ما في وسعه ليكون طليعة هذه الحركة، وليقودها ضمن أقنية تنظيمية ملائمة. إن حركة الجماهير هذه، في اللحظة الحالية، قد سبقت بأشواط السلطات المحلية، لا مراء في ذلك. لذا فإن الخطر هنا، يكمن في احتمال انحطاط سمعة هذه الحركة وفقدانها لقيمتها» وأكد شيبولداييف بأن 25٪ من العائلات باتت مجمّعة في الكولخوزات، وأن التجميع سيتم إنجازه بقسمه الأساسي في حوالي نهاية عام 1930 ومنتصف عام 1931.

وتحدث كوسيور خلال الاجتماع عن الوضع في أوكرانيا. فأوضح بأن التجميع في عشرات القرى الأوكرانية «انتفخ وتضخم، وتشكل على نحو اصطناعي»، لم يُقبل السكان على المشاركة، ولم يجر إبلاغهم كما ينبغي بأهمية الحركة. ولكنّ «بقع الظلال العديدة لا ينبغي لها أن تمنعنا من رؤية اللوحة العامة لحركة التجميع».

من الواضح إذن بأن كثيراً من الآراء المتعارضة كانت تُطرح في أوساط الحزب في اللحظة التي انطلقت فيها الحركة من أجل التجميع الزراعي. كان من واجب الثوريين أن يكتشفوا وأن يدافعوا عن إرادة جماهير الفلاحين الأشد بؤساً وقهراً. وكان هؤلاء يسعون إلى التخلص من حالة التخلف السياسي والثقافي والتقني الطاعنة في القدم. لم يكن بد من تشجيع الجماهير على التقدم في درب النضال. في الدرب الوحيد الذي يفضي إلى زعزعة وتدمير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية المتجذرة عميقاً. وقد بذلت الانتهازية اليمينية كل ما في وسعها لأن تكبح، قدر الإمكان هذا الوعي الشاق والمتناقض. مع ذلك، فقد كان من الممكن حدوث مغالاة فائقة الحد في سرعة حركة التجميع، وذلك حين تمّ، في مجال الممارسة على الأرض، تجاهل واستبعاد معظم المبادئ المتقدمة التي أقرها الحزب. هذا النزوع إلى التسريع المفرط كان يشترك فيه أصحاب النزعة اليسارية الذين كانوا يحافظون على أساليب العمل المتوارثة منذ أيام

الحرب الأهلية ــ حين كانوا معتادين على «قيادة» الثورة ــ بالإضافة إلى أصحاب النزعة البيروقراطية الذين كانوا يسعون إلى تلميع أنفسهم في أعين القيادة، من خلال «إنجازاتهم الكبرى»، غير أن المغالاة في التسريع كان من الممكن أن تصدر عن أنصار الثورة المضادة الذين كانوا يرغبون بتلطيخ سمعة التجميع في الوحل، من خلال دفعه إلى العبث واللامعقول.

قرار تشرين الثاني عام 1929

إن القرار الذي اتخذته اللجنة المركزية في 17 تشرين الثاني عام 1929 القاضي بإطلاق حركة التجميع كان المحصلة الختامية للمناقشات داخل الحزب.

انطلق القرار من معاينة واقع أن عدد الأسر الفلاحية في الكولخوزات قفز في العام 1927 ـ 1928 من 445.000 أسرة إلى 1.040.000 أسرة وذلك خلال عام واحد وأن حصة الكولخوز في إنتاج الحبوب التجارية قفز من 4.5٪ إلى 12.9٪ في الفترة نفسها.

«هذا التقدم غير المسبوق لحركة التجميع، والذي فاق كل التصورات الأكثر تفاؤلاً يشهد على واقع أن الكتلة الحقيقية للعائلات الفلاحية المتوسطة، المقتنعة عملياً بمنافع الأشكال التعاونية في الزراعة، قد التحقت بالحركة دون تأخير، إن الخرق الحاسم الذي حققه موقف جماهير الفلاحين الفقراء والمتوسطين في خطوط الكولاك، يحدد مرحلة جديدة في البناء الاشتراكي داخل بلدنا».

هذا التقدم الحثيث لحركة التجميع أصبح في واقع الممكن من خلال تطبيق خط الحزب في إشادة البنيان الاشتراكي على مختلف الجبهات.

«إن النجاحات الباهرة للحركة الكولخوزية كانت نتيجة مباشرة للتطبيق السليم لخط الحزب البلشفي العام الذي ضمن زخماً شديداً جداً في مجال الصناعة وتعزيزاً للوحدة بين الطبقة العاملة والكتل الأساسية من طبقة الفلاحين. وخلقاً للمجتمع التعاوني، وتقوية للفعالية السياسية. وزيادة في الموارد المادية والثقافية للدولة البروليتارية».

رفض انتهازية بوخارين

شددت اللجنة المركزية على أن هذا التقدم الهائل لم يتحقق في «جو من الهدوء واليسر» ولكنه تحقق عبر صراع طبقي بالغ الضراوة.

«في الوضع الذي تعيشه بلادنا، والذي يشهد حصاراً وتطويقاً رأسمالياً يمكن القول بأن احتداد الصراع الطبقي، واتساع نطاق المقاومة من قبل العناصر الرأسمالية ضد الطليعة الاشتراكية يقوّي ضغط العناصر البرجوازية الصغيرة على الجزء الأضعف صلابة في صفوف حزبنا، ويخلق إيديولوجية استسلامية إزاء الصعوبات، ويشيع روح الانهزام والتخلي ومحاولات الوصول إلى اتفاق مع العناصر الكولاكية والرأسمالية في المدن والأرياف (...). وذلك يشكل جذرا لحالة عدم الفهم الكلي، لدى فريق بوخارين لتفاقم الصراع الطبقي الذي تدور رحاه. وهو الأساس لموقفه الداعي إلى التقليل من شأن المقاومة الضارية التي يشنها الكولاك ورجال النيب (نيب مان)، والأساس لنظريته المعادية للينينية والقائلة بأن الكولاك سوف «يندمجون» في داخل الاشتراكية. وهو كذلك أساس معارضة هذا الفريق لضرب العناصر الرأسمالية في الريف».

«كان اليمينيون يصرحون بأن المعدلات المرتفعة المرسومة لحركة التجميع الزراعي، ولبناء الكولخوزات غير واقعية، وكانوا يصرحون بأن الشروط المادية والتقنية غير وافية. وأن الفلاحين الفقراء والمتوسطين لم يكونوا يرغبون في الانتقال إلى الأشكال التعاونية الجماعية في الزراعة. والواقع، أننا نشهد اندفاعا جارفاً كلياً في حركة التجميع، وتسابقاً محموماً تماماً نحو الأشكال الاشتراكية في الزراعة، من قبل الفلاحين الفقراء والمتوسطين، بحيث أن الحركة الكولخوزية بلغت نقطة العبور نحو التجميع الشامل في المقاطعات بأسرها. إن انتهازيي اليمين يُستخدمون، موضوعياً على الأغلب، كناطق رسمي باسم المصالح الاقتصادية والسياسية لعناصر من البرجوازية الصغيرة ولزمر الكولاكية الرأسمالية».

أشارت اللجنة المركزية إلى ضرورة اليقظة إزاء التبدلات في أشكال الصراع بين الطبقات. فإذا ما كان الكولاك في السابق يعملون كل ما يخطر لهم للحؤول دون انطلاق الحركة الكولخوزية. فهم يسعون الآن إلى تدميرها من الداخل.

«لقد حدث التطور الواسع للحركة الكولخوزية في ظل وضع حافل بالصراع الطبقي الحاد في الريف، دائب على تغيير أشكاله وأساليبه. فقد كثّف الكولاك صراعهم المباشر والمفتوح ضد التجميع، ذاهبين في الشوط إلى مداه الأقصى في إشاعة الإرهاب الحقيقي (اغتيالات وإحراق وتدمير)، ولجؤوا في الوقت نفسه، بين الحين والخين. إلى أشكال أخرى من الاستغلال، مموهة وخفية، مخترقين الكولخوزات، وحتى قياداتها بهدف تحطيمها وتفجيرها من الداخل».

لهذا السبب ينبغي المباشرة بعمل سياسي في العمق لتشكيل نواة أمينة موثوقة، يمكنها قيادة الكولخوز على النهج الاشتراكي.

«ينبغي على الحزب أن يضمن بلورة نواة من العمال الزراعيين، ومن الفلاحين الفقراء داخل الكولخوز من خلال عمل دؤوب ومنتظم».

صعوبات جديدة ـ مهام جديدة.

ينبغي أن لا يفتتن الحزب بالنجاحات التي حققها مادام طريقه ما يزال مزروعاً «بصعوبات جديدة، وعقبات» لابد من قهرها. وقد عددتها اللجنة المركزية:

«المستوى المتدني للقاعدة التقنية في الكولخوز، ضعف مستوى التنظيم، وضعف إنتاجية العمل داخل الكولخوز. النقص الخطير للكوادر الكولخوزية، والغياب شبه الكلي للاختصاصيين الذين يحتاجهم الكولخوز. التركيب الاجتماعي الرديء جداً في جزء من الكولخوزات. واقع أن أشكال الإدارة قليلة التكيف مع اتساع الحركة الكولخوزية وأن قيادة الحركة الكولخوزية هي غالباً غير كافية إلى حد كبير».

قررت اللجنة المركزية التحرك الفوري لبناء مصنعين جديدين للجرارات بطاقة 50.000 وحدة لكل منهما. ومصنعين جديدين لإنتاج المجمعات التلفونية. والتوسع في مصانع إنتاج الآلات الزراعية المعقدة، والمصانع الكيماوية، وتطوير أوضاع الآلات والجرارات.

«إن بناء الكولخوزات غير وارد من دون تحسين المستويات الثقافية للشعب الكولخوزي».

«أما ما هو مطلوب فعله في هذا المجال فهو: إطلاق حملات محو الأمية، تأسيس المكتبات، تنظيم التدريب لأعضاء الكولخوز، وتنظيم دورات تدريبية بالمراسلة. تكييف الشبيبة مع الحياة الاشتراكية. والنشر المكثف للمعارف الزراعية. تكثيف العمل الثقافي والسياسي بين النساء، وإنشاء دور الحضانة والمطابخ العمومية لتسهيل حياتهن. بناء مراكز ثقافية وإدخال الراديو والسينما والخدمة البريدية، وخدمات الهاتف إلى الريف. نشر صحف عامة وصحف اختصاصية موجهة إلى الفلاحين.. الخ».

وتصدت اللجنة المركزية أخيراً لخطر الانحراف اليساري. إذ من الممكن لجذرية الفلاحين الفقراء أن تقود إلى التقليل من شأن التحالف بينهم وبين الفلاحين المتوسطين.

وحذرت اللجنة المركزية من الاستهانة بالصعوبات الكامنة في بناء الكولخوزات وبخاصة من الموقف الشكلاني والبيروقراطي تجاه هذه الصعوبات، وتجاه تقدير نتائجها».

قرار 5 كانون الثاني لعام 1930

بعد ستة أسابيع على ذلك اجتمعت اللجنة المركزية من جديد لتقييم التطورِ العاصفِ للحركة الكولخوزية. وفي 5 كانون الثاني من عام 1930 اتخذت قراراً أساسياً، تحت عنوان «بصدد الدرجة التي بلغها التجميع، ومساعدة الدولة في بناء الكولخوزات».

أشار القرار إلى أنه في ربيع عام 1930 تمّت زراعة 30 مليون هيكتار على قاعدة تجميعية، متجاوزة الرقم 24 مليوناً الذي كان مأمولاً بلوغه في نهاية الخطة الخمسية.

«وهكذا، فنحن نمتلك قاعدة مادية، للاستعاضة عن الإنتاج ذي المستوى المرتفع للكولاك، بالإنتاج ذي المستوى المرتفع للكولخوزات». «لقد استطعنا إنجاز مهمة تجميع الأكثرية الساحقة من مزارع الفلاحين» في نهاية الخطة الخمسية الأولى. «إن تجميع مناطق زراعة الحبوب سيصبح في متناول يدنا ما بين خريف 1930 وربيع 1932».

ينبغي على الحزب دعم الحركة العفوية في القاع والتدخل بنشاط لتوجيهها وقيادتها.

«تتطور الحركة الكولخوزيةٍ بعفوية منطلقة من القاعدة، وعلى منظمات الحزب قيادتها وإعطاءها شكلاً، حيث أن الغاية المتوخاة من ذلك ضمان تنظيم الإنتاج التعاوني في الكولخوزات، بنحو رسمي وأصيل».

وحذر القرار من ضلالات النزعة اليسارية. «ينبغي عدم الاستهانة بدور الحصان وعدم التخلص من الخيول على أمل تسلم الجرارات في القريب العاجل، ينبغي أن لا تنساق إرادتنا نحو التجميع الشامل».

«إن الشكل الذي يكتسيه التجميع الأكثر انتشاراً هو شكل التعاونية، التي تكون فيها وسائل الإنتاج الأساسية (حيوانات الجر، الآلات، المعدات الزراعية، الإنشاءات الزراعية، الحيوانات ذات الإنتاج التجاري) مشتركة بين الجميع».

«تحذر اللجنة المركزية بجدية بالغة منظمات الحزب من أن تتصرف تجاه الحركة الكولخوزية «بقرارات» من الأعلى. لأن ذلك سيولد خطر الاستعاضة عن المنافسة الاشتراكية الأصيلة في المنظمات الكولخوزية بـ«اللعب» بالتجميع».

نزع الكولاكية

من أجل إنجاح عملية التجميع الزراعي كان لا بد من إقناع الفلاحين الفقراء والمتوسطين بأفضلية العمل التعاوني في الأرض، الذي سيتيح إدخال الآلات ذات الحجم الكبير، ومن ثم كان لابد للصناعة الاشتراكية أن تكون قادرة على إنتاج الجرارات والآلات التي تشكل الدعامة المادية لحركة التجميع. وأخيرا، يتوجب تحديد موقف صحيح تجاه الكولاك الخصوم الألداء للاشتراكية في الريف. وهذه القضية الأخيرة أفسحت المجال لنقاشات واسعة داخل الحزب.

إليكم العبارات التي كانت تطرح بها المسألة، قبل الانعطاف نحو الكولخوزات. هو ذا ميكويان يتحدث في الأول من آذار عام 1929 :

«بالرغم من وجود السلطة السياسية للحزب في الريف، فإن للكولاكي سلطة أكبر في الميدان الاقتصادي. فمزرعته هي الأفضل، وحصانه هو الأفضل، وآلاته هي الأفضل وهو من يُصغى إلى حديثه في الشؤون الاقتصادية. والفلاح المتوسط يرمق بإعجاب سلطة الكولاكي الاقتصادية. وستبقى سلطة الكولاكي أقوى من سلطة الحزب وأطول عمراً ما بقينا نفتقر إلى الكولخوزات.

شائعات الكولاكي وسمومه

تعتمد سلطة الكولاكي، في جزئها الأعظم، على التخلف الثقافي والأمية، والعقلية الخرافية، والإيمان الديني القروسطي للكتلة العظمى من الفلاحين. وهكذا، فإن سلاحه الماضي، والأكثر صعوبة على مقارعته، هو الإشاعة وتسميم العقول.

في عام 1928 ـ 1929 كانت شائعات بعينها تسري فوق الأراضي السوفييتية الشاسعة، على غرار: في داخل الكولخوز ستكون النساء والأطفال مشاعاً للجميع، في داخل الكولخوز سينام جميع الناس تحت غطاء وسيع مشترك، الحكومة البلشفية سترغم النساء على قص شعورهن لتصديرها، البلاشفة

سيعلّمون النساء بعلامة على جبينهن للتمييز بين الواحدة والأخرى، وسيقومون بترويس السكان المحليين (أي جعلهم روسيين). وكثير من «الأنباء» المروعة كانت تشيع في كل مكان، من مثل: في داخل الكولخوزات آلة خاصة لإحراق الشيوخ والعجائز لتوفير القمح الذي يأكلونه. سيُنتزع الأطفال من آبائهم ليرسلوا إلى الحضانات. أربعة آلاف فتاة سيرسلون إلى الصين سداداً لكلفة طريق السكة الحديدية الشرقية الصينية. الكولخوزيون سيكونون أول من يرسلون إلى الحرب. ثم تعلن الشائعة بأن البيض عائدون عما قريب. أما المؤمنون فيُشاع بينهم أن مملكة أعداء المسيح قد دنت، وأن نهاية العالم وشيكة ولم يبق لها سوى سنتين.

في أوكروج تامبوف كان الكولاك يخلطون الإشاعة بالدعاية السياسية ببراعة وخبرة نادرتين. كانوا يقولون بأن «إقامة الكولخوزات لم تكن سوى إقامة نوع من العبودية، حيث سيعود الفلاح من جديد للعمل تحت قرع السياط. وأنه كان يتوجب على السلطة السوفييتية أن تجعل الفلاحين أغنياء في البداية، ثم تدفعهم إلى إقامة الكولخوزات، لا أن تفعل مثلما هي تفعل الآن، تحاول خلق مزرعة مزدهرة، انطلاقاً من تجميع مزارع ليس فيها سنبلة قمح».

ها نحن نرى هنا ظهور التحالف بين الكولاك وبين البوخارينيين. فالكولاك لم يكونوا يناهضون علانية السلطة السوفييتية، ولا الكولخوزات أيضاً. بل يُلمحون إلى أنه ينبغي ترك الفلاح ليثري في البداية، ومن ثم سيمكنه بعد ذلك أن ينظر في شأن التجميع. شأنهم في ذلك شأن البوخارينيين. فكما أن بوخارين يتحدث عن «الاستغلال الإقطاعي لطبقة الفلاحين» يدين الكولاك «العبودية».

ما العمل بطبقة الكولاك؟

كيف ينبغي التعامل مع الكولاك؟ كتب كاريبينسكي. وهو مسؤول رفيع في الحزب، في حزيران عام 1929 بأنه ينبغي السماح للكولاك، حينما يشمل التجميع غالبية الأسر الفلاحية، بالالتحاق بالكولخوز بشرط أن يقدموا كل وسائل إنتاجهم إلى الأموال العامة. وقد أيده كامينسكي رئيس اتحاد الكولخوزات. وفي 4 تموز عام 1929 عُقد مؤتمر لمديرية الريف في اللجنة المركزية. وجرى تطوير وجهة النظر ذاتها في المؤتمر من قبل القيادة، ولكن أغلبية المندوبين، والمسؤولين المحليين في الحزب كانوا «معارضين قطعياً» لقبول الكولاك داخل الكولخوزات. وصرح أحد المندوبين:

«إذا ما دخل الكولاكي إلى الكولخوز فسيعمل بطريقة أو بأخرى على قلب التجمع من أجل العمل المشترك في الأرض إلى تجمع يرمي إلى التخلص من السلطة السوفييتية».

وفي تموز عام 1929، أعلن خاتيفيتش سكرتير منطقة الفولغا الوسطى بأنه ينبغي قبول الكولاك الذين يسلّمون وسائل الإنتاج بشرط أن يكون المحور الأساسي في الكولخوز من الفلاحين الفقراء والمتوسطين حصراً، وأن يكون للكولخوز قيادة جيدة.

مع ذلك كان هناك بعض التجارب اتخذت مجرى معاكساً. ففي كازاخستان كان هناك 700 عائلة من الأسياد نصف الإقطاعيين جرى إبعادهم في آب عام 1928 كانت كل عائلة منهم تملك على الأقل مئة رأس من الحيوانات. تمّ توزيعها على الكولخوزات التي أنشئت سابقاً، وعلى فلاحين فرديين كان يتم تحريضهم ودفعهم في الوقت نفسه إلى تشكيل الكولخوزات. وفي شباط عام 1929 كان أحد المؤتمرات المنطقية قد قضى بعدم قبول الكولاك. واتخذت منطقة شمال القوقاز القرار نفسه.

في 17 أيلول نشرت البرافدا تقريراً، أشبه بقنبلة متفجرة، تناول وضع كولخوز «المزارع الأحمر» في منطقة الفولغا السفلى الذي أنشيء عام 1942. كان هذا الكولخوز النموذجي قد تسلم 300.000 روبل كتسليفات من الدولة. ولكن قيمة الملكية المشركة فيه لم تكن تعادل في عام 1929 سوى 1800 روبل. كانت التسليفات قد اختلست أو استخدمت في أغراض شخصية. كان رئيس الكولخوز واحداً من قدامى الاشتراكيين الديمقراطيين. وكانت إدارة الكولخوز تضم بين أعضائها تجاراً سابقين، ابن كاهن الكنيسة، وأربعة آخرون من قدامى الاشتراكيين الديمقراطيين. وقد أجمل مولوتوف تلك القضية قائلا: ثمة عناصر كولاكية واشتراكية ديمقراطية احتجبوا خلف ستار الكولخوز الدخاني المضبب.

كان لا مناص إذن من «الصراع دون رحمة» ضد الكولاك، وتحسين عملية تنظيم الفلاحين الفقراء، وتقوية اللحمة بين الفلاحين الفقراء والمتوسطين.

عام 1929 وفي شهر تشرين الثاني عرض صحافي مختص بشؤون الزراعة هو عزيز يان، الأسباب والمعللات التي تدفع الكولاك للانضمام إلى الكولخوز: إنهم يريدون بادئ ذي بدء تجنب الضغوط الضريبية، وضغوط التسليم الإجباري لأقماحهم. والاستئثار بأفضل الأراضي والاحتفاظ بأدواتهم وآلاتهم، وتأمين تعليم أبنائهم. وفي الفترة نفسها أدلى صحفي آخر بتحليل للدوافع المتناقضة:

إن «النصف الضعيف من النوع «الإنساني» يتعاطف مع الكولاك، غير أن المزارعين الجماعيين حاسمون في قولهم ينبغي «طرد الكولاك من القرية إلى السهوب، وإبقاؤهم هناك أربعين إلى خمسين سنة».

وقد استخلص قرار اللجنة المركزية الصادر في 5 كانون الثاني عام 1930 خلاصة من كل تلك السجالات وأكد بأنه ينبغي «الانتقال، على صعيد العمل الإجرائي اليومي، الذي يقوم به الحزب، من سياسة الحد من النزعات الاستغلالية لدى الكولاك إلى سياسة تصفية الكولاك، بوصفهم طبقة». «لم يعد مقبولاً السماح للكولاك الالتحاق بالكولخوزات».

صراع مستميت

بعد ذلك القرار الذي أعلن نهاية العلاقات الرأسمالية في الريف انخرط الكولاك في صراع مستميت لتقويض تجربة التجميع الزراعي. كان رجال الكولاك يحرقون المحاصيل ويشعلون النار في أهراءات الحبوب، وفي المنازل والمباني. ويقتلون المناضلين الحزبيين.

غير أنهم كانوا، على الأخص، مصممين على أن يجعلوا من المستحيل دوران عجلة المزارع الجماعية، وذلك، بتدميرهم جزءاً أساسياً من القوى الإنتاجية في الريف كالخيول والأبقار. ولأن العمل في الأرض كان ما يزال يعتمد اعتماداً كلياً على حيوانات الجر. فقد أباد الكولاك نصفها. وحتى لا يرغموا على تسليم ماشيتهم إلى الملكية الجماعية كانوا يقتلونها ويحرضون الفلاحين المتوسطين على أن يفعلوا مثلهم.

من أصل أربعة وثلاثين مليوناً من الخيول كانت تملكها البلاد عام 1928 لم يبق على قيد الحياة منها عام 1932 سوى 15 مليوناً فقط. تحدث عن ذلك تقرير بلشفي موجز. ومن بين 70.5 مليوناً من فصيلة الأبقار، كان قد بقي حياً منها 40.7 مليوناً عام 1932. ومن بين 31 مليون بقرة حلوباً بقي 18 مليوناً. ومن بين 26 مليون خنزير بقي 11.6 مليون خنزير. وكلها انتقلت إلى تجربة التجميع الاشتراكية.

كان لهذا التدمير المقصود للقوى الإنتاجية نتائج كارثية بالتأكيد. ففي عام 1932 شهد الريف مجاعة كبرى، تسببت جزئياً عن التخريب والتدمير الذي اقترفته أيدي الكولاك، ولكن أعداء الشيوعية ينسبون إلى ستالين وإلى «التجميع القسري» ما خلفته جرائم الكولاك من ضحايا.

قرار نزع الكولاكية

في كانون الثاني عام 1930 هبت حركة عفوية، غايتها استئصال شأفة الكولاك وقد حيّاها كوسيور. ودعا منظمات الحزب إلى دعمها وتنظيمها وعدم التضييق عليها من أجل «توجيه ضربة ساحقة للنفوذ السياسي، وبخاصة للمستقبل الاقتصادي لطبقة الكولاك في القرى».

وصرّح كريلنكو بعد شهر من ذلك: «ثمة حركة عفوية لنزع الكولاكية نشأت محلياً في بعض الأماكن، وكانت منظمة جيداً».

في 30 كانون الثاني من عام 1930 اتخذت اللجنة المركزية قراراً بقيادة الحركة من أجل نزع الكولاكية والتي كانت عفوية وقد نشر القرار تحت عنوان: «بصدد الإجراءات الهادفة إلى استبعاد الأسر الكولاكية من مناطق التجميع الزارعي المعلن عنها.

وحسب القرار، فإن العدد الكلي للأسر الكولاكية، من كافة الفئات، لم تكن تتجاوز 3٪ ـ 5٪ في مناطق زراعة الحبوب و2٪ ـ 3٪ في المناطق الأخرى.

الفئة الأولى، وكانت تضم المعادين النشيطين للثورة، وقد كلّف البوليس السياسي OGPU بتقرير ما إذا كان أحد الكولاك ينتمي إلى هذه الفئة. وحدد القرار عدد هؤلاء بـ 63.000 أسرة حصراً، في سائر الاتحاد السوفييتي. كان يُفترض مصادرة وسائل إنتاجهم، وملكياتهم الشخصية. أما أرباب الأسر فسيحكم على بعضهم بالسجن وعلى البعض الآخر بالحجز في المعسكر. و«منظمو الأعمال الإرهابية، ومناورات التضليل والعداء ضد الثورة، وحالات العصيان والتمرد» كان من المحتمل أن يُحكموا بالإعدام، ثم كان لا بد من نفي أسرهم، على غرار عقوبة الأشخاص من الفئة الثانية.

الفئة الثانية: وكانت تضم الكولاك الآخرين النشيطين سياسياً، وبخاصة منهم، الكولاك الأكثر ثراء، والملاكين العقاريين القدامى. هذه الفئة «كانت تظهر معارضة أقل حدة تجاه الدولة السوفييتية، غير أنها كانت تتشكل من كبار المستغلين، وكانت بطبيعتها تدعم الثورة المضادة». أما القوائم التي تضم هذه الفئة فينبغي أن تكون معدّة من قبل سوفييت المقاطعة وموافقاً عليه من قبل سوفييت الأوكروج، على قاعدة القرارات التي تتخذها مجالس المزارع الجماعية، أو مجموعات الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين. وقد حُدد عددهم، في كامل أراضي الاتحاد السوفييتي بـ 150.000 أسرة. كان ينبغي

مصادرة الجزء الأكبر من وسائل إنتاجهم ومن ممتلكاتهم الشخصية. ولكنهم يحتفظون بكمية من الغذاء، وبمبلغ يصل إلى حوالي 500 روبل. وكان ينبغي أيضاً نفيهم إلى سيبيريا، أو إلى كازاخستان أو إلى داخل الأورال.

في داخل الفئة الثالثة كانت تتواجد أغلبية الكولاك، الذين كان من الممكن أن ينضووا تحت جناح السلطة السوفييتية. وهذه الفئة كانت تضم ما بين 390.000 و852.000 أسرة. والقليل من وسائل إنتاجهم فقط قد صودر. وقد تم نقلهم وإنزالهم في أراض عذراء غير محروثة من المقاطعة التي يقيمون فيها.

غداة يوم 31 كانون الثاني نشرت البرافدا مقالاً افتتاحياً جاء فيه: إن تصفية الكولاك، بوصفهم طبقة، كانت «المعركة الأخيرة ضد الرأسمالية الداخلية، والتي يجب أن تخاض إلى نهايتها. ما من شيء ينبغي أن يعترض طريقنا. فالكولاك، بوصفهم طبقة سوف لن يغادروا مسرح التاريخ من دون مجابهة من أشرس المجابهات».

حملة الهجوم على الكولاك تضاعف قوتهم

جرى تسجيل ألف حادث إرهابي من قبل الكولاك في سيبيريا، خلال الأشهر الستة الأولى من عام 1930. وما بين 1 كانون الثاني و10 آذار أدين 19 «منظمة معادية للثورة» و465 «عصبة معادية للسوفييتيات من الكولاك» تضم كلها أكثر من 4000 عضو. وحسب رواية مؤرخ سوفييتي كتبها عام 1975: «في الفترة الممتدة ما بين كانون الثاني ومنتصف آذار عام 1930، نظم الكولاك في سائر أرجاء البلاد (ما عدا أوكرانيا) 1687 تظاهرة مسلحة ترافقت مع قتل أعضاء في الحزب والسوفييتات ونشطاء كولخوزيين، ومع تدمير مملتكات كولخوزية». ففي أوكروج سالاسك في شمالي القوقاز اندلعت فتن طوال أكثر من أسبوع من شهر شباط، دمرت خلالها مبان للسوفييتيات وللحزب. وكثير من المخازن أيضاً. أشعل فتيلها كولاك كانوا ينتظرون ترحيلهم إلى المنفى، ورفعوا شعارات على غرار:

«من أجل سلطة السوفييتيات، دون شيوعيين، ودون كولخوزات»، «نعم لحلّ خلايا الحزب، ولحل الكولخوزات» «تحرير الكولاك المعتقلين، ورد المتلكات المصادرة». وفوق ذلك، كانوا يهتفون «يعيش لينين، والسلطة السوفييتية، تسقط الكولخوزات».

في نهاية عام 1930، تم انتزاع ملكية 330.000 أسرة كولاكية من الفئات الثلاثة 1، 2، 3، انتزعت أملاك أغلبيتهم ما بين شباط ونيسان. ولم يكن معروفاً عدد الكولاك، من الفئة الأولى الذين تم إبعادهم ولكن من المرجح أن 63.000 أسرة كانوا أول من تلقى الضربة. أما عدد الذين أعدموا من هذه الفئة فليس معروفاً أيضاً. وبلغ عدد الأسر المنفية من الفئة الثانية 77.975 أسرة في نهاية عام 1930. كذلك فإن الأغلبية العظمى من الذين انتزعت ملكياتهم كانوا من الفئة الثالثة. والبعض منهم أعيد إنزاله في قريته نفسها. والغالبية منهم في مقاطعتهم.

كاوتسكي و«ثورة الكولاك»

في اللحظة التي كان الكولاك يشنون فيها آخر معاركهم ضد الاشتراكية، تلقّوا، على الصعيد العالمي، تأييداً غير منتظر. ففي عام 1930 عبّأت الاشتراكية الديمقراطية البلجيكية والألمانية والفرنسية صفوفها ضد البلاشفة. في اللحظة ذاتها التي كانت تجتاح البلاد الأوربية أزمة مريعة. وفي عام 1930 نشر كاوتسكي كتاباً بعنوان «البلاشفة في المأزق». أكد كاوتسكي بأن من الضروري قيام ثورة ديمقراطية في الاتحاد السوفييتي ضد «الأرستقراطية السوفييتية» وعبر عن أمله في أن «تمرداً فلاحياً ظافراً ضد النظام البلشفي» سنيفجر وشيكاً داخل الاتحاد السوفييتي. وتحدث عن «انحدار البلشفية نحو الفاشية» والذي «أصبح واقعاً منذ حوالي عشر سنوات».

وهكذا، فمنذ عام 1930 طفقت الاشتراكية الديمقراطية تصدح بأغنيتها المكرورة: «الشيوعية = الفاشية». تلك الاشتراكية الديمقراطية التي كانت تؤيد الاستعمار، وتبذل كل جهدها لإنقاذ الرأسمالية من أزمة 1929 الاقتصادية. والتي كانت تنظم أو تدعم القمع ضد العمال، والتي كان جزء كبير منها متهيئاً للتعاون مع النازية.

واستخلص كاوتسكي:

«إن مطلبنا الرئيسي هو الديمقراطية للجميع». ثم دعا إلى قيام جبهة موحدة عريضة مع اليمين الروسي من أجل «جمهورية ديمقراطية برلمانية».

لخّص كاوتسكي خط الاشتراكية الديمقراطية عام 1930 في صراعها ضد الاتحاد السوفييتي بـ«ثورة ديمقراطية» ضد «الأرستقراطية السوفييتية» وضد «الانحطاط الفاشي البلشفي» من أجل تحقيق «ديمقراطية للجميع» وإقامة

«جمهورية ديمقراطية برلمانية». وقد تم تبني برنامجه عام 1989 من قبل مجددي الرأسمالية في أوربا الشرقية والاتحاد السوفييتي.

زهوة النجاح

في الأول من آذار عام 1930 بلغ معدل الأسر الفلاحية المنضمة إلى الكولخوزات 57.2٪ وبلغ المعدل في المنطقة الوسطى للأراضي السوداء 83.3٪، وفي شمال القفقاس 79.4٪ وفي الأورال 75.6٪ وفي منطقة موسكو 74.2٪، وقد طلب سكرتير الحزب في منطقة موسكو بومان، أن يتحقق التجميع الكامل حتى 10 آذار. وفي الفولغا السفلى بلغت نسبة الأسر 70.1٪. وفي الفولغا العليا 60.3٪ وفي أكرانيا 60.8٪.

هذا التطور الجامح للحركة الكولخوزية، مثله مثل المقاومة العنيفة للكولاك والتي جرّت وراءها جزءاً من الفلاحين المتوسطين، قد أثارا من جديد نقاشات حية وألقيا الضوء على وجهات نظر متعارضة داخل الحزب.

في 31 كانون الثاني كان ستالين ومولوتوف قد أرسلا برقية إلى مكتب الحزب في آسيا الوسطى أشارا فيها إلى أنه «كان ينبغي أن تقدّم قضية التجميع على نحو يجعل جماهير الفلاحين تنخرط فيه فعلاً عن قناعة ورضى».

وفي 4 شباط، وبناء على توصية من اللجنة المركزية، وجهت لجنة الفولغا الوسطى تعليمات إلى المنظمات المحلية تنص على أن «التجميع يجب أن يُنجز على قاعدة تكثيف نشاط دعائي واسع بين الفلاحين الفقراء والمتوسطين، وشن نضال حاسم ضد أدنى محاولة لدفع الفلاحين الفقراء والمتوسطين لإدخالهم في الكولخوزات، باللجوء إلى الأساليب الإدارية».

وفي 11 شباط، ولدى انعقاد مؤتمر مناطق الأقليات القومية (آسيا الوسطى، وما وراء القفقاس) حذر مولوتوف من «كولخوزات على الورق». وعقب هذا المؤتمر أدينت الأساليب الإدارية المستخدمة في أوزبكستان وفي منطقة الشيشان، كما أدين التقصير في تهيئة جماهير الفلاحين.

وفي 13 شباط عزلت لجنة الحزب في منطقة شمالي القفقاس عدداً من مسؤولي المقاطعات وسوفييتات القرى من مناصبهم بتهمة «الاستخدام الإجرامي لأساليب إدارية، والانحراف عن الخط الطبقي، بتجاهلهم الكامل توجيهات

الأجهزة العليا. والضعف الإداري في عمل السوفييتات، والغياب الكامل للعمل بين الجماهير. واتخاذ موقف فظ وقاس تجاه الناس» وفي 18 شباط انتقدت اللجنة، التشريك الكامل والقسري للأبقار والدجاج والحدائق، ودور حضانات الأطفال. وعدم الانصياع الكامل بخصوص نزع الكولاكية، وقد لاقت هذه المواقف النقدية استحسان ستالين.

ستالين يصحح

في 2 آذار عام 1930 نشر ستالين مقالة مدوية عنوانها زهوة النجاحات.

أكد ستالين على أنه في بعض الحالات «جرى انتهاك المبادئ اللينينية في الانضواء الحر للفلاح لدى تشكيل الكولخوزات» ينبغي أن يتمكن الفلاحون من الاقتناع، عبر تجربتهم الذاتية «بقوة وأهمية التقنية الحديثة، والتنظيم الجديد، التعاوني» ففي تركمانستان جرى تهديد الفلاحين بالسلاح فيما لو تلكؤوا في الدخول إلى الكولخوزات. بالإضافة إلى ذلك، ينبغي الأخذ بنظر الاعتبار اختلاف الظروف بين منطقة وأخرى».

«يجري السعي غالباً إلى الاستعاضة عن العمل التمهيدي في بناء الكولخوزات بالإعلان عن الحركة الكولخوزية عبر المراسيم البيروقراطية، وعبر القرارات على الورق حول الزخم الذي تشهده الكولخوزات. وبتنظيم كولخوزات وهمية مختلقة، ليس لها أي وجود في الواقع، ولكنها موجودة في زحمة من القرارات الطنانة المتشدقة».

ثم إن هناك من يريد «تشريكاً كاملاً» فاندفعوا في «محاولات مضحكة في إرادة القفز فوق الذات». وهذا «الاندفاع العبثي والمضر» لا يعدو أن يكون «صب الماء في طاحونة عدونا الطبقي». والحال فإن الشكل السائد للحركة الكولخوزية ينبغي أن يكون شكل التعاونية الزراعية.

«في التعاونية يشمل التشريك وسائل الإنتاج الرئيسية، وعلى الأخص تلك التي تستخدم في زراعة الحبوب، والعمل، والانتفاع بالأرض، والآلات، والمعدات الأخرى، وحيوانات الجر، ولا يكون مشركاً فيها الأراضي المتاخمة للمزارع (بساتين صغيرة، حدائق) والمساكن، وقسم من المواشي الحلوب، والدواجن، الخ. إن التعاونية الزراعية هي الحلقة الرئيسية في الحركة الكولخوزية لأنها الشكل الأكثر معقولية والقادر على حل مشكلة الحبوب. والحال، فإن مشكلة الحبوب هي الحلقة المركزية في سائر منظومة الزراعة».

في 10 آذار صدر قرار عن اللجنة المركزية استعاد هذه النقاط وأشار إلى أنه «في بعض المقاطعات ارتفعت نسبة «الكولاك الذين طُبقت عليهم سياسة نزع الكولاكية 15٪». كانت لجنة مشكلة من اللجنة المركزية تدقق في حالة هؤلاء الكولاك المرسلين إلى سيبيريا فتبين لها أنه من بين 46.261 حالة جرى فحصها كان هناك 6٪ من المنفيين ظلماً، وخلال ثلاثة أشهر «أعيد الاعتبار إلى 70.000 أسرة في خمس مناطق» وهذا الرقم ينبغي أن يُقارن بـ 330.000 أسرة جُردت من ممتلكاتها في الفئات الثلاث عام 1930.

تصويب وتوطيد

هنديس مواطن أمريكي من أصل روسي. كان في قريته التي وُلد فيها حينما وصلت مقالة ستالين إليها. وإليكم شهادته التي أدلى بها.

«في السوق، تجمع فلاحون، يقرؤون بصوت عال مقالة ستالين، ثم راحوا يتناقشون طويلاً بشيء من الحدة. وكان البعض منهم قد أخذه الحماس إلى حد أنهم اشتروا من الفودكا كل ما يمكنهم شراءه، وما يرغبون به».

«كان ستالين قد غدا خلال بعض الوقت بطلاً شعبياً عبر مقالته زهوة النجاح» حسبما كتبت لين فيولا.

في الفترة التي كتب فيها ستالين مقالته، كان 59٪ من الفلاحين قد انضموا إلى الكولخوزات. وكان ستالين يأمل، بداهة، أن تبقى أغلبيتهم فيها.

«تتمثل مهمة حزبنا في توطيد النجاحات المتحققة، واستخدام هذه النجاحات على نحو منهجي من أجل مواصلة التقدم.»

كان المرسوم الصادر في 3 نيسان يقتضي القيام بتدابير خاصة تهدف إلى توطيد الكولخوزات القائمة. فالمزارعون التعاونيون كان بمقدورهم اقتناء عدد من الحيوانات، وزراعة رقعة من الأرض لحسابهم. وجرى تقديم اعتماد قدره 500 مليون روبل لصالح الكولخوزات للسنة الجارية، وإلغاء العديد من ديون الكولخوزات والكولخوزيين، والدفوعات المستحقة أيضاً. وأُعلن عن تخفيضات ضريبية خلال السنتين القادمتين. وفي أواخر آذار حذر مولوتوف من انفراط شمل الكولخوزيين، وألح على المحافظة قدر المستطاع على الدرجة التي بلغها التجميع بالمبادرة فورا إلى تصحيح الأخطاء.

«ما نضعه نصب أعيننا، هو أن نتحرك بذكاء لنضمن مستوى ما من التنظيم حتى لو لم يكن طوعياً تماماً. وأن نوطد الكولخوزات».

غير أنه كان من الضروري تصحيح الأخطاء اليسارية والبيروقراطية على حد سواء، بدون هوادة. ففي 4 نيسان أقيل بومان، سكرتير لجنة موسكو الحزبية وكان أحد معاقل «اليسارية» أما كاغانوفيتش الذي خلفه فأصدر قراراً بعزل 153 مسؤولاً في المقاطعة والأوكروج من مناصبهم.

الانتهازية اليمينية ترفع رأسها

في عالم ريفي يسود فيه الإنتاج الصغير، فإن النقد الصادر عن ستالين كان يستتبع، بالضرورة، أخطارا جسيمة، فالحماس المضطرم الذي كان يثيره النقد ما يلبث أن يتحول إلى خور، بسهولة، والانتهازية اليمينية حاضرة دوماً، ويمكن أن ترفع رأسها. في أية لحظة تتكشف فيها أخطاء اليساريين بنحو فاضح. كان يُلاحظ لدى عدد كبير من المسؤولين شعور بالهلع والبلبلة، كانت معنوياتهم وثقتهم بأنفسهم مزعزعة. وكان البعض يؤكد بأن مقالة ستالين قوّضت العديد من الكولخوزات القابلة للحياة والاستمرار، وأنها قدّمت كثيراً من التنازلات للكولاك، وسجلت تراجعاً أمام الرأسمالية.

في داخل الحزب، بوجه عام، كانت نزعات اليمين الانتهازية، التي تلقّت ضربة عامي 1928 ـ 1929 ما تزال متجذرة فعلاً. وكان البعض، من المذعورين من شراسة وعنف الصراع الطبقي، في الريف يحاول أن يستفيد من النقد الموجه إلى التجاوزات المخلّة أثناء عملية التجميع، كي يطلق من جديد حملة من النقد ضد التجميع نفسه. إن سيرتسوف مثلاً، كان قد انتمى إلى فريق بوخارين ذي الميول الانتهازية اليمينية عام 1927. غير أنه في حزيران عام 1930 تحدث عن «اللامبالاة والعدمية، الملاحظتين، في العملية الإنتاجية، لدى جزء كبير من الفلاحين المنضمين إلى الكولخوزات». وشن هجوماً على «المركزة، والبيروقراطية» اللتين تسودان داخل الكولخوزات، وتحدث عن أنه كان ينبغي «تطوير مبادرة الفلاحين على أسس جديدة». لقد كان ذلك موقفاً استسلامياً، وانعطافاً نحو موقف الكولاك. وفي آب عام 1930 سيحذر سيرتسوف من إطلاق حركة التجميع، على عواهنها. وسيتحدث عن أن الكولخوزات لا قيمة لها إن لم تمتلك قاعدة تقنية صلبة. وسيعبر في الوقت نفسه عن الارتياب في الآفاق المنظورة لمصنع الجرارات في ستالينغراد. وفي شهر كانون الأول من عام 1930 أقصي سيرتسوف عن اللجنة المركزية.

اندفاع أعداء الشيوعية

كان سائر العناصر المعادية للحزب يحاولون أن يحولوا اتجاه النقد الموجه إلى التجاوزات في حركة التجميع، نحو قيادة الحزب، ونحو ستالين، مهاجمين القيادة اللينينية بحجج اليمين تارة، وبعبارات «اليسار» تارة أخرى. كانوا عازمين على فتح الأبواب لتمرير مواقف المعادين للشيوعية. وفي اجتماع داخل أكاديمية تيميريازيف الزراعية، هتف أحد الرجال في داخل الصالة.

«أين كانت اللجنة المركزية أثناء التجاوزات؟» وتصدى مقال افتتاحي في صحيفة البرافدا، في 27 أيار ليدين الديماغوجيين الذين كانوا يحاولون استخدام نقد الأخطاء «لتشويه سمعة القيادة اللينينية للحزب».

ومن على منصة قاعة الاجتماع صرخ أحدهم ويدعى مامايف:

«من دون أية نية سيئة، يبقى السؤال هو من الذي ملأ الزهو رأسه؟ لقد كان ينبغي الكلام عن مرضه الخاص، وليس توجيه درس إلى جماهير الحزب» وأدان مامايف «التطبيق المكثف لإجراءات القمع ضد الفلاحين الفقراء والمتوسطين». فليس الريف مهيأً للتجميع ما دمنا لم نتمكن من مكننته. ثم هاجم «البقرطة المتنامية باطراد» في الحزب، وأدان «التحريض المفتعل على الصراع الطبقي». وقد أدين، مامايف، بحق «كعميل للكولاك في قلب الحزب».

بعد طرده من الاتحاد السوفييتي، سيتخذ تروتسكي، من الآن فصاعداً، وبنحو منهجي تقريباً مواقف معاكسة لكافة المواقف التي يتبناها الحزب. ففي شباط عام 1930 أدان تروتسكي حركة التجميع، ونزع الكولاكية، على أنهما «مغامرة بيروقراطية». وتحدث في آذار، عن أن محاولة بناء الاشتراكية في بلد واحد، على قاعدة المعدات والأدوات المتخلفة للفلاح الروسي محكومة بالفشل. وتحدث تروتسكي عن «الطابع الطوباوي والرجعي لتجميع زراعي مئة بالمئة». «إن التنظيم القسري لمزارع جماعية تعاونية من دون القاعدة التكنولوجية، التي ستتيح وحدها ضمان التفوق على المزارع الصغيرة» لهو طوباوية رجعية.

«ستنهار الكولخوزات. يتنبأ تروتسكي، فيما هي تنتظر قاعدتها التكنولوجية»

هذه الحملات النقدية من قبل تروتسكي، الذي كان يزعم أنه يمثل «اليسار» لم تكن تختلف قيد شعرة عن تلك الحملات المنطلقة من أفواه الانتهازيين اليمينيين.

أما راكوفسكي، التروتسكي الرئيسي الذي ظل في الاتحاد السوفييتي، منفياً في الداخل. فقد دعا إلى الإطاحة «بالقيادة الوسطية، التي يقودها ستالين». وتحدث عن أن الكولخوزات ستنفجر عاجلاً أم آجلاً، وستتشكل داخل الريف جبهة ضد الدولة الاشتراكية. وأنه لا ينبغي تثبيط همة الكولاك في عملية الإنتاج من خلال الحد من وسائل إنتاجهم. ولا بد كذلك، من استيراد منتجات صناعية مخصصة للفلاحين، وتقليص نمو الصناعة السوفييتية. واعترف راكوفسكي بأن مقترحاته مشابهة لمقترحات اليمين البوخاريني. ولكن: «نحن انسحبنا بسبب هذا الوضع المؤسف، أما هم فقد ولوا الفرار من ساح القتال.»

تراجع وخبرة

أخيراً فإن معدل التجميع هبط من 57.2٪ في الأول من آذار عام 1930 إلى 21.9٪ في الأول من آب ثم عاد وارتفع إلى 25٪ في كانون الثاني عام 1931.

ففي المنطقة الوسطى للأراضي السوداء هبط الرقم من 83.3٪ في أول آذار إلى 15.4٪ في أول تموز. وفي منطقة موسكو سجلت النسبة هبوطاً من 74.6٪ إلى 7.5٪ في الأول من أيار وتحسنت نوعية العمل السياسي والتنظيمي بين الفلاحين، وانعكست آثارها الإيجابية على الفلاحين الذين انسحبوا من الكولخوزات ففي حوض الفولغا الأدنى، كان معدل المنضمين إلى الكولخوزات 70.1٪ في أول آذار بقي منهم بعد الانسحابات 35.4٪ في أول آب ثم ارتفعت النسبة من جديد إلى 57.5٪ في أول كانون الثاني عام 1931. وفي شمالي القفقاس كانت نتائج العمل بين الفلاحين المنسحبين أفضل، فمن نسبة 79.4٪ في أول آذار إلى 50.2٪ في أول تموز إلى 60٪ في أول كانون الثاني عام 1931.

مع ذلك فإن الخبرة المكتسبة من هذه الموجة الكبيرة الأولى في حركة التجميع كانت عظيمة بوجه عام.

لقد تجاوزت معدلات التجميع الكثيفة ما كان متوقعاً لها في نهاية الخطة الخمسية الأولى أي في عام 1933. ففي أيار من عام 1930، وبعد الانسحاب الكثيف من الكولخوزات، ظل ستة ملايين أسرة فلاحية، دائماً، في عداد العاملين في الكولخوزات، مقابل مليون أسرة في حزيران عام 1929. وصار متوسط الأسر في الكولخوز 70 أسرة في مقابل 18 أسرة في حزيران عام 1929. أما مستوى العمل في التجميع فقد صار أكثر ارتقاء. وغدت الكولخوزات على

الأخص مزارع تعاونية، لا تجمعات فلاحية للعمل التعـاوني في الأرض. وازداد عدد حيوانات الجر من 2.11 مليون في كانون الثاني عام 1930 إلى 4.77 مليـون في أيار عام 1930. وفي داخل الكولخـوزات بلـغ عـدد أعضـاء الحـزب 81.957 عضواً في أول حزيران عام 1929، وارتفع عددهم في أيار عام 1930 إلى 313.220 عضواً. قبل الموجة الأولى من التصنيع، كانت الكولخوزات تضم على الأخـص، فلاحين لا يملكون أرضاً وفلاحين فقراء. أما الآن، فإن عدداً كبيراً من الفلاحين المتوسطين قد اشتركوا فيهـا ففـي أيـار كـانت نسبة 32.7٪ مـن أعضـاء قيـادة الكولخـوزات مـن العمـال المتوســطين. وفي أيــار عــام 1930 ارتفــع رأسمــال الكولخوزات غير القابل للقسمة إلى 510 مليون روبل، كان 175 مليوناً منها مـن الأموال المنتزعة من الكولاك.

نتائج باهرة

بالرغم مــن التقلبـات والاضطرابـات الهائلـة الناجمـة عـن التجميـع، كـان المحصول عام 1930 رائعاً. وكان للأحوال المناخية الطيبة دور في ذلك وهـو مـا أدى بالحزب إلى الاستخفاف بالصعوبات التي كانت ما تزال في الطريق.

وتبعاً لإحصائيات مختلفة، كان محصول الحبوب قد بلغ رقماً، يتراوح مـا بين 77.2 إلى 85.5 مليــون طـن، في حـين كـان عـام 1929، 71.7 مليـون طـن. وبفضل التخطيط الوطني الناجح، زادت المحاصيل الغذائية الصناعيــة، وعلـى الأخص، محصول القطن، والشوندر 20٪. بالمقابل، فإن الإنتـاج الحيوانـي قـد انخفض، بسبب ضعف قسم كبير من البهائم، مـن 5.68 مليـار روبـل إلى 4.40 بهبوط يعادل 22٪.

عام 1930، حقق مجموع القطـاع التعـاوني (الكولخـوزات، السـوفخوزات، رقع الأرض الفردية الخاصة بالكولخوزيين) نسبة 28.4٪ مـن الإنتـاج الزراعـي الإجمالي، في مقابل 7.6٪ للسنة السابقة.

وارتفعت كمية الحبوب المسلّمة إلى المـدن مـن 7.47 مليـون طـن عـام 1929 ـ 1930 إلى 9.09 مليون طن عام 1930 ـ 1931 بزيادة قدرها 21.7٪ وهذه الزيـادة قدّمت دفعة عظيمة للصناعة. وارتفع عدد سكان المدن الذي كانوا يتلقون جراية من الخبز من 26 مليوناً إلى 33 مليوناً بزيادة مقدارها 27٪.

انخفض استهلاك المواد الغذائية انخفاضاً طفيفاً في الريف، منتقلاً من 6055 روبل للفرد الواحد عام 1928 إلى 6195 عـام 1929 إلى 5852 روبـل عـام 1930.

ولكن استهلاك المنتجات الصناعية ارتفع من 2829 روبل للفرد عام 1928 إلى 3220 روبل عام 1929 ثم إلى 3233 روبل عام 1930. وكان تطور الاستهلاك الكلي للسكان الريفيين قد سجل العلامة 100 عام 1928 و1054 عام 1929 و1024 عام 1930 وهكذا فإن مستوى الحياة في الريف لم يتحسن إلا بنحو زهيد، بينما كان قد انخفض في المدينة. فالاستهلاك الكلي للفرد الواحد في المدينة كان قد انخفض من العلامة 100 عام 1928 إلى العلامة 97.6 عام 1929 إلى 97.5 عام 1930.

هذه الأرقام تناقض اتهام بوخارين بأن ستالين خلق نظام «استغلال إقطاعي - بيروقراطي» لطبقة الفلاحين. لقد قدم كافة الشغيلة تضحيات هائلة من أجل التصنيع وكانت التضحيات المطلوبة من العمال الصناعيين، في أغلب الأحيان أشد وطأة من تلك المطلوبة من الفلاحين.

فمن أجل إطعام المدن وإنجاح التصنيع كانت الدولة السوفييتية قد حددت سعراً منخفضاً لشراء الحبوب، غير أنه كان قد لوحظ ارتفاع مهم في عائدات الفلاحين ناجمة عن البيع في السوق الحر، وعن ثمار أعمالهم الفصلية الأخرى، مثلما ذكر ذلك دافيه:

«كانت الدولة تسعى إلى تأمين حاجتها من المنتجات الزراعية الأساسية بأسعار أقل بكثير من سعر السوق. ولكن حينما جرت الموازنة بين ما تجمعه الدولة بأسعارها هي وبين مبيعات السوق الحر كمجموع، فإن الأسعار التي قدمت للمنتجين ارتفعت بسرعة أكبر من أسعار المنتجات الصناعية. وكانت معدلات التبادل التجاري المعدلة تميل، لصالح الزراعة».

«وبدا أن عملية الضبط والتحكم المركزة بالإنتاج الزراعي قد حققت بعض النجاحات في تحقيق غرضها الأول الذي كان ضمان تزويد سكان المدن بالغذاء وتزويد الصناعة ببعض المواد الزراعية الأولية».

انطلاق الزراعة الاشتراكية

في عام 1930 ظلت نسبة 78٪ من العائلات الفلاحية، منتجين فرديين يتوجهون بمحصولهم إلى السوق الحر. وكتبت البرافدا في 21 تشرين أول مايلي:

«في ظل الظروف التي نشهدها في هذا الخريف، حيث إن محصولنا الزراعي كان طيباً، وفي ظل حالة الأسعار المضاربة العالية جداً، للحبوب،

واللحوم والخضار، التي تباع في السوق الحر، فإن بعض عائلات الفلاحين المتوسطين تتحول بسرعة إلى عائلات متوسطة غنية وكولاكية».

الموجة الثانية من التجميع الزراعي

بين أيلول وكانون الثاني من عام 1930 انطلقت حملة دعائية جديدة للكولخوزات وصبّت القيادات الكولخوزية أكبر نشاطاتها على الفلاحين الفرديين المقيمين في محيط الكولخوزات كما دُعي إلى اجتماعات خاصة، أولئك الذين انسحبوا من الكولخوزات بعد آذار. وتشكلت 5625 «لجنة تعبئة» من الكولخوزيين، وتوجهت في أيلول إلى المقاطعات ضعيفة التجميع من أجل إقناع الفلاحين. وفي المنطقة الوسطى للأراضي السوداء دُعي 3.5 مليون فلاح إلى الاجتماعات العامة للكولخوزات للاستماع إلى التقرير السنوي ومناقشته.

وتواصل إبعاد الكولاكيين الذين يعيقون حركة التجميع ويحاولون تخريبها، وعلى الأخص في أوكرانيا، حيث بلغ العدد الكلي للمبعدين، في بداية عام 1931 خمسة وسبعين ألفاً، من الفئات الثلاثة.

ولكن حملة الخريف لعام 1930، من أجل التجميع كانت تعمل في ظل قيادة حذرة ومتبصرة من قيادة الحزب، تجنبت الشدة والضغط اللذين رافقا الموجة الأولى، ولم يكن هناك حملة مركزية لإبعاد الكولاك.

وما بين الأول من أيلول و31 كانون أول دخل إلى حومة الكولخوزات 1.120.000 عائلة. ومن الآن فصاعداً فإن 25.9٪ من الأسر اختارت الزراعة التعاونية.

وبتخصيص أفضل الأراضي، ومختلف أنواع الفوائد للكولخوزيين، فقد اشتد الضغط الاقتصادي على الفلاحين الفرديين خلال عام 1931.

وما بين حزيران عام 1930 وحزيران عام 1931 رفعت الموجة الكبيرة الثانية للتجميع عدد العائلات المجمّعة من 25.6٪ إلى 57.1٪.

وشهدت السنون الثلاثة التالية ارتفاعاً طفيفاً في عدد الأسر مقداره 4.6٪ وسطياً لتبلغ النسبة 61.4٪ في حزيران عام 1934.

ومن حزيران 1935 حتى حزيران 1936 ارتفعت نسبة الأسر إلى 83.2٪ ثم إلى 93.3٪ منجزة التجميع الزراعي بقسمه الأعظم.

وُصف التجميع الذي جرى عام 1930، في أغلب الأحيان، كما لو أنه مفروض بالقوة على جماهير الفلاحين. غير أننا سنبين بوضوح روح الإبداع الاجتماعي والاقتصادي الاستثنائي في تلك الفترة. ذلك الإبداع الثوري الذي أظهرته الجماهير والكوادر الثقافية والقادة الحزبيون. إن معظم الخطوط الأساسية للنظام الزراعي الاشتراكي قد تم «إبداعها» في مجرى النضال الممتد ما بين عامي 1929 ـ 1939. وقد اعترف دافييه بذلك حيث يقول:

«صُمم الكولخوز في البداية كشكل تنظيمي يتيح إدخال الإنتاج الموسع والممكنن إلى بلد زراعي متخلف. كان الكولخوز، بنحو جوهري، متمحوراً حول زراعة الحبوب، والزراعات الصناعية، وبخاصة القطن والشوندر. وكان إنتاج الكولخوزات يُسلَّم إلى الدولة بأسعار منخفضة، وهو ما سمح بدفع التصنيع الاشتراكي خطوات إلى الأمام. وغدت المبالغ التي تنفقها الدولة لتأمين حاجة سكان المدن من المؤونة الغذائية ولتزويد الصناعة بالمواد الزراعية الأولية، منخفضة جداً. أما الكولخوزيين فكانوا يعوَّضون عن ذلك من خلال عائداتهم الوفيرة التي كانوا يجنونها من بيع بعض محصولاتهم في السوق الحر ومن عائد ملكياتهم الإضافية».

ثم جرى ابتكار مراكز الآلات ـ جرارات كنهج رئيسي لإدخال الآلات إلى الريف. يكتب بتلهايم عن ذلك.

«على أساس قانوني خاص بالتجميع، أمكن للزراعة الاستفادة من الاستثمارات المكثفة التي حوّلت كلياً الشروط التقنية داخل المزارع الجماعية». «هذا الانقلاب الكلي للتقنية الزراعية لم يكن ممكناً إلا بفضل إحلال المزارع الكبيرة محل الصغيرة والمتوسطة».

ولكن كيف تم تحقيق النجاح في إدخال التقنية الحديثة إلى داخل الكولخوزات؟ ذلك لم يكن سهلاً.

خلال صيف عام 1927 كان ماركيفيتش قد وضع في شيفشنكو نظاماً مبتكراً. هو نظام مراكز الآلات ـ جرارات الذي كان يحتفظ برقابة مركزية على الآلات، ويضعها تحت تصرف الكولخوزات.

في بداية عام 1929 كانت معظم الجرارات بين أيدي الجمعيات التعاونية الزراعية للكولخوزات. وفي إحدى المؤتمرات كان هناك اقتراح ببيع الآلات

والجرارات إلى الكولخوزات. ذلك أن الفلاحين إن لم يمتلكوا ملكية مباشرة للآلات فلن يتحمسوا ليجمعوا لها التمويل اللازم. ولكن هيئة التفتيش العمالية والفلاحية وجهت نقداً في آب 1929 إلى التجارب التي امتلكت الجمعيات التعاونية الزراعية فيها الجرارات. فهذا النظام يجعل أي تخطيط جدي مستحيلاً. إذ لم يكن لدى السكان استعداد واف. فقد كانت تنقصهم ورشات الإصلاح. وكانت الأعطال كثيرة بسبب النقص في الصيانة.

في شباط عام 1930 تخلى الحزب عن تجربة الكولخوزات العملاقة التي كان لها شعبية كبيرة جداً لدى النشطاء، حتى ذلك الحين. وتبنى تجربة القرية ـ الكولخوز كقاعدة للتجميع. وفي أيلول عام 1930 قرر الحزب تجميع كافة الجرارات المستخدمة في الكولخوزات في مراكز خاصة أطلق عليها اسم مراكز الآلات ـ جرارات، تعود ملكيتها للدولة. واقترح ماركيفيتش تجميع 200 جرار، من أجل استخدام 40 منها في 50.000 هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة، ومعها ورشة للإصلاح، وشدد على ضرورة إدارة التكنولوجيا الزراعية من قبل «مركز تنظيمي موحد» للاتحاد السوفييتي بكامله. كان ينبغي اختيار المقاطعات ذات الأولوية ودراسة التكنولوجيا العالمية لاكتشاف أفضل أنواع الآلات، وتقنين ومركزة تقديم الآلات.

وفي ربيع 1930 أثبت هذا النظام تفوقه. فمراكز الـ SMT (مراكز الآلات ـ جرارات) لم تقدم خدمتها حتى ذلك الربيع إلا لـ 8٪ من الكولخوزات. وقد أثمر ذلك عن أن 62٪ من فلاحي هذه الكولخوزات ظلوا داخل كولخوزاتهم في لحظة «الانسحابات» وكان الجمع المركزي للمحاصيل من قبل الـ SMT غاية في السهولة، ما دامت الكولخوزات تسدد ربع محصولها لقاء تلك الخدمات. وكان للعاملين في SMT وضع العمال الصناعيين. وكممثلين للطبقة العاملة في الريف كانوا يمارسون تأثيراً حاسماً على الكولخوزيين في ميدان التربية السياسية والتقنية، وفي ميدان التنظيم. وتلقى 25.000 من سائقي وفنيي الجرارات تدريبهم عام 1930 وفي ربيع 1931 نظمت دورات لـ 200.000 شاب من أبناء وبنات الفلاحين لينضووا في سلك الـ SMT، كان 150.000 منهم سائقي جرارات.

في المقام الثالث تم تطبيق مبتكر لأجور الكولخوزيين هو نظام «أيام ـ عمل» فتبعاً لمرسوم بتاريخ 28 شباط 1933، تم توزيع الأعمال الزراعية إلى سبع فئات تعرفيّة حيث أن القيمة معبّراً عنها بـ «أيام ـ عمل» كانت تتغير من 0.5 إلى 1.5. وهذا يعني بأن العمل الأكثر مشقة والأكثر صعوبة كان يكافأ بثلاثة أمثال

العمل الخفيف والسهل. أما الريع الذي يحققه الكولخوز فكان يُوزع في نهاية العام بين الكولخوزيين تبعاً لعدد الأيام - عمل وقد بلغ متوسط الريع للعائلة الواحدة في مناطق زراعة الحبوب 600 كيلوغراماً من الحبوب و108 روبل عام 1932. وفي عام 1937 ارتفع إلى 1.741.7 كيلوغرام حبوب و376 روبل.

وأخيراً تم إيجاد توازن بين العمل الجماعي وبين النشاط الفردي للفلاحين الكولخوزيين. فالتشريع النموذجي للكولخوز الذي أقر في 7 شباط عام 1935 حدد المبادئ الأساسية للكولخوز، والتي كانت ثمرة خمس سنوات من النضال والتجربة. ففي عام 1937 مثلت المساحة المزروعة على شكل قطع فردية من الأرض من قبل الكولخوزيين 3.19٪ من كامل مساحة الأراضي المزروعة. ولكن الكولخوزيين كانوا يحصلون منها على 20٪ من ريعهم. كان يمكن لكل أسرة أن تمتلك ثلاثة رؤوس من الحيوانات ذوات القرون، إحداها بقرة، بالإضافة إلى خنزيرة وخنوص، وعشرة خرفان ونعاج، وعدد غير محدود من الدواجن والأرانب.

الاستثمارات في الريف

في نهاية عام 1930 كانت مراكز الآلات - جرارات SMT تضع يدها على 31114 جراراً وتبعاً للخطة كان ينبغي أن يكون في حيازتها 60000 جرار عام 1931. ولكن، لم يتم بلوغ هذا الرقم. وفي عام 1932 كانت SMT تمتلك 82700 جرار. أما الباقي من وحدات الجرارات التي تبلغ 148500 فكانت في حوزة السوفخوزات.

إن الرقم الكلي للجرارات سيزداد في السنوات اللاحقة من الثلاثينيات بصورة ثابتة فمن 210.900 جرار عام 1933 إلى 276.400 عام 1934، ثم يقفز إلى 360.300 جرار في عام 1935 فـ 422.700 عام 1936. وفي عام 1940 بلغ عدد الجرارات في الاتحاد السوفييتي 522.000 جرار.

في بداية عام 1929 كان عدد الجرارات في ريف الاتحاد السوفييتي 18.000 جرار محسوبة في وحدات من 15 حصاناً، وكان هناك 700 شاحنة وحصادتان. وفي بداية عام 1933 كان هناك 148.000 جرار و14.000 شاحنة ومثلها من الحصادات. في بداية الحرب العظمى عام 1941 كانت الكولخوزات والسوفخوزات تستخدم 684.000 جرار (ذات وحدات قدرها 15 حصاناً) و228.000 شاحنة و182.000 حصادة.

تتشنج البرجوازية غيظاً بسبب القمع الذي قاساه الفلاحون الأغنياء بسبب التجميع ولكن بقي أن نقول أن الفلاح الروسي، خلال عقد واحد من السنين، تجاوز تركة القرون الوسطى، ليصبح في قلب القرن العشرين. وكان تطوره الثقافي والتقني مذهلاً.

وهذا التقدم لم يكن سوى انعكاس للزيادة المتواصلة في الاستثمارات داخل الريف. فقد انتقل حجم الاستثمارات من 379 مليون روبل عام 1928 إلى 2590 مليون روبل عام 1930 ثم إلى 3645 مليون روبل عام 1931. وحافظ طوال عامين على هذا المستوى ليبلغ نقطة الأوج بـ 4661 مليون روبل عام 1934، ثم ليصل إلى 4983 مليون روبل عام 1935.

هذه الأرقام تعكس النظرية القائلة بأن الزراعة السوفييتية كانت «مستثمرة» من قبل المدينة. وما من اقتصاد رأسمالي كان سيمكنه القيام بمثل هذه الاستثمارات الهامة في الريف فقد انتقلت حصة الزراعة من مجموع الاستثمارات من 6.5٪ في عام 1924 إلى 25٪ في عامي 9131، 1932. وكانت الحصة 18٪ عام 1935.

الاختراق الهائل الذي حققته الزراعة الاشتراكية

شهد الإنتاج الزراعي اندفاعاً شاملاً بدءاً من عام 1933، العام السابق على التجميع إذ بلغ إنتاج الحبوب 71.7 مليون طن. وعرف العام 1930 إنتاجاً استثنائياً للحبوب بلغ 83.5 مليون طن. وفي عام 1931 و1932 كان الاتحاد السوفييتي في قاع الأزمة، وذلك على إثر التحولات الاجتماعية الاقتصادية، والمقاومة الشرسة للكولاك، والفوائد الطفيفة التي أمكن تقديمها للفلاحين، في تلك السنوات الحاسمة من الاستثمار الصناعي. والإدخال البطيء للآلات والجفاف. وقد هبط إنتاج الحبوب إلى 59.5 و69.9 مليون طن. ثم تلا ذلك ثلاث مواسم طيبة جاءت متتابعة منذ عام 1933 حتى 1935 وسجل الإنتاج على التوالي 89.8 مليون طن ثم 89.4 مليون طن ثم 90.1 مليون طن، ثم جاءت ظروف مناخية غاية في السوء، فخفضت الإنتاج عام 1936 إلى 69.3 مليون طن، ولكن وقع هذه الحالة جرى تخفيضه بفضل الاحتياطات من الحبوب. وفي السنة التي تلت ذلك أي عام 1937 سجّل الإنتاج رقماً قياسياً بلغ 120.9 مليون طن، واستمر يسجل هذه الأرقام المرتفعة للسنوات الواقعة بين عامي 1938 و1940، إذ سجل 94.99 مليون، ثم 105 مليون، ثم 118.8 مليون طن.

تهيأت الزراعة الاشتراكية للقفز، منذ أن أصبحت نتائج الاستثمارات الصناعية الطيبة محسوسة. وقد ركدت قيمة مجموع الإنتاج الزراعي ما بين أعوام 1928 و1934. ما بين حد أعلى قدره، 14.7 مليار روبل و13.1 مليار. ثم صعدت إلى 16.2 مليار روبل عام 1935، وإلى 20.1 مليار عام 1937، ثم إلى 23.2 مليار روبل عام 1940.

إن سكان الريف من الفلاحين الذين زاد عددهم من 120 مليون إلى 132 مليون شخص ما بين عامي 1926 و1940 قد تمكنوا من إطعام سكان المدن الذين زاد تعدادهم من 26.3 مليون إلى 61 مليون شخص في الفترة ذاتها.

أما معدلات استهلاك الكولخوزيين فقد مثلت بالنسبة لاستهلاك الفلاحين في ظل النظام القديم المستويات التالية المسجلة عام 1938. الخبز والطحين 125٪، البطاطا 180٪، الفواكه والخضار 147٪، الحليب ومشتقاته 148٪، اللحوم الطازجة والمقددة 179٪.

دعم جبار

عمل التجميع الزراعي في الريف على وضع حد للميل العفوي لدى الإنتاج الصغير التجاري إلى استقطاب المجتمع بأغنيائه وفقرائه، بمستغِليه ومستغَليه. فقد تم قمع واستئصال شأفة الكولاك والبرجوازية الريفية بوصفهما طبقة اجتماعية. إن نمو برجوازية ريفية في بلد يعيش 80٪ من سكانه في الريف كان سيخنق، ويقتل الاشتراكية السوفييتية. وقد حال التجميع الزراعي دون ذلك.

أتاح التجميع والاقتصاد المخطط للاتحاد السوفييتي الصمود في وجه العدوان الفاشي، ومجابهة الحرب الشاملة التي شنها النازيون الألمان. وخلال السنوات الأولى من الحرب كان لا بد من تخفيض استهلاك القمح إلى النصف. غير أنه بفضل التخطيط ثم توزيع الكميات الجاهزة من القمح بصورة عادلة. كانت المناطق المحتلة والمدمرة على أيدي النازية تمثل 47٪ من مساحة الأراضي المزروعة. وقد أتلف الفاشيون 98.000 مزرعة تعاونية. غير أنه ما بين عامي 1942 و1944 تمت زراعة 12 مليون هكتار من الأراضي الجديدة في شرق البلاد.

وبفضل النظام الاشتراكي تمكن الإنتاج الزراعي، بقسمه الأعظم، أن يسترجع عام 1948 مستواه الذي كان عليه عام 1940.

وخلال بضع سنوات، فإن نمطاً جديداً كلياً في تنظيم العمل، وانقلاباً شاملاً في التقنية، وثورة ثقافية عميقة، استطاعت أن تعرف طريقها إلى قلب الفلاح، سجّل بتلهايم:

«أظهرت الأغلبية الساحقة من الفلاحين تعلقاً قوياً جداً بنظام الاستثمار الجديد وقد أثبتوا ذلك خلال الحرب. ما دام شكل الاستثمار الكولخوزي قد استمر حياً في المناطق التي احتلتها قطعان النازية، وبالرغم من الجهود التي بذلتها السلطات النازية.

«عمليات الإبادة» إبان التجميع

في ثمانينات هذا القرن، استعاد اليمين كثيراً من الموضوعات التي كان النازيون قد طوروها خلال حربهم النفسية ضد الاتحاد السوفييتي. وبوجه عام، فقد ابتدأت الجهود لإعادة الاعتبار إلى النازية منذ عام 1945، وذلك من خلال التأكيد بأن «الستالينية لا تقل بربرية عن النازية» فارنست نولته، يتبعه في ذلك جورج هابرماس، أكد عام 1986 بأن إبادة واستئصال الكولاك من قبل ستالين يمكن مقارنتها بإبادة اليهود من قبل هتلر. يقول نولته:

«إن أفران اوشفيتز، من حيث المنطلق، ليست نتيجة للاسامية التقليدية. وهي لم تكن في واقع الأمر عملية «إبادة» من حيث الجوهر، ولكنها قبل كل شيء، رد فعل متولد عن القلق تجاه أعمال الإبادة والاستئصال التي قامت بها الثورة الروسية. وكانت النسخة أكثر لا معقولية بكثير من الأصل».

وهكذا فإن الهتلريين، على زعم نولته، كان يضنيهم «القلق» تجاه الجرائم الستالينية. وإن إبادة اليهود ليست سوى «رد فعل» ناتج عن هذا «القلق». وهتلر، في حينه، تحدث بأقوال مشابهة: «إن الهجوم على الاتحاد السوفييتي كان إجراء «للدفاع عن الذات» ضد تهديد اليهودية البلشفية». فكيف يندهش البعض لأن الفاشية صعدت في ألمانيا؟

إن العبارة السوفييتية «تصفية الكولاك بوصفهم طبقة» تشير تماماً إلى أن المقصود من ذلك هو إنهاء الاستغلال من النمط الرأسمالي المرتبط بالكولاك، وليس على الإطلاق، التصفية الجسدية للكولاك. ولكن بالاستناد إلى كلمة «تصفية» فإن رجالاً عديمي الذمة، من أمثال نولته وكونكيست يزعمون بأن إبعاد الكولاك ونفيهم إنما هو «إبادة واستئصال».

ثمة باحث ألماني، هو ستيفان ميرل، وصف الظروف الطارئة، التي جرى في ظلها نزع ملكية الكولاك الأوائل ونفيهم إلى سيبيريا إبان الموجة الأولى للتجميع الزراعي في كانون الثاني ـ آذار من عام 1930.

«مع بداية الربيع، تفاقمت خطورة الوضع في معسكرات استقبال الكولاك. فقد اجتاحت الأوبئة هذه المعسكرات وخلفت كثيراً من الضحايا، ولاسيما بين الأطفال. ولهذا السبب، جرى إخراج جميع الأطفال من المعسكرات في نيسان عام 1930 وأعيدوا إلى قراهم الأصلية. وفي تلك اللحظة تم ترحيل زهاء 400.000 شخص إلى الشمال، حتى صيف عام 1930. ومات، على الأرجح، من بينهم ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألف شخص».

يُخبرنا ميرل هنا، بصورة عابرة، ودون توقف عن أن عدداً كبيراً من «ضحايا الإرهاب» هلكوا من جراء الجائحات وأن الحزب بادر بسرعة إلى حماية الأطفال.

ويؤكد ميرل بأن الترحيل الذي حدث في خريف عام 1930 قد تم «في ظروف أقل بربرية» فالأغلبية من المنفيين أُبعدوا إلى سيبيريا وإلى كازاخستان، «وهي مناطق كانت تعاني نقصاً كبيراً في قوى العمل، وعلى الأخص في المناطق التي بوشر فيها الاستثمار حديثاً. لذا فقد كان النظام يسعى إلى استخدام سائر القوى الموجودة. فكيف كان سيلجأ، كما يدعي البعض إلى «قتل» رجال كانوا، منذ سنة أو سنتين يعملون في الأرض، في سيبيريا أو في كازاخستان. ومع ذلك، فإن ميرل يقدّر بأن 100.000 رب أسرة كولاكي من الفئة الأولى، من الذين أُبعدوا إلى معسكرات العمل (جولاج) ماتوا جميعهم. والحال، أن الحزب لم يكن قد صنف ضمن الفئة الأولى سوى 63.000 كولاكي وأن هؤلاء، الذين كانوا قد ارتكبوا أعمالاً إرهابية، ومعادية للثورة، هم وحدهم من كان يجري إعدامهم. ويستأنف ميرل:

«مئة ألف شخص آخر فقدوا حياتهم، على الأرجح، في بداية عام 1930 بسبب طردهم من منازلهم، وإبعادهم إلى الشمال، وبسبب الإعدامات». ثم يضيف أيضاً إلى هذا العدد 100.000 شخص «ماتوا في المناطق التي نُفوا إليها، وذلك حتى نهاية الثلاثينات» من دون أي تحديد أو توضيح لتقديراته هذه.

إن رقم الـ 300.000 ميت الذي ذكره ميرل مستند إذن إلى تقديرات تقريبية للغاية، وأن سبب موتهم يعود إلى حد كبير، إلى أسباب طبيعية، كالشيخوخة والمرض، وإلى الظروف التي تعم البلاد.

غير أن ميرل يجد نفسه مضطراً إلى الدفاع عن تقديراته «بالغة الضعف» إزاء رمز فاشي، من نوع كونكيست. فقد كانت حسابات هذا الأخير، في الواقع تشير إلى أن 6.500.000 من الكولاك تمت «إبادتهم» أثناء التجميع، وأن 3.500.000 منهم أبيدوا في معسكرات سيبيريا. وكونكيست يُعتبر حجة لدى سائر قوى اليمين. غير أن ميرل لاحظ بأن كونكيست، أظهر «فقداناً مريعاً لأي نقد أو تدقيق للمصادر التي استقى منها». وأن كونكيست «استخدم كتابات غامضة لمهاجرين في الخارج استقوا معلوماتهم عبر وسيطين أو ثلاثة وسطاء، أي من واحد إلى آخر»، «وما كان يقدمه كونكيست على أنه «وقائع» لم يكن في الغالب إلا من مصدر واحد قابل للنقاش والاعتراض»، «إن عدد الضحايا الذي قدّمه كونكيست يتجاوز، من جهة أخرى، أكثر من ضعف عدد المبعدين من الكولاك، حسب أدلته».

منذ أمد طويل، كانت كتابات مؤلفين أجانب عن الشيوعية، من أمثال ميرل تقوم بدحض الافتراءات الشنيعة لأمثال كونكيست.

في عام 1990، نشر مؤرخان سوفييتيان هما زيمسكي ودوجين الإحصاءات المفصلة عن الجولاج (معسكرات العمل)، وعليه فإن الأرقام المضبوطة جاهزة الآن، وهي تدحض غالبية تلفيقات كونكيست.

خلال الحقبة الأكثر عنفاً من حركة التجميع، أي ما بين 1930ـ1931، انتزع الفلاحون ملكية 381.026 من الكولاك، وأبعدوهم مع عائلاتهم إلى الأراضي العذراء في الشرق. وكان ذلك يعني (أي الكولاك وأسرهم) 1.803.392 شخصاً. وفي أول كانون الثاني عام 1932 جرى إحصاؤهم في مناطق إقامتهم الجديدة، فكان عددهم 1.317.022 أي أن الفارق كان 486.000، فقد ساعد التشوش والفوضى على فرار قسم من المبعدين خلال رحلتهم التي كانت تستمر، غالباً ثلاثة أشهر أو أكثر (على سبيل المقارنة. فمن بين 1.317.022 نجح في الفرار 207.000 خلال عام 1932).

ثمة آخرون من هؤلاء الكولاك المبعدين من الذين أعيد النظر بحالتهم، أمكنهم العودة إلى منازلهم. وهناك عدد غير محدد منهم يمكن تقديره بـ100.000 ماتوا أثناء ترحيلهم، ولاسيما بسبب الأوبئة، وهذا العدد الكبير من الذين فقدوا حياتهم أثناء ترحيلهم ينبغي أن يُنظر إليه في سياق تلك المرحلة: إدارة مهلهلة جداً، ظروف حياة طارئة ومؤقتة لكافة السكان، صراع طبقي مشوش أحياناً داخل وسط فلاحي يميل إلى «اليسارية». من المؤكد أنه

كلما مات واحد أثناء الرحيل، بادر اليمين إلى التأكيد بأن المسؤول عن موته هو الحزب، هو ستالين. والحال أن العكس هو الصحيح. فثمة تقرير من تقارير عديدة، محرر في 20 كانون أول 1931 من قبل مسؤولي معسكر العمل في نوفو سيبيرسك يسلط الضوء على طريقة معالجة الحزب لهذه المسألة:

«ثمة أخلاقية عالية لوحظت إزاء مواكب المرحّلين القادمين من شمالي القفقاس من الموكب ذي الرقم 18 وحتى الموكب ذي الرقم 23 ــ لكن 2421 حالة إنسانية مأساوية من أصل 10086 شخصاً وقت الانطلاق، تفسرها الأسباب التالية:

1ً ـ إهمال إجرامي في اختيار أفواج المرحّلين التي كانت تضم العديد من الأطفال والشيوخ الذين تزيد أعمارهم عن 65 سنة والمرضى.

2ً ـ عدم احترام التعليمات المتعلقة بحق المبعدين في التزود بحاجتهم من الغذاء الكافي لمدة شهرين خلال الرحلة.

3ً ـ فقدان الماء المغلي والمقطّر، مما اضطر المبعدين إلى شرب الماء الآسن. وأدى إلى وفاة كثيرين منهم بسبب الدزنتاريا والآفات الأخرى.

جميع هؤلاء الموتى صُنفوا تحت عنوان «الجرائم الستالينية» ولكن هذا التقرير يُظهر بأن سببين من أسباب الوفيات يعودان إلى عدم احترام تعليمات الحزب والثالث يتعلق بالشروط والعادات الصحية المزرية في مجموع البلاد.

لقد «حسب» كونكيست بأن 3.500.000 كولاكي. جرى «تصفيتهم» داخل المعسكرات. ولكن العدد الكلي للذين خضعوا لسياسة نزع الكولاكية في تلك المعسكرات لم يتجاوز 1.317.022 شخصاً. وفي الفترة ما بين عامي 1932ـ 1935 فإن أعداد المغادرين من هذه المعسكرات تجاوز عدد القادمين الجدد بـ 299.889 شخصاً. ومنذ عام 1932 وحتى نهاية عام 1940 فإن العدد الدقيق لسائر الذين ماتوا، ولأسباب طبيعية، أساساً، بلغ 389.521 شخصاً. وهذا الرقم لا يتعلق فقط بالكولاك المبعدين إلى المعسكرات مادام أن فئات سياسية ومعادية أخرى أقامت في تلك المعسكرات.

ماذا يمكن أن يقال عن تأكيد كونكيست بأن 6.500.000 كولاكي «أبيدوا» خلال مراحل مختلفة من التجميع الزراعي؟ إن 63.000 من أعداء الثورة، من الفئة الأولى، هم وحدهم الذين أعدموا، أما عدد الموتى خلال الترحيل والذي يعود بنحو واسع إلى المجاعة والآفات فكان حوالي 100.000 شخص. وما بين

عامي 1932 و1940 يمكن تقدير أن 200.000 كولاكي ماتوا داخل المعسكرات لأسباب طبيعية. وهذه الإعدامات والوفيات حدثت في خضم من الصراع الطبقي الذي لم يشهد الريف الروسي أكثر اتساعاً منه في يوم من الأيام. صراع طبقي قلب أوضاع الريف المتخلف والبدائي. في هذه اللجة الهائلة خرج 120 مليون فلاح من ظلام القرون الوسطى وتحرروا من الأمية والعقلية الظلامية. أما تلك القوى الرجعية، والمعنية بالحفاظ على الاستغلال وعلى شروط الحياة والعمل المزرية بالإنسان والمهينة لإنسانيته، فهي التي تلقت الضربات وحُسم أمرها. إن قمع البرجوازية والقوى الرجعية كان ضرورياً قطعاً من أجل إنجاز ثورة التجميع الزراعي. فالعمل الجماعي التعاوني وحده كان يجعل من الممكن تحقيق المكننة الاشتراكية، متيحاً لجماهير الفلاحين، على هذا النحو، أن يعيشوا حياة حرة كريمة متنورة.

لقد دفع الحقد تجاه الاشتراكية مثقفين غربيين لأن يشيعوا الافتراءات العبثية اللامعقولة التي لفقها كونكيست، حول الـ 6.500.000 كولاكي «الذين أبيدوا في معسكرات العمل» وهؤلاء المثقفون ينافحون، بهذه الصورة عن الديمقراطية البرجوازية، وعن الديمقراطية الإمبريالية.غير أن حركة رينامو، في موزامبيق، التي شكلتها الـ CIA، ودوائر الاستخبارات السرية في جنوب أفريقيا، قتلت بسبب التجويع 900.000 قروي منذ عام 1980، والهدف من ذلك: منع موزامبيق من أن تظهر كبلد مستقل يتبنى التوجه الاشتراكي. ففي موزامبيق لم يكن ينبغي على المثقفين الغربيين أن يختلقوا جثثاً وموتى، كان عليهم فقط أن يفتحوا عيونهم على البربرية الإمبريالية. ولكن هؤلاء الـ 900.000 ميت غير موجودين في الواقع بالنسبة لهؤلاء المثقفين ولذا فلا ضرورة للكلام عنهم.

إن حركة أونيتا، المدعومة والمشكّلة علناً، هي أيضاً، على يد الـ CIA ومصالح الاستخبارات السرية في جنوب أفريقيا، قتلت أكثر من مليون أنغولي خلال الحرب الأهلية ضد الحكومة الوطنية. وبعد أن خسر سافيمبي، رجل الـ CIA انتخابات 1992 أطلق من جديد شرارة الحرب المدمرة.

«إن المأساة الأنغولية تهدد حياة ثلاثة ملايين من الأشخاص. وقد رفض سافيمبي قبول الفوز الانتخابي للحكومة بـ 129 مقعداً في مقابل 91، وأغرق أنغولا من جديد في أتون نزاع شرس كلف حتى الآن 100.000 قتيل (منذ اثني عشر شهراً فقط».

تسع مئة ألف قتيـل أفريقـي، بالتـأكيد، ليسـوا شـيئاً، بالنسـبة للمثقفـين الغربيين، فكم من المثقفين الغربيين الذين ما يزالون مشغوفين حتى الآن بالعواء ضـد التجميـع الزراعـي، لم يشـيروا ببسـاطة، أدنـى إشـارة إلى مليونـي فـلاح موزمبيقي وأنغولي، أبيدوا على يد الغرب، كي يحول هذا الغرب دون أن تكون بلادهم مستقلة حقاً، ودون أن تتحرر من قبضة رأس المال العالمي.

الفصل الخامس

المجزرة الأوكرانية

ظلت الأباطيل المنشورة حول التجميع الزراعي، باستمرار، الأسلحة المفضلة في الحرب النفسية ضد الاتحاد السوفييتي.

تعالوا نحلل آلية إحدى الأكاذيب الأكثر «شعبية». أكذوبة الهولوكست (المحرقة) التي ارتكبها ستالين ضد الشعب الأوكراني. هذه الفِرية المعدّة ببراعة، ندين بها إلى عبقرية هتلر. ففي كتاب «حياتي» المنشور عام 1926، كان هتلر قد أشار إلى تبعية أوكرانيا إلى «الليبنسريوم» الألماني. ولهذا فإن الحملة التي أطلقها النازيون عامي 1934 ـ 1935 حول موضوع «المجزرة» البلشفية في أوكرانيا. كانت بالضرورة من أجل إعداد الأذهان «للتحرير» المرتقب لأوكرانيا. وسنرى لماذا استمرت هذه الفِرية بعد رحيل مبتدعيها النازيين، كي تغدو سلاحاً أمريكياً. هاكم الآن، كيف وُلدت التخريفات حول «المليون ضحية الستالينية».

في 18 شباط عام 1935، وفي الولايات المتحدة، ابتدأت صحافة هيرست ـ قطب الصحافة الأمريكية، وأحد المتعاطفين مع النازية ـ بنشر سلسلة مقالات، لتوماس ووكر ـ رحّالة كبير وصحافي ـ الذي جاب سائر أراضي الاتحاد السوفييتي، مشرقاً ومغرباً خلال عدة سنوات. في رأس الصفحة الأولى لصحيفة شيكاغو أميركان وبتاريخ 25 شباط. ثمة عنوان ضخم يقول: «المجاعة في الاتحاد السوفييتي تفتك بستة ملايين شخص، مصادرة محصول الفلاحين، الهلاك يعمّ الناس والبهائم». وفي وسط الصفحة عنوان آخر يقول: «صحافي يخاطر بحياته كي يلتقط صوراً للمجزرة». وفي أسفل الصفحة: «مجاعة ـ جريمة بحق الإنسانية».

في تلك الفترة من الزمن كان لويس فيشر مراسلاً لصحيفة الأمة في موسكو. وقد فوجئ بالسبق الصحفي لزميله، المجهول اللامع، وبدسيسته المحبوكة

بأعلى ما يكون الدس، وانبرى للبحث عن جذور هذه الأنباء، وعمّن هو صاحبها، لإبلاغها إلى قراء صحيفته في الولايات المتحدة. وكتب فيشر:

بلغنا أن المسيو ووكر دخل إلى روسيا في الربيع الأخير، ربيع عام 1934 وشاهد بأم عينه المجاعة وآثارها، والتقط صوراً لضحاياها، ولديه تقارير مباشرة عنها، لم ينقلها إليه أحد، حول كوارث الجوع الوبيلة التي تمزق القلوب.

إن موضوع المجاعة في الاتحاد السوفييتي هو اليوم موضوع ساخن جداً، وهو يُطرح باستمرار، فلماذا احتفظ المسيو هيرست بهذه المقالات المثيرة عشرة أشهر قبل أن ينشرها؟ قمت إذن، باستشارة السلطات السوفييتية. وعلمت أن توماس ووكر دخل إلى الاتحاد السوفييتي مرة واحدة. وقد تلقى تأشيرة مرور (فيزا ترانزيت) من القنصلية السوفييتية في لندن، في 29 أيلول عام 1934، ودخل إلى الاتحاد السوفييتي، عبر بولونيا، مستقلاً القطار ليصل إلى نيغوريلوي، في 12 تشرين الأول عام 1934، وليس في الربيع، كما يقول. وفي 13 تشرين أول كان في موسكو. ومكث في موسكو من يوم السبت 13 تشرين أول إلى يوم الخميس 18 منه ثم استقل القطار عبر سيبيريا الذي أوصله إلى الحدود بين الاتحاد السوفييتي وبين منشوريا، في 25 تشرين الأول عام 1934. لقد كان من المستحيل على السيد ووكر، خلال الأيام الخمسة من 13 وحتى 18 تشرين الأول أن يجوب ثلث الأماكن التي «وصفها» بالاعتماد على تجربته الشخصية. وأفترض أنه أقام في موسكو زمناً طويلاً بما فيه الكفاية كي يحصل من بعض الناقمين على شيء من «اللون المحلي» الأوكراني الذي كان بحاجة إليه كي يضفي على مقالاته طابع الصدق المزعوم.

كان لفيشر صديق أمريكي، هو ليندزي بارّوت، أقام في أوكرانيا منذ بداية عام 1934، ولم يكن قد لاحظ أية آثار للمجاعة التي تتحدث عنها صحافة هيرست. على النقيض من ذلك، كان المحصول في ذلك العام وفيراً. ويستخلص فيشر:

«باشرت مؤسسة هيرست الصحافية في إقامة تعاون مع النازية يزداد توثّقاً كل يوم. ولم يلاحظ أحد أن صحافة هيرست قد نشرت ما يرويه السيد باروت عن أوكرانيا السوفييتية المزدهرة. رغم أن السيد باروت هو مراسل السيد هيرست في موسكو».

تحت صورة فتاة صغيرة، وفتى أشبه بهيكل عظمي كتب ووكر:

«مشهد فظيع! فوق أرض خاركوف. فتاة في غابة الهزال وأخوها ذو العامين والنصف، هذا الطفل كان يدب على الأرض مثل ضفدع، وجسمه الصغير البائس تشوهت ملامحه بسبب نقص الغذاء إلى حد أنه لم يكن يشبه كائناً إنسانياً».

إن الصحافي، والنقابي الكندي دوغلاس توتلي الذي خصص كتاباً حاشداً بالوثائق الدامغة لأسطورة «المذبحة الأوكرانية»، قد عثر على تلك الصورة التي تبرز الطفل ـ الضفدع والمؤرخة بربيع عام 1934 في نشرة صادرة بتاريخ عام 1922 حول المجاعة في روسيا. صورة أخرى من صور ووكر مطابقة تماماً لصورة جندي من جنود الخيّالة النمسويين إلى جانب حصانه الميت، التقطت خلال الحرب العالمية الثانية.

يا لحزن المسيو ووكر: تقريره كان كاذباً، وصوره كانت ملفّقة، وهو نفسه كان مزيفاً. أما عن اسمه الحقيقي فقد كان الرجل يدعى روبيرت غرين. كان قد هرب من السجن الإصلاحي في كولورادو بعد أن أمضى فيه سنتين من عقوبة مدتها ثماني سنوات ثم ذهب إلى الاتحاد السوفييتي ليبتكر تقريره. ولدى عودته إلى الولايات المتحدة ألقي عليه القبض، واعترف أمام المحكمة بأنه لم يطأ قط بقدمه أرض أوكرانيا.

كان الملياردير وليام هيرست قد التقى بهتلر في نهاية صيف عام 1934 ليعقد اتفاقاً معه ينص على أن ألمانيا ستشتري من الآن فصاعداً أنباءها الدولية من شركة إنترناسيونال نيوسيرفس، وهي شركة تعود ملكيتها إلى هيرست. في تلك الآونة، كانت الصحافة النازية قد شنت حملة حول «المجاعة في أوكرانيا». وكان على هيرست أن يزودها بإسهامه من خلال المخيلة الفذة لمستكشفه العظيم المسيو وولكر.

ثمة شهادات أخرى من النوع نفسه حول المجاعة في أوكرانيا وردت فيما بعد في صحافة هيرست على غرار شهادة فريدبيل، وهو عامل أمريكي حُكم بالسجن عشرين عاماً على إثر إضراب شارك به، فهرب إلى الاتحاد السوفييتي خلال أعوام الثلاثينات، وعمل خلال عامين في مصنع للجرارات في خاركوف، ونشر في عام 1933 كتاباً بعنوان: عمال أجانب في معمل جرارات زراعي سوفييتي. يروي فيها بشعور من التعاطف جهود الشعب السوفييتي. وفي نهاية عام 1933 عاد إلى الولايات المتحدة، حيث تنتظره البطالة والسجن أيضاً. في عام 1934 شرع في الكتابة عن المجاعة في أوكرانيا، وعلى إثر ذلك خفضت

السلطات، بطريقة ذات مغزى، عقوبة السجن التي على كاهله. وحينما نُشرت شهادته لدى هيرست في حزيران عام 1935 تصدى عامل أمريكي آخر، هو ج. وولينيك، عمل خمس سنوات في معمل خاركوف ذاته، وفضح الأكاذيب التي نشرها بيل في مقالته. وفيما يتعلق بالمحاورات العديدة التي يزعم بيل أنه أجراها مع الناس في أوكرانيا. أوضح وولينيك بأن بيل لم يكن يتكلم، لا الروسية، ولا الأوكرانية. وقد قدّم بيل خدماته دوماً إلى اليمين المتطرف، كشاهد إثبات ضد الشيوعيين، أمام لجنة السناتور مكارثي.

كتاب صادر عن بطانة هتلر

في عام 1935 صدر كتاب باللغة الألمانية للدكتور اوالد أماند بعنوان: هل يجب أن تجوع روسيا؟ أما مصادر الكتاب فكانت التالية: الصحافة النازية الألمانية، الصحافة الفاشية الإيطالية، صحافة المهاجرين الأوكرانيين و«المسافرين» و«الخبراء» الذين ذكرهم الكتاب دون أي شكل لتحديد أشخاصهم. وعرض الكتاب صوراً، مؤكداً، «بأنها تعد أهم المصادر حول الواقع الراهن في روسيا» وذكر أماند بإيجاز أن «معظم الصور التقطت من قبل اختصاصي نمسوي» كان هناك أيضاً، صور مقدمة من الدكتور ديتلوف الذي كان حتى آب 1933 مديراً للامتياز الزراعي للحكومة الألمانية في شمالي القفقاس. وقد زعم ديتلوف بأنه التقط الصور في صيف عام 1933 «في المناطق الزراعية التي ضربتها المجاعة». ولكن كيف سيكون بمستطاع ديتلوف، وهو موظف حكومي نازي، أن ينتقل من القفقاس إلى أوكرانيا كي يقتنص فيها الصور؟ من بين صور ديتلوف السبع، صورة «الطفل الضفدع» التي كانت قد نشرت في مقال... ووكر، صورة أخرى تبرز طفلين أشبه بهيكلين عظميين، كدلالة على المجاعة الأوكرانية عام 1933 وقد شاهدنا الصورة نفسها في المسلسل التلفزيوني: روسيا، لبيتراوستينوف، وكانت أحدى صور فيلم وثائقي عن المجاعة التي ضربت روسيا عام 1922. ثمة صورة أخرى للدكتور أماند كانت قد نشرت في البداية في الصحيفة النازية فولكيشر باوبا بشتر في 18 آب عام 1933، وهذه الصورة مطابقة لصورة معروضة في كتاب عن مجاعة عام 1922.

كان أماند قد عمل في منطقة الفولغا عام 1913. وخلال الحرب الأهلية عام 1917 ـ 1918، احتل مواقع في الحكومات المعادية للثورة، والمناصرة لألمانيا، في إستونيا وليتوانيا ثم عمل في حكومة سكورو بادسكي التي أقامها الجيش

الألماني في أوكرانيا في آذار عام 1918. وقد أكد أماند بأنه شارك في حملة المساعدة الإنسانية أثناء المجاعة في روسيا عام 1921 ـــ 1922، ومن هنا جاء تعاطيه مع المواد المصورة عن تلك الفترة. وخلال سنوات طويلة كان أماند السكرتير العام لـ«الكونجرس الأوروبي للجنسيات» المزعوم، والمقرّب من الحزب النازي، والذي كان قد جمع حوله المهاجرين من الاتحاد السوفييتي. وفي نهاية عام 1933، أصبح أماند سكرتيراً فخرياً لـ«لجنة مساعدة المناطق المصابة بالمجاعة في روسيا» التي كان يرأسها الكاردينال المناصر للفاشية أنيتزر، في فيينا. لقد كان لأماند، إذن علاقة وثقى مع كافة الحملات النازية المعادية للسوفييت.

حينما أطلق ريغان حملته الصليبية المعادية للشيوعية في بداية الثمانينات فإن البروفسور جيمس ميس من جامعة هارفارد رأى من المناسب إعادة طبع وتوزيع كتاب أماند تحت عنوان: «حياة الإنسان في روسيا» كان ذلك في عام 1984. وكانت كافة أباطيل النازية، والصور الوثائقية المزورة، والتقرير الوهمي لووكر عن أوكرانيا قد نالت، على هذا النحو، رعاية هذه الجامعة واعتبارها المعهودين.

في السنة السابقة، كان عدد من المهاجرين الأوكرانيين، من أقصى اليمين المتطرف قد نشروا في الولايات المتحدة كتاباً بعنوان: «المجاعة الواسعة في أوكرانيا. المجزرة المجهولة». وقد تمكن دوغلاس توتل من أن يثبت بأن كافة الصور المعروضة في هذا الكتاب تعود إلى عامي 1921 ـ 1922. كذلك فإن صورة غلاف الكتاب هي من أرشيف اللجنة الدولية لمساعدة روسيا للدكتور ف. نانزن وعرضت في نشرة برقم 22 بتاريخ 30 نيسان 1922، صفحة 6.

إن «محرّفي» التاريخ، من النازيين الجدد «يزوّرون» التاريخ، كي يسوّغوا، قبل كل شيء، الجرائم البربرية للفاشية، المرتكبة بحق الاتحاد السوفييتي. ويتنصل هؤلاء النازيون الجدد أيضاً، من الجرائم التي اقترفها الهتلريون بحق اليهود، وينفون وجود معسكرات إبادة حيث هلك ملايين اليهود. ويبتدعون «مجازر» وهمية، زاعمين بأن الشيوعيين والرفيق ستالين قد ارتكبوها. وعبر هذه الكذبة يخلقون تبريراً للمذابح الوحشية التي اقترفها النازيون في الاتحاد السوفييتي. ولقاء هذا التزوير للتاريخ الذي يفوح برائحة العداء للشيوعية يقبضون الثمن، ويتلقون الدعم من ريغان، وبوش، وتاتشر.

كتاب من بطانة مكارثي

أفلح آلاف من النازيين الأوكرانيين في الدخول إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وقدموا أنفسهم، في حقبة مكارثي، بصفتهم من ضحايا «البربرية الشيوعية» وأسهبوا في روايتهم المفصلة عن المجاعة ـ المجزرة، المزعومة، ضمن كتاب مؤلف من جزئين بعنوان: «الأفعال الإجرامية للكرملين» نشر عام 1935 وأعيد طبعه عام 1955. وأصدرته «الرابطة الأوكرانية لضحايا الإرهاب الشيوعي الروسي» بمشاركة «المنظمة الديمقراطية للمضطهدين الأوكرانيين في ظل النظام السوفييتي». في هذا الكتاب العزيز على قلب روبيرت كونكيست، والذي كان يستشهد به دوماً، نجد تمجيداً لبتليورا، المسؤول عن إبادة عدة عشرات من آلاف اليهود الأوكرانيين بين عامي 1918 ــ 1920، ونعثر على مشاعر احترام وإجلال لشوخيفيش القائد النازي لكتيبة روسينيول ولجيش التمرد الأكراني.

يحتوي كتاب «الأفعال الإجرامية للكرملين» على مجموعة من الصور، عن المجاعة ـ المجزرة في عامي 1932ـ 1933، جميعها مزوّرة، مزوّرة عن قصد وتعمّد. تطالعنا صورة منها معنونة بـ«آكل اللحم البشري الصغير» ومصدرها الأساسي النشرة رقم 22 من نشرات اللجنة الدولية لمساعدة روسيا. بتاريخ عام 1922، وُضع لهذه الصورة في الكتاب حاشية تقول: «الطفل، آكل اللحم البشري في زابوروزهي، يأكل لحم أخته» وفي الصفحة 155 من كتاب جرائم الكرملين تظهر صورة لأربعة جنود وضابط ينفذون الإعدام ببعض الرجال. والعنوان «إعدام الكولاك» وثمة تفصيل غفل عنه واضعو الكتاب، هو أن الجنود الأربعة وضابطهم يرتدون الزي العسكري القيصري. وهكذا يُظهرون لنا الإعدامات القيصرية كدليل على «جرائم ستالين».

واحد من مؤلفي الجزء الأول لكتاب الأفعال الإجرامية للكرملين هو ألكساندر هاي هولووكو، كان وزيراً للدعاية في حكومة منظمة القوميين الأوكرانيين برئاسة بانديرا. وخلال العمر القصير لهذه الحكومة، قتلت عدة آلاف من اليهود في بولونيا، ومن البلاشفة في لفوف.

ومن بين الأشخاص المذكورين كـ «عرّابين» لهذا الكتاب، أناتولي بيلوتسيركيوسكي، والياس أنتون شباك، وهذا الأخير هو ضابط البوليس النازي في بيلا تسيركفا، والذي أشرف هناك، حسب شهادة الكاتب سكريبنياك، على إبادة ألفين من المدنيين.

ما بين مليون و15 مليون ميت

في كانون الثـاني عـام 1964 نشر دانـا دالريمبـل مقالـة بعنـوان «المجاعـة السوفييتية في أعوام 1932-1934»، في زاوية دراسات سوفييتية، زعـم فيهـا أن 5.500.000 ميـت يشـكلون المتوسـط لعشـرين مـن التقديـرات المختلفـة لضحايـا المجاعة في أوكرانيا.

ويتبادر إلى الأذهان تـواً، سؤال: مـا المصادر العشـرون الـتي استمد منهـا البروفسور تلك «التقديرات».

المصدر الأول هو توماس ووكر. رجل الرحلة المختلقـة إلى أوكرانيـا، والـذي حسب زعم دالريمبل «كان على الأرجح يتحدث الروسية». والمصدر الثـاني هـو نيقولاس بريشودكو، مهـاجر يميـني متطـرف، كـان، إبـان الاحتـلال الألمـاني لأوكرانيا وزيراً للثقافة والتربية الأوكرانية،وقد ذكر رقماً لعدد ضحايـا المجاعـة هو 7 ملايين ميت.

ثم يأتي بعد ذلك، أوتو شيللر، الموظف النازي المكلّف بإعادة تنظيم الزراعة في أوكرانيا المحتلة من قبل الهتلريين. وقد نشر نصه في برلين عام 1943 وذكـر رقم 7.500.000 لعدد الموتى، واستشهد به دالريمبل.

المصدر الرابع هو اوالد أماند، النازي الذي لم يكن قـد عـاد إلى روسـيا منـذ عام 1922 وقد تحدث أماند في رسالتين له منشـورتين في تمـوز وآب عـام 1934 في صحيفة نيويورك تايمز عن 7.500.000 ميت من ضحايا المجاعة، وزعم بأنه في شهر تموز كان الناس يموتون من الجوع في شوارع كييـف. وبعـد أيـام قليلـة كذّب مراسل صحيفة نيويوركية هو هارولد ديني مزاعم أمـاند وقـال في رسـالته إلى الصحيفة:

«قضى مراسلكم في كييف، عدة أيام من شهر تموز الأخير، في الوقت الـذي زُعم فيه أن الناس كانوا يموتون في الشوارع. ولكن لا في داخـل المدينـة، ولا في الأرياف المحيطة كان هناك أية مجاعة» وبعد مضي أسابيع عاد هـارولد ديـني إلى الموضوع.

«ما من مكان كان فيه أثر للجوع. ما من مكان كان يُخشـى فيـه مـن غائلـة الجوع. كان ثمة غذاء وفير، بما فيـه الخـبز، والفلاحـون في الأسـواق المحليـة تفيض وجوههم بالبشر لأنهم كانوا أسخياء بالطعام لكل ضيف».

ثم يأتي مصدر آخر هو فريدريك بيشال الذي تحدث عن أربعة ملايين من الموتى في مقالة له عام 1933. في ذلك الوقت كان بيشال في برلين، واحداً من أوائل الصحفيين الأمريكيين الذين عبّروا عن تعاطفهم مع النظام الهتلري.

المصادر من رقم 6 إلى رقم 8 هي لوليام شامبرلين، مرتين، وأوجين ليونز مرة واحدة. يذكر شامبرلين في المرة الأولى الرقم 4 ملايين، وفي المرة الثانية سبعة ملايين ونصف ضحية. وأرقامه هذه مستقاة من «تقديرات سفير أجنبي في أوكرانيا». ولكن من هو هذا السفير؟ ما من تحديد. أما الملايين الخمسة من ضحايا المجاعة التي ذكرها ليونز فهي مستمدة أيضاً من لغط وإشاعات كانت تدور حول «تقديرات لأجانب وروس في موسكو». لقد كان شامبرلين وليونز كلاهما من المعادين المحترفين للشيوعية وأصبحا عضوين في رئاسة «اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشفية»، التي تتلقى 90٪ من ميزانيتها من الـ CIA، والتي كانت تشرف على إذاعة «الحرية» التي تبث من أمريكا.

الرقم الأعلى وهو عشرة ملايين قدّمه، دون أي تحديد لمصادره، ريشارد ساليت في صحافة هيرست المناصرة للنازية. وفي ذلك الوقت من عام 1932 كان عدد سكان أوكرانيا بالتحديد 25 مليوناً.

من بين المصادر العشرين للعمل «الأكاديمي» الذي قام به المسيو دالريمبل هناك ثلاثة مصادر جاءت من صحافة هيرست المؤيدة للنازية، وخمسة صدرت عن منشورات اليمين في الحقبة المكارثية (1949ـ1953)، واعتمد دالريمبل أيضاً على مؤلفين فاشيين ألمانيين، وعلى أوكراني متعاون مع النازية، وعلى مهاجر روسي من أقصى اليمين، وعلى عميلين لوكالة الـCIA، وعلى صحافي متعاطف مع هتلر. وثمة عدد كبير من الأرقام صادرة عن موجة من «سفراء أجانب في الاتحاد السوفييتي» غير محددي الهوية.

أما أخفض تقديرين لعدد ضحايا المجاعة المزعومة، فيعود تاريخهما إلى عام 1933 وقد صدرا عن صحفيين أمريكيين مقيمين في موسكو، ومشهورين بتشددهما المهني، وهما رالف بارنز، مراسل صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون، ووالتر دورانتي مراسل صحيفة نيويورك تايمز. تحدث الأول عن مليون ضحية، أما الثاني فتحدث عن مليونين من موتى المجاعة.

بروفيسوران يهبان لنجدة النازيين الأوكرانيين

من أجل دعم حملته الصليبية المعادية للشيوعية، ولتبرير سباقه الجنوني للتسلح ساند ريغان عام 1983 حملة واسعة لإحياء ذكرى «مرور خمسين عاماً على المجاعة - المذبحة في أوكرانيا»، ولكي يهوّل من شأن التهديد المفزع الذي يشكله الاتحاد السوفييتي ضد الغرب، كان بحاجة إلى أكثر من التلويح بحجة الشيوعية. ولم يجد خيراً من استخدام حجة المجزرة. وقد زوّده النازيون وأعوانهم بشهاداتهم. وتقدّم بروفيسوران أمريكيان ليغطياها بسلطتهما الأكاديمية: جيمس ميس من هارفارد الذي ساهم ببحثه المعنون «المجاعة في أوكرانيا السوفييتية» ووالتر ديشنيك الذي كتب: «مرور خمسين سنة على المجزرة - المجاعة في أوكرانيا، الإرهاب والبؤس هما أداة الإمبريالية الروسية السوفييتية». وقدّم للكتابين دانا دالريمبل. يحتوي مؤلف ميس على 44 صورة عن «المجاعة - المجزرة في عامي 1932 ـ 1933» نقلت 24 صورة منها من كتابين نازيين كتبهما لوبنهايمر. وقد عزا هذا الأخير معظم صوره إلى ديتلوف واستهل عرضه باستشهاد من كتاب حياتي لهتلر:

«إن كان اليهودي، سيتوصل، بفضل ديانته الماركسية، إلى قهر الشعوب الأخرى في هذا العالم، فإن إكليل نصره سيكون إكليل مأتم الإنسانية، وستدور الكرة الأرضية في مدارها داخل الكون، مثلما دارت منذ ملايين السنين، من دون كائن إنساني فوقها» جميع صور لوبنهايمر - ديتلوف كانت ملفقة، مُلتقطة منذ الحرب العالمية الأولى، ومن فترة المجاعة عام 1921 - 1922.

أما البروفيسور الثاني ديشنيك فمعروف ككادر من كوادر منظمة القوميين الأوكرانيين الموالية للفاشية، والناشطة منذ نهاية الثلاثينات.

حساب علمي

ابتكر ديشنيك أسلوباً «علمياً» لحساب عدد موتى «المجاعة ـ المجزرة» وتبعه ميس مقتفياً خطواته.

«حينما نأخذ معطيات إحصاء عام 1926 لعدد سكان أوكرانيا... ومعطيات إحصاء 17 كانون الثاني عام 1939، ومعدّل الزيادة قبل التجميع الزراعي (2.36٪ في السنة) يمكننا أن نقدّر بأن أوكرانيا... فقدت 7.500.000 شخص في الفترة ما بين الإحصائيين.

ولكن هذه الحسابات لا تساوي شروى نقير.

فقد سببت الحرب العالمية الأولى، والحروب الأهلية، والمجاعة الكبرى في أعوام 1920 ـ 1922 انخفاضاً في المواليد. وهكذا، فإن الجيل الجديد سيبلغ سن الإنجاب، أي 16 سنة بدءاً من عام 1930، فكان لا بد إذن، وبالضرورة أن تشهد البنية السكانية هبوطاً في المواليد خلال أعوام الثلاثينات.

ثم إن حرية الإجهاض قادت إلى انخفاض مشهود في المواليد خلال الثلاثينات إلى درجة أن الحكومة وجدت نفسها مضطرة إلى وضع حد لها في عام 1936 بهدف زيادة السكان.

كذلك فإن الأعوام 1929 ـ 1933 تميزّت بالصراعات العنيفة والواسعة في الريف، مترافقة ببعض لحظات المجاعة، وبسبب مثل تلك الشروط الاقتصادية والاجتماعية شهد معدل المواليد هبوطاً ملحوظاً.

إن عدد الأشخاص المسجّلين كأوكرانيين قد تغير بسبب الزيجات بين الإثنيات المختلفة، ومن خلال تبدل الجنسيات الناجم عن انتقال السكان من منطقة إثنية إلى منطقة إثنية أخرى.

ثم إن حدود أوكرانيا عام 1939 لم تكن نفس حدودها عام 1926، فقوزاق الكوبان الذي يتراوح عددهم بين مليونين وثلاثة ملايين، كانوا محسوبين كأوكرانيين في إحصاء عام 1926 ثم أعيد تصنيفهم كروس في نهاية العشرينات. وهذا التصنيف الجديد يعلل لوحده نسبة الـ 25٪ إلى 40٪ من «ضحايا المجاعة ـ المجزرة» التي حسبها كل من ديشنيك وميس.

أضف إلى أنه حسب الأرقام الرسمية، فقد زاد عدد سكان أوكرانيا 3.339.000 نسمة بين عامي 1926ـ1939. وهذه الزيادة تصلح للمقارنة مع زيادة السكان اليهود في ظل الشروط الواقعية والحقيقية للمجزرة التي نظمها النازيون.

إن حملة «المجاعة ـ المجزرة» التي أطلقها النازيون عام 1933 بلغت حدها الأعلى، بعد نصف قرن، أي في عام 1983 مع فيلم «حصاد اليأس» الموجّه إلى الجمهور العريض. ومع كتاب حصاد الأسى لروبيرت كونكيست، الموجه إلى الإنتلجنسيا، في عام 1986.

لقد كان الفيلمان: «حصاد اليأس»، حول «المجزرة» الأوكرانية، وفيلم «ملاعب القتل» حول «المجزرة» الكمبودية، العملين الأكثر أهمية، المصنوعين من قبل بطانة ريغان لإقناع الناس بأن الشيوعية كانت مرادفة للمجزرة.

وقد حصل فيلم حصاد اليأس على الميدالية الذهبية في المهرجان العالمي الثامن والعشرين للسينما والتلفزيون في نيويورك عام 1985.

إن الشهادات الأكثر أهمية عن «المجزرة»، كانت قد قُدِّمت في هذا الفيلم من قبل النازيين الألمان ومعاونيهم القدامى. فالشاهد الأول: ستيفان شريبنيك كان رئيساً لتحرير الصحيفة النازية «فولين» تحت الاحتلال الألماني. وخلال ثلاثة أسابيع من رئاسته لتحرير الصحيفة، حصل الرجل على مباركة السلطات الهتلرية، ورُقّي من موقع علماني إلى رتبة أسقف لكنيسة أرثوذكسية أوكرانية، وباسم «الأخلاق المسيحية» قام بدعاية صاخبة للنظام الجديد. وفي نهاية الحرب التجأ الأسقف النازي إلى الولايات المتحدة.

شاهد آخر في الفيلم هو الألماني هانس فون هيروارت. عمل في الاتحاد السوفييتي في القسم المكلف بمهمة تجنيد رجال من بين الأسرى السوفييت في جيش الجنرال فلاسوف.

ثم إن مواطنه أندور هانك الذي يقوم أيضاً بدور ثانوي في الفيلم كان دبلوماسياً نازياً.

ولإبراز «هول المجاعة ـ المجزرة» لعام 1932ـ1933 من خلال الصور السينمائية، استخدم مخرجو الفيلم سلسلة لقطات عن الأحداث اليومية، كانت قد صُورت قبل عام 1917، ونتفاً من فيلم «القيصر مجاعة» المصور عام 1922، ومن فيلم «أرسينال» عام 1929، ومن ثم سلسلة لقطات من حصار لينينغراد كانت قد التقطت خلال الحرب العالمية الثانية.

حين هوجم ماركو كارينيك راعي الفيلم وصاحب فكرته، والذي كان قد هيأ مواده، حين هوجم علناً عام 1986، على حشده لكل هذه الأباطيل والتخرصات في الفيلم، صرح علانية:

«ليس ثمة جزء، مهما كان يسيراً، من الأرشيفات المصورة المعروضة في الفيلم، يمتّ بأي صلة في الزمان والمكان للمجاعة الأوكرانية. والصور القليلة جداً عن فترة 1932 ـ 1933 التي ظهرت في الفيلم، يصعب إثبات صحتها. أما سلسلة اللقطات المأساوية التي تظهر فتاة بالغة النحول، في نهاية الفيلم والتي استخدمت أيضاً كمادة لرفع مصداقية الفيلم، فلا يعود تاريخها إلى مجاعة عام 1932 ـ 1933». «وأنا أنوّه هنا بأن هذا النوع من عدم الدقة غير جائز مطلقاً». وكان قد قال في إحدى مقابلاته مع الصحافة. «غير أنهم لم يكونوا راغبين في الإصغاء إليّ».

كتاب «حصاد الأسى»

كونكيست وإعادة تكييف النازيين الأوكرانيين

في عام 1978 نشر دافيد ليغ مقالة في صحيفة الغارديان اللندنية كشف فيها عن أن روبيرت كونكيست كان قد عمل في قسم التضليل الإعلامي المسمى رسمياً دائرة البحث الإعلامي (IRD) في دوائر المخابرات الإنكليزية. وكانت مهمة المسؤول عن الـ IRD في السفارات الإنكليزية وضع المواد الإعلامية «الملفقة» في متناول الصحفيين والشخصيات السياسية. وأكد ليغ بأن:

«روبيرت كونكيست كان يعمل في دائرة البحث الإعلامي IRD. وقد عمل في خدمة وزير الشؤون الخارجية حتى عام 1956».

وبناء على اقتراح من الـ IRD كتب كونكيست كتاباً عن الاتحاد السوفييتي وقد اشترى منه بريجر ثلث نسخ الكتاب، وبريجر هذا، كان يطبع ويعيد طباعة الكتب، بطلب من الـ CIA، في غالب الأحيان.

في عام 1986 كان كونكيست قد قدّم مساهمة فعالة في حملة ترشيح ريغان لرئاسة الولايات المتحدة من خلال قيامه بحملة تعبئة للشعب الأمريكي حول موضوع احتلال متوقع للولايات المتحدة من قبل الجيش الأحمر السوفييتي. وحمل كتاب كونكيست العنوان التالي: «ما العمل فيما لو وصل الروس: كتاب موجز لمن يظل على قيد الحياة».

في كتابه: الإرهاب الكبير، المنشور عام 1973، كان كونكيست قد قدّر عدد الموتى أثناء التجميع الزراعي عام 1932ـ1933 ما بين خمسة إلى ستة ملايين ضحية زاعماً أن نصفهم ماتوا في أوكرانيا. وبعد مضي عشر سنوات تماماً، وخلال سنوات ريغان، دفعت الهيستيريا المعادية للشيوعية بكونكيست لأن يرى من المناسب توسيع فترة المجاعة وآثارها حتى عام 1937، ورفع «تقديراته» لعدد الضحايا إلى 14 مليون ضحية.

أما كتابه: حصاد الأسى الذي نشر عام 1986، فهو رواية للتاريخ تلبس لبوساً أكاديمياً، مثلما رواها اليمين الأوكراني المتطرف منذ الثلاثينات.

وقد زعم كونكيست بأن اليمين الأوكراني المتطرف قاد نضالاً «ضد ألمانيا وضد السوفييت». مكرراً، على هذا النحو، الأكذوبة التي ابتدعتها عصابات هذا اليمين الإجرامية بعد هزيمتهم الساحقة، وحين كانوا يسعون للجوء إلى الولايات المتحدة.

لدى تناول كونكيست للتــاريخ الأوكرانــي، ذكـر الاحتـلال النـازي بجملـة واحدة كفترة جاءت بين موجتين من موجات الرعب الأحمر، وحذف كلياً مــن روايته الإرهاب الوحشي الــذي مارسـه الفاشيون الأوكرانيـون أثنـاء الاحتـلال الألماني، ذلك لأنه وجد من بينهم أفضل مصـادره الإعلاميـة عـن «المجاعـة ـ المجزرة».

فرومان شوخيفيش مثلاً كان يقود كتيبة روسـينيول، المؤلفـة مـن أوكرانيـين يرتدون الزي العسكري الألماني. وقد احتلت كتيبته مدينة لفوف في 30 حزيران عام 1941، ونفذت مجزرة بشعة فيها طوال ثلاثة أيـام لسـبعة آلاف يهـودي. وفي عام 1943 عُيّن خاشـيفيش قـائد فرقـة في جيـش التمـرد الأوكرانــي (Aiu) بقيادة ستيبان بانديرا، هذا الجيش الذي سيزعم رجالــه، بعـد الحـرب بـأنهم قاتلوا الألمان والحمر».

إن «رواياـتهم» التـي زعمـوا فيهـا بـأنهم خـاضوا معـارك ضـد الألمـان، قـد تكشفت جميعها عن أنها روايات ملفقة. فقد زعموا بأنهم أعدمـوا قـائد أركـان حرب SA، فيكتور لوتز. غير أن هذا كان قد قتل إثر حادث سيارة بالقرب من برلين، وزعموا بأنهم خاضوا قتالاً ضد عشرة آلاف جندي ألماني على مقربة من فولنيا، خلال صيف عام 1943،ولكن المؤرخ روبن إينز تاين أثبت بأنــه خـلال تلك المعركة كان خمسة آلاف من القوميين الأوكرانيين قـد اشـتركوا إلى جـانب عشرة آلاف من الجنود الألمان في حملة عسكرية طاحنة لتطويـق وإبـادة جيـش الأنصار الذي كان يقوده البلشفي الشهير ألكسي فيدوروف.

يسجل المؤرخ اينزتاين

«كانت عصابـات جيـش التمـرد الأوكرانــي، المشـهورة باسـم الباندیریسـت (نسبة إلى قائدهم بانديرا) قد تكشفت عن أنها العــدو الأخطـر والأكـثر إجرامـاً تجاه اليهود الذين نجوا من الإبادة، وتجاه الفلاحين، والمستوطنين البولونيين، والأنصار المعادين للألمان المحتلين».

تم تشكيل الفرقة الرابعة عشرة وافـين SS غاليســي، والفرقـة هاليشـينا، في أيار عام 1943. ودعا كوبجوفيتش، زعيم التنظيم القومـي الأوكرانــي، الرجـال الأوكرانيين إلى الالتحاق بإحداهما، معلناً:

«حانت اللحظة التي انتظرناها طويلاً. وها إن الفرصة قد حـانت اليـوم مـن جديد، لكي يهب الشعب الأوكراني، مدججاً بالسـلاح. ويقـاتل عـدوّه الأكـثر

بشاعة: البلشفية المسكوفية ـ اليهودية. إن فوهـرر الرايـخ الألمـاني العظيـم قـد بارك تشكيل وحدة مستقلة للمتطوعين الأوكرانيين.

كان النازيون في البدايـة قـد فرضـوا سـلطتهم المباشـرة، دون أن يـتركوا أي سيادة ذاتية لحلفائهم الأوكرانيين. وعلى هذا الأساس من المنافسة بين الفاشيين الألمان والأوكرانيين سيبني القوميون الأوكرانيـون فيمـا بعـد أسـطورة «منـاوأتهم للألمان». وحالما دُحِر النازيون من قبل الجيش الأحمر، غيروا تكتيكهـم في عـام 1943 وأسندوا دوراً أكبر للقتلة الأوكرانيين وقد اعتبر «القوميون الأوكرانيون» أن تشكيل فرقة «أوكرانية» باسم واين SS، نصراً مبيناً لهم.

في 16 أيار عام 1944 هنأ قائد الـ SS فرقة غاليسي الأوكرانيـة لأن رجالهـا طهروا أوكرانيا من كافة اليهود.

عام 1968، كتب وازيل فيريها، وهو محارب قديم في الفرقة 14 وافين SS:

«إن المـلاك المتـدرب في الفرقـة قـد غـدا الركـن الأساسي لجيـش التمـرد الأوكرانـي (...) وكـانت قيـادة هـذا الجيـش ترسـل رجالهـا إلى الفرقـة لتلقـي التدريب العسكري المناسب. وكـان هـذا التدريـب يعـزز قـوة الـ AIU (جيـش التمرد الأوكراني) الذي سيبقى على أرض الوطن (بعد انسحاب الألمـان) تحـت إمرة قادته ومدربيه».

بالرغم من أن جناحي منظمة القوميين الأوكرانيـين (ONU) جنـاح ميلنيـك وجناح باندیرا كانا متنافسين أشد التنافس إلى درجة المواجهة المسـلحة بينهمـا أحياناً، فقد رأينا هنـا كيـف تعاونـا ضـد الشـيوعيين، تحـت قيـادة النـازيين الألمان.

كشف الضابط النـازي شـتولز أمـام محكمـة نورمبـورغ بـأن كانـاريس قـائد الجاسوسية الألمانية كـان قـد «أعطـى توجيهاتـه لإنشـاء شـبكة سـرية تواصـل النضال ضد السلطة السوفييتية في أوكرانيا (...) من عملاء اختصـاصيين تركهـم النازيون خلفهم لقيادة الحركة القوميـة». لنلاحـظ بـأن المجموعـة التروتسـكية التابعة لماندل كانت تدعم دائماً النضـال المسـلح «ضـد السـتالينية» مثلهـا مثـل العصابات النازية لمنظمة القوميين الأوكرانيين التي قادت ذلك النضـال مـا بـين عامي 1944 ـ 1952.

خلال الحرب، كان جون لوفيس مسؤولاً في وزارة العدلية الأمريكيـة، قسـم التحريات الخاصة المكلفة باكتشاف النازيين الذين يسعون إلى التسلل للولايـات المتحدة. وأكد في كتابه The Belarus Secret بأن دائرته كانت معارضة لدخـول

النازيين الأوكرانيين. ولكن فرانك ويسنر، الذي كان رئيساً لقسم التنسيق السياسي في دائرة الاستخبارات كان يسمح بالدخول على نحو منهجي لقدماء النازيين الأوكرانيين والكرواتيين، والهنغاريين. وقد صرح ويسنر، الذي سيلعب، فيما بعد، دوراً مهماً على رأس وكالة CIA:

«إن منظمة القوميين الأوكرانيين، وجيش الأنصار الذي شكّلته عام 1942، أي جيش التمرد الأوكراني، قد ناضلوا بشراسة ضد الألمان، مثلما ضد الروس السوفييت».

هنا، يتوضح لنا، كيف أن وكالة المخابرات الأمريكية، وبعد الحرب مباشرة، تبنت الرواية التاريخية التي كان يرويها النازيون الأوكرانيون، بهدف استخدام هؤلاء المعادين للشيوعية للنضال السري ضد الاتحاد السوفييتي. ولم يتأخر لوفيس في الرد على ويسنر:

«إن ذلك مغلوط كلياً. فوكالة الاستخبارات المضادة US كلّفت عميلاً لها بتصوير أحد عشر مجلداً من البطاقات السرية الداخلية لمنظمة القوميين الأوكرانيين ONU خاصة ببانديرا. وأظهرت هذه البطاقات بوضوح بأن معظم الأعضاء كانوا يعملون لدى الغستابو أو منظمة SS كعملاء للبوليس، أو كمنفذين لعمليات القتل، أو كمطاردين للأنصار، والموظفين البلديين».

وفي الولايات المتحدة أنشأ نازيون أوكرانيون قدامى «معاهد أبحاث» ومن تلك المعاهد كانوا ينشرون روايتهم «المحرفة» لتاريخ الحرب العالمية الثانية، يسجل لوفيس:

«كان تمويل «معاهد الأبحاث» هذه، والتي لم تكن أكثر من غطاء يحتجب خلفه ضباط نازيون في الاستخبارات النازية، يأتي من اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشفية».

«ضد هتلر، وضد ستالين» ذلك هو الشعار الرئيسي الذي كان يرفعه قدامى الهتلريين ووكالة المخابرات الأمريكية CIA، ويوحدون جهودهم في ظله. وبالنسبة إلى الأشخاص غير المطّلعين كانت صيغة «ضد الفاشية وضد الشيوعية» تبدو وكأنها «طريق ثالث»، ولكنها لم تكن شيئاً من هذا القبيل، فتلك الصيغة هي التي وحّدت بعد هزيمة النازية، الأنصار القدامى لألمانيا الكبرى المهزومة وخلفاءها الأمريكيين الذين يسعون إلى السيطرة العالمية.

وبما أن هتلر، من الآن فصاعداً، كان ينتمي إلى الماضي، فإن أقصى اليمين الألماني، والأوكراني، والكرواتي. الخ. قد التحق بأقصى اليمين الأمريكي.

ووحّد الطرفان جهودهما ضد الاشتراكية. وضد الاتحاد السوفييتي الذي كان قد تحمّل العبء الأكبر في الحرب ضد الفاشيين. فلكي يؤلبوا كل القوى البرجوازية أغرقوا الاشتراكية بسيل من الأكاذيب مؤكدين بأنها كانت أسوأ من النازية. لقد استخدمت صيغة «ضد هتلر، ضد ستالين» في حبك رواية عن «الجرائم» و«المذابح» الستالينية، للتمويه، بصورة أفضل، ثم لنفي الجرائم الفظيعة، والمذابح التي نفذها هتلر، نفياً قاطعاً. وفي عام 1986، نشر المحاربون القدامى في جيش التمرد الأوكراني، أولئك الفاشيون الذين كانوا يزعمون بأنهم ناضلوا «ضد هتلر، وضد ستالين» نشروا كتاباً بعنوان «لماذا كانت مذبحة أرحم من مذبحة أخرى» بقلم محارب قديم في جيش التمرد الأوكراني، هو يوري شوماتسكي، يأسف فيه على أن «مؤرخين محرّفين لرواية أحداث الحرب، أنكروا وجود أفران الغاز النازية، وأكدوا بأن أقل من مليون يهودي ماتوا أو أعدموا فيها» ويتابع شوماتسكي:

«فحسب أقوال الصهاينة، كان هتلر قد أعدم ستة ملايين يهودي. ولكن ستالين، مدعوماً من جهاز دولة اليهود البلشفية، نجح في قتل أكثر من عشرة أضعاف هذا العدد من المسيحيين».

المصادر الفاشية لكونكيست

إذا كان كونكيست قد استعاد في كتابه: حصاد الأسى، رواية النازيين الأوكرانيين عن التاريخ، فذلك لأن قدامى الضباط في فرقة وافين SS غاليسي، وقدامى ضباط جيش التمرد الأوكراني قد وضعوا بين يديه مصادرهم عن «المجاعة ـ المجزرة» في عامي 1932 ـ 1933.

وإليكم الحجج والبراهين:

الجزء الرئيسي من الفصل الثاني عشر من كتاب حصاد الأسى اتخذ عنواناً له: «المجاعة تثير السخط». ويحتوي الفصل على قائمة مثيرة مؤلفة من 237 مصدراً.

إن نظرة أكثر تمعّناً تكشف لنا عن أن أكثر من نصف هذه المصادر والشهادات تعود إلى مهاجرين من اليمين الأوكراني. كما أن كتاب «الأفعال الإجرامية للكرملين» الذي وضعه الفاشيون الأوكرانيون استشهد به 55 مرة.

في الفصل ذاته، يستشهد كونكيست 18 مرة بكتاب الحلقة التاسعة لمؤلفه أوليكسا وورباي، المنشور عام 1953 من قبل حركة الشبيبة في المنظمة الفاشية

التابعة لستيبان بانديرا. قدّم المؤلف فيه عرضاً مفصلاً لسيرته الذاتية خلال أعوام الثلاثينات ولكنه لم يتطرق بكلمة واحدة إلى ما كان يقوم به أثناء الاحتلال، أو بإشارة، ولو كانت مموهة إلى ماضيه النازي. ثم يستأنف سيرته منذ عام 1948، حين كان في ميونيخ، التي اتخذها عدد كبير من الفاشيين الأوكرانيين ملجأً لهم. وهناك، أقام المؤلف حوارات مع الأوكرانيين، حول المجاعة ـ المجزرة لعام 1932 ـ 1933، ما من شاهد من «شهوده» كان محدد الهوية. وهو ما يجعل كتابه مجرداً من أي طابع علمي. كما أنه لم يخبرنا عما كان يفعله أي شاهد أثناء الحرب. وهو ما يثبت فرضية أن هؤلاء الشهود كانوا من النازيين الأوكرانيين الفارّين، وأنهم هم من «كشف الحقيقة حول الستالينية».

إن بيل، الذي تعاون مع البوليس الأمريكي، وكتب في صحافة هيرست المناصرة للنازية قد ورد ذكره خمس مرات في كتاب كونكيست، واستشهد كونكيست بخرافتشنكو المهاجر المعادي للشيوعية ست مرات، وبليف كوبيليف، وهو مهاجر روسي، خمس مرات.

ومن بين المراجع «العلمية»، التي احتلت موقعاً هاماً.. رواية لغروسمان، رجع إليها كونكيست خمس عشرة مرة. ورجع إلى أوجين ليون خمس مرات وإلى وليام شامبرلين مثلها. وهما الرجلان اللذان ترأسا لجنة إدارة راديو «الحرية» التي كانت تبث من محطة البث التابعة لوكالة الـ CIA.

وفي الصفحة 244 من كتاب كونكيست حصاد الأسى ورد ذكر «أمريكي» كان قد التقى بأشخاص ضربتهم المجاعة «في قرية على بعد ثلاثين كم جنوبي كييف» وهاكم ما يقول:

«في كوخهم البائس، كانوا يقومون بغلي قذارات من المستحيل وصفها». المرجع هو صحيفة نيويورك إيفنينغ جورنال، في 18 شباط 1933. والحقيقة، أن المرجع المذكور هو مقالة توماس ووكر في صحافة هيرست. المنشورة عام 1935، ولكن كونكيست سبّق تاريخ المقالة» عن قصد وتعمد، لكي يتوافق مع تاريخ المجاعة عام 1933. ولم يسمِّ كونكيست الرجل الأمريكي فقد خشي من احتمال أن يتذكر البعض أن هذا الأمريكي ليس إلا توماس ووكر الكذاب الذي لم تطأ أقدامه قط أرض أوكرانيا. وهل كونكيست سوى مزور مثله. فلكي يبرر استخدامه لكتب المهاجرين التي أثارت لغطاً وشائعات، يعلن كونكيست:

«لا يمكن للحقيقة إذن أن تبرز إلا تحت شكل من الضجيج» و«حول المسائل السياسية ـ فإن أفضل مصدر لها ـ ما دام أنه ما من أحد معصوم ـــ هو الإشاعة».

وهذا، لعمري، هو رفع الإفساد والتضليل، والأكاذيب الفاشية المفضوحة إلى مرتبة المرجعية الأكاديمية.

أسباب المجاعة في أوكرانيا

كان ثمة مجاعة في أوكرانيا عامي 1932 ــ 1933، ولكن هذه المجاعة نجمت عن الصراع المستميت الذي كان اليمين المتطرف الأوكراني يخوضه ضد الاشتراكية، وضد التجميع الزراعي.

ففي غضون الثلاثينات، استخدم هذا اليمين المرتبط بالهتلريين، استخداماً مكثفاً، موضوعة «المجاعة المنفذة خصيصاً لإبادة الشعب الأوكراني» ولكنه «سيلائم» بعد الحرب العالمية الثانية، بين هذه الدعاية وبين الهدف الرئيسي، في التغطية على الجرائم المرتكبة بأيدي النازيين، وفي تعبئة قوى الغرب ضد الشيوعية.

والواقع، أن حقيقة إبادة ستة ملايين يهودي، كانت قد فرضت نفسها، منذ أوائل الخمسينيات على الوجدان العالمي. وكان أقصى اليمين العالمي بحاجة للاستناد إلى كمية أعلى بكثير من الموتى الذين ذهبوا «ضحايا الإرهاب الشيوعي» وفي عام 1953، وهو عام المكارثية الظافرة، لوحظ ازدياد مذهل لعدد الأشخاص الذين هلكوا في أوكرانيا. فكما أن اليهود كانوا قد قتلوا، قبل عشرين عاماً، بطريقة متعمدة، وعلمية (على يد النازية طبعاً) كان لابد لموضوعة «إبادة» الشعب الأوكراني من أن تأخذ أيضاً شكل المجزرة المقترفة بدم بارد وهكذا، فإن اليمين الأوكراني المتطرف، الذي أنكر، بكل يقين، مجزرة اليهود، ابتكر مذبحة الأوكرانيين.

كان لمجاعة عام 1932ـ1933 في أوكرانيا أربعة أسباب:

فقد نجمت أولاً، وقبل كل شيء، عن الحرب الأهلية الحقيقية التي شنها الكولاك، والعناصر الرجعية ضد التجميع الزراعي.

خلال فترة المجاعة سافر فريدريك شومان كسائح إلى أوكرانيا، وأصبح أستاذاً في جامعة وليم فيها. ونشر عام 1957 كتاباً عن الاتحاد السوفييتي تحدث فيه عن تلك المجاعة:

«كانت معارضة الكولاك قد اتخذت، في البداية، شكل إبادة الماشية والخيول، بدلاً من رؤيتها في حوزة التجميع. وكانت النتيجة ضربة رهيبة للزراعة السوفييتية، لأن أغلبية الأبقار والخيول كانت لدى الكولاك. فما بين عام 1928ـ1933 نقص عدد الخيول من 30 مليوناً تقريباً إلى أقل من 15 مليوناً. ومن بين 70 مليون رأس من الماشية ذوات القرن والتي كان منها 31 مليون رأس من البقر، هبط العدد إلى 38 مليوناً. من بينها 20 مليوناً من البقر. ونقص عدد الأغنام والماعز من 147 مليون رأس إلى 50 مليون رأس، وعدد الخنازير من 20 مليوناً إلى 12 مليوناً. ولم يعد الاقتصاد الزراعي السوفييتي إلى عافيته، ويسترجع هذه الخسارات الرهيبة حتى عام 1941 (...)، وقام بعض الكولاك بقتل الموظفين، وإحراق الملكيات العائدة للتجميع، كما أحرقوا محاصيلهم بالذات، وبذارهم. ورفض عدد كبير منهم، أيضاً، أن يزرعوا أرضهم، أو يجمعوا محصولهم، ربما على أمل أن تقدم السلطات لهم تنازلات. أما ما تلا ذلك فكانت المجاعة في عامي 1932ـ1933 (...) وقد ظهرت بعض الكتابات الفجائعية، والمختلقة في معظمها، في الصحافة النازية في ألمانيا وفي صحافة هيرست في الولايات المتحدة حول ذلك (...) لم تكن المجاعة في مراحلها اللاحقة نتيجة نقص في الغذاء، بالرغم من الانخفاض المهم في كمية البذار، وفي المحصولات، الناجم عن المصادرات الخاصة التي قامت بها السلطات في ربيع عام 1932، والتي كان سببها على ما يبدو، القلق من حرب مع اليابان. لقد كان أغلب الضحايا من الكولاك الذين كانوا قد رفضوا زراعة حقولهم أو الذين دمروا محاصيلهم».

مما يثير الاهتمام، ملاحظة أن هذه الشهادة جرى تأكيدها في مقال لإسحاق مازيبا رئيس الحركة القومية الأوكرانية، والوزير القديم في وزارة باتليورا عام 1918. وقد نشر هذا المقال عم 1934. وتباهى الكاتب فيه بأن اليمين الأوكراني أفلح في أعوام 1930ـ1932 في تدمير الأعمال الزراعية، على نطاق واسع. يقول مازيبا في مقاله:

«في البداية، كان هناك اضطرابات داخل الكولخوزات بالإضافة إلى أن موظفين شيوعيين، ومعاونوهم قُتلوا غيلة. غير أنه، فيما بعد، طوّر، بالأحرى، نهج جديد لمقاومة مكثفة، كان يهدف إلى عرقلة خطط البلاشفة في البذار والحصاد. كان الفلاحون في كل مكان يُبدون مقاومة كثيفة، ولكن المقاومة في أوكرانيا أخذت طابع نضال قومي، وقد أدت مقاومة السكان الأوكرانيين إلى إخفاق خطة جمع المحصول عام 1931، بل وخطة عام 1932. كانت كارثة

عام 1932، الضربة الأشد إيلاماً، والتي كان على أوكرانيا السوفييتية أن تتلقاها منذ مجاعة عام 1921ـ1922. فقد فشلت الحملات الواسعة لبذار الحبوب في الخريف، مثلما فشلت في الربيع. وتركت مساحات هائلة من الأراضي الزراعية بوراً. وفوق ذلك، فحين حلّ الحصاد في العام المنصرم، فإن 20٪ و40٪ من محصول الحبوب في العديد من المناطق، وخاصة في الجنوب، تُركت للغربان في الحقول، ولم تلمسها مناجل الحصادين إطلاقاً، أو أنها دُمّرت وقت الدرس فوق ساحات البيادر».

السبب الثاني للمجاعة كان الجفاف الذي ضرب الأجزاء العظمى من أوكرانيا عام 1930، و1931، و1932. بالنسبة إلى البروفسور جيمس ميس من هارفارد، كان الحديث عن الجفاف كذبة اختلقها النظام السوفييتي. ومع ذلك، فقد تحدث المؤرخ ميخائيل هاروشفسكي، وهو أحد أهم المؤرخين القوميين الأوكرانيين، تحدث في كتابه تاريخ أوكرانيا عما حدث في سنة 1932. وأكد:

«هذه السنة الجديدة من الجفاف تزامنت مع شروط زراعية بالغة التشوش والاضطراب» وكتب البروفيسور نيكولاس رياسنوفسكي الذي درّس في مركز الأبحاث الروسي في هارفرد بأن سنتي 1931 و1932 شهدتا حالة من الجفاف القاسي. وأشار البروفيسور ميشيل فلورينسكي، الذي قاتل البلاشفة إبان الحرب الأهلية:

إلى أن «الجفاف الشديد عام 1930 و1931، وعلى الأخص في أوكرانيا، فاقم من خطورة الوضع الزراعي، ودفع بأوضاع السكان إلى حافة المجاعة».

ثالث سبب للمجاعة كان جائحة التيفوس التي اجتاحت أوكرانيا وشمالي القفقاس. في تلك الفترة كان هانس بلومانفيلد، وهو مهندس كندي معروف، في أوكرانيا، في مدينة ماكاييفكا. وقد كتب:

«ما من شك في أن المجاعة قد خلّفت كثيراً من الضحايا، ولا أمتلك أي معطيات لتقدير عددهم (...) وأنا أرجّح بأن أغلبية الوفيات نجمت عن جائحات التيفوس، والحمى التيفية، والديزنتاريا، كان المرضى يُنقلون عبر النهر إلى ماكاييفكا. وقد نجوت بأعجوبة من الموت بعد أن أصبت بهجمة من الحمى التيفية».

أما هورسلي غانت، الذي وضع تقديراً لا معقولاً لعدد موتى المجاعة هو 15 مليون ضحية ـ أي 60٪ من السكان الأوكرانيين الأصليين الذين يبلغ عددهم 25 مليوناً عام 1932 ـ فقد أوضح، مع ذلك، بأن ذروة التيفوس قد تزامنت مع

ذروة المجاعة (...) وكان من المستحيل تمييز أي من السببين هو الأكثر أهمية في عدد الضحايا.

أما السبب الرابع للمجاعة فكان الفوضى التي أثارتها، بالضرورة، عملية إعادة تنظيم الزراعة، والانقلاب العميق في كافة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية: ضحالة التجربة، والارتجال، وغموض التوجيهات، ونقص الإعداد، والجذرية اليسارية لدى بعض الشرائح الأكثر فقراً، ولدى بعض الموظفين.

إن رقم مليون إلى مليونين من ضحايا المجاعة هو رقم كبير ولا شك. ولكن هذه الخسائر الإنسانية تعود بصورة أساسية إلى المعارضة الشرسة التي أبدتها الطبقات المستغلة تجاه إعادة تنظيم الزراعة، وتحديثها، على قاعدة اشتراكية. غير أن البرجوازية ستسجل هذه الضحايا في حساب ستالين والاشتراكية. ورقم المليون إلى مليونين، هذا ينبغي مقارنته بالملايين التسعة من الموتى الذين تسببت بهم مجاعة عامي 1920ـ1921، والذين ماتوا، أساساً، بسبب التدخل العسكري لثماني قوى إمبريالية، وبسبب الدعم الذي قدمته هذه القوى للمجموعات الرجعية المسلحة.

لم تتعد المجاعة الحقبة التي سبقت محصول عام 1933. فقد ضمنت التدابير الفورية والاستثنائية التي اتخذتها الحكومة السوفييتية تفوقاً كبيراً لمحصول تلك السنة. ففي الربيع أرسل إلى أوكرانيا ستة عشر مليون كغ من البذار، والغذاء، والعلف، وأدخلت تحسينات على تنظيم وإدارة الكولخوزات، كما أن عدداً كبيراً من الجرارات، والآلات، والشاحنات دخلت تواً إلى ميدان العمل.

يقدم لنا هانس بلومانفيلد نبذة مما شهده إبان المجاعة في أوكرانيا:

«تجمع عدد من العوامل: أولها، أن الصيف الحار والجاف عام 1932 الذي كنت قد عشته شمالي فايتكا، كان قد أطاح بالمحصول في المناطق شبه القاحلة في الجنوب. ثم إن النضال من أجل التجميع الزراعي كان قد أخلّ بالزراعة، فهذا التجميع لم يكن سيرورة تتبع نظاماً أو قواعد بيروقراطية، بل كان يرتكز أساساً على أفعال يقوم بها الفلاحون الفقراء بتشجيع من الحزب. وكان الفلاحون الفقراء متحمسين لنزع ملكية «الكولاك» ولكنهم كانوا أقل حماساً لتنظيم اقتصاد تعاوني. كان الحزب قد أرسل في عام 1930 كوادر من أجل التصدي، وتصحيح التجاوزات.(...) وبعد أن أظهر حيطة وحذرا عام

1930 أطلق الحزب حملة هجومية جديدة عام 1932. وكانت النتيجة، أن اقتصاد الكولاك توقف عن الإنتاج ذلك العام، ولم يكن الاقتصاد التعاوني الجديد ينتج أيضاً ما يسد الحاجة. بالإضافة إلى أن المحصول لم يكن وافياً بالطلب، كان الاهتمام منصباً على تأمين متطلبات الصناعة المدينية، والقوات المسلحة. ولأن مستقبل كل أمة. بما فيه مستقبل فلاحيها كان مرهوناً بهذين الركنين لهذا لم يكن ممكناً التصرف خلاف ذلك (...) وفي عام 1933 كان موسم الأمطار وافياً، فأرسل الحزب أفضل كادراته للمساعدة في العمل التنظيمي داخل الكولخوزات. وقد أفلحوا إلى حد كبير، إذ ما أن انقضى حصاد عام 1933 حتى تحسّن الوضع جذرياً، وبسرعة مذهلة كان لدي شعور بأننا كنا كمن يدفع عربة ثقيلة جداً فوق جبل، غير متأكدين من إمكانية النجاح، ولكننا في خريف عام 1933، كنا قد تجاوزنا القمة، ومنذئذ صار بإمكاننا التقدم بإيقاع متسارع».

لقد شدد هانس بلومانفيلد على أن المجاعة ضربت المناطق الروسية في حوض الفولغا الأدنى، ومنطقة شمالي القوقاز بقدر ما ضربت أوكرانيا.

«إن هذا يدحض «واقع» ارتكاب مذبحة ضد الأوكرانيين ليست أقل من مذابح هتلر اللاسامية. فبالنسبة إلى كل أولئك المطّلعين على نقص قوى العمل في الاتحاد السوفييتي إبان تلك الفترة. فإن الفكرة القائلة بأن قادته، قد أنقصوا عن عمد تلك القوى لهي فكرة عبثية تماماً».

أوكرانيا في ظل الاحتلال النازي

احتلت القوات اليابانية منشوريا عام 1931 واتخذت موقعاً لها على طول الحدود السوفييتية. ووصل هتلر إلى السلطة في كانون الثاني عام 1933.

وهكذا فإن برامج إعادة التنظيم الصناعي والزراعي التي باشر بها الاتحاد السوفييتي في الحقبة ما بين 1928ـ1933 كانت في وقتها تماماً. كان تحقيق ذلك كله، من خلال تعبئة شاملة لكل القوى، هو وحده الذي جعل ممكناً خوض مقاومة ظافرة ضد النازيين.

من سخريات التاريخ، أن النازيين بدؤوا يصدقون أكاذيبهم حول المجزرة الأوكرانية وحول عَرضية النظام السوفييتي.

فقد كتب المؤرخ الألماني هينز هون بعد عامين من بداية الحرب العالمية الثانية مايلي:

«سنتان من الحرب الدامية في روسيا، جعلت أكثر من مراقب يغير لهجته ويخفّف من غلوائه وأعطت الدليل القاطع على فداحة الوهم الكاذب حول «الانهيار الوشيك» للاتحاد السوفييتي. فمنذ عام 1942 كان قسم الأبحاث قد سجّل في تقاريره عن الرايخ، بأن شعوراً يتنامى في أوساط الشعب الألماني بأنه كان ضحية وهم. وقد تولد لديه انطباع حاد ومخيف بأن الاتحاد السوفييتي مدجج بكتلٍ هائلة من الأسلحة. ومتمتع بمهارة تقنية عالية، وأنه قد بذل جهداً جباراً في التصنيع. وكل هذا يتناقض تناقضاً حاداً مع الصورة السابقة عن الاتحاد السوفييتي. ويتساءل الناس هنا، كيف نجح البلاشفة في إنجاز كل ذلك».

وكتب البروفيسور الأمريكي وليم ماندل عام 1985:

«في الجزء الشرقي، الأكبر مساحة من أوكرانيا، التي كانت سوفييتية منذ عشرين عاماً، كان الإخلاص للنظام عميقاً وشاملاً تقريباً. كان هناك أكثر من نصف مليون من مقاتلي الأنصار السوفييت (...) و4.500.000 أوكراني يقاتلون في صفوف الجيش السوفييتي. ومن البداهة بمكان أن هذا الجيش كان سيتفكك ويضعف إلى أقصى الحدود، لو كان هناك مشاعر سلبية تجاه النظام السوفييتي ضمن هذا التركيب الواسع إلى حد كبير».

واعترف المؤرخ رومان سبورلوك بأن مناطق نفوذ النزعة القومية الأوكرانية المنظمة كانت محصورة بالأقاليم البولونية القديمة. أي غاليسي. فتحت الاحتلال البولوني أقامت الحركة الفاشية الأوكرانية قاعدتها هناك، وحتى عام 1939.

إن أكذوبة المجزرة الأوكرانية قد ابتكرها الهتلريون في نطاق إعدادهم لغزو الأراضي الأوكرانية. ولكن ما إن وضعوا أقدامهم فوق تربة أوكرانيا، حتى واجه «المحرّرون» النازيون مقاومة لا أعنف ولا أشد منها. وقد قاد إليكسي فيدوروف مجموعة من الأنصار تمكنت من تصفية 25 ألف نازي، خلال الحرب. وفي كتابه: «أنصار أوكرانيا» سلّط فيدروف الضوء على موقف الشعب الأوكراني الصغير حين واجه النازيين. ونحن ننصح، بقراءة هذا الكتاب كترياق ضد كافة سموم الثرثرات حول «المذبحة الأوكرانية» لستالين.



الصراع ضد البيروقراطية

ابتكر تروتسكي التعبير الشائن «البيروقراطية الستالينية» الذي صار مدار الألسن. ومنذ حياة لينين، في أواخر عام 1923 انخرط تروتسكي في شتى المناورات كي يتسلم السلطة داخل الحزب. وطفق يؤكد:

«بأن البيروقراطية تهدد... بخلق حالة من الانحطاط الانتهازي، أقل أو أكثر، لدى الحرس القديم».

وفي برنامجه السياسي للمعارضة داخل الحزب، المكتوب في تموز عام 1926، هاجم تروتسكي، بصورة رئيسية، «البيروقراطية المتنامية على نحو مخيف».

وحين انطلقت شرارة الحرب العالمية الثانية، وهب تروتسكي نفسه لتحريض الشعب السوفييتي، ودعوته إلى «التحرك ضد البيروقراطية الستالينية، مثلما فعل سابقاً ضد البيروقراطية القيصرية والبرجوازية».

في هذا السياق، سنكتشف من دون ريب، وبشيء من الدهشة أن قادة الحزب البلشفي ولا سيما ستالين وكيروف وجدانوف، كرسوا الكثير من طاقتهم، طوال عقد الثلاثينات، للنضال ضد النزعات البيروقراطية في داخل الحزب، وفي جهاز الدولة.

تُرى، كيف كان الحزب البلشفي يفهم الصراع ضد التبقرط والبيروقراطية؟

المعادون للشيوعية ضد «البيروقراطية»

لنقل، على الفور، بأنه لا بد منذ البداية أن نتفق حول معنى الكلمات.

منذ وصول البلاشفة إلى السلطة، استخدم اليمين كلمة «البيروقراطية» لينعت النظام الثوري ويعيب عليه. بالنسبة إلى اليمين، فإن كل مبادرة اشتراكية أو ثورية هي بغيضة، وتندمغ من تلقاء نفسها بالدمغة المشينة: «بيروقراطية» فمنذ 26 تشرين أول 1917، كان المناشفة يعلنون عدائهم اللدود تجاه النظام «البيروقراطي» للبلاشفة المولود من حركة «انقلابية» والذي سيفرض على الشعب «رأسمالية الدولة». وكانت هذه الدعاية تهدف بوضوح إلى الإطاحة بدكتاتورية البروليتاريا التي أرساها حزب البلاشفة.

في عام 1922. وإزاء تدمير قوى الإنتاج في الريف، ومن أجل حماية دكتاتورية البروليتاريا كان البلاشفة مضطرين إلى التراجع. وتقديم تنازلات للفلاحين الفرديين. ومنحهم حرية التجارة. كان البلاشفة يرمون من وراء ذلك إلى أن يخلقوا في الريف نوعاً من «رأسمالية دولة» أعني، تطويراً لرأسمالية صغيرة مؤطرة ومراقبة من قبل الدولة (الاشتراكية). وفي اللحظة ذاتها، كان البلاشفة يعلنون حرباً ضد البيروقراطية، كانوا يهاجمون بعنف العادات المتكلسة للجهاز البيروقراطي القديم، ونزوع الموظفين السوفييت الجدد إلى تبني هذه العادات والتصرف بوحيها.

كان المناشفة يأملون، حينذاك، بالعودة إلى المسرح السياسي. هاتفين: «أنتم، أيها البلاشفة، أنتم الآن ضد البيروقراطية، وتعترفون بأنكم تقيمون رأسمالية دولة. هذا ما كنا نحن المناشفة، نقوله دوماً، لقد كنا على حق في موقفنا ضدكم».

وها هو ذا الجواب الذي وجهه لينين إليهم:

«إن المناشفة والاشتراكيين الثوريين يقولون: لقد مضيتم بالثورة شوطاً بعيداً. كنا نقول لكم دوماً، ما تقولونه أنتم الآن، لذا فاسمحوا لنا أن نكرر ما قلناه مرة أخرى، ونحن نجيبهم قائلين: اسمحوا لنا أن نثبّت ظهوركم إلى الجدار. أو أن تتكرموا بالتوقف عن الإدلاء بأفكاركم. أو إذا كنتم تفضلون الإفصاح عن أفكاركم السياسية. في هذه الأوضاع الحرجة التي نمرّ بها، والتي نواجه فيها شروطاً أقسى بكثير مما واجهناه أثناء الاجتياح المباشر للحرس الأبيض. فإننا سنستميحكم عذراً، كوننا سنعاملكم كما لو كنتم أسوأ وأشد أذى من طغمة الحرس الأبيض».

هكذا، عامل لينين دائماً أعداء الثورة الذين كانوا يهاجمون «البيروقراطية» المزعومة، كي يطيحوا، في واقع الأمر، بالنظام الاشتراكي.

البلاشفة ضد التبقرط

ولكن لينين والبلاشفة، شنوا، بالإضافة إلى ذلك، نضالاً ثورياً دؤوباً ضد الانحرافات البيروقراطية، التي تنشأ لا محالة، في داخل الجهاز الاشتراكي، في ظروف بلد متخلف. كانوا يعتبرون دكتاتورية البروليتاريا مهددة أيضاً «من الداخل» بالتبقرط ضمن جهاز الدولة السوفييتي.

كان على البلاشفة أن «يسترجعوا» جزءاً من جهاز الدولة القيصري القديم. وقد تم تغيير طابع هذا الجهاز بكثير من الصعوبة. غير أن هذا التحويل لم يُنجز إلا جزئياً.

من ثم، كان جهاز الحزب والحكومة في الريف يطرح مشكلات عويصة. ففي الفترة الممتدة ما بين عامي 1928ـ1931 قبل الحزب انتساب 1.400.000 عضو جديد. وضمن هذه الكتلة، كان الكثيرون، في الواقع، أميين سياسياً. كانوا يمتلكون مشاعر ثورية، ولكنهم يفتقدون أية معارف شيوعية حقيقية. وكان الكولاك، والضباط القيصريون السابقون، وسائر الرجعيين يُفلحون في التسلل إلى صفوف الحزب. وكان أولئك الذين يمتلكون بعض القدرات التنظيمية، يُقبلون فوراً في الحزب، الذي كان يفتقر إلى الكوادر افتقاراً شديداً. ما بين عامي 1928ـ1933 ظل وزن الحزب في الريف ضعيفاً جداً، وكان أعضاؤه واقعين تحت تأثير الفلاحين الأغنياء الذين كانوا مهيمنين ثقافياً واقتصادياً على عالم الريف. وكل ذلك كان يولّد ظواهر انحطاط بيروقراطي.

كان الجيل الأول من الفلاحين الثوريين قد تمرس بتجربة الحرب الأهلية، حين كان يكافح لدحر القوى الرجعية. وقد استمرت الحالة الذهنية لشيوعية الحرب، وروحية القيادة، وإلقاء الأوامر العسكرية ردحاً طويلاً، وولّدت أسلوباً بيروقراطياً في العمل الذي قلما كان يستند إلى نشاط سياسي دؤوب.

لكل هذه الأسباب، كان النضال ضد البيروقراطية، يُعتبر دوماً من قبل لينين وستالين نضالاً من أجل الدفاع عن نقاوة الخط البلشفي، نضالاً ضد تأثيرات المجتمع القديم، وضد الطبقات القديمة، والبنى الجائرة.

في ظل قيادة لينين، كما في ظل قيادة ستالين، حرص الحزب على تركيز الثوريين، الأصلب معدناً والأبعد نظراً، النشطاء، الصبورين، المنشدّين إلى الجماهير، في قلب اللجنة المركزية وداخل الأجهزة القيادية. وقد اعتمدت

قيادة الحزب دوماً على تعبئة الجماهير من أجل إنجاز البنيان الاشتراكي. غير أن الحال لم يكن كذلك في المراتب الوسيطة وفي أجهزة الجمهوريات بوجه خاص. فها هنا كان بوسع العناصر البيروقراطية، والوصولية والانتهازية، بكل سهولة أن تتسلق وأن تتخفى. وطوال مسيرة ستالين على رأس الحزب، كان يؤكد بأن من واجب القيادة والقاعدة أن تعبئ صفوفها لملاحقة البيروقراطيين في أعلى المراتب أو أدناها. هو ذا أحد توجيهات عام 1928 يوضح بجلاء تصور ستالين حول هذه المسألة.

«إن أحد أعدائنا الأشد خطراً على تقدم قضيتنا هو البيروقراطية. فهي تعشش في كل منظمة من منظماتنا (...). ما هو خطير هنا، أن الأمر ليس أمر البيروقراطيين القدماء، وإنما البيروقراطيون الجدد الذين يتعاطفون مع السلطة السوفييتية. بل وحتى البيروقراطيون في صفوف الشيوعيين. فالبيروقراطي الشيوعي هو نموذج البيروقراطي الأشد خطراً. لماذا؟ لأنه يقنع بيروقراطيته بقناع البطاقة الحزبية». وبعد أن يذكر بعض الحالات الخطيرة بوجه خاص، يتابع ستالين:

«كيف يمكن تفسير هذه الحالات الفضائحية من الانحطاط والفساد الأخلاقي؟ لقد تم دفع الامتياز الحزبي إلى حدود العبث واللامعقول. وجرى خنق صوت الجماهير، وإلغاء الديمقراطية الداخلية، وتشجيع البيروقراطية. إن العلاج الوحيد لهذا الأذى المستفحل هو تنظيم رقابة من جماهير الحزب بدءاً من القاعدة، وتطوير الديمقراطية داخل صفوف الحزب. ليس ثمة ما يقال مرة أخرى، حينما يستهدف غضب جماهير الحزب هذه العناصر المنحلّة الخلق، وحينما يكون بمقدور هذه الجماهير إرسال هذه العناصر إلى الشيطان (...) يجري الحديث عن النقد من جانب مفتشية العمال والفلاحين. والنقد من جانب اللجنة المركزية للحزب. كل هذا حسن، بداهة. ولكن الأمر الجوهري، الآن هو إثارة موجة نقد منطلقة من القاعدة ضد البيروقراطية بوجه عام وضد الأخطاء في عملنا بوجه خاص. على هذا النحو، فقط، سيكون في وسعنا تحقيق نجاحات في نضالنا ضد البيروقراطية، وفي استئصال شرورها».

تعزيز دور التربية السياسية

من أجل النضال ضد البيروقراطية، بادر ستالين والقيادة البلشفية إلى تنشيط التربية السياسية.

ومنذ بداية الثلاثينات أنشأت القيادة البلشفية مدارس حزبية لإعطاء دروس أولية إلى أشخاص قادمين من عالم الريف، يفتقرون، غالباً إلى تربية سياسية أولية وما بين عامي 1930ـ1933 قفز عدد مدارس الحزب من 52.000 مدرسة إلى 200.000 وارتفع عدد طلابها من مليون طالب إلى 4.500.000، قدمت هذه المدارس جهداً عظيماً في تقديم حد أدنى من الوعي السياسي للأعضاء الجدد.

تطهير صفوف الحزب بانتظام

من أكثر الطرائق تجريباً في النضال ضد الفساد البيروقراطي، كانت طريقة المراجعة ـ التطهير.

في عام 1917 كان عدد أعضاء الحزب 30.000 عضو. وفي عام 1921 كان العدد قد وصل إلى 600.000 عضو. وفي عام 1929 بلغ العدد 1.500.000 عضو. وفي عام 1932 كان العدد 2.500.000 عضو.

بعد كل موجة من التنسيب الكثيف إلى صفوف الحزب، كان على القيادة أن تقوم بالفرز. وقد جرت حملة التدقيق الأولى عام 1921 في ظل لينين. وأقصي عن الحزب، في تلك الحملة 45٪ من أعضاء الحزب في الريف، و25٪ من مجموع أعضاء الحزب. وتلك كانت أكبر حملة تطهير جرت في الحزب طوال تاريخه. كان ربع أعضاء الحزب غير مطابقين للمعايير الأولية.

في عام 1929 غادر صفوف الحزب 11٪ من الأعضاء، بعد حملة المراجعة والتطهير الثانية.

وفي عام 1932 كان هناك حملة تطهير جديدة في صفوف الحزب، استمرت سنتين. كانت بنى الحزب، وآليات المراقبة، والسلطة الفعلية للقيادة المركزية في حالة من الوهن إلى درجة أنه لم يتم التوصل، حتى إلى تخطيط وإنجاز حملة مراجعة وتطهير كاملة. وفي النهاية أقصي عن الحزب 18٪ في تلك الفترة.

تُرى، ماذا كانت معايير التطهير؟

طُرد من الحزب أشخاص، كانوا سابقاً، من طبقة الكولاك، ومن الضباط البيض، ومن المعادين للثورة.

وأشخاص فاسدون، ووصوليون، وبيروقراطيون لا يُرجى شفاؤهم.

وأشخاص كانوا يرفضون الانضباط الحزبي، ويتجاهلون ببساطة توجيهات اللجنة المركزية للحزب.

وأشخاص ارتكبوا جرائم، وتعدّيات جنسية، ومدمنون على الخمور.

أثناء حملة التدقيق والمراجعة التي جرت عامي 1932ـ1933 كان لا بد للقيادة من أن تلاحظ، ليس فقط أنها كانت عاجزة عن وضع تعليماتها موضع التنفيذ، بل وأن الإدارة الحزبية في الريف كانت هي أيضاً، في غاية الضعف والخراقة، لم يكن معروفاً من كان عضواً في الحزب، ومن لم يكن، فقد كانت البطاقات الحزبية المفقودة ونسخها المصورة قد بلغت 250.000 بطاقة. وكانت 60.000 بطاقة بيضاء قد اختفت.

في تلك اللحظة التاريخية، كان الوضع من الخطورة إلى درجة أن القيادة المركزية اضطرت إلى التهديد بطرد القادة المنطقيين الذين لم يكونوا يولون، شخصياً، عناية كافية بتلك الحملة في مناطقهم.

إن «ترك» القادة المنطقيين على هواهم، قد تحول غالباً، إلى نزعة تدخلية بيروقراطية إلى حد بعيد: كانوا يفصلون أعضاء من قواعد الحزب دون أي تحقيق سياسي معمّق. وقد نوقشت هذه المشكلة بالتفصيل، على أعلى مستوى عام 1933 وحتى عام 1938 فصحيفة البرافدا نشرت في 18 كانون الثاني من عام 1938 تعليمات صادرة عن اللجنة المركزية استعادت في معظمها ما كان بسطه ستالين حول هذه المسألة:

«اعتاد بعض قادة الحزب عادة سيئة، ألا وهي، عدم إيلاء الاهتمام الكافي بالناس، بأعضاء الحزب، بالعمال. ويمكننا القول أكثر من ذلك. أنهم لا يدرسون دراسة وافية حالة الأعضاء الفعّالين أو المتطرفين من الحزب. وهم لا يعرفون كيف يتخلصون منهم، ولا كيف ينشط هؤلاء داخل الحزب، إنهم جاهلون جهلاً تاماً بكوادرهم (...) وذلك لأنهم، تحديداً، لا يعتمدون مقاربات فردية في تقييمهم لأعضاء الحزب، وللمتطرفين منهم. فهم يتصرفون، عادة، من دون غاية محددة لتصرفهم ـ يجزلون لهم المديح بإفراط، ومن دون تمييز، أو يقرّعونهم بالطريقة ذاتها ـ ثم يفصلونهم من صفوف الحزب بالآلاف، وبعشرات الآلاف (...) ولكن الذين هم في أعمق أعماقهم معادون للحزب، هم وحدهم من يبتنى مثل هذا الموقف تجاه أعضاء الحزب».

في هذه الوثيقة، يشرح ستالين وقيادة الحزب المقاربة الصحيحة في تطهير الحزب من العناصر السيئة الذين تسربوا إلى قاعدة الحزب. ولكن نص الوثيقة يعلن صراحة عن تطهير من نمط آخر مختلف، هو ذاك الذي سيعمد إلى تنقية قيادة الحزب من العناصر التي ابتليت بداء البقرطة ابتلاء لا برء منه. ونحن نجد في الوثيقة شغلين شاغلين لدى ستالين: ينبغي اعتماد مقاربة فردية تجاه

كل كادر وكل عضو في الحزب. وينبغي تحصيل معرفة شخصية وثيقة بأولئك المحيطين بالقادة من معاونين ومرؤوسين. في فصل الحرب ضد الفاشيين سنبيّن كيف وضع ستالين نفسه، هذه التعليمات، موضع التنفيذ.

النضال من أجل الديمقراطية الثورية

كي تتخلص القيادة من شر البيروقراطية، شنّت نضالاً دؤوباً من أجل نشر الديمقراطية داخل صفوف الحزب.

بناء على الصعوبات التي اعترضت تطبيق تعليمات القيادة، خلال حملة التطهير، نوّهت اللجنة المركزية، في 17 كانون أول عام 1934، ولأول مرة، بالمشكلات الأكثر جوهرية في هذا الصدد. فانتقدت «الأساليب البيروقراطية لدى القيادة» حيث تعالج المسائل الأساسية من قبل مجموعة صغيرة من الكوادر، بمعزل عن مشاركة القاعدة، كلياً.

وفي 29 آذار عام 1935 عمل جدانوف على تبني قرار في لينينغراد ينتقد بعض القادة الذين يهملون مهمات التربية الحزبية لينشغلوا كلياً، بالمهمات الاقتصادية. وتضيع المهمات الإيديولوجية في ركام الأوراق، وفي البيروقراطية. وشدد القرار على وجوب أن يعرف القادة مزايا ومؤهلات مرؤوسيهم. وأن يضعوا تقارير مفصّلة لتقييم نشاطهم، وأن يقيموا علاقات أوثق مع كوادرهم، ويتبعوا سياسة ترفيع للكوادر الجديدة.

في 4 أيار عام 1935 قدم ستالين مداخلة حول هذا الموضوع. فتحدث عن «الموقف الشائن والفضائحي تجاه الناس، وتجاه الكوادر، وتجاه الشغيلة. إن الشعار المرفوع: «الكوادر تقرر كل شيء» يتطلب من رجالنا في قيادة الحزب أن يظهروا أكبر قدر من الاهتمام والعناية بعمالنا، صغاراً وكباراً، أياً كان ميدان عملهم، وأن يساهموا في تربيتهم وتكوينهم بعناية فائقة، وأن يساعدوهم إن كانوا بحاجة إلى دعم أو مساعدة. وأن يشجعوهم حينما يحققون أدنى نجاح، وأن يعملوا على تقدّمهم وتطويرهم.. الخ. والواقع أن لدينا سجلاً حافلاً بأمثلة عن بيروقراطيين لا قلب لهم. وعن مواقف فضائحية مكشوفة علناً تجاه معاوني هؤلاء القادة.

في دراسته الشائقة: «جذور التطهيرات الكبرى» قدم آرش غيتي التعليق التالي:

«كان الحزب قد غدا بيروقراطياً، اقتصادياً، ميكانيكياً، وإدارياً، إلى درجة أن هذا الوضع أصبح لا يُحتمل. ورأى ستالين وبعض قادة المركز في ذلك، نوعاً من تكلّس، من هزيمة منكرة، من فساد في وظيفة الحزب. لم يعد القادة المحليون في الحزب والدولة قادة سياسيين، بل إداريين اقتصاديين، كانوا يضيقون ذرعاً بأي رقابة سياسية، سواء من أعلى أو من أدنى المراتب الحزبية. ولم يكونوا يريدون إزعاج أنفسهم بالمسائل الإيديولوجية ومسائل التربية الحزبية، وحملات التوعية السياسية للجماهير، أو بحقوق أعضاء الحزب، ومهماتهم الفردية. إن الامتداد المنطقي لهذه السيرورة كان سيقود إلى تحول الجهاز الحزبي إلى شبكة للإدارة الاقتصادية المحلية من النمط الاستبدادي المطلق. والمواد الوثائقية المتوفرة تظهر أن ستالين، وجدانوف، وقادة آخرون كانوا يفضلون إعادة الحياة إلى مهمات التربية والتحريض داخل الحزب وتقليص السلطة المطلقة للقادة المحليين، وتشجيع بعض أشكال المشاركة القاعدية».

انتخابات الحزب عام 1937: «ثورة حقيقية»

في النهاية، وفي شباط عام 1937 كرست إحدى دورات اللجنة المركزية اجتماعها لمناقشة مسالة الديمقراطية، والنضال ضد التبقرط. وفي تلك الدورة اتخذ قرار بتنظيم «التطهير الكبير» ضد كافة العناصر المعادية داخل الحزب.

كانت التقارير التي قدمها ستالين وجدانوف تنص على تطوير النقد والنقد الذاتي، وعلى ضرورة خضوع قرارات الكوادر لقواعدهم الحزبية. وأُقر لأول مرة، إجراء انتخابات سرّية داخل الحزب، بوجود العديد من المرشحين، وبعد إجراء مناقشات سياسية بين سائر المرشحين. وقد أشار قرار اللجنة المركزية الصادر في 27 شباط عام 1937 إلى ما يلي:

«ينبغي وضع حد لممارسة اختيار الأعضاء داخل اللجنة المركزية للحزب»
«ينبغي أن يكون لكل عضو في الحزب الحق اللامحدود في الاعتراض على المرشحين، وتوجيه النقد لهم».

حين احتل الفاشيون الألمان الاتحاد السوفييتي، وضعوا أيديهم على كافة أرشيفات اللجنة المركزية للحزب في المنطقة الغربية في سمولينسك. على كافة محاضر الاجتماعات، وكافة المناقشات وكافة توجيهات اللجنة المنطقية، وتعليمات اللجنة المركزية، ووجدوا أيضاً محاضر الاجتماعات الانتخابية التي

جرتٍ في ختام دورة اللجنة المركزيـة. يمكننـا إذن معرفـة كيـف جـرت الأمـور عملياً في القاعدة.

وصف آرش غيتي السياق الذي جـرت فيـه عـدة عمليـات انتخابيـة، عـام 1937 في المنطقة الغربية. فبالنسـبة لمنـاصب لجنـة المقاطعـة. تم ترشيح أربعـة وثلاثين مرشحاً لملء سبعة مناصب. هذا في البداية. ثـم حدثـت مناقشـة حـول كل مرشح. وإذا رغب أحد المرشحين بالانسحاب، جرى التصويت أولاً لمعرفـة فيما إذا كان الأعضاء موافقين على ذلك. أما التصويت فكان سرياً.

وفي أيار عـام 1937، اطّلع الكثـيرون علـى المعطيـات الخاصـة بـ 45.000 منظمة حزبية وفي أثناء الحملـة الانتخابيـة، كـان معـدل 55٪ مـن مـلاك هـذه اللجان قد جرى استبدالهم، وفي منطقة لينينغراد كـان 48٪ مـن أعضـاء لجنـة الدائرة، أعضـاء جـدداً. وأكـد غيـتي بـأن هـذه الحملـة هـي الأكـثر أهميـة في معارضتها للبيروقراطية. وهي الأكثر شمولاً، وفاعلية التي قام بها الحزب طوال تاريخه.

وبيّن غيتي أنه منذ بداية العشرينات، كان كثيرٍ من الأفراد والجماعات قـد استقروا في مناطق مختلفة غير مناطقهم وامتلكوا عملياً نفوذاً في السلطة، وحتـى تلك الحملة الانتخابية المعادية للبيروقراطية بكل قوة، لم تقنعهم بالرحيل بعـد أن اكتسبوا احترام وثقة من حولهم.

الفصل
السابع

التطهيرات الكبرى

لم يتفق لواقعة من وقائع التاريخ السوفييتي أن عبأت مثل كل هذه الأحقاد في العالم القديم، مثلما فعلت تطهيرات عامي 1937 ـ 1938 وانصبت الإدانات من كل لون مستخدمة الألفاظ عينها سواء في أوراق النازية الجديدة، أو في المؤلفات الأكاديمية المزعومة لزبينغيو برزجنسكي، أو في الرسائل الهجائية التروتسكية، أو بريشة الإيديولوجي الرئيسي في الجيش البلجيكي.

لنتوقف قليلاً عند هذا الأخير. أعني هنري برنارد، عميل قديم في دوائر الاستخبارات البلجيكية، وبروفيسور شهير في المدرسة الملكية العسكرية. في عام 1928 نشر برنارد كتاباً بعنوان: الشيوعية وعمى الغرب. عمد فيه إلى تعبئة القوى الرشيدة في الغرب ضد اجتياح روسي وشيك، حسب زعمه. ولدى تناوله تاريخ الاتحاد السوفييتي، أدلى برنارد برأيه حول تطهيرات عام 1937. وإليكم رأي برنارد المثير للاهتمام.

«سيستخدم ستالين أساليب، كان لينين سيرفضها ولا شك. فلدى هذا الجورجي لا نعثر على أي أثر لشعور إنساني. فمنذ اغتيال كيروف (عام 1934) سيغرق الاتحاد السوفيتي في حمام دم، وسيشهد العالم مشهداً للثورة وهي تلتهم أبناءها الحقيقيين. فستالين، كما يقول دويتشر، كان يقدم للشعب نظاماً مصنوعاً من الرعب والأوهام. وعلى هذا النحو، تزامنت التدابير الليبرالية الجديدة مع موجة سفك الدماء خلال أعوام 1936 ــ 1939. تلك كانت برهة التطهيرات المروّعة، برهة «تشنج الإرهاب». ومنذ الآن (أي منذ اغتيال عضو المكتب السياسي كيروف) ستبدأ سلسلة لا نهائية من المحاكمات. وسيتم إفناء «الحرس القديم». روّاد المرحلة البطولية، عن آخرهم. أما المتهم الرئيسي في كل تلك المحاكمات فهو تروتسكي، الغائب عن الساحة. والمنفي الذي كان يواصل بمهارة خوض النضال ضد ستالين وفضح أساليبه، وإدانة تواطئه مع هتلر».

هكذا إذن، ينبض قلب مؤرخ الجيش البلجيكي بالحب تجاه تروتسكي والتروتسكيين، ويستشهد بهم ما شاء له الاستشهاد. وينصّب نفسه مدافعاً صلباً عن «الحرس البلشفي القديم» ويسوق، حتى، كلمة طيبة، في ذكر لينين. ولكن تحت إهاب ستالين، يكمن الوحش، الذي يخلو من أي منزع إنساني، والذي ينشر الهول والإرهاب الأعمى.

قبل أن نأتي على ذكر العبارات التي عرّف فيها البلاشفة التطهيرات الحزبية في عامي 1937 ـ 1938 لننظر أولاً، فيما يقوله اختصاصي برجوازي، يمتلك بعض الاحترام لوقائع التاريخ حول تلك المرحلة من التاريخ السوفييتي.

هذا الاختصاصي البورجوازي هو جابور تاماس ريتيرسبوم. المولود في بودابست، هنغاريا وقد نشر، في عام 1988 دراسة حول التطهيرات الكبرى، تحت عنوان: «تبسيطات ستالينية، وتعقيدات سوفييتية». أعلن جابور في المقالة معارضته للشيوعية، وأكد بأنه ليس بمقدور أحد «إنكار الأهوال الحقيقية فعلاً، لتلك المرحلة. والتي سنكون نحن، بلا ريب، أول من يسلّط عليها الضوء، إذا كان ذلك ما يزال يبدو ضرورياً».

يحدد ريتيرسبوم بطريقة رائعة المشكلات التي صادفها حين رغب أن يستخرج الوقائع من ركام الأكاذيب الأشد فظاظة ولا معقولية، والتي درج عليها الرأي العام.

«أن يحاول المرء، بوجل، أن يعرض على الملأ، تحليلاً لوقائع مجهولة كلياً، تقريباً وأن يضع ثانية، في دائرة الضوء، ومن منظور جديد، التاريخ السوفييتي لأعوام الثلاثينات والدور الذي لعبه ستالين فيه، فسيكتشف فيما بعد بأن الرأي العام يضع موضع التساؤل بكل تسليم وقناعة، أفكاراً مغايرة يطرحها الباحث ضمن حدود أضيق بكثير مما كان يتوقع (...) إن الصورة التقليدية «للظاهرة الستالينية» هي في الواقع، صورة كلية الجبروت. وأحكام القيمة السياسية والإيديولوجية التي تنبني عليها ذات طبيعة انفعالية كلياً، بحيث أن كل محاولة لتصحيح هذه الصورة لا بد لها، بكل تأكيد، من أن تبدو موقفاً ضد المعايير السائدة والمسلّم بها، التي حملتها تلك الصورة، بوجه عام (...) وأن تصرّ على إثبات أن الصورة التقليدية المأخوذة عن «الحقبة الستالينية»، هي، ولعدة اعتبارات، حافلة بالشطط والبعد عن الحقيقة إلى حد كبير، فإن ذلك يعادل إطلاقك لتحدّ يائس، ليس فقط للترسيمات الشائعة والمكرسة والتي من اللائق أن تفكر بالوقائع السوفييتية طبقاً لها، بل وللممارسة اللغوية الأكثر شيوعاً (...) إن ما يمكنه تسويغ بحث من هذا النوع، هو قبل

كل شيء»، الميوعة الشديدة التي يتميز بها الأدب الشائع عن ظاهرة تُعتبر من الظواهر الكبرى في عرف العلم التاريخي المكتوب. ألا وهي ظاهرة «التطهيرات الكبرى» في عامي 1936ـ1937. وبالرغم من ظواهر الأمور، فإن النزر اليسير الذي دُرس من التاريخ السوفييتي، دُرس بكثير من السطحية» «فكل شيء يحمل على الاعتقاد بأنه إن كان ثمة ميل إلى إهمال أبسط قواعد البحث، في المصادر التي تستقصي ذلك الميدان الهام، ولمدة طويلة جداً، فإن ذلك يعود، بوجه الاحتمال، إلى أن المقاصد التي تتوخاها تلك الأعمال كانت، إلى حد كبير بعيدة جداً عن مقاصد الأبحاث التاريخية المعتادة. وحين نقرأ الأدب «الكلاسيكي» بشيء من العناية، يصعب علينا أن نتخلص من تلك الفكرة، بأن هذا الأدب، ولعدة اعتبارات، مستوحى من الحالة الذهنية السائدة في الأوساط الغربية أكثر مما هو مستوحى من الوقائع التاريخية عن «الحقب الستالينية». أعني بذلك: الدفاع عن القيم السائدة في الغرب ضد كل أنواع التهديد الحقيقية والمتخيَّلة القادمة من الاتحاد السوفييتي. وتثبيت تجارب تاريخية لا يطالها الشك وأحكام إيديولوجية مسبقة من كافة الألوان».

بلغة واضحة، يقصد ريتيرسبوم إلى القول: في وسعي إثبات أن غالبية الأفكار الشائعة عن ستالين هي أفكار مشوهة قطعاً. ولكن مجرد الرغبة في قول ذلك هي محاولة يائسة تقريباً. فحين تنوّه، حتى بوجل، ببعض الحقائق الأكيدة عن الاتحاد السوفييتي خلال أعوام الثلاثينات، فإنما أنت تقوم بإعلاء قيمة «الستالينية». لقد رسّخت الدعاية البرجوازية صورة مشوهة ولكن بالغة الجبروت لستالين. صورة صار من المستحيل تقريباً تعديلها، إلى درجة أن الانفعالات تفيض، ما إن تلامس الموضوع، وهكذا فإن الكتب التي تناولت التطهيرات، والتي كتبها كبار الاختصاصيين الغربيين من أمثال كونكيست دويتشر، شابيرو، فينسود لا قيمة لها البتة. لأنها سطحية، ومكتوبة بمعزل عن أبسط قواعد الكتابة التاريخية التي يتعلمها أي تلميذ مرشح لدراسة التاريخ. والواقع أن هذه المؤلفات كتبت، كي تمنح مظهراً أكاديمياً وعلمياً للسياسة المعادية للشيوعية، التي تنتهجها الأوساط المهيمنة في الغرب. وهي تمثل، تحت مظاهرها العلمية موقفاً دفاعياً عن المصالح والقيم الرأسمالية، وأحكاماً مسبقة لدى البرجوازية الكبيرة.

لننظر الآن كيف قدّم الشيوعيون صورة هذه التطهيرات التي ارتأوا ضرورة القيام بها عامي 1937ـ 1938. هاكم الموضوعة الرئيسية التي بسطها ستالين في تقريره المؤرخ في 3 آذار عام 1937 حول التطهيرات.

أكد ستالين بأن بعض قادة الحـزب «بدوا لا مبـالين، متسـاهلين وسـذّجاً» ومفتقرين إلى الانتباه والتيقظ تجاه الأعداء، وتجاه خصوم الشيوعية المتسللين إلىداخل الحزب. وتحدث ستالين عن اغتيال كيروف، الرقم الثاني في الحـزب البلشفي إبان تلك الفترة:

«إن اغتيال كيروف هـو أول إنـذار جـدّي يؤكـد بـأن أعـداء الشـعب كـانوا يلعبون لعبة مزدوجة. فما إن تم لهم اغتيال كـيروف، حتـى تمظهـروا بمظهـر البلاشفة، مظهر أعضاء الحزب بغية اكتساب الثقة. وفتح مدخل لهم إلى قلـب منظماتنا. إن محاكمة كتلة زينوفييف ـ تروتسكي (عـام 1936) أثبتـت بوضـوح تام بأن الزينوفييفيين والتروتسكيين قد جمّعوا حولهم كافة العناصر البرجوازيـة المعاديـة، بحيـث أصبحـوا وكالـة تجسـس للغسـتابو، وأن اللعبـة المزدوجـة، والتنكـر خلـف الأقنعـة كـانت بالنسـبة إليهـم الوسـيلة الوحيـدة للتغلغـل في منظماتنا. وأن اليقظة ونفاذ البصر هما الوسيلة الأكثر نجاعة لمنع هذا التغلغـل» «كلما تقدمنا في هـذا المجـال، كلمـا حققنـا نجاحـات أكـثر. وبقـدر مـا يكـون اندحار فلول الطبقات المستغِلة كاسحاً، بقدر مـا سـيلجؤون بسـرعة إلى أشـكال من الصراع أكـثر حـدة وضـراوة. وكلمـا ألحقـوا أذى بالدولـة السـوفييتية كلمـا تشبثوا في صراعهم بأساليب أشد يأساً وقنوطاً، كملجأ أخـير لرجـال يواجهـون حتفهم».

كيف كانت تَطرح مشكلة الأعداء الطبقيين؟

إلى أين انتهى الأمر، إذن، بهـؤلاء المعـادين للشـعب، المتسـربين إلى قـدس أقداس البلاشفة. لنقدم أربع حالات نموذجية منهم:

بوريس باجانوف

خلال الحرب الأهليـة الـتي حصـدت أرواح تسعة ملايـين مـن الضحايـا، قاتلت البورجوازية البلاشفة والسلاح في يدها. ثم آلت إلى الهزيمة، فمـا الـذي يمكنها أن تفعله؟ أن تنتحر؟ أن تغرق يأسها بالفودكا؟ أن تتحول إلى البلشفية؟ كان ثمة ما هو أفضل لتفكر به. فمنذ النصر الحاسـم للثـورة البلشـفية، عمـدت عنـاصر بورجوازيـة، عـن سـابق وعـي وتصميـم، إلى التسـلل داخـل صفـوف الحزب، كي تقاتله من الداخل، وكي تهيىء الشروط لانقلاب بورجوازي.

كتب بوريس باجانوف كتاباً مفيداً في هذا المجال، عنوانه «مع ستالين، في الكرملين» وبوريس مولود عام 1900، لذا فقد كان عمره في لحظة انطلاق الثورة في أوكرانيا، مسقط رأسه، 17 ـ 19 عاماً. عرض باجانوف، داخل صفحات كتابه، بزهو وفخر، نسخة لإحدى الوثائق تنص على تعيينه معاوناً لستالين، مؤرخة في 9 آب عام 1923، وتتضمن قرار مكتب التنظيم الذي يقول:

«يعين الرفيق باجانوف معاوناً للرفيق ستالين، وسكرتيراً للجنة المركزية»، وأضاف باجانوف هذا التعليق المتهلل:

«جندي في الجيش المعادي للبلاشفة، ألزمت نفسي بمهمة شاقة وخطرة، هي النفاذ إلى رئاسة أركان العدو، وقد وصلت إلى غايتي».

كان باجانوف الشاب، بصفته معاوناً لستالين، سكرتيراً للمكتب السياسي، وكان عليه أن يدوّن كل ما يقال في الاجتماعات. كان له من العمر ثلاثة وعشرون عاماً. وفي الكتاب الذي ألّفه عام 1930 أوضح كيف أن مسيرته السياسية ابتدأت منذ أن وقعت عيناه على الجيش البلشفي في كييف، وكان عمره آنذاك تسعة عشر عاماً.

«استولى البلاشفة على المدينة عام 1919، ناشرين الرعب. وأن أعلن احتقاري تجاههم لم يكن يساوي أكثر من عشر طلقات تنفذ في جلدي. لذا فقد أخذت الجانب الآخر، كي أنقذ صفوة سكان مدينتي وتلبّست لبوس الإيديولوجية الشيوعية».

«منذ عام 1920 كان النضال ضد الآفة البلشفية قد أشرف على نهايته، ولم يعد ممكناً مقاتلة هذه الآفة من الخارج بأي شكل من الأشكال، كان ينبغي لغمها من الداخل. وإلى داخل القلعة الشيوعية كان يتوجب إدخال حصان طروادة. وشيئاً فشيئاً تجمعت كل خيوط الدكتاتورية في عقدة وحيدة داخل المكتب السياسي. لذا فإن الانقلاب لن يكون بإمكانه الانطلاق إلا من هنا».

خلال عامي 1923ـ1924 حضر باجانوف كل اجتماعات المكتب السياسي. واستطاع أن يحتفظ بمواقع مختلفة حتى هروبه عام 1928.

كثيرون آخرون من مثقفي البرجوازية كان لديهم مثل نبوغ هذا الشاب الأوكراني ذي التسعة عشر عاماً.

إن العمال والفلاحين الذين أراقوا دماءهم وهم يفجرون الثورة لم يكونوا يمتلكون الثقافة والتربية السياسية. كان بمقدورهم قهر البورجوازية بما أوتوا من شجاعة ومن روح بطولية ومن حقد ضد الظلم. ولكن كان يلزمهم، من أجل

بناء مجتمع جديد، الثقافة والتربية. في حين أن مثقفين من أبناء المجتمع القديم، شباناً وشيباً، أشخاصاً بارعين ومرنين بما فيه الكفاية كانوا يجيدون انتهاز الفرص. وكانوا يقومون بتغيير أسلحتهم وتكتيكهم في القتال. كانوا يواجهون أولئك الرجال الخشنين، وأولئك الأميين، من خلال الدخول في خدمتهم. وفي هذا الصدد فإن الطريق الذي اختطه باجانوف كان نموذجياً.

جورج سولومون

لنأخذ كتاباً ـ شاهداً، آخر، كانت مسيرة مؤلفه، جورج سولومون أكثر إثارة. كان سولومون كادراً في الحزب البلشفي وقد عيّن في تموز 1919 معاوناً لمفوض الشعب في شؤون التجارة والصناعة. كان الصديق الحميم لكراسين، البلشفي القديم، الذي كان يشغل آنذاك وظائف مفوض الشعب للاتصالات، ومفوض الشعب للتجارة والصناعة. وباختصار، فنحن أمام عضوين «من الحرس القديم في الفترات البطولية» العزيز على قلب هنري برنارد الأستاذ في الأكاديمية العسكرية البلجيكية.

في عام 1917 عاد سولومون من ستوكهولم إلى بطرسبورغ، وأسرع ليسأل صديقه كراسين حول الوضع السياسي، وحسب زعم سولومون، سيقول له كراسين التالي:

«أتريد ملخّصاً للوضع؟ لقد بُدئ بتطبيق الاشتراكية الفورية، وبإقامة يوتوبيا مدفوعة حتى حدود الحماقة الأكثر تهوراً. أصبح الجميع مجانين، بمن فيهم لينين. تناسوا قوانين التطور الطبيعي، وتناسوا تحذيراتنا بصدد خطر محاولة إقامة اشتراكية ضمن الظروف الراهنة. أما بخصوص لينين، فذلك هو الهذيان المتواصل. والحقيقة أننا نعيش في ظل نظام أوتوقراطي تماماً».

فهل يختلف هذا التحليل في شيء عن تحليل المناشفة؟

في بداية عام 1918 التقى سولومون وكراسين في ستوكهولم. كان الألمان قد استأنفوا هجومهم واحتلوا أوكرانيا. وكانت التمردات المعادية للبلاشفة قد نشبت في كل مكان. ولم يعد يُعرف من سيحكم روسيا، البلاشفة أم المناشفة وأصدقاؤهم الصناعيون. وقد أجمل لنا سولومون حواراته مع كراسين:

«كنا ندرك بأن هذا النظام الجديد كان قد أدخل سلسلة من التدابير العبثية واللامعقولة بتدميره القوى التقنية، وتثبيطه همم الخبراء التقنيين، واستبدالهم

بلجان عمالية. كنا نعـي بـأن نزوعـاً إلى تصفيـة البرجوازيـة كـان وارداً، تلك البرجوازية التي كانت ما تزال مؤهلة لتقديم كثير من العناصر الإيجابية، والتي كانت مدعوة إلى إنجاز المهمة التاريخية والحضارية».

يبدو سولومون هنا، بوضوح، متردداً فيمـا إذا كـان ينبغـي عليـه الالتحـاق بالماركسيين «الحقيقيـين»، أعـني، المناشـفة الذيـن يتقاسم معهـم همّ «إنقـاذ البرجوازية»، حاملة التقدم.

غير أن وضع السلطة البلشفية توطد أخيراً، وكمـا يقـول سـولومون «حـدث تغيّر تدريجي في تقييمنا للوضع». «وسـألنا أنفسنا فيمـا إذا كـان لنـا الحـق في البقاء بعيداً عما يجري. أما كان ينبغي لنا، ومن أجل مصلحة الشعب نفسـه، أن ننخرط في خدمته، وأن نضع قوانـا وتجاربنـا تحـت تصـرف السـوفييتات، حتى ندخل إلى تلك التجربـة بعـض عنـاصر الصحـة والعافيـة؟ ألـن يكـون في متناولنا إمكانية النضال ضد هذه السياسة من التدمير الشامل، الـتي كـانت قـد وسمت كل نشاط البلاشـفة؟ سيكون بمسـتطاعنا أيضـاً أن نحـول دون التدمـير الشامل للبورجوازية. كنا نعتقد بـأن استعادة العلاقـات الطبيعيـة مـع الغـرب سيحمل قادتنا بالضرورة على أن يسـتعيدوا صوابهـم، ويوحـدوا خطواتهـم مـع خطوات الأمم الأخـرى. ويبـدأ الجنـوح باتجـاه الشـيوعية الفوريـة بالـتراجع، وينتهي بالتلاشي نهائياً. وتبعاً لكل هـذه المبررات توصلنـا، كراسـين وأنـا، إلى اتخاذ قرار بالدخول في خدمة السوفييتات».

في الأول من آب عام 1923، وخلال إقامته في بلجيكا، قفز الرفيق البلشـفي الجميل من فوق الجدار وإذا به في الجهة الثانية. وظهرت شـهادته عـام 1930 تحت رعاية المنظمة البلجيكيـة الفرنسية «المركـز العـالمي للنضـال الفعـال ضـد الشيوعية»، وكان في جعبة البلشفي القديم سولومون الآن أفكار واضحة:

«إن حكومة موسـكو المؤلفـة مـن مجموعـة صغـيرة مـن الأشـخاص، تفـرض العبوديـة والإرهـاب علـى بلدنـا العظيـم (...) والمسؤولون السـوفييت يجـدون أنفسهم محاصرين من كل جانب بـالغضب. الغضـب الشـعبي الكبـير. ولأنهـم أسيرون لرعب مجنون، فقد غدوا أكثر فأكثر شرسين متوحشين، يهرقون أنهاراً من الدماء البشرية».

إنها الألفاظ نفسها الـتي كـان يسـتخدمها المناشـفة. وقبـل سـنوات رددهـا تروتسـكي، وبعـد انقضـاء خمسين عامـاً، لـن يتحـدث إيديولوجـي الجيـش البلجيكي هنري برنارد بأفضل منها. من المهـم ملاحظـة أن الألفـاظ «عبوديـة»

و«أنهار الدم» قد استُخدمت من قبل «البلشفي القديم» سولومون من أجل وصف الوضع في الاتحاد السوفييتي في ظل لينين، وأثناء الحقبة الليبرالية ما بين 1924ـ 1929، قبل بداية التجميع الزراعي. كما أن كافة الافتراءات حول «النظام الإرهابي والدموي» التي وجهتها البرجوازية إلى النظام السوفييتي في ظل ستالين كانت قد أُطلقت، كلمة كلمة، ضد النظام السوفييتي في ظل لينين.

عام 1918 كان بعض البلاشفة قد اتهموا سولومون أمام لينين بأنه برجوازي مضارب في التجارة وجاسوس ألماني، وكان سولومون قد أنكر ذلك بطريقة غاضبة، ولكنه منذ رحيله عن الاتحاد السوفييتي أعلن عن نفسه عدواً لدوداً للشيوعية.

فرونزه

يحتوي كتاب باجانوف، المذكور سابقاً، على مقطع مثير للاهتمام إلى حد كبير، يتحدث عن العلاقات التي أقامها باجانوف مع ضباط المراتب العليا في الجيش الأحمر.

«ربما كان فرونزه، يقول باجانوف في كتابه، هو الرجل الوحيد من بين القادة الذي كان يشتهي من أعماقه، زوالِ النظام وعودة روسيا إلى حياة أكثر إنسانية. في بداية الثورة كان فرونزه بلشفياً، ولكنه دخل إلى الجيش، ووقع تحت تأثير الضباط القدامى والجنرالات، وتشبّع بتقاليدهم، وغدا عسكرياً حتى نخاع عظامه. ثم شُغف بالجيش، وبدأ كراهيته للشيوعية، ولكنه كان يعرف كيف يصمت ويكتم أفكاره، وكان في قرارة نفسه يعتقد بأنه مرصود، في مستقبل أيامه، كي يلعب دور نابليون. كان لدى فرونزه خطة عمل محددة، وكان يسعى إلى تكتيل قوة الحزب داخل الجيش الأحمر. وكي يبدأ مسيرته التي يحلم بها، حصل على إلغاء المفوضين السياسيين داخل القطعات، الذين كانوا بوصفهم ممثلين للحزب، ذوي مراكز أعلى من القيادة العسكرية، ثم واصل بجسارة مشروعه المتمثل في انقلاب بونابرتي. واختار فرونزه لقيادة الفرق والفيالق والأفواج، عسكريين حقيقيين كان واثقاً في الاعتماد عليهم من أجل أن يتمكن الجيش من تحقيق الانقلاب، ولكن كان ينبغي وجود وضع استثنائي، وضع كان يمكن مثلاً أن يقود إلى الحرب. كان حاذقاً في إضفاء مسحة شيوعية على سائر أفعاله حذقاً يفوق الحد. ورغم ذلك، كشف ستالين خططه وأفسدها».

من الصعب القول، إن كان باجانوف محقاً في حكمه على فرونزه، ولكن نصه هذا يُظهر على الأقل، بأن البعض كانوا يراهنون، عام 1926 على الاتجاهات العسكرية والبونابرتية في داخل الجيش من أجل وضع حد للنظام السوفييتي.

وحين سيعتقل توخاتشيفسكي ويعدم عام 1937، سيُنسب إليه، بالتحديد نفس النوايا التي كانت لدى فرونزه والتي تحدث عنها باجانوف في كتابه.

ألكساندر زينوفييف

في عام 1929 ، كان ألكساندر زينوفييف، تلميذاً ثانوياً لامعاً في السابعة عشرة من عمره.

«كان بإمكاني أن أرى الفرق بين الواقع وبين مُثل الشيوعية. وكنت أجعل من ستالين مسؤولاً عن هذا الصدع».

تعبر تلك الجملة تماماً عن المثالية البرجوازية الصغيرة التي ترغب فعلاً في التسليم بالمُثل الشيوعية، ولكنها تغض النظر عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي. ومن ثم عن السياق العالمي الذي كان على الطبقة العاملة أن تبدأ إنجاز مشروعها في ظله. والبعض من هؤلاء البرجوازيين الصغار تخلوا عن المثل الشيوعية حينما كان عليهم أن يواجهوا شراسة الصراع الطبقي والصعوبات الكامنة في مجرى البناء الاشتراكي.

«كنت معادياً لستالين، مقتنعاً بذلك منذ السابعة عشرة من عمري». ويؤكد زينوفييف «كنت أعتبر نفسي واحداً من الفوضويين الجدد» كان يقرأ بشغف مؤلفات باكونين وكروبوتكين، وكذلك مؤلفات جيليابوف والشعبويين. لقد قامت ثورة أوكتوبر، في الواقع «من أجل أن يتمكن موظفو الجهاز من أن يمتلكوا سيارة الوظيفة، لاستخدامهم الشخصي، وأن يعيشوا في شقق واستراحات فاخرة»، لقد استهدفت الثورة «إنشاء دولة مركزية وبيروقراطية». «إن فكرة دكتاتورية البروليتاريا لهي محض حماقة»

«إن فكرة القيام باغتيال ستالين قد تملكت أفكاري ومشاعري. وكنت ميالاً نحو الإرهاب (...) وقد درسنا احتمالات محاولة الاغتيال، فحين يجري العرض فوق الساحة الحمراء، سنفتعل بلبلة، تتيح لي، وأنا مسلح بمسدس وقنبلة يدوية، بأن أهجم باتجاه القيادة» وبعد مرور وقت، هيأ زينوفييف

بالاشتراك مع صديقه أليكسي محاولة اغتيال جديدة مبرمجة بتاريخ 7 تشرين الثاني عام 1939.

دخل زينوفييف إلى كلية الفلسفة في أحدى المؤسسات التعليمية المخصصة للنخبة.

«منذ دخولي، أدركت، بأنه كان علي، عاجلاً أم آجلاً، أن أنضم إلى الحزب الشيوعي، ولم يكن لدي، مطلقاً، النية بالتعبير، صراحة، عن قناعاتي، فلن أكسب بذلك أي شيء سوى الأعداء. كنت قد اخترت طريقي. وكنت مصمماً أن أكون ثورياً يناضل ضد المجتمع الجديد الذي يبنيه البلاشفة. فقررت إذن أن أتكتم زمناً وأخفي طبيعتي الحقيقية».

تعطينا هذه الحالات الأربع فكرة عن الصعوبة الكبيرة التي اعترضت طريق السلطة السوفييتية في الصراع ضد الأعداء المستشرسين، ولكن المتخفين وراء الأقنعة. والمتحركين في الخفاء، والذين حاولوا جاهدين بكل الوسائل أن يلغموا وينسفوا الحزب والسلطة السوفييتية من الداخل.

النضال ضد الانتهازية في الحزب

خاض ستالين والقادة البلاشفة الآخرون، طوال سني العشرينات والثلاثينات، نضالات عديدة ضد الاتجاهات الانتهازية في قلب الحزب، وقد احتل دحض الأفكار المضادة اللينينية التي طرحها تروتسكي، ومن ثم زينوفييف، وكامينيف، وبعدهم بوخارين، في تلك النضالات موقعاً محورياً.

شنّ الحزب البلشفي نضالاً إيديولوجياً وسياسياً حاسماً ضد تروتسكي طوال الفترة الممتدة ما بين 1922ـ1927 حول مسألة إمكانية بناء الاشتراكية في بلد واحد، هو الاتحاد السوفييتي. وكما رأينا سابقاً، فإن موضوعات تروتسكي الانهزامية والاستسلامية كانت قد التحقت في الواقع بالأفكار التي كان يدافع عنها المناشفة، منذ عام 1918، والذين كانوا قد استخلصوا بدورهم استحالة بناء الاشتراكية في بلد فلاحي متخلف.

وفي عامي 1926ـ1927 التحق زينوفييف وكامينيف بتروتسكي في صراعه ضد الحزب وشكل الثلاثة مجتمعين المعارضة الموحّدة. وقد أدانت هذه المعارضة صعود طبقة الأرستقراط الجدد، وانتقدت «البيروقراطية» المهيمنة على الحزب، وشكلت شللاً سرية في داخل الحزب، وحينما دافع أوسوفسكي عن الحق في

تشكيل «أحزاب معارضة» صوّت تروتسكي وكامينيف، في المكتب السياسي ضد فصله من الحزب. واستعاد زينوفييف نظرية تروتسكي حول «استحالة بناء الاشتراكية في بلد واحد». تلك النظرية التي قاتل تروتسكي في سبيلها طوال سنتين فيما سبق، وتحدث عن خطر «انحطاط في الحزب» كما تحدث تروتسكي عن «الترميدور السوفييتي»، مشيراً إلى التماثل بين ما يجري في الاتحاد السوفييتي وبين الثورة المضادة في فرنسا، حيث سحق اليعقوبيون اليمينيون رفاقهم اليعقوبيين اليساريين.

وبسبب من تصرفاتها السيئة وأطروحاتها، فقدت المعارضة الحزبية حظوتها تماماً لدى قواعد الحزب، وحين جرت إحدى الانتخابات الحزبية لم تنل هذه المعارضة أكثر من 6.000 صوت من بين 725.000 مندوب. وفي 27 كانون أول عام 1927 أعلنت اللجنة المركزية بأن المعارضة داخل الحزب تشارك القوى المعادية للسوفييت آراءها ومواقفها. وأن كل من سيدعم تلك المواقف سيصبح خارج الحزب. ونتيجة لذلك فإن كل القادة التروتسكيين والزينوفييفيين فصلوا من الحزب.

غير أنه في حزيران من عام 1928، نشر العديد من الزينوفييفيين نقداً ذاتياً مكتوباً، فأعيد إدماجهم في داخل الحزب. ثم تبعهم قادتهم زينوفييف وكامينيف وافدوكيموف، وقاموا بنفس الخطوة فيما بعد.

ثم إن عدداً كبيراً من التروتسكيين جعلوا يقرّون بأخطائهم. ومنهم بريو برجينسكي، وكاديك وبياتاكوف. أما بالنسبة لتروتسكي فقد واصل معارضته دون هوادة، ولم يكن هناك بد من نفيه خارج الاتحاد السوفييتي.

الجبهة الثالثة من جبهات النضال المحتدم كانت موجهة ضد الانحراف اليميني الذي كان يتزعمه بوخارين، وعلى الأخص إبان التجميع الزراعي. دعا بوخارين إلى سياسة من نمط اشتراكي - ديمقراطي تقوم على فكرة المصالحة بين الطبقات، وذاد عن فكرة تطور طبقة الكولاك في الريف، وجعل نفسه لسان حالهم والمحامي عن مصالحهم، ونادى بإبطاء وتيرة التصنيع في البلاد. كانت صلابة بوخارين قد تزعزعت من جراء شراسة الصراع الطبقي في الريف الذي وصف بوخارين «أهواله» وندّد بها.

خلال ذلك النضال لوحظ أن عدداً من قدامى «المعارضين اليساريين» أبرموا تحالفاً تآمرياً مع بوخارين بهدف الإطاحة بستالين والقيادة اللينينية. وفي 11 تموز عام 1928 وفي لحظة النقاشات المحتدمة التي سبقت حركة التجميع كان

بوخارين يجري حوارات سرية مع كامينيف. ثم أعلن نفسه مناصراً «لكتلة المعارضة مع كامينيف وزينوفييف لاستبدال ستالين»، وفي أيلول 1928 تقرّب كامينيف من بعض التروتسكيين، وطلب منهم العودة إلى صفوف الحزب وانتظار «لحظة اختمار الأزمة».

ولكن، ما إن أنجز التجميع، بجزئه الأعظم، خلال عامي 1932ـ1933، حتى كان المنظر الانهزامي بوخارين قد فقد كامل خطوته واعتباره لدى قواعد الحزب.

في أثناء ذلك، كان زينوفييف وكامينيف قد استأنفوا صراعهم ضد خط الحزب وبخاصة، حين عاضدوا البرنامج المضاد للثورة الذي أعدّه ريوتين عام 1931ـ1932 وتم فصلهم مرة ثانية. من صفوف الحزب، وإبعادهم إلى سيبيريا.

بدءاً من عام 1933 كانت قيادة الحزب تعتبر أن المعارك الأشد قسوة، من أجل التصنيع والتجميع الزراعي قد تمّ خوضها، وأصبحت خلف الظهر، وفي أيار عام 1933 صدر قرار موقعٌ من قبل ستالين ومولوتوف يقضي بتحرير نصف الأشخاص المرسلين إلى معسكرات العمل أثناء التجميع، وعرفت البلاد في تلك الفترة حالة من الانفراج الاجتماعي والاقتصادي.

كان التوجه العام للحزب قد أثبت صحته. وكان كامينيف وزينوفييف وبوخارين وعدد من التروتسكيين قد اعترفوا بخطئهم. كانت القيادة ترى بأن الانتصارات الباهرة في البناء الاشتراكي، يمكنها أن تقود كافة المعارضين إلى نقد تصوراتهم المغلوطة، وإلى تمثل التصورات اللينينية. ولهذا السبب فقد دُعي كافة القادة من التيارات الانتهازية الثلاثة تقريباً: التروتسكيون بياتاكوف ورادك وسميرنوف وبريو برجينسكي، ثم زينوفييف وكامينيف، وبوخارين ـ هذا الأخير ظل مع ذلك في موقع قيادي دائماً ـ دعوا جميعاً عام 1934 إلى المؤتمر السابع عشر للحزب حيث قدموا هناك مداخلاتهم.

وكان ذلك المؤتمر بحق، مؤتمر الانتصار ووحدة الحزب.

في تقريره إلى المؤتمر السابع عشر، المقدّم في 26 كانون الثاني عام 1934 عرض ستالين الإنجازات الكبيرة في ميدان التصنيع، والتجميع الزراعي، والارتقاء الثقافي، وبعد أن أشار إلى الانتصار السياسي على المجموعة التروتسكية وعلى القوميين البرجوازيين قال:

«أما المجموعة المضادة للينينية، من المحرضين على الانحراف اليميني فقد اندحرت وتشتت شملها. وتخلت منظماتها، منذ أمد بعيد، عن طريقتها في رؤية الأمور. وها هي الآن تسعى بكل الوسائل للتكفير عن ذنوبها أمام الحزب».

خلال فترة انعقاد المؤتمر، دأب كافة المعارضين على الاعتراف بالنجاحات العظيمة التي تحققت منذ عام 1930. وفي نهاية خطبته، أكد ستالين:

بأن «تلاحماً كاملاً، في وجهة النظر الإيديولوجية والسياسية، مثلما في وجهة النظر التنظيمية، قد تبدى في صفوف التنظيم».

كان ستالين مقتنعاً بأن المنحرفين القدامى عن خط الحزب، سيعملون منذ الآن باستقامة وإخلاص في عملية البناء الاشتراكي.

يمكن القول بأن ستالين كان يفتقد الحذر تجاه هؤلاء الذين كانوا قد انحرفوا ثلاث مرات أو أربع نحو الانتهازية الأشد خطراً، ولكن ستالين كان يعتبر، بحق، بأنه قد انتهى من المعارك الطبقية الكبرى، وخلّفها وراء ظهره، وبأن الانتصارات المتحققة كان يمكنها أن تجمع حول الخط اللينيني، أولئك الذين ضلوا طريقهم في الماضي، وكان يعتقد بأنه ما من أحد إلا ويأخذ عظة من أخطائه. ومع ذلك فقد أشار ستالين إلى خطرين:

«إن أعداء الحزب، الانتهازيين من شتى الألوان، قد هُزموا وانتهى أمرهم. غير أن بقايا إيديولوجيتهم تلبث معششة في عقول بعض أعضاء الحزب وتبرز إلى العلن غالباً»

وأشار إلى استمرار «بقايا الرأسمالية في الاقتصاد بطريقة أكثر تأثيراً، وذلك يعني تأثيراتها المترسبة في وعي الناس». «لا نستطيع القول بأن النضال قد انتهى، وبأن سياسة الاشتراكية الهجومية لم تعد مطلوبة».

ثم حدد ستالين خطراً آخر كان قد ظهر في صفوف البلاشفة أنفسهم. فمنذ بعض الوقت كان الحزب يؤكد بأننا نسير الآن نحو مجتمع من دون طبقات. والحالة هذه، يقول ستالين، فقد ظهرت «حجة تقول: ما دام المجتمع من دون طبقات فإن بالإمكان تخفيف الصراع الطبقي، وعدم التشديد على دكتاتورية البروليتاريا، وبنحو عام، الانتهاء من الدولة، التي ينبغي، على كل حال أن تزول قريباً. كان أصحاب الحجة يطيرون فرحاً لفكرة أنه، عما قريب لن يعود ثمة طبقات، وبالتالي لن يعود ثمة صراع طبقي، وبالتالي لن يبقى ثمة شاغل يقلقنا، وإذن، يمكننا أن نضع السلاح جانباً وأن نمضي إلى النوم، بانتظار قدوم المجتمع الخالي من الطبقات». وهذا يعني، يقول ستالين، حكاية جديدة من حكايات الانحراف الاشتراكي ـ الديمقراطي سيمكنها إنهاء تعبئة الحزب وتسريح قواته وتجريده من أسلحته.

إن دراسة مفصلة للصراع الإيديولوجي والسياسي الناشب في صفوف القيادة البلشفية منذ عام 1922 وحتى عام 1934 تتيح لنا دحض كافة الأكاذيب والأفكار المسبقة الشائعة بكثرة. فمن التجني على الحقيقة القول بأن ستالين كان يمنع القادة الآخرين من التعبير الحر عن آرائهم وبأنه يعمل على نشر «الطغيان والاستبداد» داخل الحزب. فالسجالات والصراعات كانت تخاض بطريقة علنية ومفتوحة، ولفترة مديدة. فكم من التصورات المتباينة تبايناً جوهرياً، تجابهت بعنف، وكان مصير الاشتراكية مرهوناً بها. لقد سمح ستالين، بصبر وتسامح لعديد من المعارضين أن يعودوا إلى مواقعهم في القيادة بعد ارتكابهم أخطاء قاتلة. وكان يثق بنزاهة نقدهم الذاتي ثقة كبيرة.

المحاكمات والصراع

ضد التحريفيين وضد التسرب المعادي

في الأول من كانون الأول عام 1934 اغتيل الرجل الثاني في القيادة، كيروف، داخل مكتبه في لينينغراد. كان القاتل، ويدعى نيقولاييف، قد دخل إلى المكتب بعد إبراز بطاقته الحزبية. كان مفصولاً من الحزب، ولكنه ظل محتفظاً ببطاقته..

كان أنصار الثورة المضادة في السجون، ومعسكرات العمل عاكفين على لعبتهم المعتادة في تسميم الأجواء.

«ستالين، هو الذي قتل كيروف»، هذه «القراءة» لمقتل كيروف ستنتشر في أوروبا عبر المنشق أورلوف في عام 1953. حين وقع الحادث كان أورلوف في إسبانيا، وبعد نشر كتاب له أثناء مروره في الغرب، أثار بعض الضجيج حول إقامته القصيرة في موسكو، ولكن كان عليه أن ينتظر خمس عشرة سنة كي تساعده الحرب الباردة على أن ينشط ذاكرته، ويقدم لنا كشفه المثير عن مقتل كيروف.

كتب توكاييف، وهو عضو في منظمة سرية معادية للشيوعية، بأن كيروف قتل على يد مجموعة من المعارضة، وأنه، هو بالذات تابع عن قرب إعدادات محاولة الاغتيال وأكد ليوسفسكي وهو عضو في منظمة NKVD المعارضة، والذي هرب إلى اليابان، بأن ستالين لا علاقة له من قريب أو بعيد بمقتل كيروف.

جاء اغتيال كيروف في لحظة كانت قيادة الحزب تعتقد فيها بأن ما هو أقسى قد مضى وانقضى وأن وحدة الحزب لا يداخلها أي وهن. وعكس رد

فعل ستالين تشوشاً وخوفاً أكيداً. كانت القيادة تعتقد بأن مقتل الرجل الثاني يحدد بداية لانقلاب وشيك. وصدر على الفور قرار يقضي باتخاذ تدبير عاجل لاعتقال الجناة وإعدامهم. وجاء التدبير المتعسف الذي تلا ذلك نتيجة لشعور بخطر قاتل يهدد النظام الاشتراكي.

كان الحزب، في بداية الأمر، يبحث عن الجناة في أوساط أعدائه التقليديين، البيض. وقد أعدم عدد من بينهم، ومن ثم عثر البوليس على دفتر يوميات القاتل نيقولاييف. وكان خالياً من أية إشارة إلى منظمة معارضة كانت وراء الاغتيال، وتوصل التحقيق أخيراً إلى نتيجة مفادها أن مجموعة زينوفييف كانت «قد مارست تأثيرها» على نيقولايفسكي وعلى أصدقائه. ولكنه لم يعثر على أي دليل يثبت تورطاً مباشراً من قبل زينوفييف. وقد نفي هذا الأخير إلى مكان ما داخل الاتحاد السوفييتي.

كشف رد فعل الحزب، إذن، عن بلبلة عارمة. وقد أثبتت كافة الوقائع تهافت المقولة التي تفيد بأن ستالين كان هو من «أعدّ» عملية الاغتيال كي يطلق «حملته الشيطانية» لاستئصال شأفة المعارضة.

محاكمة المركز التروتسكي ـ الزينوفييفي

تمخّض حادث الاغتيال عن تطهير الحزب من أنصار زينوفييف، من دون عنف مكثف. وكانت الأشهر التي تلت مشحونة بالحملة الكبرى لإعداد الدستور الجديد، الذي تمحور حول موضوعة الديمقراطية الاشتراكية.

لم تمض سوى ستة عشر شهراً حين أعادت النيابة العامة، في حزيران عام 1936، فتح ملف اغتيال كيروف، بناء على معلومات جديدة، كانت تتعلق بإنشاء منظمة سرية في أوكتوبر تشرين أول من عام 1932، وكان زينوفييف وكامينيف في عدادها.

كان البوليس يمتلك دلائل على أن تروتسكي كان قد أرسل في بداية عام 1932 رسائل سرية إلى راديك وسوكولنيكوف وبريو برجينسكي وآخرين، يحثهم فيها على القيام بأعمال أكثر فعالية ضد ستالين. وقد عثر جيتي في أرشيفات تروتسكي على ما يؤكد ذلك.

في تشرين أول عام 1932، التقى التروتسكي القديم غولسمان، بابن تروتسكي سيدوف في برلين. في ظرف من السرية، وتناقشا حول اقتراح سميرنوف بتشكيل كتلة لمعارضة موحدة، تضم التروتسكيين، والزينوفييفيين،

وأنصار لومينادزه. كان تروتسكي يصر على ضرورة «الإجماع والسرية». وبعد مضي وقت، كتب سيدوف إلى والده بأن كتلة المعارضة تشكلت رسمياً، وأن الجهود ما تزال تبذل لضم مجموعة سافاروف ـ تارخانوف. وقد قدمت مذكرة تروتسكي، وفيها تقريران لغولسمان وسميرنوف مكتوبان تحت اسم مستعار.

هكذا وجدت قيادة الحزب نفسها أمام دلائل لا تدحض عن مؤامرة تهدف إلى الإطاحة بالقيادة البلشفية، وتنصيب نفاية من الانتهازيين على سدة السلطة، لم يكونوا أكثر من درجات ترتقي عليها الطبقات المستغلة القديمة.

تروتسكي والثورة المضادة

كان من الواضح لأي شخص،يحلل بروية صراع الطبقات على المستوى العالمي، بأن تروتسكي كان قد غدا في الواقع، ومنذ عام 1936 ألعوبة بيد القوى المعادية للشيوعية من كل لون وصنف. وكشخصية مغترة بذاتها. نسب تروتسكي إلى نفسه دورا كونياً وتاريخياً يزداد عظمة وفخامة يوماً بعد يوم. إلى درجة أن العصبة المحيطين به غدوا أكثر ضآلة وإمحاءً. كانت كل طاقاته تنصب على هدف وحيد: تهديم الحزب البلشفي الذي سيتيح له ولأتباعه تسنم السلطة. والواقع، أن تروتسكي الذي كان يعرف حق المعرفة الحزب البلشفي وتاريخه، بات أحد أبرز الاختصاصيين العالميين بالصراع المضاد للبلاشفة.

لتحديد أفكار تروتسكي، سنسوق بعض المواقف العلنية التي اتخذها قبل إعادة فتح قضية كيروف في حزيران عام 1936. فهذه المواقف ستلقي ضوءاً جديداً على زينوفييف، كامنييف، سميرنوف، وكل أولئك الذين تورطوا في المؤامرة مع تروتسكي.

«تقويض الحركة الشيوعية»

أعلن تروتسكي منذ عام 1934 بأن ستالين والأحزاب الشيوعية كانت مسؤولة عن وصول هتلر إلى السلطة. وللخلاص من هتلر كان ينبغي في البدء تهديم الأحزاب الشيوعية «من دون رحمة».

«إن فوز هتلر كان قد نجم عن السياسة الإجرامية والجديرة بالاحتقار للكومنترن. ولو لم يكن ستالين موجوداً، فلن يكون هناك فوز لهتلر». «إن

الكومنترن الستاليني، مثله مثل الدبلوماسية الستالينية قد ساعدا هتلر، كل من جانبه على امتطاء ظهر الحصان».

«لقد عملت بيروقراطية الكومنترن، جنباً إلى جنب مع الاشتراكية الديمقراطية، عملت كل ما في وسعها كي تحوّل أوروبا، وحتى العالم بأسره إلى معسكر اعتقال فاشي.».

«خلق الكومنترن الشروط الأكثر ملاءمة لفوز الفاشية. فمن أجل الإطاحة بهتلر لا بد من الإجهاز على الكومنترن».

«أيها العمال! تعلموا أن تحتقروا هؤلاء الأوباش البيروقراطيين». «عليكم أن تستأصلوا بلا رحمة. من الحركة العمالية، النظرية والتطبيق، للمغامرين البيروقراطيين».

هكذا، ومنذ بداية عام 1934،ولم يكد يمضي على وصول هتلر إلى السلطة أكثر من سنة، اعتبر تروتسكي أن الإطاحة بالفاشية تستوجب أولاً تدمير الحركة الشيوعية العالمية. يا له من مثال رائع «للوحدة المعادية للفاشية» التي يتحدث عنها التروتسكيون على هذا النحو الديماغوجي. لنتذكر أيضاً، أنه في الفترة نفسها، أكد تروتسكي على أن الحزب الشيوعي الألماني كان «قد رفض تشكيل جبهة موحدة مع الحزب الاشتراكي» وأنه، بالنتيجة، كان مسؤولاً، بسبب «تعصبه المفرط» عن وصول هتلر إلى السلطة. والواقع، أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، هو الذي كان، وبسبب سياسيته المحمومة في الدفاع عن النظام الرأسمالي الألماني، رافضاً لأية وحدة مضادة للفاشية وللرأسمالية، ومع ذلك يجعل تروتسكي هدفه «استئصال» القوة الوحيدة التي خاضت فعلياً القتال ضد النازية. «استئصالها دون رحمة».

في عام 1934، أيضاً، ومن أجل تحريض الطبقات الشعبية الأكثر تخلفاً، ضد الحزب البلشفي، طرح تروتسكي موضوعته الشهيرة القائلة بأن الاتحاد السوفييتي يشبه في العديد من سماته، دولة فاشية.

«في هذه السنوات الأخيرة، انتحلت البيروقراطية السوفييتية العديد من الملامح الفاشية الظافرة، ولا سيما إطلاق سيطرة الحزب، وخلق عبادة الزعيم».

إحياء الرأسمالية أصبح مستحيلاً

في بداية عام 1935 كان موقف تروتسكي على النحو التالي: إن إعادة الرأسمالية إلى الحياة لم يعد ممكناً. والقاعدة الاقتصادية والسياسية للنظام

السوفييتي سليمة ومعافاة غير أن القمة. أي قيادة الحزب البلشفي هي الجزء الأكثر فساداً، والأكثر معاداة للديمقراطية، والأشد رجعية في المجتمع.

على هذا النحو، يضع تروتسكي تحت جناحه كل القوى المعادية للشيوعيين والتي تناضل ضد «هذا الجزء الأكثر فساداً» الذي هو قيادة الحزب.

يدافع تروتسكي، في الوقت ذاته على نحوٍ منهجي عن سائر الانتهازيين، والوصوليين والانهزاميين الذين كانوا يبرزون في صفوف الحزب البلشفي، والذين لغموا بأفعالهم دكتاتورية البروليتاريا.

إليكم ما كتبه تروتسكي في نهاية عام 1934، بعد اغتيال كيروف بالضبط، وحينما أُقصي زينوفييف وكامنييف عن الحزب. وأُبعدوا إلى منفى داخلي:

«كيف أمكن أن يتفق، والآن بالتحديد، بعد كل النجاحات الاقتصادية، وبعد إلغاء الطبقات في الاتحاد السوفييتي، تبعاً لما تقوله التصريحات الرسمية. كيف أمكن أن يتفق، أنّ بإمكان بلاشفة قدامى أن يقوموا بإحياء الرأسمالية؟ ليس غير منشورات خرقاء من سيمكنه أن يؤكد بأن العلاقات الرأسمالية، أي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، بما فيها الأرض، سيمكنها أن تعود من جديد، داخل الاتحاد السوفييتي، من خلال وسائل سلمية، وأن تتوصل إلى إقامة نظام ديمقراطي برجوازي. فالرأسمالية، في الواقع، لن يكون بإمكانها أن تعود إلى الحياة في روسيا إلا نتيجة انقلاب عنيف مضاد للثورة سيكلف عشرة أضعاف الضحايا الذين سقطوا خلال ثورة أوكتوبر والحرب الأهلية معاً».

إن أول ما يتبادر إلى الذهن، بعد قراءة هذا النص، هو أن تروتسكي الذي خاض ما بين عامي 1922ـ 1927 نضالاً عنيداً، متمحوراً حول موضوعته القائلة باستحالة بناء الاشتراكية في بلد واحد، أي في الاتحاد السوفييتي، يصرّح الآن، في عام 1934 بأن الاشتراكية قد ترسخت في الاتحاد السوفييتي بحيث ستكلف الإطاحة بها عشرات الملايين من الضحايا.

ثم إن تروتسكي يتظاهر بالدفاع عن «البلاشفة القدامى»، بيد أن مواقف «البلاشفة القدامى» زينوفييف وكامينيف كانت متعارضة مع موقف أولئك «البلاشفة القدامى» الآخرين، ستالين وكيروف، ومولوتوف، وكاغانوفيتش، وجدانوف. فهؤلاء الأخيرون دلّوا بوضوح، بأن المواقف الانتهازية لزينوفييف وكامينيف، إبان النضال الطبقي الشرس، الذي كان محتدماً في الاتحاد السوفييتي سيفتح الطريق أمام الطبقات المستغلة القديمة.

يقدم تروتسكي حجة ديماغوجية استخدمت ألف مرة من قبل البرجوازية تقول الحجة: كيف سيمكن لثوري قديم أن يغير معسكره؟

مع ذلك، فإن كاوتسكي الذي كان يلقّب بالابن الروحي لماركس وأنجلز قد أصبح بعد رحيل مؤسسي الاشتراكية العلمية، وحتى نخاع عظامه، المرتد الرئيسي عن الماركسية. وكان مارتوف أحد الرواد الماركسيين الروس، وساهم في خلق المنظمات الثورية الأولى. ورغم ذلك فسيكون مارتوف واحداً من زعماء تيار المناشفة، وسيقاتل ضد الثورة الاشتراكية منذ قيامها في أوكتوبر عام 1917. وماذا يُقال أيضاً عن «بلاشفة قدامى» من أمثال خروشوف وميكويان اللذين رهنا الاتحاد السوفييتي لنهج تجديد الرأسمالية؟

يؤكد تروتسكي بأن الثورة المضادة ليست ممكنة إلا من خلال حمام دم سيكلف أكثر من ملايين الضحايا. فهو يزعم إذن، أنه ليس بمقدور الرأسمالية العودة من جديد «في داخل الاتحاد السوفييتي» عبر الفساد السياسي الداخلي في الحزب، وعبر التسرب المعادي إلى داخل الحزب، وعبر البيروقراطية، والاشتراكية الديمقراطية في الحزب. بالرغم من أن لينين كان قد أكد كثيراً على مثل هذه الإمكانية.

لقد كان كامينيف وزينوفييف، من الناحية السياسية رائدين لخروشوف. والحال أن تروتسكي لكي يجعل التيقظ والحذر تجاه انتهازيين من أمثال زينوفييف وكامينيف كما لو كان مهزلة، فإنه يستخدم حجة سخيفة سيستعيدها خروشوف فيما بعد في تقريره السري:

«إن تصفية الطبقات المهيمنة القديمة، والنجاحات الاقتصادية في المجتمع الجديد، في الوقت ذاته، سيتعين عليهما بالضرورة، أن يقودا إلى تخفيف واختفاء تدريجي للدكتاتورية».

هكذا، إذن، ففي اللحظة التي تتوصل فيها منظمة سرية إلى قتل كيروف، الرجل الثاني في النظام الاشتراكي، يصرح تروتسكي: ينبغي لدكتاتورية البروليتاريا في الاتحاد السوفييتي، بصورة منطقية، أن تبدأ في الخمود والزوال. ففيما توجه هذه المنظمة حربتها إلى صدور البلاشفة الذين كانوا يدافعون عن النظام السوفييتي، يوصي تروتسكي باللين والتسامح تجاه المتآمرين.

وفي حركة واحدة، يصوّر تروتسكي الإرهابيين من الزاوية الأشد إثارة للتعاطف. فهو يعلن أن اغتيال كيروف هو «حدث جديد له مغزى كبير» ويوضح فكرته قائلاً:

«إن حادثاً إرهابياً، ارتكب بإيعاز من منظمة معينة، لا يمكن تصوره لو لم يكن هناك مناخ سياسي ملائم للإرهاب. فالعداء الشديد تجاه قمة السلطة لا بد أن يكون قد سرى واتخذ أشكالاً حادة حتى أمكن أن تتبلور داخل شبيبة الحزب مجموعة إرهابية (...) «إذا ما شاع داخل الطبقات الشعبية تذمر، يعزل البيروقراطية برمّتها، إذا ما شعرت الشبيبة نفسها بأنها مبعدة، ومظلومة، ومحرومة من إمكانية تطورها المستقل، فإن مناخاً ملائماً لظهور مجموعات إرهابية لا بد أن يولد.»

فيما يتخذ تروتسكي مواقف علنية ضد الإرهاب الفردي، يسارع إلى قول كل ما يعنّ له عن هذا الاغتيال لكيروف. لنتمعن جيداً في كلمات تروتسكي: فالمؤامرة والاغتيال دلائل على أن هناك «مناخاً عدائياً عاماً يعزل البيروقراطية بكاملها» ومقتل كيروف يثبت بأن «الشبيبة تشعر بأنها مظلومة ومحرومة من إمكانية تطور مستقل» أفلا تشجع هذه الملاحظة الأخيرة تشجيعاً مباشراً، الشبيبة الرجعية التي تشعر فعلاً بأنها «مظلومة» ومجرّدة من «إمكانية تطور مستقل» على ارتكاب مزيد من الأعمال الإرهابية؟

على طريق الإرهاب والتمرد

يخلص تروتسكي أخيراً إلى تمجيد الإرهاب الفردي، والتمرد المسلح لتدمير السلطة «الستالينية» وهكذا، شرع منذ عام 1935، يتحرك علناً ومن غير أقنعة كمعادٍ للثورة. وها هو ذا نص كتبه عام 1935، قبل عام ونصف من حملة التطهير الكبرى عام 1937.

«إن ستالين هو التجسيد الحي لتروميدر بيروقراطي، فبين يديه، كان الإرهاب وما يزال الوسيلة المكرسة لسحق الحزب والنقابات والسوفييتات، ولإقامة دكتاتورية شخصية، لا ينقصها سوى التاج الإمبريالي (...) فالفظاعات الجنونية الناجمة عن الأساليب البيروقراطية في التجميع الزراعي، والانتقامات الجبانة، وأعمال العنف التي تمارس ضد الطليعة البروليتارية أثارت على نحو حتمي، السخط والضغينة والروح الانتقامية، وولّدت استعداداً للإرهاب الفردي لدى الشبيبة (...) إن نجاحات البروليتاريا العالمية هي وحدها التي تمكن البروليتاريا السوفييتية من استعادة الثقة بنفسها. والشرط الجوهري لانتصار الثورة هو توحيد الطليعة البروليتارية العالمية حول راية الأممية الرابعة. إن النضال في سبيل هذه الراية ينبغي أن يخاض في داخل الاتحاد السوفييتي

بحذر ولكن بعناد والبروليتاريا التي أنجزت ثلاث ثورات ستكشف عن نفسها مرة أخرى. ألن تلجأ العبثية البيروقراطية إلى المقاومة؟ ولكن البروليتاريا ستجد مكنسة كبيرة بما فيه الكفاية. وسنقوم نحن بمساعدتها».

يشجع تروتسكي، على هذا النحو، بشيء من الاحتشام «الإرهاب الفردي» ويمجّد علانية «ثورة رابعة». وتلك دعوة مقنعة إلى القضاء على باقي القيادة البلشفية، ويدعو تروتسكي شركاءه في الاتحاد السوفييتي إلى العمل بحذر وتحوّط، أي حسب القواعد الصارمة للعمل التآمري. فمن الواضح إذن أنه لا يستطيع أن يدعو مباشرة إلى الإرهاب الفردي. ولكنه يعلّل لنا بجلاء بأن مثل هذا الإرهاب الفردي واقع لا محالة بسبب الجرائم الستالينية. فهل هناك ما هو أوضح من هذه اللغة التآمرية. إن تروتسكي بتمجيده لثورة جديدة (رابعة) مسلحة في الاتحاد السوفييتي قد غدا الناطق باسم كافة الطبقات الرجعية المهزومة: باسم الكولاك الذين عاقبهم «البيروقراطيون» «بوحشية جنونية» أثناء التجميع الزراعي، وباسم القيصريين، والبرجوازيين والضباط البيض من أجل أن يجر إلى صفه بضعة من العمال ويفجر ثورته المعادية للشيوعية. ويعد تروتسكي هؤلاء العمال «بنجاحات البروليتاريا العالمية» التي «ستعيد الثقة إلى البروليتاريا السوفييتية».

مجموعة
زينوفييف ـ كامينيف ـ سميرنوف المعادية للثورة

لنعد الآن إلى العام 1936، إلى اكتشاف الصلات بين زينوفييف ـ كامينيف — سميرنوف وبين مجموعة تروتسكي المعادية للثورة، في الخارج.

جرت محاكمة الزينوفييفيين في آب عام 1936. وكان المقصود بذلك أساساً عناصر موجودة على هامش الحزب منذ سنوات عديدة. وحين جرت المحاكمة أشار المتهمون في إفادتهم إلى بوخارين، ولكن النيابة العامة لم تجد أي دليل على تورط بوخارين، ولم تتابع تحرياتها في هذا الاتجاه.

عمد تيار جذري في القيادة في تموز 1936 إلى نشر رسالة داخلية، تشدد على أن عناصر معادية كانت قد تسربت إلى جهاز الحزب. وفيما هي تخفي مآربها الحقيقية فإنها تعلن عن دعمها وتأييدها لخط الحزب، في سبيل تنفيذ أفعالها التخريبية. وأن الصعوبة بمكان كشف هذه العناصر.

وتضمنت الرسالة هذا التأكيد:

إن المزية الأساسية لكل بلشفي، في الظروف الحالية، تتمثل بالضرورة في القدرة على كشف عدو الحزب، مهما كان متنكراً.

يمكن أن تبدو هذه الجملة للبعض كما لو أنها خلاصة مكثفة للبارانويا «الستالينية». ليتأملوا إذن هذا الاعتراف الصادر عن توكاييف، عضو المنظمة المعادية للشيوعية في داخل الحزب الشيوعي السوفياتي.

يصف توكاييف رد فعله تجاه محاكمة زينوفييف، وكان حينها يشغل موقعاً مهماً:

«في ذلك الجو المشحون، لم يكن لدي ما أفعله سوى شيء واحد: أن أسير مع التيار. وفي إفادتي، كنت أركز على زينوفييف وكامينيف، متحاشياً أية إشارة إلى بوخارين، ولكن رئيس المحكمة لم يكن ليترك الأمور تسير على هذا النحو. وسألني: هل أقرّ، نعم أم لا، بما جاء في استخلاصات فيسشينسكي فيما يتعلق ببوخارين؟ فقلت بأن قرار فيسشينسكي بعمل تحريات حول نشاطات بوخارين وريكوف وتونيسكي وأوغلانوف يدعمها الشعب والحزب، وأنني موافق كلياً على أن للشعب السوفييتي ولحزبنا الحق في معرفة المكائد المراوغة لبوخارين وريكوف» «أنا واثق بأن هذا المثال وحده سيعرّف قرّائي في أي جو بالغ الإرهاق، وبأي طريقة تآمرية فظيعة ـ الواحد لا يعرف حتى شخصية الآخر ـ كان علينا نحن، المعارضين، أن نعمل».

لدى اطلاعه على الرسالة الداخلية، في تموز، لم يكن ستالين يؤيد التيار الجذري في القيادة في إصداره لتلك الرسالة، فقد كان يثق برئيس جهاز NKVD ياغودا. وهذا الأخير هو الذي حدد اتجاه محاكمة كتلة التروتسكيين ـ الزينوفييفيين، وحدّ من اتساع مدى التطهير الذي بوشر به في إثر اكتشاف المؤامرة.

مع ذلك فثمة ظل من الشك كان يحوم حول ياغودا، والعديد من الأشخاص، ومنهم هيجنووورت، سكرتير تروتسكي، وأورلوف، وهو أحد الفارين من NKVD أكدوا ذلك الشك. ألم يكن بمقدور ياغودا، حتى عام 1936، أن يعرف شيئاً عن وجود كتلة تروتسكي ـ زينوفييف؟ أم أنه كان يضرب حجاباً عليها؟ لقد طرح هذا السؤال من قبل البعض في الحزب. ولهذا السبب عُيّن إيجوف، وهو أحد أنصار التيار الجذري، في عام 1936 معاوناً لياغودا.

محاكمة بياتاكوف والتروتسكيين

في 23 أيلول عام 1936 ضربت سلسلة من الانفجارات المناجم السيبيرية وراح ضحيتها 12 ضحية. بعد ثلاثة أيام أصبح ياغودا مفوض الشعب في مفوضية المواصلات، وإيجوف رئيساً لـ NKVD. وحتى ذلك اليوم على الأقل، كان ستالين يحرص على سياسة ليبرالية في التعامل مع ياغودا.

قادت التحريات إلى توقيف بياتاكوف، وهو تروتسكي سابق، ومعاون أورجونيكدزه مفوض الصناعة الثقيلة. كان أورجونيكدزه يتبع سياسة استخدام اختصاصيين برجوازيين وإعادة تربيتهم السياسية. على هذا النحو كان أرجونيكدزه في شباط 1936 قد أصدر عفواً عن تسعة «مهندسين برجوازيين» محكومين عام 1930 في قضية تخريب شهيرة.

فيما يتعلق بالصناعة، كان هناك منذ سنوات عديدة سجالات وانقسامات في الرأي داخل القيادة فالراديكاليون، الذين كان يقودهم مولوتوف، كانوا يعارضون قبول غالبية الاختصاصيين البرجوازيين، الذين كانوا يعتبرونهم غير أهل للثقة في ميولهم السياسية. كان الراديكاليون يطالبون بإبعاد هؤلاء الاختصاصيين عن ميدان العمل الصناعي، غير أن ارجونيكيدزه، بالمقابل، وهو مفوض الصناعة الثقيلة، كان يؤكد حاجة الصناعة إليهم، وضرورة الاستفادة من طاقاتهم.

هذا السجال القديم حول الماضي المشبوه للاختصاصيين البرجوازيين انطلق من جديد على إثر الانفجارات في مناجم سيبيريا. وكشفت التحقيقات عن أن بياتاكوف كان قد استخدم على نطاق واسع خبراء برجوازيين بهدف تعطيل العمل في المناجم.

في كانون الثاني عام 1937 جرت محاكمة بياتاكوف، راديك، وتروتسكيين قدامى آخرين، اعترفوا جميعاً بنشاطاتهم السرية. كانت الضربة قاسية جداً بالنسبة لاورجونيكدزه فأقدم على الانتحار.

كثير من المؤلفين البرجوازيين، من دون ريب، أكدوا بأن الاتهامات الموجهة إلى هؤلاء بأنهم يقومون بتخريب منهجي هي محض اختلاق، يهدف إلى تصفية المعارضين السياسيين. والحال، أن مهندساً أمريكياً عمل ما بين عامي 1928 و1937 ككادر أساسي في عدد كبير من مناجم منطقة الأورال وسيبيريا التي ضربتها الانفجارات، اتفق له أن كان شاهداً على كثير من

أعمال التخريب المتعمدة. وهذا المهندس الغريب عن السياسة، واسمه جون ليتلباج أدلى بشهادة لها أكبر الأهمية.

يتحدث ليتلباج كيف أنه منذ وصوله إلى المناجم السوفييتية عام 1928 اطّلع على مدى التخريب الصناعي الواسع، ذلك الأسلوب المفضل لدى أعداء النظام السوفييتي. فثمة ها هنا مجال واسع لمناوأة القيادة البلشفية. وإذا ما قررت بضعة كوادر حزبية عليا أن تشجع، أو ببساطة، أن تحمي المخربين. فإن بإمكانهم إضعاف النظام بصورة جدية وها هي ذي رواية ليتلباج:

«في ذات يوم من عام 1928 كنت داخلاً إلى محطة توليد الكهرباء في مناجم كوشكار وخلال مروري غمست يدي في وعاء كبير لآلة ديزل، فداخلني إحساس بأن شيئاً ما على شكل حبوب يخالط الزيت، فاوقفت الآلة على الفور. وأخرجنا حوالي ليتر من الرمل الصواني. لا يمكن أن تكون موجودة هنا إلا بفعل متعمد. وفي مرات عديدة متكررة، عثرنا في داخل الأدوات الجديدة في معامل كوشكار على رمل في أجهزة تخفيف السرعة التي كانت مغلقة كلياً ولا يمكن كشفها إلا برفع الغطاء عنها باليد.

مثل هذا التخريب الدنيء كان عاماً في كل فروع الصناعة السوفييتية، حيث أن المهندسين الروس كانوا قلما يأبهون له، وكانوا يندهشون لانشغالي به حينما كنت أراه أول مرة».

«وكنت أسأل، لِمَ يبدو هذا التخريب عاماً في روسيا، بينما يندر جداً في البلدان الأخرى؟ إن الذين يطرحون علي مثل هذه الأسئلة لا يدركون أن السلطات في الاتحاد السوفييتي خاضت ومازالت تخوض سلسلة طويلة من الحروب الأهلية، المكشوفة والمقنعة. في البداية، قاتلت السلطات السوفييتية لتجريد الأرستقراطية القديمة من ملكياتها، رجال البنوك وملاكي الأراضي، والتجار في النظام القيصري، ثم قاتلت لتجريد الملاكين الصغار المستقلين وتجار المفرق، ورعاة قطعان المواشي البدو الآسيويين».

«بالطبع، يقول الشيوعيون، إن ما يقومون به هو لمصلحة هؤلاء الملاكين، مثلما هو لمصلحة الجميع، ولكن عدداً من هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون أن يروا الأشياء مثلما يراها الشيوعيون، وظلوا أعداء ألداء للشيوعيين ولأفكارهم، وحتى حينما دخل هؤلاء معركة تصنيع الدولة، ومن هذه الجماعات، طلع عدد لا بأس به من العمال، شديدو العداوة للشيوعيين وهم لا يتوانون عن القيام بأفدح عمليات الإتلاف والتخريب لكل ما تطاله أيديهم، على نحو لا يعوّض».

خلال عمله في مناجم كالاتا في منطقة الأورال اصطدم ليتلباج بتخريب متعمد من جانب المهندسين وكوادر الحزب. وكان يبدو بوضوح له، بأن هذه الأفعال صادرة عن إرادة مصممة على إضعاف النظام البلشفي. وكان يدرك أيضاً بأن تخريباً واضحاً وضوح الشمس، لم يكن ممكناً أن يحدث إلا بمباركة السلطات العليا في الأورال.

وها هو ذا تقريره المعبّر أفصح تعبير:

«كانت الشروط العامة في مناجم النحاس في الأورال، بوجه خاص، مشهورة بأنها في الحضيض - وهي المنطقة المنجمية الأشد غنى في روسيا - بالرغم من أنها تلقت نصيب الأسد من الاعتمادات المتاحة من أجل تفعيل الإنتاج. كان عشرات من مهندسي المناجم الأمريكيين قد كلّفوا بالعمل هناك. ومئات من رؤساء الورشات الأمريكيين نقلوا أيضاً إلى تلك المناجم ليقدموا الخبرة والتدريب بخصوص عمليات الاستخراج والتصنيع. وكان قد خصص لكل منجم من مناجم النحاس الكبرى أربعة أو خمسة من مهندسي المناجم الأمريكيين، ومثلهم من خبراء التعدين الأمريكيين أيضاً.

كان هؤلاء الرجال مختارين بعناية. وكانوا قد حصّلوا درجات علمية عالية في الولايات المتحدة عدا بعض الاستثناءات. وقد أصيبوا بالخيبة جراء النتائج التي كانوا يحققونها في روسيا. وحين أُسند إلى سيريبروفسكي مهمة الإشراف والمراقبة على مناجم النحاس والرصاص بالإضافة إلى مناجم الذهب، أراد أن يعرف لماذا لم يقدم هؤلاء الخبراء المستوردون نتائج كان مأمولاً أن يقدموها، فأرسلني، في كانون الثاني عام 1931 مع خبير في المعادن أمريكي ومع مدير روسي شيوعي لنقوم بتحقيق حول الوضع في مناجم الأورال، وبمحاولة اكتشاف ما كان معوّقاً وما ينبغي إصلاحه.

واكتشفنا، في المقام الأول، بأن المهندسين وخبراء المناجم الأمريكيين كانوا يعملون هناك، من دون أن يتعاون معهم أحد. لم يكن قد أُلحق بهم مترجمون أكفاء. وكانوا قد تفحّصوا بعناية مواقع الاستثمار التي تم تعيينها لهم. ودوّنوا توصيات ستكون نافعة، فيما إذا كانت قد طبقت على الفور، ولكن هذه التوصيات لم تكن لتجد من يترجمها إلى الروسية، أو كانت تظل هاجعة في البطاقات.

كانت أساليب الاستثمار مغلوطة جداً، بحيث أن مهندساً غـرّاً كـان يمكنـه ملاحظة الخلل الذي تشكو منه. كان يتم فتح حقول استخراج بالغـة الاتسـاع، لتفحّص عروق المعدن تفحّصاً فعليـاً، ثـم يُسـتخرج الركـاز مـن دون أي تدعيم بـالألواح الخشـبية. إن محاولـة الوصـول إلى إنتـاج سـريع، وقبـل أن تتخـذ الاحتياطات الأولية قد أتلفت بصورة خطيرة العديد مـن المنـاجم. وكـانت عـدة طبقات من المعدن على وشك ضرورة التخلي عنها وإهمالها.

وإن نسيت فلن أنسى أبـداً الوضـع الـذي كـان علينـا مواجهتـه في كالاتـا. هناك، في الأورال الشمالي كانت تتوضع أهم استثمارات النحاس في روسيا، كان ثمة مكثف، ومسبك مع أفـران عاكسـة للحـرارة ومـراوح تهويـة. وكـان سبعة مهندسي مناجم أمريكيين من الفئة الأولى قـد استحضروا حديثـاً، وأرسـلوا إلى ذلك الموقع، وكانوا يتلقون أجوراً عالية. كان أول قادم من بينهم كفيل لوحده، فيما لو أتيحت له الفرصة أن يدير من جديد عجلة الاستثمار علـى نحـو سليم وخلال بضعة أسابيع.

ولكـن حـين وصلـت بعثتنـا رأت كيـف كـانوا يتخبطـون في مستنقع مـــن البيروقراطية. كانت توصياتهم تظل حبراً على الورق. لم يكن يعيّـن لهـم عمـل محـدد، وكـان مـن المستحيل نقـل أفكـارهم ومعـارفهم إلى المهندسـين الـروس وتوضيحها لهم بسبب جهلهم باللغة الروسية ولنقص المترجمين المؤهلين. كانوا يعرفون بالطبع مواقع الخلل التقني في مناجم ومصـانع كالاتـا، ويدركـون لمـاذا كان إنتاجهم أقل بكثير مما كان ينبغـي، مـع تلـك الآلات، والملاكـات الفنيـة الروسية العاملة في المناجم.

زارت بعثتنا كل مناجم النحاس الكبرى في الأورال، وتفحصت العمل فيهـا بالتفصيل. وبالرغم من الشروط المزرية المذكورة سابقاً، لم يكن هنـاك إلا القليـل من الشكاوى، على صفحات الصحـف السـوفييتية حـول التخريـب الفظيـع في مناجم النحاس في الأورال. كان ذلك أمراً غريبـاً ومحـيّراً. فقـد كـان مـن عـادة الشيوعيين أن يعزوا جزءاً كبيراً من الفوضى والخلل الصنـاعي إلى نوايـا شـريرة متعمدة، ومع ذلك فإن شيوعيي الأورال الذين كانوا يشرفون على المناجم كـانوا يطبقون شفاههم ويلوذون بالصمت، على نحو مدهش حقاً.

وفي تموز عام 1931، وعقب اطلاع سيريبروفسكي على تقريرنا، قرر إرسـالي مرة أخرى إلى كالاتا، بصفة مهندس رئيس، لكي يرى فيما إذا كنت سأستطيع أن أقدّم نفعاً لتلك الاستثمارات الكبرى. وأرفق معي مديـراً روسـياً شـيوعياً، لم

يكن لديه أي إلمام بالفن المنجمي، ولكنه تسلّم صلاحيات كاملة، وإيعازاً، على ما يظهر بتركي أتصرف على هواي. وتنفس المهندسون الأمريكيون السبعة الصعداء، حينما لمسوا بأننا نتمتع فعلاً بسلطة كافية لفرملة البيروقراطية ولإتاحة فرصة للعمل بأن يأخذ مجراه. وخلال الأشهر التي تلت، نزل المهندسون الأمريكيون إلى المناجم مع الرجال العاملين، جرياً على التقليد الأمريكي، ولم يمض أكثر من شهر حتى تقدمت الأعمال تقدماً سريعاً وازداد الإنتاج بمعدل 90٪.

كان المدير الشيوعي يتحلى بالجسارة والجدية. غير أن المهندسين الروس في تلك المناجم كانوا، من دون استثناء، تقريباً، مقطبين كالحي السّحنة، يضعون العراقيل، ويثيرون الاعتراضات ضد كافة التحسينات التي كنا نقترحها، لم أكن معتاداً على ذلك في السابق، فالمهندسون الروس في مناجم الذهب، حيث كنت أعمل، لم يكونوا يتصرفون على هذا المنوال إطلاقاً.

ومع ذلك، فقد أفلحت في أن أرى أساليبي في العمل تُطبّق بحذافيرها، لأن المدير الشيوعي كان يعاضد كل مقترحاتي وتوصياتي، وحينما تثمر تلك الأساليب، كان المهندسون الروس يرضخون لحكم الواقع. بعد خمسة أشهر، قررت مغادرة ذلك الموقع، فالآبار والآلات كانت بأسرها، قد عادت إلى العمل بانتظام، ولم يكن يبدو أن ثمة سبباً يجعل الإنتاج يتراجع عن معدلاته المرضية التي كنا قد حصلنا عليها.

دوّنت توجيهات تفصيلية من أجل العمليات المقبلة، وشرحتها بالتفصيل للمهندسين الروس وللمدير الشيوعي الذي شرع يكتسب بعض المعلومات عن المهنة. وأكد المدير لي بأن تعليماتي هذه سوف تطبق حرفياً.

في ربيع عام 1932، بُعيد عودتي إلى موسكو أُبلغت أن مناجم النحاس في كالاتا قد تردّت حالتها تردياً خطيراً: كان الإنتاج قد هبط إلى مستوى أخفض حتى، مما كان عليه قبل إعادة التنظيم التي قمنا بها في الصيف الماضي، وقد صُدمت لذلك، لم أكن قادراً على فهم كيف كانت الأشياء قد تغيرت في مدة من الزمن جدّ قصيرة، في حين أن كل شيء كان على خير ما يرام، حينما تركت الموقع.

طلب مني سيريبروفسكي العودة إلى كالاتا لأرى ما كان يمكن فعله. وحينما وصلت إلى هناك وجدت نفسي أمام مشهد مثبّط. كان الأمريكيون جميعاً قد أنهوا مدة السنتين من عقد العمل، الذي لم يجر تجديده، وسافروا إلى بلدهم.

وقبل شهر من وصولي كان المدير الشيوعي قد نُقل من قبل لجنة أرسلت من سفيردلوفسك، حيث يوجد مقر القيادة الشيوعية في منطقة الأورال، بعد أن أعلنت اللجنة أنه جاهل وغير كفء في عمله، بالرغم من أنه لم يكن ثمة شيء محدد ضده، وعيّنت خلفاً له، هو رئيس لجنة التقصي. يا له من سلوك غريب!

خلال فترة إقامتي السابقة في الموقع كنا قد رفعنا طاقة الأفران إلى 87 طن متري بالمتر المكعب، في اليوم، ولكنهم جعلوها تهبط إلى مستواها السابق أي 40 ـ50 طن، والأسوأ من ذلك أيضاً أنهم قد أضاعوا هدراً، آلاف الأطنان من الركاز (المعدن غير الخالص) بنسبة مرتفعة، وذلك بإدخالهم إلى منجمين اثنين طرائق كنت قد حذرت من استخدامها هي بنحو خاص ولكني علمت الآن، أنه بعد رحيل المهندسين الأمريكيين فإن المهندسين الروس أنفسهم الذين كنت قد حذرت من خطورة طرائقهم في العمل، كانوا قد طبقوا طريقة ملائمة لبعض المناجم، على المناجم الأخرى، وكانت النتيجة هبوط إنتاج هذه المناجم، وفقدان كمية كبيرة من الركاز. بذلت ما في وسعي لكي أعيد الأمور إلى نصابها، وفوجئت ذات يوم بأن المدير الجديد كان يلغي، من وراء ظهري، كافة التدابير تقريباً، التي كنت أطلب تنفيذها. فنقلت إلى سيريبروفسكي، تحديداً، كل ملاحظاتي في كالاتا. وبعد مضي قليل من الوقت خضع المدير الجديد وبعض المهندسين إلى المحاكمة بتهمة التخريب. وحُكم على المدير بالسجن عشر سنوات، وبسجن المهندسين مدداً أقل.

كنت مقتنعاً بأن ثمة جهازاً أعلى مؤلفاً من فريق صغير من الرجال هو الذي يسيّر الأمور في كالاتا. ولكني لم أكن قادراً، بطبيعة الحال، على تنبيه سيريبروفسكي ضد هؤلاء الرجال المتنفذين في حزبه الشيوعي. كنت على قناعة بأن هناك شيئاً ما تفوح منه رائحة العفونة والفساد في الدوائر العليا من الإدارة السياسية في الأورال. وبدا لي بديهياً، بأن الخيار الذي اتخذته اللجنة، وتصرفاتها المفضوحة كان ينبغي أن يحوّل التحقيق باتجاه القيادة في سفير دلوفسك، تلك القيادة المذنبة سواء بإهمالها الإجرامي، أو بضلوعها الفعلي في الأحداث التي كانت تجري في المناجم.

مع ذلك، فإن سكرتير الحزب الشيوعي في منطقة الأورال، كاباكوف، كان يشغل هذا الموقع منذ عام 1922، وكان يعتبر رجلاً بالغ القوة والنفوذ حتى أنه كان يُلقب «نائب ملك البلاشفة في الأورال». ما من شيء كان يبرر حظوته

المرموقة. وتحت سلطته المديدة فإن منطقة الأورال التي هي إحدى أغنى مناطق الثروات المعدنية في روسيا، والتي كانت تتلقى مبالغ لا محدودة من أجل الاستثمار، لم تنتج مطلقاً ما كان يجب أن تنتجه من ثرواتها الهائلة.

إن لجنة كالاتا التي أقرّ أعضاؤها فيما بعد بكل نواياهم التخريبية كانت مرسلة، بصورة مباشرة، من المقر العام للقيادة الذي يترأسه هذا الرجل. وقد أسررت، حينها، ملاحظة إلى أصدقائي الروس، بأنه كان هناك في الأورال، من الدسائس والمناورات أكبر بكثير مما تمّ الكشف عنه، وأنها كانت صادرة، ولا بد، من أعلى المستويات.

كل هذه الأحداث، أصبحت واضحة، بالنسبة إلي، بعد الكشف عن قضية التآمر في المحاكمة التي جرت في كانون الثاني 1937، حين اعترف بياتاكوف مع العديد من شركائه أمام المحكمة بأنهم قد دبروا عمليات تخريبية في المناجم، والسكك الحديدية، وفي مشاريع صناعية أخرى، منذ عام 1931. وبعد أسابيع قليلة اعتقل السكرتير العام للحزب في منطقة الأورال، كاباكوف، والذي كان قد أقام صلات حميمة مع بياتاكوف، اعتقل بتهمة التواطؤ في المؤامرة ذاتها.

إن الرأي الذي ساقه ليتلباج فيما يخص كاباكوف، يستحق منا برهة من التوقف. ما دام خروشوف في تقريره السري الصادر عام 1956 قد ذكر كاباكوف مثالاً للقائد الذي يستحق التقدير، «والمنتمي إلى الحزب منذ عام 1914» والذي ذهب ضحية «لعمليات القمع التي لم تكن تستند على أي أساس واقعي».

التخريب في كازاخستان

بما أن ليتلباج ذهب إلى مناطق منجمية عديدة، فقد استطاع أن يلاحظ أن هذا الشكل الضاري من الصراع، أعني التخريب الصناعي، كان منتشراً على امتداد الأرض السوفييتية.

وها هو ذا يروي ما شهده في كازاخستان ما بين عامي 1922 و1937، والعام الأخير هو عام التطهير.

«في تشرين الأول من عام 1932 انطلق العمل بمشروع SOS في مناجم الزنك الشهيرة في كيدر، من أراضي كازاخستان الشرقية، بالقرب من الحدود الصينية (...) وقد ألحقت بالموقع، للإشراف على العمل، بصفة رئيس للمهندسين،

ولتطبيق الطرائق التي كانت تبدو لي ملائمة. وتلقى المدراء الشيوعيون، في الوقت نفسه. كما بدا لي، أمراً بإعطائي حرية مطلقة، ودعم مواقفي.

كانت الحكومة قد أنفقت مبالغ ضخمة لتزويد هذه المناجم بالآلات والأدوات الأمريكية الحديثة. ولكن المهندسين بدوا لي جاهلين بكيفية استخدام الأدوات، وبدا العمال فاقدين لأي اهتمام، وبليدين في التعامل مع الآلات، بحيث أن عدداً كبيراً من الأدوات المستوردة تعطلت دون أي إمكانية لإصلاحها.

بدا لي، بنحو خاص، أن مهندسين اثنين شابين من المهندسين الروس يتمتعان بالكفاءة والحذق، فبذلت جهداً كبيراً لأشرح لهما لماذا كانت الأمور في السابق تسير بصورة سيئة، وكيف كنا قد تصرفنا من أجل إعادتها إلى جادة الصواب. كان يبدو لي أن هذين الشابين، سيتمكنان، بعد التوجيهات التي قدمتها لهما من أن يكونا قد حصلا على القدرات المطلوبة لقيادة عملية الاستثمار.

سارت الأمور في مناجم كيدر بصورة طيبة خلال عامين أو ثلاثة بعد مساهمتي في إعادة تنظيمها عام 1932. والمهندسان الشابان اللذان شكلا لدي انطباعاً حسناً ظلا في موقعهما، وتقيدا، بلا ريب، وبكثير من النجاح، بالتوجيهات التي تركتها لهما.

ثم ظهرت، على حين فجأة لجنة تحقيق في آلما آتا مشابهة لتلك التي أرسلت إلى مناجم كالاتا. ومنذ تلك اللحظة، انقلبت الأمور رأساً على عقب. ومع أن المهندسين أنفسهم ظلوا في المناجم، إلا أن نظاماً مختلفاً تماماً جرى إدخاله إليها ـ بحيث أن كل مهندس كفء صار ينظر إليه على أنه قادر على التسبب في خسارة المناجم خلال بضعة أشهر، وحتى الدعائم التي كنا قد ثبتناها لحماية الآبار الرئيسية استغلت من قبل اللجنة كإدانة ضد المهندسين الأكفاء، وانتزعت من مكانها مما أدى إلى انهيار التربة المحيطة بالآبار.

أما المهندسان اللذان تكلمت معهما فلم يعودا يعملان في المناجم حينما عدت إليها عام 1937. وعلمت بأنهما كانا قد اعتقلا، واتهما بالتواطؤ في مؤامرة تخريبية للصناعة السوفييتية حين صدرت الأحكام على المتآمرين في كانون الثاني.

حينما عرضت تقريري، قُدمت إلي الاعترافات المكتوبة من قبل المهندسين اللذين كنت قد أقمت صداقة معهما عام 1932. كانا قد اعترفا بأنهما قد أنجرّا إلى مؤامرة ضد نظام ستالين من قبل شيوعيين معارضين كانوا قد أقنعوهما بأنهم أقوياء بما فيه الكفاية للإطاحة بستالين واستلام السلطة الحكومية. وقد أثبتت

لهما المتآمرون بأنهم مدعومون من قبل شيوعيين في أعلى قمة السلطة. وبالرغم من أن هذين المهندسين كانا خارج أي حزب فقد ارتأيا بأنه يتعين عليهما اختيار أحد الفريقين، وراهنا على الحصان الخاسر.

وحسب اعترافاتهما، فإن «لجنة التحقيق» كانت مؤلفة من متآمرين، كانوا يذهبون من منجم إلى آخر لتنظيم الأنصار. وبعد اقتناعهما بالالتحاق بالمؤامرة فإن هذين المهندسين في مناجم ريدر، استخدما تعليماتي المكتوبة لتخريب المناجم. وأدخلا عمداً الطرائق التي كنت أحذر من استخدامها، وأوشكا، على هذا النحو، أن يقوضا المناجم.

لم يكن يعنيني في شيء دقّة الأفكار السياسية، ولكنني كنت مقتنعاً بأن ستالين ومشاركيه في القيادة بدؤوا منذ بعض الوقت يدركون بأن الشيوعيين الرافضين لقيادتهم هم ألد أعدائهم وأشدهم خطراً.

لقد أيّدتْ تجربتي الخاصة التفسير الرسمي للأحداث، فبعد أن حذفت ما فيه من جدل ومماحكات كلامية، انتهيت إلى التأكيد البسيط بأن الشيوعيين «من الخارج» تآمروا للإطاحة بالشيوعيين «من الداخل»، ولجؤوا إلى مؤامرات سرية وإلى تخريب صناعي. وأدركت لماذا خنق النظام السوفييتي كل وسيلة شرعية للانخراط في نضال سياسي.

إن الخصومة الحادة بين الشيوعيين أصبحت قضية واسعة الأبعاد جداً إلى درجة أنها اجتذبت إلى معمعانها العديد من غير الشيوعيين، ليدخلوا إليها ويغذوا نيرانها وثمة العديد من الشخصيات الصغيرة والعادية، من مختلف الطباع والأخلاق، انساقوا إلى دعم كل معارضة سرية ضد السلطة، لأنهم كانوا، ببساطة، مستائين من الوضع».

بياتاكوف في برلين

حين جرت محاكمة كانون الثاني عام 1937، أدين التروتسكي السابق، بياتاكوف باعتباره المسؤول الأول عن التخريب الصناعي. وكانت الفرصة قد توفرت للمهندس الأمريكي ليتلباج لأن يلاحظ بأن بياتاكوف كان منغمساً في نشاطات سرية. وإليكم ما رواه في هذا المجال:

«في ربيع عام 1931 لم يكن سيريبروفسكي يتحدث معي إلا حول بعثة لشراء صفقة صخمة، كانت مرسلة إلى برلين، برئاسة لوري بياتاكوف الذي كان حينذاك نائباً لمفوض الشعب للصناعة الثقيلة.

وصلتُ إلى برلين في نفس الموعد، تقريباً، الذي وصلت فيه البعثة. كان من بين عروض الشراء التي ستشتريها البعثة عدة عشرات من الرافعات تتراوح استطاعتها ما بين 100 و1000 حصان بخاري. وهي تتكون عادة من أسطوانات الرافعة والهيكل، وحاملة الأثقال، والتروس الناقلة. مثبتة فوق قاعدة من العوارض على شكل حرف I أو H.

كانت اللجنة قد طلبت الأسعار، محسوبة، بالبفينغات الألمانية للكيلوغرام الواحد وقدمت عدة شركات ألمانية عروضها ولكن بفروق محترمة في الأسعار (تصل إلى خمسة أو ستة بفينغات للكيلوغرام الواحد) بين أغلبية عروض الشركات وبين عروض مؤسستين كانت أسعارهما أدنى بكثير. هذه الفروق دفعتني لأن أتفحص عن قرب مواصفات الرافعات لدى هاتين المؤسستين وقد اكتشفت بأن قواعد الرافعات لديهما مصنوعة من الفونت الثقيل بدلاً من الفولاذ الخفيف المطلوب. بحيث لو وافقت البعثة عن أسعارهما فإن الروس كانوا سيدفعون مبالغ أعلى في الواقع، ما دامت قواعد الفونت تزن أكثر بكثير من القواعد الفولاذية، غير أن أسعار هاتين المؤسستين كانت تبدو في الظاهر أرخص من أسعار الشركات الأخرى إذا نظر إلى سعر الكيلوغرام الواحد بالبيفينغات.

لم تكن عروض هاتين المؤسستين سوى خدعة، وقد سُررت بالطبع لاكتشافها. وأوضحت لأعضاء البعثة فحواها بكل طيبة خاطر. ولشدة دهشتي فقد تضايق أعضاء البعثة من ملاحظتي، ولم يكونوا راضين من تدخلي على الإطلاق، ومارسوا عليّ ضغطاً لقبول الصفقة، قائلين لي بأن لدي سوء فهم لما كانوا يرغبون بشرائه.

لم يكن بمقدوري أن أتبين حقيقة موقفهم. وفكرت أن من المحتمل وجود قضية رشوة في الصفقة.

ولدى محاكمة بياتاكوف، صرّح أمام المحكمة بما يلي:

«في عام 1931 كنت في مهمة وظيفية في برلين. وفي وسط صيف ذلك العام التقيت في برلين بإيفان نيكيتش سميرنوف، وأعلمني بأن النضال التروتسكي قد استعاد الآن هجومه بقوة أكبر، ضد الحكومة السوفييتية وضد قيادة الحزب، وأنه، أي سميرنوف كان له موعد في برلين، مع ابن تروتسكي، سيدوف، الذي نقل إليه بتكليف من تروتسكي تعليمات جديدة (...) أعلمني سميرنوف بأن سيدوف كان يريد بإلحاح أن يقابلني، ووافقت على تلك المقابلة (...) قال لي سيدوف بأن المركز التروتسكي قد تشكل، وكان هذا يعني توحيد

كافة القوى القادرة على خوض النضال ضد القيادة الستالينية. وقد تم تقصي إمكانية إنشاء تنظيم مشترك مع الزينوفييفيين، وقال سيدوف أيضاً بأن اليمينيين، ممثلين بشخص تومسكي وبوخارين وريكوف لم يكونوا، هم أيضاً، قد أوقفوا نضالهم ضد ستالين، ولن يظلوا ساكتين إلا لفترة مؤقتة، وأنه من الضروري إقامة اتصال معهم. وقال سيدوف بأنه لم يكن مطلوباً مني سوى شيء واحد، هو أن أوصي على شراء أكثر طلبيات الشراء من مؤسستين ألمانيتين هما بورّيج وديماج. أما سيدوف فسيتفق مع هاتين المؤسستين على وسائل الحصول منهما على المبالغ الضرورية، ولكن بشرط واحد، بطبيعة الحال، أن لا أتشدد كثيراً فيما يتعلق بالسعر.

إذا كان ينبغي الكشف عن حقيقة الأمر، فقد كان واضحاً بأن الزيادة في السعر التي كانت ستدفعها الحكومة السوفييتية لقاء طلبات الشراء من هاتين المؤسستين، ستنتقل برمّتها إلى يدي تروتسكي كي يستخدمها في سبيل غاياته ضد الثورة».

وعلّق ليتلباج على ذلك قائلاً:

«هذا المقطع من اعتراف بياتاكوف هو تفسير بالغ الوضوح، حسب رأيي، لما كان قد جرى في برلين، عام 1930، حينما ثارت شكوكي، بعد أن رأيت الروس المحيطين ببياتاكوف يحاولون جاهدين إقناعي بالموافقة على شراء الرافعات المخصصة للمناجم، والتي لم تكن غالية جداً وحسب، بل وستكون من دون أية فائدة من أجل عمليات الاستثمار التي كانت تلك الرافعات ضرورية لها. كان يصعب عليّ الاعتقاد بأن هؤلاء الرجال قد سعوا ببساطة إلى قبض عمولة أو رشوة، ولكنهم كانوا معتادين على المؤامرات منذ ما قبل الثورة، وكانوا قد تجشموا المهالك من أجل ما كانوا يعتبرونه قضيتهم السامية».

التخريب في ماغنيتوغورسك

ثمة أمريكي مهندس هو أيضاً، يدعى جون سكوت، عمل في مجمع ماغنيتوغورسك وهو يروي وقائع مشابهة في كتابه ما وراء الأورال. فيما يتعلق بتطهير عام 1937 كتب سكوت بأنه كان هناك حالات خطيرة من الإهمال وأحياناً إجرامية من قبل المسؤولين. وقد شهدت ماغنيتوغورسك حالات فاضحة من تخريب الآلات، منفذة من قبل كولاك قدامى أصبحوا عمالاً، ومن قبل مهندسين برجوازيين. ويصوغ سكوت تحليله لأحداث التطهير بالعبارات التالية:

«ثمة العديد من الأشخاص الذين اعتقلوا واتهموا في ماغنيتوغورسك بتهمة العداء للنظام لم يكونوا سوى لصوص ونصابين أو أشقياء» «وفي عام 1937 بالتحديد، اشتدت حملة التطهير بأقوى ما يمكن من البطش في ماغنيتوغورسك. فأوقف آلاف الأفراد (...) لقد اجتذبت ثورة أوكتوبر حقد الأرستقراطيين القدماء، وضباط الجيش القيصري، ومختلف جيوش البيض وموظفي ما قبل الحرب، وكل أصناف التجار، وأصحاب الملكيات الصغيرة للأرض، والكولاك... كان لدى كل هؤلاء دوافع عميقة للحقد على السلطة السوفييتية التي كانت قد جرّدتهم من ملكياتهم، كان هؤلاء الرجال الخطرون في داخل البلاد، يشكلون مرتعاً خصباً للعملاء الأجانب، وجاهزون للتعاون معهم. وكانت الشروط الجغرافية مهيأة لأمم كثيفة السكان مثل إيطاليا واليابان أو لأمم عدوانية مثل ألمانيا بأن تندفع بجموح إلى إرسال عملائها إلى روسيا. وكان على هؤلاء أن ينشئوا هناك منظماتهم وأن يمارسوا تأثيرهم. كان التطهير قد أصبح ضرورة لازمة. وخلال ذلك التطهير أعدم بالرصاص، ونفي، العديد من الجواسيس، والمخربين، وأعضاء الطابور الخامس. ولكن عدداً كبيراً كانوا من الأبرياء الذين كابدوا الأهوال خلال تلك الأحداث».

محاكمة المجموعة
الاشتراكية - الديمقراطية البوخارينية

قرار شباط عام 1937 حول التطهير

في بداية عام 1937 عُقد اجتماع حاسم للجنة المركزية للحزب البلشفي، وأقر الاجتماع ضرورة تطهير الحزب والبلاد، ورسم توجهاته، وقد نشر تقرير لستالين يعتبر وثيقة أساسية عقب الاجتماع. وفي لحظة انعقاد دورة اجتماع اللجنة المركزية كان البوليس قد وضع يده على مواد تثبت بأن بوخارين كان مطلعاً على النشاطات التآمرية للمجموعة المعادية للحزب والتي تم الكشف عنها أثناء محاكمة زينوفييف وبياتاكوف. وقد وُجه بوخارين بهذه الاتهامات خلال انعقاد الدورة (كان أحد الحاضرين) والحال، أن مجموعة بوخارين، خلافاً للمجموعات الأخرى كانت موجودة في مركز الحزب ذاته. وكان تأثيرها السياسي ذا وزن كبير.

لقد أكد البعض بأن التقرير الذي قدمه ستالين أعطى الإشارة لانطلاق «الإرهاب» و«التعسف الإجرامي». لنمعن النظر، إذن، في محتوى تلك الوثيقة:

أكدت الموضوعة الأولى على أن ضعف اليقظة الثورية، والسذاجة السياسية قد صارتا شائعتين في الحزب. إن مقتل كيروف كان التحذير الخطير الأول الذي لم نستخلص كافة نتائجه. وقد كشفت محاكمة زينوفييف ومحاكمة التروتسكيين بأن هذه العناصر مستعدة، منذ الآن فصاعداً، لفعل كل شيء من أجل تدمير النظام. مع ذلك فإن النجاحات الاقتصادية العظيمة خلقت لدى الحزب شعوراً بالظفر، ومناخاً من الرضى. وثمة ميل لدى العديد من الكوادر لنسيان التطويق الرأسمالي، والشراسة المتصاعدة في الصراع الطبقي على المستوى العالمي. لقد غرق الكثيرون في المسائل الصغيرة للإدارة، وقلما يبدون انشغالاً بالاتجاهات الخطيرة التي تتخذها الصراعات العالمية والقومية.

وقال ستالين:

«نحن نتوقع الكثير من التقارير لدى انعقاد الدورة، ونتوقع الكثير من المناقشات بعد الاستماع إليها. وثمة ثلاث قضايا أساسية تواجهنا اليوم:

في المقام الأول، أعمال التخريب والتجسس، والعبث التي يقوم بها جواسيس الدول الأجنبية ويؤثرون إلى هذا الحد أو ذاك في كافة منظماتنا، الاقتصادية منها والإدارية، والحزبية.

في المقام الثاني، عملاء الدول الأجنبية في الداخل ومن بينهم التروتسكيون الذين اندسّوا، ليس فقط في منظمات القاعدة، ولكن أيضاً، في بعض مواقع المسؤولية.

وفي المقام الثالث، سلوك بعض القادة في المركز، كما في المقاطعات، من الذين لم يعجزوا وحسب عن تمييز وجه أولئك المخربين، دعاة التضليل، والجواسيس والقتلة، بل بدوا لا مبالين، طيبي القلوب، وساذجين إلى درجة أنهم ساهموا، هم أنفسهم، في كثير من الأحيان في إيصال عملاء الدول الأجنبية إلى هذا الموقع من المسؤولية أو ذاك»

انطلاقاً من هذه المعاينة، توصل ستالين إلى نتيجتين:

ينبغي أولاً التخلص من السذاجة السياسية وسرعة التصديق، وتعزيز اليقظة الثورية. لأن بقايا الطبقات المستغلة تلجأ الآن إلى أشكال من الصراع أشد غموضاً، وتتشبث بأساليب الصراع أكثر يأساً وقنوطاً.

في عـام 1956، سـيعمد خروشـوف، في تقريـره السـري، إلى الإشـارة لهــذا المقطع. وسيزعم بأن ستالين «سوّغ سياسة إرهاب الجماهير بإطلاقه الفكرة التي تقول:

«كلما تقدمنا نحو الاشتراكية، كلما توجب تكثيف الصراع الطبقي»

أما النتيجة الثانية التي استخلصها ستالين فمفادها أنـه مـن أجـل تعزيـز اليقظة ينبغي الارتقاء بالتربية السياسية لكوادر الحزب. واقـترح تنظيـم دورات سياسية من 4 إلى 8 أشهر، لجميـع الكـوادر، بـدءاً مـن قـادة الخلايـا وانتهـاء بالقادة في قمة هرم الحزب.

إذا كانت مداخلة ستالين في 3 آذار قد شددت على وجوب أن يتنبه أعضاء اللجنة المركزية إلى خطورة الوضع وأن يدركوا مـدى اتسـاع العمـل التخريـبي، فإن مداخلته في 5 آذار سـتنصب علـى القتـال ضـد كافـة الانحرافـات، وعلـى الأخص منها اليسارية والبيروقراطية.

بدأ ستالين مداخلته بالتحذير الصريح والواضح ضد الميل إلى توسـيع حملـة التطهير، والقمع، بطريقة تعسفية.

«هل ذلك يعـني بأنـه يجـب ضـرب واسـتئصال، ليس فقـط التروتسـكيين الحقيقيـين، بـل، وأيضـاً أولئـك الذيـن كـانوا سـابقاً، يبـدون تذبذبـاً باتجـاه التروتسكية، والذين تخلوا فيما بعد، ومنذ زمن طويل عن تروتسـكيتهم، ليـس فقط أولئك الذين كانوا فعلاً عملاء التخريب التروتسـكيون، وإنمـا أيضـاً أولئـك الذين حدث لهم أن مروا في الشارع أو أنهم مروا حديثاً والتقوا بهذا أو ذاك من التروتسكيين. لا يمكـن لنـا أن نضـع كـل النـاس علـى الصعيـد نفسـه، فهـذه الطريقة المبسطة في الحكم على الناس تسيء إلى النضال ضد المخربين الحقيقيين والجواسيس التروتسكيين».

«ينبغي، وبأي ثمن، ونحن نرى نذر الحرب، أن نطهر الحزب من الأعداء المتسللين. ولكن إن كـان الحـزب مهـدداً بـالعمل التخريـبي مـن قبـل الأعـداء المتسللين، فإنه ليس أقل تهديداً من تلـك الانحرافـات الخطـيرة المنتشـرة بـين الكوادر، ولا سيما الميل نحو تشكيل عُصب مغلقة من الأصدقاء، والقطيعـة مـع المناضلين والجماهير عبر الأسلوب البيروقراطي. فهذه الأجـواء العائليـة تجعـل من المستحيل نقد أخطـاء العمـل ونقـد الـذات مـن قبـل أولئـك الذيـن يقـودون العمل».

«في أغلب الأوقات يتم اختيار المناضلين على أساس قرائن عرضية، ذاتية، ضيقة دنيئة. يتم الاختيار في أغلب الأوقات على أساس ما يسمى بالمعرفة أو على أساس الصداقة، أو المواطنة. أو على أساس الإخلاص الشخصي وامتلاك فن تمجيد القادة».

ثم ينتقد ستالين البيروقراطية التي تبدو مستهجنة في كثير من القضايا الراهنة. فحين جرت عملية المراجعة والتدقيق داخل الحزب على سبيل المثال وجد الكثير من بسطاء العمال أنفسهم مفصولين من الحزب بسبب «سلبيتهم» وغالبية قرارات الفصل هذه غير مبررة إطلاقاً، وكان ينبغي إلغاؤها منذ زمن طويل. والحال أن بعض القادة يتبنون موقفاً بيروقراطياً تجاه هؤلاء الشيوعيين المفصولين ظلماً. «يخطئ بعض قادة حزبنا، جراء قلة اهتمامهم بمن حولهم من الناس، وهم لا يسعون إلى معرفة أعضاء الحزب معرفة حقيقية، ولا يقيمون وزناً للخصائص الفردية. إنهم يتصرفون عادة، عبر المصادفة. ولكن المعادين بأعماقهم للحزب هم وحدهم، من يعامل أعضاء الحزب على هذا النحو.»

«إن البيروقراطية تمنع القادة أيضاً من التعلم من خبرة الجماهير في حين أنهم لكي يقودوا الحزب والبلاد قيادة سليمة، يتوجب عليهم أن يعتمدوا على تجربة هذه الجماهير. عليهم أن يحللوا أعمالهم في الاجتماعات والمداولات، وأن ينصتوا جيداً إلى نقد قواعدهم، وحين تجري الانتخابات الحزبية، عليهم أن يقدموا عدة مرشحين، وبعد إجراء مناقشة حول كل منهم، ينبغي أن يكون الاقتراع سرياً».

قضية ريوتين

خلال الأعوام 1928 ـ 1930، كان بوخارين قد تعرض لنقد مرير بسبب أفكاره الاشتراكية الديمقراطية، وبالأخص، بسبب معارضته للتجميع الزراعي. وسياسته في «السلام الاجتماعي» تجاه الكولاك، ورغبته في إبطاء وتيرة التصنيع.

دفع ميخائيل ريوتين تصورات بوخارين إلى أبعد مدى، وشكل عامي 1931 ـ 1932 مجموعة كان نهجها معادياً تماماً للثورة. كان ريوتين أحد الأعضاء الاحتياطيين في اللجنة المركزية وسكرتيراً للحزب في منطقة موسكو حتى عام 1932، وكان محاطاً بالعديد من الشبيبة البوخارينية المشهورين جداً من أمثال سليبكوف وماريتسكي، وبيتروفسكي.

عام 1931 حرّر ريوتين وثيقة من 200 صفحة، مثّلت برنامجاً حقيقياً لثورة مضادة برجوازية. نقتطف منها ما يلي:

«في عام 1924ـ 1925 تحديداً، عزم ستالين على أن ينظّم «18 برومير» الخاص به. كان الجميع، على غرار لويس بونابرت، يُقسمون على الوفاء للدستور وكانوا يهيئون، في الوقت نفسه للمناداة به كإمبراطور (...) وكان ستالين يهيئ لـ 18 برومير «من دون إراقة دماء» عبر قيامه بقطع دابر فريق بعد فريق (...) إن أولئك الذين لا يفقهون التفكير بطريقة ماركسية يعتقدون أن إقصاء ستالين يعني في الوقت ذاته الإطاحة بالسلطة السوفييتية (...) إن دكتاتورية البروليتاريا ستهلك لا محالة بسبب أخطاء ستالين وزمرته، وبإبعاد ستالين ستتوفر لنا الفرصة لإنقاذها.

ما العمل؟

الحزب (1) إنهاء ستالين وزمرته (2) استبدال كل جهاز قيادة الحزب (3) الدعوة فوراً إلى مؤتمر استثنائي للحزب.

السوفييت (1) انتخابات جديدة واستبعاد التعيين (2) استبدال الآلة القضائية وإدخال شرعية قانونية دقيقة. (3) استبدال وتطهير جهاز أمن الدولة الـ(Gépéou).

الزراعة (1) حل كافة الكولخوزات التي شُكلت بالقوة (2) تصفية كافة السوفخوزات القاصرة. (3) التوقف الفوري عن سلب الفلاحين (4) استثمار الأرض من قبل الملاكين الخاصين، ومنحهم امتيازاً باستثمار الأرض إلى مهل مديدة».

لا يختلف برنامج «الشيوعي» ريوتين، في جوهره عن برنامج الثورة البرجوازية المضادة: تصفية قيادة الحزب، تفكيك جهاز أمن الدولة، وإعادة استثمار الأرض من قبل الملاكين الفرديين والكولاك. غير أن ريوتين، مثله مثل تروتسكي تماماً، رأى نفسه مضطراً إلى تغليف برنامجه بأسلوب بلاغي «يساري». فهو يمجد عودة الرأسمالية، من أجل إنقاذ دكتاتورية البروليتاريا، ووضع حد للثورة المضادة أي «18 برومير» أو «تيرميدور».

حينما جرت محاكمة بوخارين عام 1938 أعلن أمام المحكمة بأن «شباناً بوخارينيين» وبموافقة منه، وبمبادرة من سليبكوف كانوا قد دعوا في نهاية صيف عام 1932 إلى مؤتمر جرى فيه الموافقة على البرنامج السياسي الذي وضعه ريوتين.

«أعلنت موافقتي الكلية على ذلك البرنامج وأنا أتحمل المسؤولية كاملة».

تحريفية بوخارين

بدءاً من عام 1931 لعب بوخارين دوراً بالغ التأثير في العمل الحزبي بين المثقفين وكان تأثيره كبيراً في المجتمع العلمي في الاتحاد السوفييتي وفي أكاديمية العلوم. وكرئيس لتحرير الصحيفة الحكومية ازفستيا استطاع بوخارين أن يروّج لاتجاهه السياسي والإيديولوجي الخاص، وقد أزجى المديح لبوريس باسترناك الذي كان يمجّد نزعة «اللاسياسة المناضلة» في الأدب.

إن بوخارين الذي ظل معبود الفلاحين الأغنياء، غداً، أيضاً، حامل راية التكنوقراط الجدد.

كتب الأمريكي ستيفان كوهن سيرة لبوخارين عنوانها: نيقولاس بوخارين، حياة بلشفي. زعم كوهين بأن بوخارين انضم إلى قيادة ستالين، كي يقاتله بصورة أفضل. وها هي موضوعته:

«كان واضحاً لبوخارين بأن الحزب والبلاد كانا يشهدان حقبة جديدة من البلبلة وعدم اليقين ولكن أيضاً من احتمالات التغيير في السياسة الداخلية والخارجية السوفييتية. ولكي يشارك في الأحداث، ويكون له تأثير في مجراها. كان عليه هو أيضاً، الانضواء تحت الواجهة الظاهرية للوحدة، والتسليم اللامشروط بالقيادة التي مارسها ستالين في الماضي. تلك الواجهة التي يكمن خلفها الصراع السري حول النهج المستقبلي الذي ستسير عليه البلاد».

فيما بين عامي 1934ـ 1936 كتب بوخارين بإسهاب حول الخطر الفاشي، والحرب الحتمية مع النازية، وتحدث عن تدابير لا بد من اتخاذها لإعداد البلاد للحرب القادمة، وحدد برنامجاً، كان في الواقع، عودة كاملة إلى أفكاره الانتهازية القديمة، اليمينية، والاشتراكية الديمقراطية. ينبغي، يقول بوخارين، وضع حد «للاستياء الهائل بين السكان» وعلى الأخص، بين الفلاحين. وهذه رواية جديدة لدعوته القديمة إلى المصالحة مع الكولاك ـ الطبقة الوحيدة «المستاءة» فعلاً، في الريف، في تلك الأعوام. ولكي يهاجم تجربة التجميع الزراعي طور بوخارين دعاية للموضوعة القائلة بـ«الإنسية الاشتراكية» التي سيكون معيارها «الحد الأقصى من الحرية والتطور للحد الأقصى من البشر». فباسم «الإنسية» يعظ بوخارين بالمصالحة الطبقية و«بالحد الأقصى من الحرية والتطور» للعناصر البرجوازية القديمة والجديدة. ومن أجل امتلاك

القدرة على مقاومة الفاشية ينبغي إدخال «إصلاحات ديمقراطية» وتقديم «حياة رخيّة» للجماهير. وهكذا فحين يتطلب الأمر بذل أغلى التضحيات في سبيل المقاومة يصبح الوعد «بحياة رخية» وعداً ديماغوجياً. غير أن التكنوقراطيين والبيروقراطيين يأملون، ضمن هذا المجتمع الذي ما زال ضعيف التطور بـ«ديمقراطية» لنزعتهم البرجوازية الوليدة، «وبحياة رخيّة» على حساب الجماهير العاملة. وكان بوخارين ناطقهم الرسمي.

لقد كان العنصر الجوهري في برنامج بوخارين إنهاء الصراع الطبقي، وإنهاء اليقظة السياسية تجاه القوى المعادية للاشتراكية، والوعد الديماغوجي بتحسين فوري لمستوى الحياة، وبالديمقراطية للتيارات الانتهازية والاشتراكية ـــ الديمقراطية.

لم يخطئ كوهن، وهو محارب عنيد ضد الشيوعية حينما رأى في برنامج بوخارين بشيراً بخط خروشوف.

بوخارين وأعداء البلاشفة

في عام 1936 أُرسل بوخارين إلى باريس للالتقاء بالمنشفي نيقولايفسكي الذي كان يمتلك مخطوطات لماركس وأنجلز، كان الاتحاد السوفييتي راغباً في شرائها. وقد كشف نيقولايفسكي ما دار في حواره مع بوخارين.

«بدا بوخارين راغباً بالهدوء، بعيداً عن العناء الذي كان مخيماً على موسكو. لقد كان متعباً».

«أوحى لي بوخارين، على نحو غير مباشر، بأنه كان ينوء تحت وطأة تشاؤم كبير، وأنه كان قد فقد رغبته بالحياة. ومع ذلك، لم يكن يرغب في الانتحار».

على هذا النحو، بدا بوخارين عام 1936. «كبلشفي قديم»، منهار معنوياً، مسكون بروح الاستسلام والانهزامية.

يستأنف المنشفي نيقولايفسكي:

«كنت أعرف نظام الحزب الذي يحرّم على الشيوعيين التحدث إلى من لم يكونوا في عداد أعضائه، عن معلومات حزبية. ومع ذلك فقد قمنا بمحادثات عديدة حول الأوضاع الداخلية في الحزب. وكان لدى بوخارين رغبة في الحديث عن ذلك».

«حاولت فاني يزيرسكايا أن تقنعه بالبقاء في الخارج، وقالت له إنه كان من الضروري إصدار صحيفة للمعارضة في الخارج. صحيفة تكون مطّلعة فعلياً على ما يجري في روسيا، ويمكنها أن تؤثر تأثيراً كبيراً على الأوضاع هناك. وأكدت بأن بوخارين كان الوحيد الذي بمستطاعه أن يقوم بذلك، ولكنها أخبرتني بأن بوخارين أجابها:

«لا أعتقد أنه سيكون بإمكاني العيش من دون روسيا. لقد تعودنا جميعاً على ما يجري في روسيا، وعلى التوتر الذي يخيم هناك».

«حينما كنا في كوبنهاغن ذكّرني بوخارين بأن تروتسكي كان موجوداً على مقربة منا نسبياً. في أوسلو، واقترح علي من دون تردد، فيما إذا كان ممكناً الذهاب لقضاء يوم عند تروتسكي، وتابع: من المؤكد أننا اشتبكنا في صراع حتى الموت، أنا وهو، ولكن هذا لا يمنع من أنني أكنّ له أعظم آيات الاحترام».

وفي باريس، قام أيضاً بزيارة لزعيم المناشفة فيدور دان، وباح له بأن ستالين لم يكن في عينيه «إنساناً، وإنما شيطاناً».

في عام 1936 كان تروتسكي موالياً لثورة مضادة للبلاشفة، وكان دان واحداً من القادة الرئيسيين لثورة مضادة اشتراكية ديمقراطية. وبدا بوخارين قريباً منهما سياسياً.

وتابع نيقولايفسكي:

«طلب مني ذات يوم بأن أحصل له على النشرة التي يصدرها تروتسكي ليقرأ العدد الأخير منها. وقدمت له أيضاً منشورات اشتراكية، بما فيها «سوسيال ستيشسكي فيستنيك»

«كان ثمة مقال في العدد الأخير يحتوي على تحليل لخطة غوركي الرامية إلى تجميع الإنتلجنسيا في حزب مستقل للاشتراك في الانتخابات، وصرح بوخارين: إن حزباً ثانياً لهو ضروري. فإذا لم يكن هناك سوى قائمة انتخابية واحدة، من دون معارضة، فذلك يشبه النازية».

«كان الدستور السوفييتي الجديد قد حرر بكامله، من أول كلمة إلى آخر كلمة بقلم بوخارين. كان فخوراً بهذا الدستور. وبوجه عام كان بوخارين كادراً ملائماً جداً لمرحلة انتقال سلمي من الدكتاتورية إلى حزب مؤهل لنشر ديمقراطية شعبية حقيقية».

«إن إنسية بوخارين تدين في الجزء الكبير منها إلى القسوة التي تميزت بها حركة التجميع الزراعي، وإلى الصراع الداخلي الذي نشب داخل الحزب «لم يعد أولئك كائنات إنسانية، قال بوخارين، لقد أصبحوا، فعلاً، مثل تروس آلة مريعة. ومُسخت مسخاً كاملاً إنسانية البشر الذين يعملون في قلب الجهاز السوفييتي».

«كان بوغدانوف قد تنبأ، في بداية الثورة البلشفية بولادة دكتاتورية لطبقة جديدة من القادة الاقتصاديين. كان مفكراً أصيلاً، وهو الثاني في الأهمية بين البلاشفة. وقد لعب بوغدانوف دوراً كبيراً في تربية بوخارين. لم يكن بوخارين متفقاً مع بوغدانوف ولكنه كان يدرك بأن الخطر الكبير لـ«الاشتراكية المتعجلة» التي كان البلاشفة قد شرعوا في بنائها يكمن في خلق دكتاتورية الطبقة الجديدة. لقد تحدثنا، بوخارين وأنا حديثاً طويلاً حول هذه المسألة».

خلال أعوام 1918ـ 1920، وإزاء ضراوة الصراع الطبقي، كان كافة الانتهازيين قد انحازوا إلى جانب الرجعية القيصرية والامبريالية باسم «الإنسية والنزعة الإنسانية». وبدعمهم للتدخل الإنكليزي ـ الفرنسي، وبالتالي للأنظمة الكولونيالية الأكثر وحشية فإن جميع هؤلاء الرجال من تروتسكي إلى بوغدانوف كانوا قد أدانوا «الدكتاتورية» و«الطبقة الجديدة للأرستقراطية البلشفية» في الاتحاد السوفييتي.

وفي ظروف الصراع الطبقي خلال أعوام الثلاثينات سلك بوخارين المسعى نفسه.

بوخارين والمؤامرة العسكرية

خلال عامي 1935ـ 1936 كان بوخارين قريباً من مجموعات المتآمرين العسكريين الذين كانوا يخططون للإطاحة بقيادة الحزب.

في 28 تموز عام 1936 عقد اجتماع سري للمنظمة المعادية للشيوعية التي كان ينتمي إليها الكولونيل توكاييف. وكان النقاش يدور حول مختلف مخططات مشاريع الدستور السوفييتي الجديد. وقد سجّل توكاييف

«فيما كان ستالين يرغب بدكتاتورية حزب واحد وبمركزية كاملة، كان بوخارين يفكر بعدة أحزاب، وحتى بأحزاب قومية، لقد كان نصيراً للحد الأعلى من اللامركزية. وكان يريد أن تنتقل السلطات إلى الجمهوريات المؤسسة. وحتى أن يكون للجمهوريات الأكثر أهمية فيها، الحق بالإشراف

على شؤونها الخارجية الخاصة. كان بوخارين، حوالي عـام 1936 يقترب مـن وجهة نظر الاشتراكية الديمقراطية في الجناح اليساري للاشتراكيين الغربيين»

«كان بوخارين قد درس المشروع البديل (للدستور) الذي حـرره ديمقراطوف (عضو المنظمة السرية التي ينتمي إليها الكولونيـل توكـاييف). وضمـن الوثـائق كان قد أُدرج بعض الملاحظات المهمة المستندة إلى عملنا».

إن المتآمرين العسكريين من مجموعـة توكـاييف يدّعـون بـأنهم قريبـون مـن المواقف السياسية التي يدافع عنها بوخارين.

«كان بوخارين يرغب في السير ببطء مـع الفلاحـين، وأن يؤجـل إلى أبعـد مدى نهاية النيب NEP. كان يعتقد أيضاً بأنه لا ينبغـي أن تحـدث الثـورة في كل مكان، من خلال القوة والتمرد المسلح، وكان يؤمن بأنـه علـى كـل بلـد أن يطور نفسه تبعاً للنهج الذي يرتئيه. لقد نجح بوخارين وريكـوف وتومسـكي في نشر النقاط الرئيسية لبرنامجهم: (1) عدم وضع حد للنيب، بل مواصلتها عشر سـنوات علـى الأقـل (...) (4) مـع الاسـتمرار في التصنيـع، ينبغـي تخصيـص طاقات أكبر بكثير من أجـل الصناعـة الخفيفـة. إن الاشـتراكية يبنيهـا البشـر السعداء، والمغذيين جيداً، ولا يصنعها الشحادون والموتى. (5) إيقاف التجميـع القسري في الزراعة، والكف عن تدمير الكولاك».

يهـدف هـذا البرنـامج إلى حمايـة البرجوازيـة في الزراعـة وفي التجـارة وفي الصناعة الخفيفة وإلى إيقاف التصنيع. وتطبيق هذا البرنـامج كـان سـيؤدي، لا محالة، إلى الهزيمة أمام الفاشية إبان الحرب العالمية الثانية.

بوخارين ومسألة الانقلاب

خلال محاكمة بوخارين، اعترف بأنه في عـام 1918، وبعـد صلـح بريسـت ليتوفسك، كان هناك خطة لاعتقـال لينـين، وسـتالين وسـفيردلوف، وتشـكيل حكومة مؤلفة مـن الشـيوعيين اليسـاريين والاشـتراكيين الثوريـين «ولكنـه نفـى بحزم وجود خطة لإعدامهم».

بعد ثمانية عشر عاماً، أي في عام 1936، كان بوخارين رجلاً مثبّطـاً خـائر القوى. ومع اقتراب الحرب العالمية كان التوتر يتصاعد إلى أقصـى حـد، وكـان احتمال حدوث انقلاب ضد قيادة الحـزب يـزداد يومـاً بعـد يـوم. وبوخـارين، بهيبته «كبلشفي قديم». و«المنافس» الوحيد بقامة سـتالين، والـذي كـان يمقـت

أشد المقت «الستالينيين» الذين يشكلون «أرستقراطية جديدة»، وكان يعتقد بأن «الديمقراطية» وحدها، هي التي تنقذ الاتحاد السوفييتي. بوخارين، هذا، كيف لا يمكنه قبول انقلاب «ديمقراطي» محتمل ضد الستالينية، لكي يضمن سلطته؟ وهذا الرجل الذي وافق على اعتقال لينين عام 1918، ألا يمكنه، في وضع أكثر توتراً أو درامية أن يبارك اعتقال ستالين، وجدانوف، ومولوتوف، وكاغانوفيتش؟

ولأن المسألة كانت مطروحة على هذا النحو، فإن رجلاً قانطاً مثبّطاً، ومنتهياً سياسياً مثل بوخارين، لم يكن بإمكانه، من دون ريب، أن يقود صراعاً منطقياً ومكشوفاً ضد ستالين. ولكن آخرين من ثوريي اليمين، كانوا قد قرروا، بكل عزم، أن يتصرفوا، وسيستخدمهم بوخارين كستار واق. وكتاب الكولونيل توكاييف يتيح لنا أن نفهم ذلك التوزيع للأدوار.

في عام 1939، اجتمع توكاييف وخمسة من رفاقه، وكلهم ضباط من المراتب العليا، اجتمعوا في شقة أستاذ في أكاديمية بودييني العسكرية. وبحثوا خطة للإطاحة بستالين فيما لو نشبت الحرب.

كتب توكاييف:

إن شميدت «عضو أكاديمية فوروشيلوف البحرية في لينينغراد» قد أبدى أسفه على إحدى الفرص الضائعة، فلو كنا قد تحركنا إبان محاكمة بوخارين لكان الفلاحون قد ثاروا انتصاراً له. أما الآن فما من شخص يملك ما كان لبوخارين من نفوذ واسع كي يحث الشعب على التحرك. واقترح أحد المتآمرين إسناد مركز الوزير الأول إلى بيريا الذي غدا بطلا شعبياً إلى حد كبير، بعد أن حرر عدداً كبيراً من الأشخاص الموقوفين على زمن إيجوف.

يُظهر هذا المقطع أن المتآمرين العسكريين كانوا بحاجة، في المرحلة الأولى على الأقل، إلى «علم بلشفي» لضمان نجاح انقلابهم المعادي للشيوعية. فلو أنهم أقاموا صلات مع بوخارين فإن عسكريي اليمين هؤلاء على يقين بأنه كان سيوافق على «الأمر الواقع»، الخلاص من ستالين.

من جهة أخرى، فقبل اعتقال بوخارين، عام 1938 كان لدى توكاييف ومجموعته نية بتنفيذ ذلك الانقلاب، فحين كان رادك يدلي باعترافاته وهو في السجن، تمكن «الرفيق X» (الاسم الحركي لرئيس منظمة توكاييف)، أن يقرأ فيها العلاقة بين رادك وبوخارين. كتب توكاييف:

«أدلى رادك بـ«الاعترافات» الأكثر أهمية والتي اعتقل بوخارين على أساسها، وحوكم وأعدم وقد علمنا بخيانة رادك قبل أسبوعين من اعتقال بوخارين، في 16 تشرين أول عام 1936، وحاولنا إنقاذ بوخارين، وقدّمنا له عرضاً محدداً دون أي لبس فيه. قلنا له: نقترح عليك «الاختفاء» دون أدنى تأخير. وعبر بوخارين بحرارة عن عرفانه بالجميل، تجاه العرض، ولكنه رفضه»

«إذا لم يكن بوخارين قادراً على دحض التهم، ولم يتوصل إلى إثبات أنها باطلة فسيكون ذلك مأساة، فمن خلال بوخارين ستتلوث سمعة حركات المعارضة المعتدلة الأخرى».

قبل اعتقال بوخارين، كان المتآمرون العسكريون يفكرون باستخدام بوخارين راية لهم وفي الوقت ذاته، كانوا يدركون خطر محاكمة علنية لبوخارين. فكامينيف وزينوفييف ورادك كانوا قد اعترفوا بنشاطاتهم التآمرية، وكانوا قد «فضحوا» قضية المعارضة. وإذا كان على بوخارين أن يعترف أمام المحكمة بأنه كان متورطاً في مؤامرة لقلب النظام فإن ذلك سيشكل ضربة قاتلة لسائر المعارضة المضادة. ذلك هو مغزى محاكمة بوخارين، مثلما فهمه آنذاك أسوأ أعداء البلاشفة، المتسللون إلى داخل الحزب والجيش.

حين حدث الاجتياح النازي، حلل توكاييف المناخ المخيم الذي كان يسود البلاد وأوساط الجيش.

«أدركنا بأن الرجال المتربعين في هرم السلطة كانوا قد فقدوا رشدهم، ولم يكونوا يجهلون قط بأن نظامهم الرجعي كان مجرداً كلياً من التأييد الشعبي الحقيقي. فقد كان ذلك النظام قائماً على الإرهاب وعلى آليات ذهنية معينة، وكان مصيره متوقفاً على السلم. وجاءت الحرب لتقلب كل شيء» ثم يصف توكاييف ردود الأفعال لدى العديد من الضباط. اقترح بيسكارافاين تقسيم الاتحاد السوفييتي. فأوكرانيا مستقلة، والقفقاس مستقل سيقاتلان بصورة أفضل، واقترح كليموف خلع سائر المكتب السياسي من مناصبهم، وحينها سيهب الشعب لإنقاذ البلاد. ورأى كوكوريوف بأن اليهود هم أصل البلاء في كافة المشكلات».

«كديمقراطيين ثوريين، كانت القضية التي تملأ أذهاننا باستمرار هي: ألم تكن هذه هي اللحظة الأكثر ملاءمة لمحاولة الإطاحة بستالين؟ وكان علينا أن نضع في اعتبارنا الكثير من العوامل».

«في تلك الأيام، كان الرفيق X مقتنعاً بأن ستالين إما أن يكون كل شـيء أو أن يكون لا شيء، وليس ثمة حل وسط بالنسبة إليه. وكانت مشكلتنا متمثلة في أنه لم يكن بمقدورنا أن نرى هتلر محرراً للبلاد، ولهذا السبب، كان الرفيق X يقول بأن علينا أن نكون مستعدين لإسقاط نظام ستالين ولكن لا ينبغي أبداً أن نقوم بإضعافه».

واضح إذن بـأن الاضطراب الهـائل، والتشوش اللامحـدود الـذي أعقـب الهزائم الأولى أمام الزحف النازي خلقا وضعـاً سياسـياً طارئـاً جـداً. فـالقوميون البرجوازيون وأعداء الشيوعية، واللاساميون كانوا يعتقدون بأن ساعة العمل قـد حانت. ترى ما الذي كان سيحدث لو أن التطهير داخل الحزب والحكومـة لم يأخذ مجراه بصلابة ودأب. لو أن معارضـة انتهازيـة كـانت مـا تـزال تحتفـظ بمواقع مهمة على رأس الحزب. لو أن رجلاً مثل بوخارين كان جـاهزاً تمامـاً «لتغيير النظام»؟ في تلك اللحظـات مـن التوتـر الأقصـى. كـان كـل هـؤلاء ومـن مواقعهم القوية، سيغامرون بكل شيء للقيام بانقلاب كـانوا يخططـون لـه منـذ زمن طويل.

اعترافات بوخارين

لدى محاكمة بوخارين أدلى باعترافاته. وحين ووجه بمتهمين آخرين حـدّد بعض جوانب المؤامرة. لقد حضـر جوزيـف دافييـه سـفير الولايـات المتحـدة في موسكو، والمحامي الشهير، كافة جلسات المحاكمة. وقد أدلى دافييه بقناعته، التي شاركه فيهـا كافـة المراقبـين الأجـانب الأكفـاء والمختصـين بالقـانون بـأن بوخارين تحدث بملء حريته، وأن اعترافاته كانت صادقة. وفي 17 آذار أرسـل دافييه رسالة سرية إلى سكرتير الدولة للشؤون الخارجية في واشنطون:

«بالرغم من أنني أقف مسبقاً ضد الأدلة التي تؤخذ مـن خـلال الاعـتراف، وضد نظام قضائي لا يمنح والحق يقـال، أي حمايـة للمتهـم. وبعـد أن عـاينت جيداً، وكل يوم، الشهود وطريقة شـهادتهم، ولاحظـت التـأكيدات اللاواعيـة التي كانت لا تخفى عن عين المراقب، ولاحظت وقـائع أخـرى حـدّدت مسـار القضية فإنني أعتقد، ويشاركني في ذلك آخرون، يمكن أن يكون رأيهم مقبولاً، بأن هؤلاء المتهمـين قـد ارتكبـوا مـا يكفـي مـن الجرائـم الـتي يدينهـا القـانون السوفييتي. جرائم مُثبتة بالدليل، وليس ثمة شك معقول يمكن أن يخالط ذلك، مما يسوّغ الحكم الذي يجعلهم مذنبين بجـرم الخيانـة، ويـبرر القـرار القـاضي

بالعقوبة المنصوص عليها في القوانين الجنائية السارية في الاتحاد السوفييتي. ذلك هو الشعور العام لدى الدبلوماسيين الذين حضروا المحاكمة واطلعوا على الدليل المثبت بوجود مؤامرة في غاية الخطورة».

خلال عشرات الساعات التي إستغرقتها محاكمته بدا بوخارين صاحياً متيقظاً، مناقشاً، معترضاً، معبراً ببراعة، نافياً بحدة بعض الاتهامات. وبالنسبة للذين حضروا المحاكمة مثلما بالنسبة لنا، نحن الذين يمكننا أن نقرأ اليوم محاضرها، فإن نظرية «قالب الحلوى» (أي التعذيب الشديد لبوخارين) الشائعة كثيراً لدى أعداء الشيوعية لهي محض هراء. فقد صرح توكاييف بأن البوليس لم يعذب بوخارين خشية أن «يكشف الحقيقة أمام العالم داخل المحكمة» وقد روى توكاييف بالتفصيل الردود القاسية التي كان يوجهها بوخارين للنائب العام، وإنكاراته الشجاعة، ثم استخلص توكاييف.

«أبدى بوخارين شجاعة قصوى» «كان فيشينسكي (رئيس المحكمة) قد ضاع فقد كانت غلطة فادحة محاكمة بوخارين أمام محكمة علنية».

إن الثمانمئة والخمسين صفحة من محاضر المحاكمة، لهي قراءة غنية بالفائدة إلى حد كبير وهي تترك انطباعاً بضحالة وبطلان الخطب المسهبة عن «المحاكمات الوحشية لقد ظهر بوخارين خلالها انتهازياً مهزوماً سياسياً، ومداناً إيديولوجياً في مواقف عدة، ولعجزه عن تجميل وجهات نظره البرجوازية الصغيرة فقد غدا ساخطاً معادياً ولكنه لم يكن ليجرؤ على معارضة خط الحزب وإنجازاته العظيمة على نحو صريح وعلني. وبقائه على رأس الحزب، فقد كان يأمل، من خلال دسائسه ومناوراته أن يطيح ذات يوم بالقيادة وأن يغلب وجهات نظره. كان يقيم تواطؤا مع المعارضين المتسترين من شتى الأصناف والألوان والذين كان بعضهم معادياً حازماً للشيوعيين. ولعجزه عن خوض نضال علني ومفتوح كان بوخارين يعلق كل آماله على انقلاب مدبّر من خلال مؤامرة عسكرية أو منفذ عند الحاجة من خلال تمرد جماهيري.

إن قراءة المحاضر لتسمح لنا أيضاً بالكشف عن الخيوط التي تربط بين الانحطاط السياسي لبوخارين وأصدقائه وبين النشاط الإجرامي، بحصر المعنى، اغتيالات، فتن، تجسس، تواطؤ مع قوى أجنبية. ومنذ عام 1928ـ 1929 دافع بوخارين عن مواقف التحريفيين الذين كانوا يعبرون عن مصالح الكولاك، والطبقات المستغلة الأخرى. ودعم بوخارين شللاً سياسية كانت تمثل تلك الطبقات، داخل وخارج الحزب. وما إن بلغ الصراع الطبقي قمة احتدامه

وضراوته حتى برهن بوخارين عن تقاربه مع تلك القوى. وحين لاحت نذر الحرب وبلغ التوتر ذروته لجأ المعارضون في قيادة الحزب إلى العنف والانقلاب. واعترف بوخارين بعلاقاته مع كل تلك الشخصيات، ولكنه نفى بحدة أي ضلوع له بحادث اغتيال أو تجسس. وحين سأله فيشينسكي:

«لم تتحدث عن علاقاتك بمصالح التجسس الأجنبية وبالأوساط الفاشية». رد بوخارين قائلاً:

«ليس عندي ما أصرح به حول هذا الموضوع».

مع ذلك، فقد اضطر بوخارين إلى الاعتراف بأن بعض الرجال، من أوساط كتلته التي يقودها أقاموا علاقات مع الألمان الفاشيين، وحول هذا الموضوع، إليكم صفحة من محاضر المحاكمة أوضح فيها بوخارين بأن بعض قادة المؤامرة كانوا يفكرون بخلق شروط ملائمة لانقلاب، مستفيدين من الاضطراب الذي ستسببه الهزائم العسكرية في حالة نشوب الحرب مع ألمانيا.

بوخارين: في عام 1935 سافر كاراخان دون أي حوار تمهيدي مع أعضاء المركز القيادي ما عدا تومسكي (...) وأذكر أن تومسكي قال لي بأن كاراخان قد أفلح في عقد اتفاق مع الألمان أكثر فائدة من الاتفاق مع تروتسكي.

فيشنيسكي: متى بدأتم محادثاتكم التي كنتم تنوون فيها فتح الجبهة أمام الألمان.

بوخارين: حينما سألت تومسكي كيف كان يرى آلية الانقلاب، أجابني بأن ذلك كان شأن المنظمة العسكرية التي كان عليها فتح الجبهة.

فيشينسكي: وإذن فإن تومسكي كان يعد العدة لفتح الجبهة.

بوخارين: لم يقل ذلك.

فيشينسكي: هل قال تومسكي: فتح الجبهة؟

بوخارين: سأقول لك بالضبط ما قاله.

فيشينسكي: ماذا قال؟

بوخارين: قال تومسكي بأن ذلك كان متعلقاً بالمنظمة العسكرية التي كان عليها فتح الجبهة.

فيشينسكي: ولم كان عليها فتح الجبهة؟

بوخارين: لم يقل لي ذلك.

فيشينسكي: لماذا كان عليها فتح الجبهة؟

بوخارين: من وجهة نظري، لم يكن ينبغي عليها فتح الجبهة.

فيشينسكي: ومن وجهة نظر تومسكي؟

بوخارين: إذا كان لم يعترض فقد كان إذن، على الأرجح موافقاً إلى حد ما.

يعترف بوخارين، بتصريحاته هذه، بأن توجهه التحريفي دفعه إلى البحث عن علاقات غير مشروعة مع معارضين آخرين، وبأنه راهن على عصيانات داخل البلاد تتيح له تسلّم السلطة، ومن ثم فقد تبنى التكتيك الإرهابي والانقلابي.

في السيرة التي كتبها كوهن عن حياة بوخارين حاول كوهن تصحيح «تلك الفكرة الخاطئة والتي شاعت كثيراً» بأن بوخارين «كان قد اعترف بجرائم مشينة» بهدف «إعلان توبته الخالصة عن معارضته لستالين، مقدماً بذلك خدمة أخيرة للحزب».

وإليكم كيف خلص كوهن من هذا المأزق:

«كانت خطة بوخارين، يقول كوهن، تحويل محاكمته إلى محاكمة مضادة للنظام الستاليني» وكان تكتيكه يستند إلى الاعتراف «بأنه مسؤول سياسياً عن كل شيء» ولكن، في الوقت نفسه «إلى النفي البات لأي جريمة من طرفه» لقد بيّن بوخارين، يؤكد كوهن، بأنه حين تحدث عن «منظمته المضادة للثورة» وعن «كتلته المضادة للسوفييت» كان يقصد إلى القول: «الحزب البلشفي القديم». «وحين أعلن بوخارين: أتحمل المسؤولية الكاملة عن هذه الكتلة فقد كان ذلك يعني: البلشفية».

صيغة موفقة... فكوهن، هذا الناطق بلسان المصالح الأمريكية تمكن من القيام بدورة في المكان، ما دام أن أياً من قرائه سوف لن يدقق في محاضر المحاكمة تلك.

والحال، فإنه لمن المفيد جداً دراسة المقاطع المفتاحية في الشهادة التي أدلى بها بوخارين أمام المحكمة حول تحركه السياسي. لقد كان بوخارين واضحاً بما فيه الكفاية كي نتعرف على مراحل انحطاطه السياسي، ولكي نفهم كيف أوقع نفسه في شبكة خيوط مؤامرة مضادة للثورة. باستطاعة كوهن وبرجوازيين آخرين أن يبذلوا جهودهم في تبييض صفحة «البلشفي» بوخارين، ولكن اعترافات بوخارين تقدم للشيوعيين دروساً ثمينة حول آليات الانحطاط البطيء، وحول التخريب المعادي للاشتراكية. وتساعد في فهم كيف ظهر، فيما بعد، أشخاص مثل خروتشوف ومكويان، وبريجينيف وغورباتشوف. وإليكم نص جزء من محضر المحاكمة، وبوخارين هو الذي يتكلم:

«في الظاهر، كان أنصار الثورة المضادة، من اليمين يمثلون بداية «انحـراف» (...) لقد حدثت لدينا سيرورة جد غريبة نحو المبالغة في تقدير قيمة الاسـتثمار الفردي. والانتقال التدريجي إلى أمثلتـه، وإلى أمثلـة مالكـه. وفي برنامجنـا فـإن الاستثمار الناجح والمثمر للفلاح الفردي وللكولاكي، قد أصبح، في الواقـع هدفـاً بحد ذاته. أما الكولخوز، فكان بالنسبة إلينا، موسيقى المستقبل. ينبغي زيـادة عـدد الملاكـين الأثريـاء. كـان ذلـك هـو الانعطـاف المخيـف في طريقـة رؤيتنـا للأمور».

«عام 1928 كنت أنا نفسي من أطلق صيغة الاستغلال العسكري ـ الإقطـاعي للفلاحين وكنت أنسـب التكـاليف الباهظـة لصـراع الطبقـات ليـس إلى الطبقـة المعادية للبروليتاريا، بل وبالتحديد إلى قيـادة البروليتاريـا نفسـها (...) إذا مـا أراد أحد أن يصوغ عملياً برنـامجي فسـيكون ذلـك، وفيمـا يتعلـق بالاقتصـاد: رأسمالية الدولة، الموجيك الميسور، مراعاة منافعه، الإقـلال مـن الكولخـوزات، الامتيـازات الأجنبيـة، التخلـي عـن احتكـار الدولـة للتجـارة الخارجيـة، وبالمحصلة، تجديـد الرأسماليـة (...) في الداخـل، كـان برنامجنـا، في الواقـع يرمي إلى تطبيق الحرية الديمقراطية البرجوازية، وإلى التحالف. لأنه من خـلال تشكيلنا جبهة مع الناشفة، ومع الاشتراكيين الثوريين ومع الآخرين نكـون قـد وصلنا إلى حرية الأحزاب وإلى التحالفات. وإذا ما جرى اختيار حلفاء من أجـل الإطاحة بالحكومة، فسيكون هؤلاء الحلفاء في الغد، وفي حالة انتصار محتمـل، شركاء في السلطة (...)».

«في نحو عام 1928ـ 1929 بالتحديد حدث التقـارب بيـني وبـين تومسـكي وريكوف. ثم تلت ذلك الاتصالات ومناقشة الآراء بين أعضاء اللجنة المركزية في تلك الفترة، والاجتماعات السرية/اللاشرعية في اللجنة المركزية (...)».

«حينـذاك بـالتحديد بـدأت المسـاعي لتشـكيل جبهـة. أولاً، مقـابلتي مـع كـامينيف في منزلـه. وثانيـاً مقـابلتي مـع بياتـاكوف في المستشـفى بحضـور كامينيف، ثالثاً مقابلتي مع كامينيف في المنزل الريفي لشميدت (...)».

«في عام 1930ـ 1931، ابتدأت المرحلة اللاحقة. شهدت البلاد آنذاك تفاقماً حاداً في الصراع الطبقي، وفي أعمال التخريـب مـن قبـل الكـولاك، وفي مقاومـة طبقة الكولاك لسياسة الحزب، الخ. (...) وغدا الثلاثي (بوخارين ـ ريكوف ـ تومسكي) مركزاً لا شرعياً. وإذا كان هذا الثلاثـي في السابق علـى رأس أوسـاط المعارضة. فقد أصبح الآن هو المركـز الرئيسـي للمنظمـة السـرية المعاديـة للثـورة

(...) وكان إينوكيدزي قد انضم إلى هذا المركز السري وارتبط بـه عـبر تومسكي (...)».

«في نهاية عام 1931، أبعد المشاركون فيما كان يسمى بـ«مدرسة بوخـارين» إلى المقاطعات إلى فارونيج، وسامارا، ولينينغراد ونوفوسيبيرسك. وفي تلك الفـترة استخدم هؤلاء إبعادهم لغايات مضادة للثورة».

«وفي حوالي عام 1932 ابتدأت المرحلة اللاحقة في تطوير منظمـة اليمينيـين، وكان ذلك يعني الانتقال إلى تكتيك الإطاحة بسلطة السوفييت من خلال العنف (...) وأنا أحدد تاريخ ذلك، باللحظة التي تم فيها تثبيـت البرنـامج السياسي الذي سمي برنامج ريوتين (...) كان ذلك البرنامج برنامج منظمة الثورة المضـادة من اليمينيين (...) وقد تم إقراره باسـم مركـز اليمينيـين. كـان برنـامج ريوتـين يقضي بـ«ثورة داخل القصر» وبالإرهاب، وبالتوجه نحو التحـالف المباشر مـع التروتسكيين».

«في تلك الفترة بالتحديد، نضجت فكرة «ثـورة داخـل القصـر»، في البدايـة كانت تلك الفكرة قد صدرت عن تومسكي الذي كان مرتبطاً بـإينوكيدزي. كـان تومسكي يرى إمكانية استخدام الموقع الرسمي لإينوكيدزي الذي كـان لـه اليـد العليا على حرس الكرملين (...) وتم تجنيد رجال آخرين لإنجاز «ثورة القصر». وحينذاك بالتحديد تم تشكيل الجبهـة السياسـية مـع كـامينيف، وزينوفييـف وخلال تلك المرحلة حدثـت اللقـاءات مـع سيتروف ولومينـادزي (...) وأثنـاء المحادثات التي جرت في صيف عام 1932 حدثـني بياتـاكوف عـن لقائـه مـع سيدوف، وعن توصيات تروتسكي فيما يتعلق بالإرهاب. في تلك اللحظـة، كنـا نعتبر، بياتاكوف وأنا، بـأن هـذه الأفكـار لم تكـن أفكارنـا ولكننـا قررنـا بأنـه سيكون في وسعنا، وبسرعة كبيرة، إيجاد لغة مشـتركة وأن الاختلافـات حـول الصراع ضد سلطة السوفييتيات سيتم تذليلها (...)».

«إن إنشاء مجموعة من المتآمرين داخل الجيـش الأحمر يعـود تاريخهـا إلى تلك الفترة. كنت قد علمت ذلك من تومسكي وكان هو قد بُلّغ بذلك مباشرة من قِبل إينوكيـدزي الـذي كـان تومسـكي قـد أقـام معـه علاقـات شـخصية. كـان تومسكي وإينوكيدزي قد بلّغاني بأنه قد تم حينـذاك الاجتمـاع بـين اليمينيـين والزينوفييفيـين والتروتسـكيين في قيـادة الجيـش الأحمـر وقدمـا إلي أسمـاء توخاتشيفسكي وكورك وبريماكوف وبوتنا. لقد تم الارتباط مـع مركـز اليمينيـين إذن علـى النسـق التـالي: المجموعـة العسـكرية، إينوكيـدزي، تومسـكي، والآخرون».

«في العام 1933-1934 كانت طبقة الكولاك قد سُحقت وانتهى أمرها، ولم يعد هناك حظ لنجاح أي حركة تمردية. لذا فإن مرحلة جديدة قد أعقبت، وكانت الفكرة المركزية خلالها في أوساط منظمة اليمين. التوجه نحو مؤامرة، نحو انقلاب مضاد للثورة (...)».

«كانت القوى المشتركة في المؤامرة مؤلفة من إينوكيدزي بالإضافة إلى ياغودا، ومنظمتهم في الكرملين وفي مفوضية الشعب للشؤون الداخلية. في ذلك الوقت نجح إينوكيدزي، بقدر ما أتذكر، في تجنيد القائد السابق لحرس الكرملين، بيترسون والذي كان معروفاً، فيما سبق بأنه قائد القطار التروتسكي. ومن ثم فقد كانت المنظمة العسكرية للمتآمرين تضم توخاتشيفسكي، كورك وآخرين».

«مع اقتراب المؤتمر السابع عشر للحزب برزت الفكرة، وكانت من اقتراح تومسكي، بأن يتزامن الانقلاب مع انعقاد المؤتمر، باستخدام القوى المسلحة للثورة المضادة. كانت فكرة تومسكي تشتمل على أن يكون اعتقال المشاركين في مؤتمرٍ الحزب السابع عشر جزءاً مكملاً للانقلاب. وبُحث اقتراح تومسكي سريعاً في الحقيقة. وارتفعت الاعتراضات ضده من كل صوب (...) وأعلن بياتاكوف أنه ضد الفكرة لاعتبارات تكتيكية، لأن ذلك كان سيثير سخطاً بالغاً بين الجماهير (...) إن مجرد ورود هذه الفكرة في الذهن، ومن ثم بحثها، ليشهد بوضوح كاف على الطابع الفظيع والإجرامي لتلك المنظمة».

«في صيف عام 1934، قال لي رادك بأن تعليمات كانت قد وصلت من تروتسكي، وأن تروتسكي كان يجري مفاوضات مع الألمان، وأنه كان قد وعدهم ببعض التنازلات الإقليمية من بينها أوكرانيا (...) ينبغي القول، أنني كنت معترضاً يومها، على رادك. ولدى مقابلتنا أكد رادك ما قاله لي عن تروتسكي. كنت أعتبر أنه كان من الضروري أن يكتب رادك إلى تروتسكي ليقول له بأنه ذهب بعيداً جداً مع الألمان في مفاوضاته معهم، وأنه كان يخاطر، ليس فقط بأن يعرّض نفسه للشبهات، هو بالذات، بل ويعرض كافة حلفائه، ولاسيما نحن، الشركاء اليمينيون في المؤامرة، وهو ما كان يجعل فشلنا محتماً. كنت أرى في ذلك مساساً بوطنية الجماهير، ولذا فقد بدا لي ذلك الموقف لا عقلانياً من الوجهة السياسية والتكتيكية».

«حينما أصبح موضوع الانقلاب العسكري مطروحاً، فإن دور المجموعة العسكرية المتآمرة، كان يغدو، وحسب منطق الأمور، هاماً بصورة خاصة، فهذا الجزء من القوى المضادة للثورة، بالتحديد، هو الذي سيمتلك حينئذ قوى

مادية، وبالتالي قوى سياسية ذات وزن، وهو ما كان سيمكنه أن يخلق نوعاً من خطر بونابرتي. بالنسبة للبونابرتيين ـ وهو ما كنت ألمسه لدى توخاتشيفسكي ـ فإن شاغلهم الأول سيكون، التخلص، على غرار نـابليون، مـن حلفـائهم، مـن أولئك الذين كانوا قد ألهموهم وحثوهم على العمـل. في محادثاتنـا كنـت دائمـاً أشير إلى توخاتشيفسكي بعبارة «نابليون صغير محتمل» والخال، أننا كنا نعرف ما كان يفعله نابليون بمن كانوا يُسمّون رجال الفكر والإيديولوجيا».

فيشينسكي: وكنت تعتبر نفسك منظّراً إيديولوجياً.

بوخارين: من بين آخرين، كمنظّـر إيديولوجـي للانقلاب المضـاد للثـورة، وكرجل يضع الانقلاب موضع التطبيق. من المؤكد أنك كنت سـتفضل أن أعتـبر نفسي كجاسوس ولكنني لا أعتبر نفسي أبداً كذلك.

فيشينسكي: ومع ذلك، ستكون هذه الصفة أكثر صحة.

بوخارين: ذلك هو رأيك، وليس رأيي أنا».

حينما أشرف بوخارين على نهاية إفادته، كان يعلم أنه مقبل على حتفـه. من المكن لكوهـن، كـاتب سـيرته، أن يقـرأ في كلماتـه «دفاعـاً بارعـاً لبلشـفي حقيقي» و«إدانة مريرة للستالينية» غير أن أي شـيوعي، بالمقـابل، سـيفهم مـن إفادته بأنه رجل ناضل طويلاً من أجل الاشتراكية، ثم انحرف بصـورة نهائيـة نحو التحريفية. وأنه، وقد أصبح على بعـد خطـوة مـن قـبره، أدرك بأنـه، في مجرى الصراع الطبقي، البالغ الضراوة، سواء على المستوى الوطني أو العـالمي، لا بد للتحريفية من أن تقوده إلى مستنقع الخيانة.

«إن المنطق المجرد للصراع يـترافق مـع انحطـاط في الأفكـار، ومـع انحطـاط سيكولوجي».

«بهذه الطريقة، يبدو لي بأن كل واحد منا، نحـن الذيـن نجلـس فـوق هـذا المقعد، مقعد المتهمين، كان لديه ازدواج في وعيه. إيمان منقوص بعمله المعـادي للثورة (...) من هنا جاء هذا النوع من نصف الشلل في إرادتـه، وهـذا البـطء في ردود أفعالـه (...) إن التنـاقض بـين تسـارع انحطاطنـا وهـذا التبـاطؤ في ردود أفعالنـا ليعـبّر عـن موقـف المعـادين للثـورة الـذي نمـا مـع نمـو واتسـاع البنـاء الاشتراكي. هنا بالتحديد حدث ازدواج سيكولوجي».

«في بعض الأحيان، كـان يسـتبد بـي الحمـاس، فـأمجّد في كتابـاتي البنـاء الاشتراكي، ولكن ما إن يأتي الغد حتى أكون قد عدلـت عـن حماسـي السـابق عبر مواقف عملية ذات طابع إجرامي. لقد تشكل لدي ما كان يسمى في فلسـفة

هيجل بالوعي الشقي. وهذا الوعي الشقي كان يختلف عن الوعي الاعتيادي المألوف بأنه كان في الوقت ذاته، وعياً إجرامياً. إن ما صنع قوة الدولة البروليتارية ليس أنها سحقت عصابات الثورة المضادة وحسب، بل إنها أيضاً خلخلت أعداءها من الداخل، وأفسدت إرادتهم، وهو شيء لم يكن ليوجد في أي مكان، ولم يكن ليعرفه أي بلد رأسمالي (...)».

«يجري تعليل شعور الندم غالباً بكافة أنواع الأشياء اللامعقولة كلياً، التي تمارس على السجين كمسحوق التيبت ذي المفعول السحري، على سبيل المثال، الخ. بالنسبة إلي، فإنني سأقول بأنه طوال فترة السنة التي أمضيتها في السجن، عملت، وشغلت نفسي، واحتفظت بصفاء ذهني.»

«يجري الحديث عن التنويم المغناطيسي، الذي يمارس على السجين، غير أنني في هذه المحاكمة اضطلعت بالدفاع القانوني عن نفسي. وتوجهت في دفاعي مباشرة إلى النائب العام وجادلته كتابةً. وكل إنسان حتى لو لم يكن له أي خبرة بالطب سيكون مرغماً على الاعتراف بأنه لم يخضع لهذه التجربة».

بودّي الآن أن أتحدث عن نفسي، وعن الأسباب التي قادتني إلى إبداء ندمي. من المؤكد، أنه ينبغي علي القول بأن الدلائل على جرميتي لعبت هي نفسها دوراً ذا أهمية. فطوال ثلاثة شهور، تمسكت بإنكار كافة التهم الموجهة إلي، ثم سلكت سبيل الاعتراف. لماذا؟ السبب في ذلك، هو أنني راجعت ماضيّ بأسره. وحينما سألت نفسي: إذا متّ، فباسم أي شيء ستموت؟ حينذاك بالتحديد، بدت لي فجأة، وبوضوح مدهش هاوية سوداء شديدة السواد. ما من شيء يستحق أن أموت باسمه، فيما لو رغبت أن أموت من دون الاعتراف بأخطائي. وعلى النقيض، فكل الوقائع الإيجابية التي تسطع متألقة داخل الاتحاد السوفييتي ستأخذ أبعاداً مختلفة في وعي الإنسان في داخلي. هذا ما جردني في نهاية الأمر من أسلحتي. هذا هو بالتحديد ما أرغمني على أن أركع أمام الحزب وأمام البلاد (...)».

«من المؤكد أن ما قصدته ليس توبة لأحد، ولا كذلك توبة لنفسي. ففي وسع المحكمة، حتى من دون ذلك، أن تصدر قرارها. إن اعترافات المتهمين ليست إلزامية. واعتراف المتهمين هو مبدأ قانوني قروسطي. غير أن هنالك هزيمة داخلية لقوى الثورة المضادة وينبغي أن يكون المرء تروتسكي حتى لا يستسلم ويلقي بأسلحته. إن واجبي هو أن أظهر هنا للملأ بأنه في داخل متوازي الأضلاع من القوى التي شكلت التكتيك المعادي للثورة كان تروتسكي

هو المحرّك الرئيسي للحركة. ومواقف العنف ـ الإرهاب، التجسس، تقسيم الاتحاد السوفييتي، التخريب، كانت تصدر في المقام الأول من ذلك المصدر نفسه».

«أستطيع أن أخمّن مسبقاً بأن تروتسكي وحلفائي في هذه الجرائم، وكذلك الأممية الثانية سيسعون للدفاع عنا، وعني بنحو خاص، ولكني آسف لهذا الدفاع لأنني أخرّ على قدميّ أمام البلاد، وأمام الحزب، وأمام الشعب بأسره».

من بوخارين إلى غورباتشوف

نشر ستيفان كوهن عام 1973 سيرة تقريظية لبوخارين، وقدّمه على أنه «البلشفي الأخير». من المؤثر جداً رؤية خصم لدود للشيوعية «يبكي مصير بوخارين والبلاشفة الروس» وقد أبرز كوهن فكرة لأحد مشايعي بوخارين، هو روي ميدفيديف:

«لا يمكن اعتبار الستالينية كجزء من الماركسية اللينينية خلال عقودها الثلاثة. إنها التحريف الذي أدخله ستالين على النظرية والتطبيق في الحركة الشيوعية. إن سيرورة تطهير الحركة الشيوعية، وإزالة طبقات الشوائب الستالينية لم تنته بعد».

يصور كوهن وميدفيديف السياسة اللينينية التي تابعها ستالين على أنها «تحريف» اللينينية، أما هما، عدوا البلاشفة، فيقترحان «تطهير الحركة الشيوعية». من المؤكد، أن ذلك يعني تكتيكاً أظهر صلاحيته منذ عقود. فحينما تنتصر ثورة، وتتوطد أركانها، يرشّح أسوأ أعداءها أنفسهم ليكونوا المدافعين الأشد ثباتاً عن «الثورة الأصيلة» ضد قادتها الذين «خانوا مثالها الأعلى الذي انطلقت منه». غير أن موضوعة كوهن وميدفيديف هذه استعيدت من كافة الشيوعيين الخروشوفيين تقريباً. وحتى فيديل كاسترو نفسه، تأثر بالنظريات الخروشوفية، ولم يتخلص دائماً من هذا الإغراء. ورغم ذلك، فإن التكتيك ذاته استخدم ضد الثورة الكوبية. فمنذ عام 1961 شنت الـ CIA حملة هجومية من أجل «الدفاع عن الثورة الكوبية ضد «الغاصب فيديل كاسترو» الذي كان قد «خانها».

منذ عام 1948 كانت يوغوسلافيا البلد الاشتراكي الأول الذي انعطف باتجاه البوخارينية، وتلقى تيتو الدعم الأكيد من الولايات المتحدة ومن ثم تسرب المنظرون التيتويون إلى معظم بلدان أوربا الشرقية.

خلال أعوام السبعينات نُشر كتاب كوهن «بوخارين والثورة البلشفية» وكتاب آخر من تأليف الاشتراكي الديمقراطي الإنكليزي كين كواتز، رئيس «مؤسسة برتراند راسل للسلم» وقد استخدم الكتابان أساساً لحملة عالمية من أجل إعادة الاعتبار لبوخارين. ضمّت الحملة التحريفيين في الحزبين الشيوعيين الإيطالي والفرنسي، والاشتراكيين الديمقراطيين ـ من بيلكان إلى جيل مارتينيه ـ ومختلف الطوائف التروتسكية. تلك التيارات ذاتها التي دعمت غورباتشيف حتى يوم سقوطه. وقد أكد الجميع بأن بوخارين كان يمثل «بديلاً» بلشفياً لستالين. وقد أعلنه البعض رائداً للشيوعية الأوربية، وفي عام 1973 كان كوهن هو الذي رسم توجهات تلك الحملة:

«ثمة أفكار وسياسات ذات أسلوب بوخاريني جرى استعادتها في يوغسلافيا وهنغاريا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا. كما أن مصلحين شيوعيين غدوا محامين عن اشتراكية السوق، وعن تخطيط ونمو اقتصادي متوازن، وعن تطور متدرج وعن سلام مدني، وعن قطاع زراعي مختلط، وعن قبول بالتعددية الاجتماعية والثقافية في نطاق دولة الحزب الواحد». ذلكم تعريف وافٍ للثورة المضادة. للثورة المخملية التي حققت الظفر خلال عامي 1988ـ 1989 في أوربا الشرقية. ويستأنف كوهن:

«فيما لو نجح الإصلاحيون في خلق شيوعية ليبرالية. «اشتراكية ذات وجه إنساني» أي ما كان يراه بوخارين في الأساس، ونظاماً زراعياً من نمط النيب NEP الذي دافع عنه بوخارين، فسيكون في وسعهم، بعد كل شيء، أن يخلقوا تجسيداً حقيقياً مسبقاً للمستقبل الشيوعي ـ البديل عن الستالينية بعد ستالين».

وباتكاء غورباتشيف على «التجارب الطليعية» لبلدان أوربا الشرقية خلال أعوام الستينات والسبعينات، تبنى هو أيضاً البرنامج القديم لبوخارين. وليس من المفيد أن نضيف بأن كوهن كان قد استقبل بالتهليل والترحاب داخل الاتحاد السوفييتي. الغورباتشيفي، كرائد عظيم «للفكر الجديد» و«للاشتراكية المجددة».

ولنضف أخيراً بأن «مدرسة بوخارين» مارست تأثيرها المبارك داخل صين دينغ إكسياو بنغ.

مجاكمة توخاتشيفسكي
ومؤامرة الثورة المضادة داخل الجيش

في 26 أيار عام 1937 اعتقل الماريشال توخاتشيفسكي، وقادة الوحدات، ياكير، اوبوريغيتش، إدمان، كورك، بوتنا، فيلدمان وبريماكوف، وقدموا إلى محكمة عسكرية. وفي 12 تموز أعلن عن تنفيذ حكم الإعدام فيهم.

منذ بداية شهر أيار كانت الشبهات تحوم حولهم. وفي 8 أيار أعيد العمل بنظام المفوضين السياسيين داخل الجيش. إن إعادة إدخال هذا النظام، الذي يعود تاريخه إلى زمن الحرب الأهلية، كان يعكس قلق الحزب من الاتجاهات البونابرتية في داخل الجيش.

كان هذا النظام قد أوقف العمل به في 13 أيار عام 1927 بناء على توجيه من مفوض الدفاع. وتم إلغاء الرقابة الممارسة من قبل المفوضين السياسيين على ضباط القيادة العليا وتسلم القائد العسكري مسؤولية «التوجيه السياسي العام، بهدف إقامة تنسيق كامل بين الشؤون العسكرية والسياسية داخل الوحدات العسكرية». أما «مساعده السياسي» فقد غدا مسؤولاً عن «مجمل النشاط الحزبي». وكان عليه أن يقدم تقريراً إلى القائد العسكري حول الأوضاع السياسية في الوحدة. وقد احتج على هذا النظام الجديد أكاديمية تولماشيف السياسية - العسكرية، في لينينغراد، ومفوضو المنطقة العسكرية في بيلاروسيا. ووقف هؤلاء ضد «بخس وتقليص دور الأجهزة السياسية الحزبية». في عام 1928 أعد بلومبيرغ، وهو ضابط ألماني ذو رتبة عالية، أعدّ تقريرا بعد مهمة له قضاها في الاتحاد السوفييتي. وسجل بلومبيرغ في تقريره:

«ثمة وجهات نظر عسكرية تكتسي أهمية، يوماً بعد يوم. وكل ما تبقّى يكون تابعاً لها».

وبما أن أكثرية الجنود قادمون من الريف، فإن تأثير الكولاك فيهم كان يظهر بنحو ملموس للغاية. وقد أكد ضابط ذو رتبة عالية، هو إينشليشت في عام 1928 وعام 1929، بأن خطر انحراف ذي طابع اشتراكي ديمقراطي كان في الجيش أكبر منه في كافة المنظمات الحزبية المدنية.

في عام 1930 كان عشرة بالمائة من مجموع الضباط، أي، (4500) ضابط عسكري هم من الضباط القيصريين القدماء، وحين جرى تطهير المؤسسات

السوفييتية في خريف عام 1929 حُظر على إينشليشت إطلاق حملة واسعة ضد الضباط القيصريين القدامى داخل الجيش.

جميع هذه العوامل، تفسّر لنا استمرار التأثيرات البرجوازية في صفوف الجيش.

مؤامرة

كان ليخاشيف؟ في عامي 1937ـ 1938 ضابطاً في الجيش الأحمر المرابط في الشرق الأقصى وقد أكد في كتابه: المؤامرة في الشرق الأقصى، بأنه كان هناك، بالفعل، مؤامرة واسعة الأبعاد داخل صفوف الجيش.

وكتب الصحفي ألكساندر ويرث في كتابه موسكو 41، فصلاً بعنوان «محاكمة توخاتشيفيسكي» نقرأ فيه:

«كنت مقتنعاً بأن تطهير الجيش الأحمر كان يعكس إلى حد كبير قلق ستالين إزاء حرب وشيكة مع ألمانيا. ماذا كان توخاتشيفسكي؟ أخبرني أشخاص في المكتب الثاني الفرنسي بأن توخاتشيفيسكي كان موالياً للألمان منذ زمن طويل. وروى لي التشيك القصة العجيبة لزيارة توخاتشيفيسكي لبراغ. ففي ختام إحدى المآدب ـ وكان ثملاً بما فيه الكفاية ــ أفلت لسانه بضع كلمات تقول: إن اتفاقاً مع هتلر هو الأمل الوحيد المتبقي لتوخاتشيفيسكي ولروسيا، ثم شرع يشتم ستالين. ولم يعدم التشيك الوسيلة كي يبلغوا الكرملين بذلك، وكانت تلك هي نهاية توخاتشيفيسكي ونهاية الكثيرين من أنصاره.

أما السفير الأمريكي في موسكو جوزيف دافييه فقد سجّل انطباعاته في يومي 30 حزيران و4 تموز من عام 1937 أي بعد إعدام الجنرالات.

«بلّغت ليفينوف بأن ردود الفعل المستثارة في الولايات المتحدة وفي غرب أوربا على هذه التطهيرات والإعدامات في صفوف الجنرالات، كانت غاضبة بصراحة (...) كان ليفينوف جدّ صريح. فقد قال لي بأنه كان على الحكومة أن «تضمن» عبر هذه التطهيرات، أن لا يكون هناك خيانة محتملة في روسيا لمصلحة برلين أو طوكيو، وأضاف بأن العالم، سيتفهم ذات يوم، بأن الحكومة السوفييتية تصرفت على هذا النحو كي تحمي نفسها ضد «خيانة بالغة التهديد». في واقع الأمر، قال لي ليفينوف، إن روسيا تقدم خدمة للعالم أجمع حينما تحمي نفسها من التهديد الذي يشكله حلم هتلر والنازيين بالسيطرة على العالم. وحين تصون بهذه الصورة قوة الاتحاد السوفييتي كحاجز يقف في وجه

التهديد النازي. وذات مرة، قال ليفينوف، سيرى العالم أي رجل عظيم جداً هو ستالين». وكتب دافييه، فيما بعد:

«لا شك أن العقول الأكثر رجحاناً ستبدو قانعة بأن مؤامرة كانت في سبيلها إلى القيام بانقلاب عسكري، كانت في سبيلها أيضاً إلى حبل المشنقة. مؤامرة ضد النظام الإداري والحزبي أكثر مما هي ضد ستالين شخصياً. وأن ستالين ضربها بحدّته وجسارته وقوته المعتادة».

في عام 1937، كان عبد الرحمن أفتورخانوف يعمل في دائرة اللجنة المركزية للحزب البلشفي، كان قومياً برجوازياً. وقد قال بأنه كان على علاقة متينة مع قادة المعارضة، ومع قوقازيين، أعضاء في اللجنة المركزية. بعد الحرب أركن للفرار إلى الولايات المتحدة. وفي كتابه: «ستالين في السلطة» عبّر عن خيبة أمله لأن توخاتشيفيسكي لم يستلم السلطة عام 1937 وأكد بأنه في بداية عام 1937، وبعد إحدى سفرات توخاتشيفيسكي إلى لندن، تحدث أمام ضباط من ذوي الرتب العالية بالأقوال التالية:

«إن ما يميز جيش جلالة ملك بريطانيا أنه لن يكون ممكناً وجود عميل لسكوتلانديارد على رأسه (تلميح إلى دور أمن الدولة في الاتحاد السوفييتي) أما بالنسبة للإسكافيين (تلميح إلى والد ستالين) فهم لا يقبلون إلا في مستودعات المصلحة الإدارية، ودون بطاقة حزبية أيضاً. لا يتحدث الإنكليز، تلقائياً، عن وطنيتهم، لأنه يبدو لهم طبيعياً كونهم إنكليز وحسب. ليس هناك في إنكلترا خط مستقيم، منحن أو «عام». ليس هناك سوى سياسة إنكليزية. سوى لورد أو عامل، محافظ أو أشتراكي، ضابط أو جندي يخدمان بالحماس ذاته. من المؤكد، أن الجندي البريطاني جاهل تماماً فيما يتعلق بتاريخ الحزب أو مؤشرات الإنتاج (تلميح إلى التربية السياسية في الجيش الأحمر) ولكنه بالمقابل يعرف طوبولوجيا العالم مثلما يعرف سطح مسكنه. إن الملك هناك مكلل بالمجد ولكنه لا يملك سلطة شخصية. بالنسبة إلى الضابط، ثمة خصلتان ضروريتان: الشجاعة والمعرفة».

كان روبيرت كولوندر سفيراً لفرنسا في موسكو في أعوام 1936ــ 1938. وقد أورد في مذكراته وصفاً للإرهاب الذي مارسته الثورة الفرنسية، التي سحقت، دون رحمة، في عام 1792، طبقة الأرستقراطيين، وهيأت الشعب الفرنسي للحرب ضد الدول الرجعية الأوربية. في تلك الفترة، كان أعداء الثورة الفرنسية، ولا سيما إنكلترا وروسيا يؤولون الإرهاب الثوري على أنه علامة

مبشّرة بانهيار النظام. والحال، فإن العكس كان هو الصحيح. والأمر نفسه، يقول كولوندر، يحدث اليوم مع الثورة السوفييتية. ويتابع كولوندر:

«بعد اعتقال توخاتشيفيسكي بزمن قليل، قال لي الوزير الليتواني الذي كان على علاقة مع العديد من القادة البلاشفة، إن المارشال المغتاظ من العقبات التي كان الحزب يضعها أمام تطوير القوة العسكرية، وبخاصة أمام تنظيم قوى الجيش، ترأس حركة كانت ترمي إلى إخماد أنفاس الحزب، وإقامة دكتاتورية عسكرية (...) إن مراسلاتي لتوضح على أني أعطيت «الإرهاب السوفييتي» مغزاه الحقيقي. ولا ينبغي الاستنتاج، وهو ما أكدته مراراً بأن النظام السوفييتي يتفتت، أو أن القوى الروسية تتبدد. على النقيض من ذلك، فتلك هي أزمة النمو لبلد يكبر ويشتد عوده بسرعة».

وكتب تشرشل في مذكراته بأن هتلر كان قد وعد بينيس، رئيس تشيكوسلوفيا باحترام وحدة بلاده شريطة أن يلتزم بالبقاء على الحياد في حال نشوب حرب فرنسية ـ ألمانية.

«خلال خريف عام 1936 تسلم بينيس رسالة من شخصية عسكرية رفيعة ألمانية تسأله فيما إذا كان راغباً في الاستفادة من عروض هتلر. كان عليه أن يرد بسرعة. ذلك لأنه، عما قريب سيحدث في روسيا أحداث سيكون من شأنها أن تسمح لألمانيا بالاستغناء عن مساعدة التشيك. وفيما كان بينيس يتمعّن في مغزى هذا التلميح المقلق، علم بأن الحكومة الألمانية كانت على علاقة وطيدة بشخصيات روسية خطيرة الشأن، وذلك عبر السفارة السوفييتية في براغ. كان ذلك جزءاً مما سُمي بالمؤامرة العسكرية، وبتآمر الحرس البلشفي القديم، الذين كانوا يرمون إلى الإطاحة بستالين. وإلى إدخال نظام جديد إلى روسيا تكون سياسته موالية لألمانيا. وبعد مرور بعض الوقت، جرى في روسيا تطهير لا يعرف للرحمة سبيلا، ولكنه كان ناجعاً من دون شك، فقد تم تطهير الوسطين السياسي والاقتصادي من كافة أعداء النظام، أما الجيش الروسي فقد تمّ تطهيره من العناصر الموالية للألمان، وقد نال هذا التطهير من قيمته العسكرية إلى حد كبير. ومن الآن فصاعداً صارت الحكومة السوفييتية متحاملة أشد التحامل ضد ألمانيا. من المؤكد أن هتلر قرأ بوضوح أحداث التطهير تلك، ولكن الحكومتين البريطانية والفرنسية، حسب علمي، لم تكونا فاهمتين بوضوح كاف، ما كان يحدث في روسيا. فبالنسبة للسيد شامبرلين، ولقيادتي الأركان البريطانية والفرنسية بدت تطهيرات عام 1937 داخل الجيش الروسي كما لو أنها فصل من فصول المنافسات التي كانت تمزق الجيش الروسي من داخله.

وقدمت لهم التطهيرات صورة للاتحاد السوفييتي المشطور إلى قسمين من جراء الأحقاد والانتقامات التي لا يشفى غليلها».

نادراً ما كان التروتسكي إسحق دويتشر يفوت فرصة للنيل من ستالين والافتراء عليه. ومع أنه أكد بأن محاكمات موسكو لم تكن لها أي أساس سوى أنها «مؤامرة من صنع الخيال» فقد وجد نفسه مضطراً إلى أن يكتب بصدد إعدام توخاتشيفيسكي :

«إن كل الروايات غير الستالينية تتفق حول نقطة واحدة: وهي أن الجنرالات كانوا يخططون لانقلاب عسكري. وكانوا سيقومون به لأسباب شخصية. وبمبادرتهم الخاصة ومن دون أي تواطؤ مع قوة أجنبية. والواقعة الرئيسية في هذا الانقلاب كانت، في الواقع، ثورة قصر في داخل الكرملين، تنتهي باغتيال ستالين. إن عملية عسكرية حاسمة كانت عازمة أيضاً، بعد خلاصها من الكرملين، على مهاجمة المقر الرئيسي لأمن الدولة. كان توخاتشيفيسكي هو روح المؤامرة (...) وكان بالإضافة إلى ذلك الرجل الوحيد بين كافة القادة العسكريين والسياسيين، في تلك المرحلة، ولاعتبارات عديدة، يملك شخصية بونابرت أصيل يمكنه فيما بعد أن يكون القنصل الروسي الأول على غرار نابليون. وكان في عداد المشتركين في المؤامرة رئيس التفويض السياسي في الجيش جامارنيك، الذي انتحر فيما بعد، والجنرال ياكير القائد العسكري لمدينة لينينغراد، الذي كان عليه أن يتكفل باشتراك حاميته في الانقلاب، والجنرالات أوبوريفيتش قائد الأكاديمية العسكرية في موسكو، وبريماكوف مساعد الجنرال بوديني على رأس سلاح الفرسان، وجنرالات آخرون، كانت لهم أدوار، أيضاً، في المؤامرة».

إن دويتشر، المعادي للشيوعية، والمنطقي في استنتاجاته، حين أقر بحقيقة مؤامرة توخاتشيفيسكي، سارع إلى التشديد على «النوايا الطيبة» للمتآمرين، الذين كانوا يريدون «إنقاذ الجيش والبلاد من جنون الإرهاب والرعب الذي سبّبته التطهيرات». وطمأن قراءة بأن توخاتشيفيسكي لم يتصرف بتاتاً «لصالح ألمانيا».

أشار النازي ليون ديجريل في إحدى كتاباته عام 1977 إلى حالة توخاتشيفيسكي بالعبارات التالية :

«من الذي كان بمستطاعه أن يتصور أنه في قلب فرنسا الثورة، وفي زمن جرائم الإرهاب، سيظهر، بعد وقت قصير، بونابرت، ويرفع بذراع فولاذية،

فرنسا الواقعة في قعر الهاوية؟ وبعد مرور سنوات، سيكون هذا البونابرت على وشك تحقيق وحدة أوربا. إن بونابرتاً روسياً يمكن له أن يظهر أيضاً. والماريشال الشاب توخاتشيفيسكي الذي قضى عليه ستالين بالموت بناء على نصائح بينيس كان له قامة بونابرت، عام 1937».

في 8 أيار عام 1943، دون غوبلز في يومياته بضع كلمات لهتلر تظهر بأن النازيين كانوا يدركون حق الإدراك الفائدة التي كان يمكنهم أن يجنوها من تيارات المعارضة، ومن الانهزاميين في داخل الجيش الأحمر.

«شرح الفوهرر، ذات مرة، حالة توخاتشيفيسكي، وعبر عن رأيه في أننا كنا غارقين في الخطأ، حينذاك، حينما كنا نعتقد بأن ستالين كان سيدمر الجيش الأحمر بقضائه على الجنرالات، كان العكس هو الصحيح: فقد تخلص ستالين من كل حلقات المعارضين في الجيش الأحمر، ونجح كذلك في الخلاص من التيار الانهزامي داخل هذا الجيش (...) وفي مقابلنا، فقد حظي ستالين بمزية أكبر، حين لم يعد لديه معارضة اجتماعية، ذلك لأن البلشفية أخمدتها هي أيضاً خلال التطهيرات التي جرت طيلة الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة (...) لقد أنهت البلشفية هذا الخطر في وقته تماماً، ويمكنها، على هذا النحو، أن تزج سائر قواها ضد عدوها».

نستعيد، أيضاً، رأي مولوتوف الذي كان، ومعه كاغانوفيتش، العضو الوحيد في المكتب السياسي، عام 1953، الذي لم يتنكر لماضيه الثوري. ففي حوارات أجريت معه خلال أعوام الثمانينات، استذكر مولوتوف الظروف التي كانت سائدة أيام التطهير:

«كان توتر شديد يسود البلاد خلال تلك الفترة، وكان من الضروري التصرف بأدنى قدر من الرحمة. أعتقد بأن ما جرى كان مبرراً، فلو كان توخاتشيفيسكي، وياكير، وريكوف وزينوفييف قد دفعوا بقوى المعارضة، إبان الحرب، لنشب حينذاك صراع مرير إلى أقصى حد ولبلغ عدد الضحايا رقماً هائلاً. نعم هائلاً يفوق التصور. ولكانت الكارثة قد حاقت بالطرفين كليهما. كان هؤلاء الجنرالات قد أقاموا صلات مع هتلر. صلات وثيقة إلى حد بعيد وكان تروتسكي قد أقام صلات مشابهة. ليس ثمة مجال للشك في ذلك. كان هتلر مغامراً، وكان تروتسكي مغامراً أيضاً. كان لدى الاثنين سمات مشتركة. وكان اليمينيون بوخارين، وريكوف وأضرابهما مرتبطين بهما. وكذلك، كثير من القادة العسكريين، بالتأكيد».

في دراسة مموّلة من قبل الجيش الأمريكي ومنفّذة في نطاق (راند كوبيراسيون) حلل رومان كولكويكز العلاقات بين الحزب والجيش في الاتحاد السوفييتي، من وجهة النظر السائدة داخل دوائر الاستخبارات العسكرية. من المفيد أن نشير إلى أن كولكويكز يؤيد كافة النزعات الاحترافية، واللاسياسية، والعسكرتارية، والامتيازات المتنامية منذ أعوام العشرينات، في داخل الجيش الأحمر. وصب سخطه على ستالين الذي قمع هذه النزعات البرجوازية والعسكرتارية.

وبعد أن وصف كولكويكز كيف حدد ستالين، خلال أعوام العشرينات، وضع الجيش في داخل المجتمع الاشتراكي، كتب مايلي:

«ظهر الجيش عبر تلك السيرورة كتابع للنخبة الحزبية التي تقلّدت السلطة. ولم يُعترف للضباط العسكريين بأية سلطة، وهو أمر ضروري من أجل ممارستهم المهنة العسكرية. وكانوا قد أبقوا في حالة دائمة من عدم الثقة في تحركاتهم. والمجتمع العسكري الذي ينزع دائماً نحو الحصرية الشديدة كان قد أبقي مفتوحاً بالقوة عبر نظام مكوّن من المراقبة والتوجيه المذهبي».

وكتب كولكويكز أيضاً: «بدأ ستالين برنامجاً مكثفاً كي يضمن تزويد الجيش السوفييتي بالسلاح، والعتاد واللوجستية الحديثة (الفن العسكري). وكان يظل منشغلاً قلقاً إزاء النزوع العسكري نحو النخبوية والحصرية، وهو نزوع طبيعي يتنامى مع الارتقاء المهني للجيش. كانت هذه الريبة تغدو مهيمنة جداً في اللحظة التي كان يلوح فيها خطر وشيك من حرب قادمة في أوربا وقد وجّه ستالين ضربة قاصمة إلى العسكريين خلال التطهيرات الكثيفة عام 1937 (...) إن حرية العمل لدى العسكريين المطوّقة من جميع الجهات بالبوليس السري، وبالأجهزة السياسية، وبالمنظمات الحزبية وبالكومسمول (شبيبة الحزب) كانت محدودة بصرامة فائقة».

ها نحن قد علمنا أكثر ما «يكرهه» الجيش الأمريكي في الجيش الأحمر: التكوين السياسي («التوجيه المذهبي»)، والرقابة السياسية (عبر الأجهزة السياسية من قبل الحزب والكومسمول والأمن)، وعرفنا، بالمقابل، ما يرمقه بعين الحب والإعجاب في هذا الجيش: النزعات الاستقلالية، وامتيازات الضباط من ذوي الرتب العالية («النخبوية») والنزعة العسكرية («الحصرية»).

لقد حلل كولكويكز التطهيرات في الجيش السوفييتي، كمرحلة في صراع الحزب، بقيادة ستالين، ضد النزعات («الاحترافية») وضد البونابرتية التي شاعت بين الضباط الكبار ولم يُتح لهذه التيارات البرجوازية أن تفرض نفسها إلا بعد موت ستالين.

«مع موت ستالين، ومع الانقسام في داخل قيادة الحزب الذي نجم عن موته كانت آليات المراقبة قد وهنت. وشرعت مصالح وقيم العسكريين تفصح عن ذاتها بصورة علنية. وكانت قطاعات واسعة في الجيش تجد في شخص الماريشال جوكوف ناطقها الرسمي. لقد نجح جوكوف في تخليص النخبة العسكرية من الرقابة المزعجة للأجهزة السياسية. وأدخل نظاماً صارماً، وأقرّ الفصل بين الرتب العسكرية، وطالب بإعادة الاعتبار إلى القادة العسكريين الذين ذهبوا نتيجة التطهير، وبمعاقبة أولئك الذين كانوا قد عذبوهم».

من المفيد أن نسجل هنا بأن جوكوف كان الذراع الضاربة لخروشوف خلال الانقلابين اللذين حدثا ضده. انقلاب عام 1953 (قضية بيريا) وانقلاب عام 1957 (قضية مولوتوف وكاغانوفيتش).

فلاسوف

تُرى، أليست فكرة شاذة افتراض أن جنرالات في الجيش الأحمر كان لديهم نية التعاون مع هتلر؟ فإن لم يكن هؤلاء الجنرالات شيوعيين جيدين، أفلم يكونوا قوميين على الأقل؟

لنجب على هذا السؤال في البداية، بسؤال مضاد. لماذا ستكون هذه الفرضية أكثر شذوذاً في الاتحاد السوفييتي، منها في فرنسا، على سبيل المثال. ألم يكن الماريشال بيتان رمزاً للوطنية الشوفينية الفرنسية؟ والجنرال ويغاند، والأميرال درالان، ألم يكونوا مدافعين شرسين عن الاستعمار الفرنسي؟ ومع ذلك، فقد أصبحوا الشخصيات المفتاحية للتعاون الفرنسي مع الألمان. ألم تكن الإطاحة بالرأسمالية في الاتحاد السوفييتي، وقمع البرجوازية، لتشكل بالنسبة لجميع القوى المولعة بالمشروع الحر، بواعث إضافية للتعاون مع «الرأسمالية الديناميكية» الألمانية؟

ألم تُثبت الحرب العالمية الثانية بأن هذه النزعات التي جسّدها بيتان في فرنسا كانت موجودة وبصورة فعلية لدى بعض الضباط السوفييت؟

في عام 1941 لعب الجنرال فلاسوف دوراً هاماً في معركة الدفاع عن موسكو. وحين أسره الألمان عام 1942 انتقل إلى خندقهم. وفي 16 أيلول عام 1944 بالتحديد، وبعد أن قابله هتلر تلقى الإذن الرسمي بتشكيل جيش التحرير الروسي. بعد أن كان فلاسوف قد شكل فرقته الأولى عام 1943 وانخرط ضباط آخرون من الأسرى في خدمة النازيين، نذكر من بينهم:

الماجور جنرال توخين، قائد قطاع العمليات في أركان منطقة البلطيق، والأستاذ في أكاديمية الأركان العامة. الماجور جنرال ماليشكين، رئيس أركان الجيش 19، الماجور جنرال زاكوتني الأستاذ في أكاديمية الأركان العامة. الماجور جنرال بلاغوفيشتشنسكي قائد لواء، والماجور جنرال شابوفالوف قائد فرقة مدفعية، والماجور جنرال مياندروف، ومفوض اللواء جيلينكوف، عضو المجلس العسكري في الجيش 23، والكولونيلات مالتسيف، زفيريف، نيريانين، بونياتشينكو.

ماذا كانت الفائدة السياسية لهؤلاء الرجال. كتب عميل المخابرات البريطانية، ومؤرخ الاستخبارات كوكريدج «كانت بطانة فلاسوف تمثل خليطاً عجيباً. كان أكثر هؤلاء الضباط ذكاء هو الكولونيل زيكوف، وهو يهودي (...) وكان واحداً من عداد حركة «المحرّفين اليمينيين» التابعة لبوخارين. وفي عام 1936 أبعد إلى سيبيريا من قبل ستالين، ليمضي هناك عقوبة أربع سنوات. أما الجنرال ماليشكين، قائد الأركان القديم في الشرق فكان أحد الناجين من محاكمات ستالين أيضاً. وكان قد سجن حين بدأت قصة توخاتشيفيسكي وكان الجنرال جيلينكوف مفوضاً سياسياً قديماً في الجيش. وحين جندهم جيهلين من جديد في الجيش الروسي مثل كثير من الضباط الآخرين من أمثالهم، «أعيد اعتبارهم» في بداية الحرب عام 1941». وهكذا نعلم أن العديد من ضباط الرتب العليا، أدينوا، وأبعدوا إلى سيبيريا عام 1937، وما إن أعيد اعتبارهم في بداية الحرب حتى انتقلوا إلى جانب هتلر. والظاهر أن العقوبات التي أقرت إبان التطهيرات الكبرى، كان لها ما يبررها بالتأكيد.

من أجل أن يبرر انتقاله إلى جانب النازيين نشر فلاسوف رسالة مفتوحة يقول فيها:

«لماذا تطوعت في القتال ضد البلاشفة؟»

إن ما نقرأه في هذه الرسالة لمعبّر إلى أقصى حد.

يبدو نقده للنظام السوفييتي، في البداية. أشبه بنقد تروتسكي، تماماً مثلما تتشابه نقطتان من الماء، أكثر مما يشبه نقد إيديولوجيي الغرب اليمينيين.

«كنت أرى العامل الروسي يعيش حياة شاقة، مثلما كنت أرى الفلاح وهو يُدفع بالقوة إلى الكولخوز، بينما يختفي ملايين الروس، يُعتقلون دون أية محاكمة» ثم يُقدّم فلاسوف تحليلاً لحالة الجيش الأحمر:

«كان نظام المفوّضين يقوّض الجيش الأحمر. وكان غياب المسؤولية لدى الضباط، والمراقبة والتجسس على حركاتهم يجعل من القائد العسكري ألعوبة في أيدي موظفي الحزب بزيهم المدني أو العسكري. آلاف وآلاف من بين أفضل الضباط والقادة، بمن فيه عدد من الماريشالات، اعتقلوا وأعدموا» ونحن نستخلص من هذه الأقوال بأن فلاسوف كان نصيراً لفكرة جيش محترف، يعز عليه غياب الاستقلال العسكري، المتخلص من المراقبة الحزبية.

يشرح فلاسوف أيضاً كيف أن انهزاميته دفعته إلى الالتحاق بالنازيين، وسنرى فيما بعد بأن الدعاية الانهزامية كانت قد مورست بضراوة من قبل تروتسكي والتروتسكيين.

«كنت أرى بأن حربنا كانت خاسرة لسببين اثنين: بسبب رفض الشعب الروسي الدفاع عن السلطة البلشفية، بعد أن كان نظام العنف قد استشرى، وبسبب القيادة اللامسؤولة في الجيش». وأخيراً، يوضح فلاسوف، وباللغة «المعادية للرأسمالية» العزيزة على قلوب النازيين، بأن روسيا الجديدة ينبغي لها أن تندمج في أوربا الألمانية.

«(ينبغي) بناء روسيا جديدة، دون بلاشفة، ودون رأسمالية (...) إن مصالح الشعب الروسي هي دائماً متطابقة مع مصالح الشعب الألماني، ومع مصالح جميع شعوب أوربا. لقد عزل البلاشفة الشعب الروسي عن أوربا من خلال جدار سميك يستحيل اختراقه».

سولجينيستين

نرغب هنا في أن نقدم استطراداً صغيراً حول النتاج الأدبي لسولجينيستين. فقد غدا هذا الرجل الصوت المعترف به من قبل خمسة بالمائة من أنصار القيصرية، والبرجوازيين. والمضاربين في الأسواق، والكولاك، والقوّادين، ورجال المافيا، ومرتزقة الجنرال فلاسوف، الذين كانوا جميعاً وبحق ضحايا قمع السلطة الاشتراكية.

سولجينيستين، هذا الأديب القيصري، عاش مأزقاً خانقاً خلال الاحتلال النازي. فهو كشوفيني مغرق في الشوفينية، كان يكره المحتلين الألمان، ولكنه

كان يمقت الاشتراكية مقتاً يتجاوز الحدود. وكان في قرارة نفسه يكنّ عواطف رقيقة تجاه الجنرال فلاسوف أشهر المتعاونين مع النازيين. وإذا كان سولجنيتستين يأسف بعض الشيء للغزل المشبوب بين فلاسوف وهتلر، فقد كان يحيي بحرارة حقده على البلاشفة.

بعد أن وقع الجنرال فلاسوف أسيراً، خان الوطن بالتعاون مع النازيين. إن سولجنيتستين يبذل كل ما في وسعه كي يفسر ويبرر خيانة هذا القائد السابق في الجيش الثاني السوفييتي، يقول:

«لقد وجد جيش الصدام الثاني نفسه غائصاً في عمق تشكيلات العدو القتالية حتى مسافة 75 كم. وفي تلك اللحظة وجد الرجال المغامرون في مركز قيادة الجيش الثاني، وجدوا أنفسهم مجرّدين من سائر احتياطاتهم من الرجال والعتاد. وكان الجيش يفتقد التموين، ورغم كل ذلك، كان الإذن بالتراجع مرفوضاً من فلاسوف (...) بالطبع، كان هناك خيانة من جانب هؤلاء الضباط تجاه الوطن. بالطبع كان هناك تخل غادر وأناني، غير أنه، من طرف ستالين، كان هناك قصور وإهمال في الإعداد للحرب، كان هناك ارتباك وجبن في قيادته. وتضحية عبثية بالجيش وبفرق الجيش، من أجل هدف واحد وحيد هو إنقاذ مظهره الماريشالي. فهل سيكون هناك خيانة أشد مرارة من خيانة قائد أعلى».

على هذا النحو يتخذ سولجينيستين موقف الدفاع عن الخائن فلاسوف، ضد ستالين. فلننظر لحظة قصيرة، إلى ما حدث على أرض الواقع في بداية عام 1942. كانت عدة جيوش قد تلقت الأمر بتحطيم طوق الحصار الذي ضربه العدو حول لينينغراد. غير أن الهجوم،وبسرعة كبيرة، غاص في العمق الألماني وتلقى قائد الجبهة خوزين من مقر القائد العام ستالين الأمر بسحب جيش فلاسوف. وقد كتب الجنرال فاسيليفيسكي:

«إن فلاسوف، الذي لم يكن يتميز بكفاءات عالية في القيادة، والذي كان ذا طبيعة متقلبة جداً ورعديدة ظل في حالة من التراخي المطلق، ولم يقم بأية محاولة كي يهيئ لقطعاته انسحاباً سريعاً ومأموناً (...) بوسعي أن أؤكد، وبكامل المسؤولية شعور القلق الشديد الذي كان القائد العام، ستالين يبديه يوماً بعد يوم إزاء مصير جيش الصدام الثاني، والتدابير المتخذة لتقديم أي نجدة ممكنة لهذا الجيش. وهو ما يشهد عليه سلسلة التوجيهات التي كان يمليها القائد العام هو نفسه، علي أنا شخصياً، لإنقاذ هذا الجيش».

انتقل فلاسوف إلى جانب العدو، فيما كان قسم مهم من جيشه قد نجح في فتح ثغرة في الطوق الألماني، وإنقاذ نفسه من الأسر.

أهناك روس تطوعوا في الجيش النازي كي يقاتلوا الشعب السوفييتي؟ نعم ولكن النظام المجرم لستالين، يقول سولجينيستين، هو الذي دفعهم إلى ذلك.

«المشارفة على الموت، وذروة القنوط، والحقد الذي لا يشفى غليله تجاه النظام السوفييتي، هي وحدها التي دفعت هؤلاء الرجال إلى «وحدات فلاسوف» التابعة للويرماخت.

وفوق ذلك، يقول سولجينيستين، فإن المتعاونين الفلاسوفيين كانوا أعداء الشيوعيين أكثر مما كانوا أصدقاء النازيين. ثم يتابع سولجينيستين:

«في خريف عام 1944، بالتحديد بُدئ العمل بتشكيل فرق فلاسوفية روسية بالكامل والفعل الأول والأخير لاستقلال هذه القطعات الفلاسوفية كان توجيه ضربة للألمان... فقد أعطى فلاسوف الأمر لقطعاته بالانتقال إلى جانب التشيك المتمردين»

تلكم هي الكذبة التي رددها كافة المجرمين النازيين من مختلف الجنسيات. فعشية هزيمة الفاشيين الألمان كشفت كل هذه الطغم النازية عن نزعتها «القومية والاستقلالية» وتبجحت بـ«معارضتها» للألمان، كي تجد ملاذاً لها تحت جناح الإمبريالية الأمريكية.

لا يوجه سولجينيستين أي لوم للألمان، كونهم فاشيين، وإنما كونهم فاشيين حمقى وقصيري النظر. فلو كانوا أذكياء، لكانوا اعترفوا بقيمة إخوانهم في السلاح، من الروس ولكانوا اعترفوا لهم ببعض الاستقلال.

«بكثير من قصر النظر، ومن الإعجاب البليد بالنفس، سمح الألمان لهم (للفلاسوفيين) بالموت فقط في سبيل الرايخ، دون أن يسمحوا لهم بالتفكير في مستقبل روسي مستقل».

كان لهيب الحرب ما يزال متأججاً، وكان النازيون بعيدين عن تكبد هزيمة فعلية، حين بدأ سولجينيستين بالبكاء المتفجع على المصير «اللاإنساني» للمجرمين الفلاسوفيين الذين وقعوا بين أيدي رجال الجيش الأحمر. ها هو يصف مشهداً جرى بعد تطهير جيب نازي فوق الأراضي الروسية.

«لمحت رجلاً منهم يمشي عاري الجذع، يرتدي بنطالاً ألمانياً، كان وجهه وصدره، وكتفيه وظهره قد تخضّب بالدم، وبانت بوضوح ملامحه الروسية. هتف بي أن أمد له يد المساعدة. ولكن رقيباً هوى عليه بالسوط، وجعله يتقدم

أمامه، ومنعني الجبن من أن أدافع عن هذا الفلاسوفي إزاء الرقيب التابع للدوائر الخاصة (...) ظلت هذه اللوحة مطبوعة دوماً أمام عيني، لأنها كانت تقريباً، رمزاً لأرخبيل جولاج وسيكون بإمكاني أن أزيّن بها غلاف هذا الكتاب».

ينبغي أن نقدم الشكر لسولجينيستين على هذا الاعتراف المشوّش: فالرجل الذي سيجسد أفضل تجسيد «المليون ضحية ستالينية» كان عميلاً للنازيين.

منظمة سرية معادية للشيوعية داخل الجيش الأحمر

جرى تصوير التطهيرات في داخل الجيش الأحمر، في كثير من الأحيان، كما لو أنها أعمال قمعية عمياء، موسومة بالجنون والتعسف، نفذت بكاملها من أجل تأكيد الديكتاتورية الشخصية الستالينية.

تُرى، إلى أين انتهى الأمر، في الواقع؟

ثمة مثال ملموس، مفيد غاية الفائدة، يتيح لنا أن نضع أيدينا على بعض الجوانب الجوهرية.

الكولونيل في الجيش السوفييتي. ج. ا. توكاييف، انحاز إلى جانب الإنكليز عام 1948 وألف كتاباً بعنوان: الرفيق X، يمكن اعتباره منجماً ذهبياً لكل من يسعى إلى الإحاطة بتعقيدات الصراع في داخل الحزب البلشفي، وكمهندس ميكانيكي مختص بعلم الطيران كان توكاييف ما بين عامي 1937ـ 1948 السكرتير السياسي لأكبر فرع للحزب في أكاديمية جوكوفسكي للقوى الجوية. لقد كان إذن مصنفاً بين الكوادر العليا.

لدى دخوله إلى الحزب عام 1931، في الثانية والعشرين من عمره، كان توكاييف عضواً في منظمة سرية معادية للشيوعية. على رأس تلك المنظمة كان هناك ضابط من ضباط الجيش الأحمر من ذوي الرتب العالية كما أنه عضو بارز في اللجنة المركزية للحزب البلشفي. وهو من كان يسميه توكاييف الرفيق X. كانت المجموعة السرية تجتمع في الخفاء، وتتخذ قرارات،وترسل مبعوثيها في شتى أنحاء البلاد.

في كتابه، الذي نشره عام 1956، بسط توكاييف الأفكار السياسية لمجموعته السرية المعارضة.

إن قـراءة النقـاط الرئيسـية في البرنـامج الـذي أقـر مـن قبـل المنظمـة غنيـة بالدروس إلى حد كبير.

يقدم توكاييف نفسه منذ البداية، على أنه «ليبرالي، وديمقراطي ثوري».

«لقد كنا، يؤكد توكاييف، أعـداء لكـل مـن كـان يفكـر بتقسـيم النـاس إلى «نحن» و«هم» إلى شيوعيين، ومناهضين للشيوعيين»، و«أعلنـا مثلنـا الأعلى في الأخوّة الشاملة» وقد «اعتبرنا المسيحية منظومة مـن منظومـات القيـم الإنسـانية الشاملة والسامية».

ثم يخبرنا توكاييف أن مجموعته كانت من أنصار النظام الـبرجوازي الـذي تشكل إثر ثورة شباط. «كانت ثورة شـباط تمثـل، علـى الأقـل، بارقـة أمـل في ديمقراطية، موعودة، وتعكس إيماناً كامنـاً بالديمقراطيـة لـدى رجـل الشـارع». وهكذا فقد كانت تلك المجموعة تتداول فيما بينها صحيفة المناشفة التي تصـدر في الخارج. والكتاب الذي ألفه المنشـفي ج. آرونسـون بعنـوان: فجـر الإرهـاب الأحمر، يعترف توكاييف بصلة القرابة بين منظمتـه المناهضـة للشـيوعية وبـين الاشتراكية الديمقراطية الدولية.

«كانت الحركة الديمقراطية الثورية قريبـة مـن الاشـتراكيين الديمقراطيـين. وقد أقمت علاقة تعـاون وثيقـة مـع كثـير مـن الاشـتراكيين مـن أمثـال كـورت شوماشر. ولا شك أن أسماء من مثل إتلي بيغين، سباك، وبلـوم تمثـل الكثـير بالنسبة للإنسانية».

يقاتل توكاييف أيضاً، من أجل «حقوق الإنسـان» لكـل منـاوئي الشـيوعية. فيقول: «في رأينا، لم يكن هناك مهمة أكثر إلحاحاً وأهمية بالنسبة إلى الإتحـاد السوفييتي، من النضال في سبيل حقوق الإنسان، وحقوق الفرد».

من النقاط الرئيسية في برنامج المتآمرين تـبرز نقطتـان: التعدديـة الحزبيـة، وتقسـيم الاتحـاد السـوفييتي إلى جمهوريـات مسـتقلة، وقـد عـبّرت مجموعــة توكاييف، التي كان أغلب أعضائها، في الظاهر، من قوميــي منطقـة القفقـاس، عن موافقتها على خطة إينوكيدزي التي «كانت ترمي إلى اسـتئصال السـتالينية من جذورها، والتي ستستبدل الاتحاد السوفييتي الرجعي الستاليني بـ«اتحـاد حر لشعوب حرة»، وستُقسّم البلاد فوراً إلى عشر مناطق طبيعية: الدول المتحـدة لشـمال القفقـاس. الجمهوريـة الديمقراطيـة الأوكرانيـة، جمهوريـة موسـكو الديمقراطية، سيبيريا..الخ.»

ما إن أعدّت مجموعة توكاييف خطة للإطاحة بحكومة ستالين، خلال عام 1939 حتى هيأت نفسها «للبحث عن دعم خارجي، وعلى الأخص، من لدن الأممية الثانية، وإلى انتخاب جمعية تأسيسية جديدة، سيكون أول إجراء لها حلّ نظام الحزب الواحد».

ويعلن توكاييف، أخيراً، عن رأيه، بأن إنكلترا «هي البلد الأكثر حرية، والأكثر ديمقراطية في العالم» ويعلن أيضاً بعد نهاية الحرب العالمية الثانية: «غدونا أنا وأصدقائي من المعجبين جداً بالولايات المتحدة الأمريكية».

من المدهش حقاً بأن ما رأيناه في برنامج توكاييف، يتطابق بالنقطة، تقريباً مع برنامج السيد غورباتشيف، فالأفكار التي كانت تدافع عنها تلك المنظمة السرية المعادية للشيوعية منذ عام 1931 وحتى عام 1948 نبتت من جديد في رأس الحزب بدءاً من عام 1985. فقد أدان غورباتشيف تقسيم العالم إلى اشتراكية ورأسمالية، واهتدى إلى «القيم الشاملة» أما التقارب مع الاشتراكية الديمقراطية، فقد مجّده غورباتشيف علانية منذ عام 1986. وغدت التعددية الحزبية واقعاً في الاتحاد السوفييتي منذ عام 1989. كما أن يلتسين ذكر السيد شيراك بأن ثورة شباط كانت قد منحت روسيا «الأمل بالديمقراطية» وهكذا فإن تحويل «الاتحاد السوفييتي الرجعي» إلى اتحاد جمهوريات حر تمّ إنجازه في النهاية.

لقد خاض توكاييف عام 1935 قتالاً حتى الموت من أجل برنامجه المعادي للبلشفية والذي طبقه بعد خمسين عاماً غورباتشيف، يقول توكاييف:

«خلال صيف عام 1935، كنا نحن المعارضين، عسكريين ومدنيين قد وضعنا نصب أعيننا بأننا نخوض قتالاً حتى الموت من أجل تحقيق أهدافنا ومثلنا».

من هم الذين كانوا في عداد مجموعة توكاييف السرية؟ لقد كانوا بصورة رئيسية ضباطاً في الجيش الأحمر، وغالباً من الضباط الشباب المتخرجين من الأكاديمية العسكرية.

وكان زعيمهم الذي لم يذكر توكاييف اسمه «الرفيق X» ضابطاً عالي الرتبة وعضواً في اللجنة المركزية طوال أعوام الثلاثينات والأربعينات.

ثم النقيب ريز، الضابط في القوات البحرية، ورئيس الحركة السرية في أسطول البحر الأسود والذي كان قد طرد أربع مرات من الحزب، وأعيد تنظيمه أربع مرات.

وهناك الجنرالان: أوسبيان، نائب رئيس الإدارة السياسية في القوات المسلحة والكسنيكس، وهما من بين أبرز مسؤولي المنظمة السرية، وقد أقاما علاقات وثيقة مع الجنرال كاشيرين وهؤلاء الثلاثة اعتقلوا وأعدموا أثناء قضية توخاتشيفيسكي. وهناك ضباط آخرون أصغر سناً ومرتبة، كان لهم سجل حافل بأعمال إجرامية.

في أوكرانيا، كانت المجموعة تعتمد على نيقولاي جينيرالوف، وعلى لانتزير، وقد اعتقل الإثنان عام 1936.

وكانت كاتيا أوكمان، وهي ابنة لبلشفي قديم أثار خصومة مع الحزب في بداية الثورة وكلافا يريومنكو، وهي أرملة أوكرانية لضابط في الملاحة البحرية. كانت هاتان المرأتان تقومان بالاتصال بين أطراف المجموعة عبر البلاد.

حينما جرى تطهير الحزب من المجموعة البوخارينية، ومن مجموعة الماريشال توخاتشيفيسكي اعتقل القسم الأعظم من مجموعة توكاييف وأعدموا، «إن الحلقة القريبة من الرفيق X قد تمّ تصفيتها بكاملها تقريباً. وكانت الأغلبية منهم قد اعتقلت لعلاقتها بـ«الانحراف اليميني البوخاريني» كان وضعنا، يقول توكاييف، قد أصبح تراجيدياً. وعلّق أحد الكوادر، وهو بيلينسكي بأننا كنا على خطأ حين توهمنا بأن ستالين كان مجرد شخص عاجز».

ما إن تبنّت مجموعة توكاييف السرية برنامجها المعادي للشيوعية حتى عمدت إلى إقامة علاقات وثيقة مع شلل «الشيوعيين الإصلاحيين» الذين كان لهم موقع في قيادة الحزب.

ففي حزيران عام 1935 أُرسل توكاييف إلى الجنوب. وهو يطلعنا على سجل البلشفيين القديمين إينوكيدزي وشيبولداييف، اللذين يعتبران دوماً نموذجين لضحايا التعسف الستاليني يقول توكاييف:

«كانت إحدى مهماتي التحذير من هجمة ضد بعض القادة البلاشفة المعارضين في منطقة بحر آزوف والبحر الأسود وشمالي القفقاس، الذين كان يتزعمهم ب شيبولداييف ـ إينوكيدزي ولكننا كنا نعرف بأنهم كانوا ينشطون، وكان الرفيق X يعتبر أن من واجبنا الثوري مساعدتهم في أية لحظة حرجة. كنا مختلفين معهم في التفاصيل. ولكنهم كانوا رجالاً شجعاناً وشرفاء، وكانوا قد أنقذوا، في العديد من المرات، أعضاء من مجموعتنا. وكانت لهم فرصة كبيرة في النجاح».

«في عام 1935 أتـاحت لي علاقـاتي الشـخصية فرصـة الاطـلاع علـى بعـض الوثائق السرية جداً التابعة لدائرة الأمن المركزية في الحزب والتي كانت تتناول إينوكيدزي ومجموعته. وسـاعدتنا هـذه الأوراق علـى اكتشـاف مـا كـان يعرفـه الستالينيون عن كل هؤلاء الذين يعملون ضدهم».

«كان إينوكيدزي شيوعياً مناصراً للجنـاح اليميـني. وفي أعـوام الثلاثينـات، كان على الأرجح هو الرجل الأكـثر شجاعة في الكرملـين. أمـا الخصومـة بـين إينوكيدزي وسـتالين فيعـود تاريخهـا في الواقـع إلى كـانون الأول، الـذي تـلا، مباشرة، إغتيال كيروف».

«كان إينوكيـدزي يتسامح مـع عـدد مـن الأشـخاص القلائـل الذيـن كـانوا فعالين، ومفيدين تقنياً، ولكنهم كانوا معادين لدودين للشيوعية».

وُضع إينوكيدزي في الإقامة الجبرية في منتصـف عـام 1935. ولكـنّ النقيـب غاي، أحد ضباط مجموعة توكايـيف يسّر له الهرب. وفي مدينة روسـتوف علـى نهر الدون عقد اجتماعاً مـع شـيبولدايـيف، السـكرتير الأول للجنـة الحـزب في منطقة آزوف، والبحر الأسود، ومع بيفوفاروف رئيس سـوفييت المنطقـة، ومـع لارين الوزير الأول. ثم تابع إينوكيدزي وغاي طريقهمـا إلى الجنـوب، ولكنهمـا وقعا في قبضة الـ NKVD قرب باكو. وقد صرع غاي رجلين من رجـال الأمـن، ثم لقي، هو بدوره، مصرعه.

أما الفريق المعارض الثاني الذي أقامت منظمة توكايـيف معه علاقات تعـاون فهو فريق بوخارين، وقد ورد ذكره فيما سبق.

يؤكد توكايـيف بأن مجموعته كانت تحتفظ بصلات وثيقة مع فريق ثالث في قمة الحزب. هو مجموعة رئيس جهاز الأمن، ياغودا.

«كنا نعرف حق المعرفة مدى السلطة التي يمتلكها رئيس NKVD، ياغودا، من خلال الدور الذي يلعبه، ليس كخادم، وإنما كعدو للنظام».

وقد تحدث توكايـيف عن أن ياغودا حمى العديد من رجاله الذيـن كـانوا في قبضة الموت. وحينما اعتقل ياغودا، فإن كافة الصلات بين مجموعة توكـايـيف وقيادة جهاز الأمن انتهت إلى البوار. وكانت تلك ضربة قاصمة للغايـة للحركـة السرية.

«تقدمت الـNKVD الآن خطوات إلى الأمام، بعد أن غدا رئيسـها إيجـوف. وكـان المكتـب السياسـي المصغر قـد كشـف مؤامـرات مجموعـة إينوكيـدزي — شيبولدايـيف، ومجموعة ياغودا ـ زيلينسكي، وحطم علاقات المعارضة بـالدوائر

المركزية للبوليس السياسي» «كان ياغودا قد أقصي عن الـNKVD، وكنا نحن قد فقدنا حلقة هامة من الدوائر الأمنية السرية التابعة لنا».

ماذا كانت النوايا، والخطط، والنشاطات التي تقوم بها مجموعة توكاييف؟

«قبل عام 1934 ببعض الوقت، يقول توكاييف، كانت مجموعتنا قد خططت لاغتيال كيروف وكالينين، رئيس الجمهوريات السوفييتية، وفي النهاية، نفذت مجموعة أخرى اغتيال كيروف. مجموعة كنا قد أقمنا معها صلات في وقت سابق».

«عام 1934 خططنا للبدء بثورة، وذلك من خلال اعتقال كافة الستالينيين المجتمعين في المؤتمر السابع عشر للحزب».

«كانت إحدى الرفيقات في المجموعة، هي كلافا يريومنكو قد اقترحت في منتصف عام 1936 القيام بقتل ستالين. كانت تعرف ضباطاً في حرس ستالين، ولكن الرفيق X كان قد رفض ذلك، لأنه كان هناك خمس عشرة محاولة للاغتيال تكللت جميعها بالفشل، وسببت الكثير من الخسائر».

«في آب عام 1936 كنت قد توصلت إلى قناعة بأنه كان علينا القيام باستعدادات فورية لإعلان عصيان مسلح عام داخل الجيش. كنت متيقنا حينذاك مثلما أنا اليوم، بأنه لو كان الرفيق X قد أطلق نداء إلى حمل السلاح لكان العديد من كبار المسؤولين في الاتحاد السوفييتي قد استجابوا فوراً. ففي عام 1936 كان كل من ألكسنيس وياغودا وأوسبيان وكاشيرين سيلتحقون بالدعوة إلى السلاح، بكل تأكيد».

لنلاحظ بأن كافة هؤلاء الجنرالات قد أعدموا على إثر اكتشاف مؤامرة توخاتشيفيسكي وقد اعتقد توكاييف بأنه كان لديهم عام 1936 ما يكفي من الرجال داخل الجيش للقيام بانقلاب ناجح وكان بوخارين لا يزال على قيد الحياة، حيث كان سيلاقي تأييداً من الفلاحين.

«كان «أحد طيارينا»، يقول توكاييف، قد عرض على الرفيق X، وعلى اوسبيان خطة لقصف ضريح لينين ومقر المكتب السياسي. وفي 20 تشرين الثاني اقترح الرفيق X في اجتماع سري لخمسة من أعضاء المنظمة، في موسكو اقترح على ديمقراطوف اغتيال إيجوف في لحظة انعقاد المؤتمر الاستثنائي السابع للسوفييتيات.

«في نيسان عام 1939، عقدنا مؤتمراً لقادة المعارضة السرية. إلى جانب الديمقراطيين الثوريين كان هناك اشتراكيان ديمقراطيان، وعسكريان في المعارضة

«اليمينية البوخارينية» وتبنينا لأول مرة، قراراً كان يعرّف الستالينية بأنها فاشية مضادة للثورة. خيانة فاشية للطبقة العاملة وأبلغنا هذا القرار، على الفور، إلى شخصيات رفيعة في الحزب والحكومة، وإلى مؤتمرات سرية مماثلة كانت قد عُقدت في مراكز أخرى. وقيّمنا عالياً فرص عصيان مسلح ضد ستالين في مستقبل قريب».

وبعد وقت قليل ناقش توكاييف ضابطاً رفيع الرتبة من منطقة لينينغراد العسكرية يدعى سمولنينسكي، في لقاء سري حول إمكانية اغتيال جدانوف.

في بداية عام 1941، وقبل الحرب ببضعة أشهر، كان هناك اجتماع آخر، ناقش فيه المتآمرون مسألة اغتيال ستالين في حالة نشوب حرب. وقرروا في النهاية بأن ذلك ليس في وقته، فهم أولاً يفتقرون إلى ما يكفي من الرجال لقيادة البلاد، ومن ثم، يقول توكاييف. فإن الجماهير، في تلك اللحظة لن تتبعنا مطلقاً.

حين نشبت الحرب اقترحت قيادة الحزب على توكاييف، الذي يتكلم الألمانية، الذهاب إلى خلف خطوط العدو لقيادة حرب الأنصار هناك. كان المقاتلون الأنصار، بكل تأكيد، يتعرضون لأخطار فادحة، ولكن توكاييف لم يوافق آنذاك وبقي إلى جانب الرفيق X. يقول توكاييف:

«كان علينا، قدر الإمكان، البقاء في المراكز الرئيسية لنكون جاهزين لاستلام السلطة في حال انهيار نظام ستالين».

بعد الحرب، وفي عام 1947 كُلّف توكاييف بإجراء حوارات مع البرفسور الألماني تانك المختص بعلم الطيران، لإقناعه بالمجيء للعمل في الاتحاد السوفييتي. يقول توكاييف

«كان تانك مستعداً للعمل في طائرة مقاتلة نفاثة. ناقشت الموضوع مع بعض الرجال في مواقع مفتاحية، وتقاسمنا الرأي بأن من الخطأ الاعتقاد بأن المهندسين الجويين السوفييت كانوا عاجزين عن تصميم طائرة نفاثة قاذفة. كما أنه لم يكن من مصلحة البلاد صنع هذه الطائرة. فالاتحاد السوفييتي حسب رأينا. لم يكن في الواقع مهدداً بخطر خارجي. ولهذا السبب، كان ينبغي لجهودنا أن تنصب على إضعاف الإمبريالية الاحتكارية السوفييتية، وليس إلى تقويتها. على أمل توفر الإمكانية، بهذا النحو، لقيام ثورة ديمقراطية».

وقد اعترف توكاييف هنا بأن التخريب الاقتصادي والعسكري كان إحدى الوسائل المستخدمة في النضال من قبل منظمته السرية.

هذه الأمثلة تعطي فكرة عن النشاط التآمري لهذه الزمرة العسكرية السرية، المتخفية في قلب الحزب البلشفي والتي سيرى الباقون على قيد الحياة منها «مثلهم العليا» معترفاً بها لدى وصول خروشوف إلى السلطة، ثم متحققة فعلياً في ظل غورباتشيف.

تطهيرات عام 1937 ـ 1938

تم إقرار التطهيرات، بمعناها الحقيقي، بعد انكشاف المؤامرة العسكرية التي يتزعمها توخاتشيفيسكي. فقد كان اكتشاف مؤامرة في قيادة الجيش الأحمر. مؤامرة كانت ترتبط بزمر انتهازية في الحزب، قد أثار فزعاً حقيقياً.

منذ سنوات عدة، كانت قيادة الحزب على يقين بأن الحرب مع الفاشيين محتمة لا مناص منها، وواقع أن أعلى قيادات الجيش الأحمر بالارتباط مع بعض قادة الحزب، يدبرون في الخفاء انقلاباً عسكرياً أثار صدمة حقيقية. كان القادة البلاشفة يعون تماماً مدى خطورة الوضع الداخلي، وارتباطاته بالتهديد الخارجي. وكان ستالين يدرك تمام الإدراك بأن المجابهة بين الألمان النازيين وبين الاتحاد السوفييتي ستكلف ملايين الضحايا السوفييت. وهكذا فإن قرار التصفية الجسدية لعملاء الطابور الخامس لم يكن قطعاً نتيجة «بارانويا الدكتاتور» مثلما كانت تؤكد الدعاية النازية: فقد أثبت هذا القرار عزم ستالين والحزب البلشفي على التصدي للفاشية في صراع حتى الموت. وبتصفية الطابور الخامس، أنقذ ستالين حياة العديد من ملايين السوفييت. فهذه الضحايا البريئة كانت ستشكل الثمن الإضافي الذي ستدفعه البلاد في حال نجاح العدوان الخارجي في استغلال التخريب، والتحريض والخيانة في الداخل.

بدأت التطهيرات بقرار إداري موقع في 2 تموز 1937 من قبل ستالين ومولوتوف، ثم وقع إيجوف على أوامر تنفيذ حكم الإعدام بـ 75950 شخصاً، ثبت عداؤهم المرير للسلطة السوفييتية وكانوا: من مجرمي الحق العام. ومن الكولاك، والثورة المضادة، والجواسيس والعناصر المعادية للسوفييتيات. وقد جرى التدقيق في حالاتهم من قبل لجنة ثلاثية مؤلفة من سكرتير الحزب، ورئيس السوفييت المحلي، ورئيس الـ NKVD.

تميزت التطهيرات غالباً بعدم فاعليتها، وفوضويتها. فالكولونيل كتشنر مثلاً كان على وشك الاعتقال من قبل الـNKVD في مينسك، فركب القطار إلى

موسكو... وهناك عُيّن أستاذاً في أكاديمية فرونزه. يذكر جيتي شهادتين لخصمين لدودين لستالين هما غريغورينكو وجينزبورغ، يقول جيتي:

«كان أي شخص يشعر بأنه مستهدف للاعتقال، ينتقل إلى مدينة أخرى، وكقاعدة عامة، كان يفلت من الاعتقال».

وكان سكرتيرون للحزب في المناطق يحاولون أن يبرهنوا على يقظتهم من خلال إدانة، وطرد عدد كبير من الكوادر الدنيا، ومن الأعضاء العاديين. وكان معارضون متسترون داخل الحزب يحوكون دسائس لطرد أكبر عدد من الكوادر الشيوعية المخلصة. وفي هذا الصدد، يشهد أحد المعارضين:

«كنا نسعى لطرد أكبر عدد ممكن من الأشخاص من صفوف الحزب، كنا نطرد أشخاصاً دون أن يكون هناك أي سبب لطردهم. كان لدينا هدف وحيد نريد تحقيقه: زيادة عدد الأشخاص الساخطين، وزيادة عدد حلفائنا في الوقت نفسه».

إن قيادة بلد شاسع الأبعاد، حافل بالتعقيدات، لديه العديد من جوانب القصور الخطيرة، كانت مهمة بالغة الصعوبة. وفي العديد من الميادين الستراتيجية، كان ستالين يركز على الخطوط التوجيهية العامة، ثم يعهد إلى أحد معاونيه ليضع هذه الخطوط موضع التطبيق. وهكذا، فمن أجل تطبيق الخطوط الرئيسية العامة في مجال التطهير استبدل ياغودا، الذي كان غارقاً حتى أذنيه في مؤامرات المعارضة ببلشفي قديم ذي أصل عمالي هو إيجوف.

غير أنه بعد ثلاثة أشهر من بدء التطهيرات التي كان يقودها إيجوف، بدا أن ستالين لم يكن راضياً عن سير تلك العملية. وفي تشرين أول تدخل ستالين كي يؤكد بأن القادة الاقتصاديين أهل للثقة. وفي كانون الثاني عام 1938 نشرت اللجنة المركزية قراراً حول سير عملية التطهير، وأعادت التأكيد على ضرورة اليقظة إزاء أعداء البلاد، والجواسيس وانتقد القرار بشدة «التيقظ المزيف» لدى بعض سكرتيريي الحزب الذين كانوا يهاجمون قواعدهم كي يحموا مواقعهم الشخصية. ابتدأ القرار على هذا النحو:

«إن دورة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي تعتبر من الضروري لفت انتباه منظمات الحزب، وأنظار قادته على واقع أنه فيما هم يوجهون جهودهم الرئيسية نحو تطهير صفوفهم من العملاء التروتسكيين واليمينيين والفاشيين، يرتكبون أخطاء وانحرافات خطيرة تضرّ بعملية تطهير الحزب من العملاء المزدوجين، ومن الجواسيس، والمخربين. ورغم التوجيهات والتحذيرات المتكررة من قبل اللجنة المركزية فقد تبنت منظمات الحزب في العديد من

الحالات معالجات مغلوطة كلياً، نجم عنها طرد شيوعيين من الحزب بسبب تجاوزات يسيرة».

أشار القرار إلى مشكلتين كبيرتين، تنظيمية وسياسية تجنحان بالتطهير عن مساره الصحيح: وجود شيوعيين يسعون فقط إلى إظهار النجاح في عملهم، ووجود الكوادر المعادية المتسللة.

«طالما كان بين الشيوعيين عدد من الوصوليين من الذين لم يتم كشفهم ورفع القناع عن وجوههم، يسعون جهدهم إلى اكتساب الأهمية، والحصول على ترقية من خلال توصياتهم بطرد أعضاء من الحزب، ومن خلال قمعهم لأعضاء الحزب. إنهم يسعون إلى حماية أنفسهم من اتهامات محتملة بفتور يقظتهم فيضطهدون من دون تمييز أعضاء الحزب (...) هذا النوع من الشيوعيين ـ الوصوليين يسعون دائماً إلى الحظوة وينشرون الرعب بين الجميع ودونما تمييز، إزاء مسألة أعداء الشعب. وخلال الاجتماعات الحزبية، يكونون جاهزين دوماً للزعيق بملء أصواتهم، وإطلاق أوامر الطرد من الحزب، لأسباب شكلية، أو من دون أسباب على الإطلاق».

«بالإضافة إلى ذلك، ثمة العديد من الحالات، لشيوعيين وصوليين مستسلمين طيّعين لأعداء الشعب المتسترين، ولمخربين، ولعملاء مزدوجين، من الذين يعمدون من أجل إضرام نيران الفتنة وإثارة الشكوك، إلى تقديم شهادات اتهام كاذبة ضد أعضاء الحزب، وخلف مظاهر «اليقظة المشددة» يسعون إلى طرد شيوعيين قدماء مخلصين من صفوف الحزب. ويمكنهم على هذا النحو، أن يحتفظوا بمواقعهم في صفوف الحزب (...) ومن خلال تدابير قمعية، يرغب هؤلاء بضرب كوادرنا البلشفية، وإشاعة الارتياب وعدم الثقة في داخل صفوفنا».

في هذا المقام، نود لفت الانتباه إلى الاحتيال الغادر الذي مارسه خروشوف فيما بعد. ففي تقريره السري، خصص فصلاً بكامله لإدانة «التطهير الكبير». ومن خلال استخدامه لصيغة ستالين، قال: «كان العديد من المحرضين قد تسللوا إلى أجهزة الأمن» ومعهم «وصوليون من دون ذمة، كانوا ينشرون الهول والإرهاب» والواقع أن هذين النمطين من العناصر المعادية هما بالتحديد اللذان حذر ستالين من شرورهما، منذ كانون الثاني من عام 1938. نعم، ثمة شيوعيون عوقبوا ظلماً، وجرائم اقترفت أثناء التطهير. ولكن ستالين أدان كل ذلك، حين لم يكن قد مضى على بدء التطهير سوى ستة أشهر. وبعد ثمانية عشر عاماً سيتذرع خروشوف عامداً بالأفعال الإجرامية للمحرضين، التي أدانها ستالين حينذاك، ليشوّه التطهير ذاته، وليحرق سمعة ستالين.

التصحيح

في 11 كانون أول عام 1938 وقع ستالين ومولوتوف قراراً صريحاً، لوضع حد للتجاوزات التي جرت خلال التطهير.

«إن العمليات الشاملة الممارسة من أجل سحق وتدمير العناصر المعادية والتي نفذتها أجهزة NKVD في عامي 1937ـ 1938، في وقت مورست فيه إجراءات التحقيق والحكم بتبسيط مخلّ تقتضي منا أن نسلط الضوء على الأخطاء العديدة والخطيرة التي ظهرت في عمل أجهزة NKVD، وعمل النيابة العامة. بالإضافة إلى ذلك، فإن أعداء الشعب والجواسيس، والاستخبارات الأجنبية تغلغلت في أجهزة NKVD سواء على المستوى المركزي أو المحلي. وقد سعوا، بكل الوسائل إلى خلط وتشويش ملفات التحقيق. ثمة عملاء كانوا يشوهون عن وعي وتبصّر القوانين السوفييتية. وكانوا يلجؤون إلى اعتقالات مكثفة وغير مبررة، ويحمون في الوقت ذاته، شركاءهم،ولا سيما أولئك الذين ولجوا إلى قلب أجهزة NKVD».

«إن الأخطاء الشنيعة التي لوحظت في عمل أجهزة NKVD والنيابة العامة لم تكن ممكنة إلا لأن أعداء الشعب الذين اندسوا في أجهزة NKVD والنيابة العامة قد استخدموا كافة الوسائل لفصل عمل أجهزة NKVD والنيابة العامة عن أجهزة الحزب كي يتملصوا من رقابة قيادة الحزب، ويسهلوا لأنفسهم، بهذا النحو، ولشركائهم مواصلة نشاطاتهم المعادية للسوفييت».

«إن مجلس مفوضي الشعب، واللجنة المركزية للحزب البلشفي في الاتحاد السوفييتي يقرران ما يلي:

1ً ـ منع أجهزة NKVD والنيابة العامة من تنفيذ أي عملية اعتقال مكثفة، أو إبعاد.

إن مجلس مفوضي الشعب، واللجنة المركزية للحزب لتحذر كافة الموظفين في NKVD، وفي النيابة العامة من أقل خرق في القوانين السوفييتية، وفي توجيهات الحزب والحكومة. وكل موظف، بغض النظر عن شخصه، سيكون موضوع ملاحقة قضائية صارمة».

التوقيع: ف. مولوتوف، ج. ستالين

هناك الكثير من المجـادلات حـول عـدد الأشخاص الذيـن طـالتهم موجـة التطهيرات الكبرى. وكانت هذه القضية موضوعاً مفضلاً من أجل تسميم العقول والأجواء وحسب ريتيرسبورن، فإن التطهيرات الكـبرى الـتي جـرت في عـامي 1937ـ 1938 قد تمخضت عن طرد (818، 278) عضواً من الحزب. وهذا العدد أقل بكثير من عدد الذين فصلوا في السنوات السابقة. فقد بلـغ عـدد المفصولـين من الحزب في عام 1933 (854.330) عضواً وفي عام 1934 بلغ العدد (342.294) عضواً وفي عام 1935 كان العدد (281.872) عضـواً، وفي عـام 1936 كـان هنـاك (95.145) عضواً. مع ذلك، ينبغي الإشارة إلى أن «التطهـير الكبـير» في صفـوف الحزب، كان مختلفاً في طبيعته عن التطهيرات الاعتيادية التي كـانت تجـري في مختلـف المراحـل السـابقة فقـد كـان «التطهـير الكبـير» يسـتهدف، بصـورة أساسية، الكوادر الحزبية.

ومنذ ما قبل دورة انعقاد اللجنة المركزية في كـانون الثـاني عـام 1938 كـان هنـاك 35.700 طلـب ضـد الفصـل المتعسـف، وفي آب 1938 كـان قـد سُـجّل 101.233 طلباً جديـداً. في ذلـك الوقـت، كـانت اللجنـة المركزيـة قـد راجعـت 88.273 طلباً، حيث أعيد إلى صفوف الحزب 45٪ من أصحاب هذه الطلبـات. وما من شيء أفضل من ذلك يثبت خطأ كافة التأكيدات بأن التطهير كان عبارة عن إرهاب أعمى. ومن دون جدوى، نظمته دكتاتورية لاعقلانية.

يزعم كونكيست بأنـه جـرى اعتقـال 7 إلى 9 مليـون شـخص خـلال عـامي 1937ـ 1938 غير أن عدد العمال الصناعيين في تلـك الفـترة لم يكـن يتجـاوز 8 ملايين. يعتمد كونكيست في تقديره هذا «على مذكرات سجناء قدماء أكدوا بأن 4٪ إلى 5.5٪ من السكان السوفييت كانوا معتقلين أو منفيين. وهـذا يعـني رقمـاً خيالياً ابتدعته مخيلة أعداء مصممين على تدمير النظـام بكـل الوسـائل. يقـول جيني:

«بسبب نقص المعطيات المادية، فإن كافة التقديرات، من دون اسـتثناء، لا قيمة لها فمن المسـتحيل وضـع تقديـرات دون الوقـوع في أخطـاء، تبلـغ مئـات الآلاف أو حتى الملايين».

نريـد الآن أن نقـوم هنـا بإطلالـة عـابرة علـى الجـولاج (معسـكرات العمـل التـأديبي)، وأن نتصـدى علـى نحـو أكـثر شمـولاً، لمشـكلة عـدد الأشـخاص المسجونين فيها أو الذين فقدوا حياتهم في معسكرات العمل الإصلاحـي. وكلمـة جولاج تعني هيئة الإدارة الرئيسة في المعسكرات.

إن كونكيست المسلح بكل علوم الإحصاء والاستقراء والتعميم قد وضع حسابات عالمة: 5 مليون سجين في الجولاج في بداية عام 1934، وأكثر من 7 مليون موقوف خلال تطهيرات عامي 1937ـ 1938. وهذا يعادل 12 مليوناً. ينبغي، يقول كونكيست، إسقاط مليون منهم قد أعدموا، ومليونين ماتوا، بمختلف الأسباب خلال ذينك العامين وهذا يعني أن تسعة ملايين معتقل سياسي كانوا في تلك المعسكرات عام 1939. «من دون أن نعدّ سجناء الحق العام».

والآن، وبعد أن عرّفنا كونكيست بالمدى الواسع للقمع، يبدأ، من ثم في إحصاء الجثث. فما بين عامي 1939ـ 1953 كان متوسط عدد الوفيات السنوي «حوالي 10٪» والحال، فإن عدد الموقوفين، خلال تلك السنوات، ظل ثابتاً تقريباً أي 8 مليون. وهذا يعني أن 12 مليوناً من الأشخاص قتلوا في الجولاج، من قبل الستالينيين، خلال تلك السنوات.

إن الإخوين ميدفيديف. هذين «الشيوعيين» المتخرجين من مدرسة بوخارين غورباتشيف، يؤكدان، من جهة أخرى، هذه التقديرات الكاشفة.

«كان هناك، في حياة ستالين، 12ـ 13 مليون شخص في المعسكرات. وفي ظل خروشوف «الذي خلق الأمل بإشاعة الديمقراطية» سارت الأمور بصورة أفضل للغاية بكل تأكيد. ففي داخل الجولاج لم يعد هناك سوى «مليونين من مجرمي الحق العام».

ثم انفجر الاتحاد السوفييتي، وصار شظايا، وتمكّن تلاميذ غورباتشيف من وضع يدهم على الأرشيفات السوفييتية. وفي عام 1990 نشر المؤرخان السوفييتيان زيمسكوف ودوجين الإحصائيات المحظورة عن الجولاج. وهي تتضمن الداخلين إليه والخارجين منه، مدوّنة حتى آخر رجل.

كانت النتائج غير متوقعة لأمثال كونكيست. فهذان الكتابان عن عدد نزلاء الجولاج سمحا بنزع القناع عن وجه كونكيست العلمي.

في عام 1934 قدّر كونكيست عدد الموقوفين السياسيين بـ 5 ملايين. وقد كانوا في واقع الأمر بين 127.000 و170.000 موقوف، وكان العدد الصحيح لكافة المعتقلين في معسكرات العمل، من السياسيين، ومن مجرمي الحق العام، مختلطين معاً، 510.307 موقوف ومن مجموع هؤلاء المعتقلين لم يكن هناك من السياسيين سوى 25٪ إلى 33٪ موقوفاً سياسياً أي أن كونكيست أضاف إلى 150.000 موقوف، وهو العدد الصحيح 4.850.000 ... مجرد تفصيل!

قدّر كونكيست عدد الموقوفين سنوياً بـ 8 ملايين وسطياً، في داخل المعسكرات أما ميدفيديف فكان تقديره السنوي 12 إلى 13 مليوناً. والواقع أن عدد الموقوفين السياسيين تراوح بين حد أدنى قدره 127.000 في عام 1934 وبين حد أعلى مقداره 500.000 خلال عامي الحرب، أي عام 1941 و1942. وهكذا فإن الأرقام الواقعية ضُربت بـ 16 إلى 26. ففيما كان هناك وسطياً بين 236.000 و315.000 موقوف سياسي، «ابتكر» كونكيست رقماً يبلغ 7.700.000 زيادة على الرقم الأول الصحيح... مجرد خطأ إحصائي هامشي، بالتأكيد، ما دمنا نجد في كتبنا المدرسية، وفي صحفنا، ليس الرقم الصحيح الواقعي وهو 272.000 بل الرقم الكاذب المفترى وهو 8.000.000.

يزعم كونكيست، أستاذ النصب والخداع بأنه خلال «التطهير الكبير» في عامي 1937ـ 1938 كانت المعسكرات تزدحم بسبعة ملايين «سياسي»، وكان هناك مليون معتقل أعدموا، ومليونان من الموتى. والحقيقة الواقعة هو أنه ما بين عامي 1936 و1939 زاد عدد الموقوفين 477.789 موقوفاً، أي أنهم زادوا من 839.406 إلى 1.317.195. وخلال عامين بلغ عدد الموتى 115.922 وليس 2000.000. وهكذا فإن كونكيست أضاف إلى رقم 116.000 ميت، لأسباب مختلفة 1.884.000 «ضحية من ضحايا الستالينية».

إن ميدفيديف، المنظر الإيديولوجي لغورباتشيف ذكر رقم 12 إلى 13 مليون شخص في معسكرات العمل، وتحت ظل الليبرالي خروشوف لم يبق منهم سوى مليونين من مجرمي الحق العام والحقيقة، أنه في زمن ستالين، وفي عام 1951، وهي السنة التي شهدت أكبر عدد من الموقوفين في الجولاج كان هناك 1.948.158 موقوفاً من سجناء الحق العام، تماماً مثلما كان عددهم أيام خروشوف، والرقم الواقعي للموقوفين هؤلاء كانوا أفراداً متعاونين مع النازيين: إذ كان من بينهم 334.538 موقوفاً مدانين بالتعاون مع النازية.

حسبما يقول كونكيست كان هناك، ما بين عامي 1939 و1953، في معسكرات العمل ما نسبته 10٪ من الموتى في السنة الواحدة، والمجموع يبلغ إذن 12 مليوناً من «ضحايا الستالينية». والواقع أن رقم الـ 855.000 ميت في السنة الواحدة الذي ذكره كونكيست كان في الواقع 49.000، وقد أضاف كونكيست زيادة 806.000 ميت في السنة. خلال السنوات الأربع من الحرب، وحين فرض النازيون على امتداد الاتحاد السوفييتي شروطاً رهيبة، بلغ متوسط الموتى في الاتحاد السوفييتي سنوياً 194.000. وفي أربع سنوات إذن تسبب النازيون في موت عدد إضافي بلغ 580.000 ميت، وضعوا جميعاً في عنق ستالين.

إن ويرث الذي أدان بعنف أكاذيب كونكيست، حاول مع ذلك قدر ما يستطيع أن يحافظ على أسطورة «جرائم» الستالينية. يقول ويرث:

«خلال 14 عاماً، (1934ـ 1947) فارق الحياة في معسكرات العمل وحدها مليون ميت» وهكذا فإن ويرث، هو أيضاً أضاف 580.000 ميت، يعود سبب موتهم إلى النازيين، ووضعهم في حساب الاشتراكية.

لنعد الآن إلى التطهيرات بحصر المعنى:

إن إحدى الافتراءات الأكثر انتشاراً تؤكد بأن التطهيرات كانت ترمي إلى تصفية «الحرس البلشفي القديم» وحتى عدو للبلاشفة، شديد العداوة، مثل برزجينسكي يردد هذه الأغنية. في عام 1934 كان هناك 182.600 «بلشفي قديم» في الحزب، وهذا يعني أعضاء كانوا قد انضموا إلى الحزب في عام 1920. وفي عام 1939 كان عددهم 125.000، وكان أغلبية هؤلاء أي 69٪ منهم في صفوف الحزب دوماً. وخلال تلك السنوات الخمس نقص عددهم بمقدار 57.000 شخص أي 31٪، البعض ماتوا لأسباب طبيعية، وآخرون أبعدوا إلى جهات داخل البلاد، والبعض أعدموا. من الواضح إذن أن «البلاشفة القدماء» نقص عددهم، خلال التطهيرات ليس لأنهم كانوا «بلاشفة قدماء» وإنما لتورطهم في التآمر السياسي.

من أجل أن نستخلص شيئاً، دعونا نقرأ كلمات للبروفيسور ج ارس جيثي وردت في نهاية كتابه جذور التطهيرات الكبرى:

«ينبغي إعادة تحديد المعطيات المادية المتعلقة بالتطهيرات الكبرى. فتلك التطهيرات لم تكن نتيجة بيروقراطية متحجرة قامت بتصفية معارضين لها، ودمّرت قدامى الثوريين الجذريين. من الممكن القول، في الواقع، بأن التطهيرات كانت عكس ذلك تماماً. وليس مخالفاً للصواب بأن المعطيات الموجودة تثبت بأن التطهيرات كانت رد فعل جذرياً وحتى هستيرياً، ضد البيروقراطية. فالموظفون المعيّنون في وظائف رفيعة تمّ تدميرهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ضمن موجة سديمية من الإرادوية والطهريّة الثورية».

البرجوازية الغربية والتطهير

حققت تطهيرات عامي 1937ـ 1938 هدفها، بوجه عام، من الصحيح أنه كان هناك أخطاء وخسائر غير قليلة، حيث لم يكن من الممكن، على الأرجح،

تحاشيها، نظراً إلى الوضع الداخلي للحزب، ولكن أغلبية رجال الطابور الخامس النازيين سقطوا خلال التطهير وحين هاجم الفاشيون الاتحاد السوفييتي لم يجدوا إلا القليل من المتعاونين في داخل جهاز الدولة، وفي صفوف الحزب.

حينما نصغي إلى الاشتراكيين الديمقراطيين، وإلى الديمقراطيين المسيحيين، وإلى الليبراليين والبرجوازيين الآخرين وهم يتحدثون عن «الإرهاب اللامعقول» لستالين، تتولد لدينا رغبة في أن نسألهم، أين كانوا، هم وأمثالهم، في عام 1940، حينما احتل النازيون بلجيكا وفرنسا. إن أغلبية هؤلاء، الذين يدينون تطهيرات ستالين، قد دعموا، إيجاباً أو سلباً، النظام النازي. منذ أن تربع على سدة السلطة في ألمانيا. وحين احتل النازيون بلجيكا أطلق هنري دومان، زعيم الحزب الاشتراكي تصريحاً رسمياً هنأ فيه هتلر. وأعلن أن وصول القوات الهتلرية إلى بلجيكا كان يعني «تحرير الطبقة العاملة». وفي بيانه الصادر في حزيران عام 1940 كتب هنري دومان باسم حزب العمال البلجيكي:

«أدت الحرب إلى انهيار النظام البرلماني، والبلوتوقراطية (حكومة الأثرياء) الرأسمالية، بديمقراطيتها المزعومة. إن هذا الانهيار لعالم فقد بهرجه، في نظر الطبقات العمالية، وفي نظر الاشتراكية لا يشكل كارثة، وإنما تحرراً. لقد غدا الطريق مفتوحاً لحل القضيتين اللتين تلخصان آمال الشعب وأمانيه: السلام الأوروبي، والعدالة الاجتماعية».

في محاضرات التاريخ، أضجرونا بهجماتهم الافترائية ضد ستالين. ولكننا لم نعلم أن رئيس الحزب الاشتراكي البلجيكي، الناقد الكبير للتطهيرات الستالينية هلل ورحّب بالنازيين في بروكسل. وأصبح من الثابت أيضاً بأنه ليس هنري دومان وحده، وإنما أشيل فان أكير، أيضاً، الوزير الأول المقبل لبلجيكا «الديمقراطية» تعاون مع النازيين منذ دخولهم إلى بروكسل. حين نستمع إلى هؤلاء الناس يتحدثون عن أن التطهيرات التي نفذها ستالين كانت «إجرامية» و«لاعقلانية»، فإننا نفهم تماماً ما يريدون. فهؤلاء الذين هيؤوا أنفسهم للتعاون مع النازيين، كانوا من نفس عائلة معظم «ضحايا التطهير». وفي فرنسا أيضاً، صوّت الغالبية العظمى من البرلمانيين الاشتراكيين لمنح سلطات كاملة لبيتان، وساعدوا بهذا النحو، على إقامة النظام المتعاون مع حكومة فيشي الفاشية.

إضافة إلى ذلك، فحين احتل النازيون بلجيكا، كانت المقاومة معدومة تقريباً ففي الأسابيع الأولى، والأشهر الأولى لم يكن هناك أية مقاومة معترف

بها. فالبرجوازية البلجيكية بمجملها تقريباً تعاونت مع النـازيين، وكـان علـى الجماهير العريضة أن تخضع وأنٍ تقبل بصـورة سـلبيةٍ الاحتـلال النـازي. وقـد كتب الفرنسي هنري أمورو كتاباً بعنوان أربعون مليوناً من البيتانيين (نسـبة إلى الجنرال بيتان).

فلنقم بمقارنة مع الاتحاد السوفييتي. فما أن وطئت أقدام النازيين الأراضـي السوفييتية حتى كـان عليهـم أن يواجهـوا عسـكريين ومدنيـين مصممـين علـى النضال حتى الموت. وكانت التطهيرات مترافقـة مـع حملـة متواصلـة للإعـداد السياسي والإيديولوجي لكافـة عمـال الاتحـاد السـوفييتي، مـن أجـل الحـرب والمقاومة. وكان التيقظ ضد الألمان هو أساس تلك الحملة. لقـد وصـف المهنـدس الأمريكي سكوت، في كتابه حول الأورال كيف جرت تلك الحملة السياسـية في داخل معامل ماغنيتوغورسك. وبيّن لنـا كيـف أن الحـزب كـان يشـرح الوضـع العـالمي للعمـال، في الصحـف وفي المحـــاضرات، وعـــبر الأفـــلام، والعـــروض المسرحية. وتحدث عن الأثر العميق لتلك التربية على الطبقة العاملة.

ذلك أنه بفضل حملة التطهير، وحملة التربية السياسية التي رافقتها وجـد الشعب السوفييتي القوة على المقاومة. ولـو لم يكـن هنـاك تلـك الإرادة العاتيـة علـى مجابهـة الألمـان بكـل الوسـائل لكـان مـن البديهـي أن يحتـل الفاشـيون لينينغراد، وموسكو، وستالينغراد. ولو أن الطابورِ الخامسِ النازي كان قد تمكن من الوقوف على قدميه، لكـان قـد وجـد دعمـاً وتـأييداً مـن لـدن الانهزاميـين والاستسلاميين في داخل الحزب. ولكانت القيادة الستالينية قد زالـت، ولكـان الاتحاد السوفييتي قد استسلم، مثلما فعلت ذلك فرنسا. إن انتصاراً للنازيين في الاتحاد السوفييتي، كان سيعقبه مباشرة، كنتيجةٍ له غلبةِ التيار الموالي للنازيـة في داخل البرجوازية الإنكليزية والذي كان دائماً قوياً جداً، وخاصة بعد رحيل شامبرلين عن الوزارة. أقول، غلبة هذا التيـار علـى مجموعـة تشرشـل، ولكـان النازيون، على الأرجح، سيطروا على العالم.



دور تروتسكي عشية الحرب العالمية الثانية

غدا تروتسكي، خلال أعوام الثلاثينات، الاختصاصي العالمي الأكبر في الصراع ضد الشيوعية. ولا يزال إيديولوجيو اليمين، في أيامنا هذه يستمدون من جعبة تروتسكي أسلحة ضد الاتحاد السوفييتي في مرحلة ستالين.

في عام 1982، وفي الوقت الذي كان ريغان يدعو إلى حملة صليبية جديدة ضد الشيوعية كان هنري برنارد، البروفيسور الشهير في المدرسة الملكية العسكرية البلجيكية عاكفاً على نشر كتاب يحمل إلى القراء رسالة مستعجلة.

«إن شيوعيي عام 1982 هم نازيو عام 1939. نحن اليوم أشد ضعفاً أمام موسكو مما كنا عليه قبيل آب عام 1939 أمام هتلر».

ونحن نعثر على كافة الكليشات مبثوثة في الكتاب، لهذا اللوبان البلجيكي (لوبان هو زعيم الجبهة القومية الفرنسية).

«ليس الإرهاب عملاً يقوم به بضعة ساخطين. ففي جذر الإرهاب بأسره، يكمن الاتحاد السوفييتي، والجهاز الخفي للإرهاب العالمي». «إن اليسار المسيحي هو جرح في جسد الغرب» «إن تزامن المظاهرات «الداعية إلى السلام» تثبت بوضوح كم هي مستوحاة من موسكو». «إن المظليين البريطانيين الذين انطلقوا إلى الموت من أجل جزر فوكلاند قد أثبتوا أنه ما يزال هناك قيم أخلاقية في الغرب». الخ.. الخ.

تبدو التكتيكات التي يستخدمها معادٍ للشيوعية، بهذا القدر من العداء المتأصل، بالغة الإثارة. فهذا الرجل الذي يحتقر أي «مسيحي يساري» يتحالف بكل يسر مع تروتسكي. هذا الاختصاصي في الاستخبارات العسكرية يؤكد بأن الأسلحة الإيديولوجية التي صنعها تروتسكي صالحة تماماً في المعركة التي يخوضها... وها هي ذي كلماته:

«كان لينين، على المستوى الشخصي، مثله مثل تروتسكي تماماً، كائناً إنسانياً» ويقول هنري برنارد في كتابه «لم تكن حياة تروتسكي العاطفية تخلو من الرهافة والرقة. وكان عليه هو أن يخلف لينين، بصورة طبيعية. فقد كان النصير الرئيسي لثورة أوكتوبر، وكان لينين يكنّ لتروتسكي مودة عارمة. ويفكر فيه على أنه خليفته. فقد كان يرى أن ستالين فظ شديد الفظاظة. سيقف تروتسكي بحزم ضد البيروقراطية المريعة التي كانت تشل آلة الحزب. وكفنان، وأديب، ولا امتثالي، وغالباً كنبي، لم يكن بمستطاع تروتسكي أن يتوافق مع الدوغمائية البدائية للحزب، كان ثمة نزعة قومية لدى ستالين، شعور لم يكن موجوداً لا لدى لينين ولا لدى تروتسكي. كان بوسع الأحزاب الشيوعية الأجنبية أن ترى نفسها مع تروتسكي قوة مؤهلة، حصراً، لفرض نظام اشتراكي. ولكنها مع ستالين، كانت تعمل لمصلحة الكرملين وسياسته الإمبريالية».

ونحن نقدم هنا، بعض الموضوعات الجوهرية التي قدمها تروتسكي خلال الأعوام 1937-1940، والتي توضح جيداً طبيعة معركته ضد الحركة الشيوعية. كما أنها تسمح لنا أن نفهم لماذا أحب رجال دوائرالاستخبارات الغربية، مثل هنري برنارد وأضرابه أحبوا الاستناد إلى تروتسكي لمقاتلة الشيوعيين. وهي تلقي، كذلك، ضوءاً على الصراع الطبقي بين البلاشفة والانتهازيين، وعلى بعض جوانب التطهير الذي جرى في عامي 1937- 1938.

العدو: هو الأرستقراطية الجديدة

البرجوازية البلشفية الجديدة

بالنسبة لتروتسكي، فإن العدو الرئيسي موجود على رأس الدولة السوفييتية. إنه «الأرستقراطية الجديدة» البلشفية. الطبقة الأكثر عداء للاشتراكية، وللديمقراطية في المجتمع. إنها طبقة اجتماعية تعيش «على منوال البرجوازية الثرية في الولايات المتحدة» وإليكم ما يقول:

«إن البيروقراطية ذات الامتيازات تمثل حالياً الطبقة الأكثر معاداة للاشتراكية والأكثر مناهضة للديمقراطية في المجتمع السوفييتي».

«إننا نتهم زمرة القيادة بكونها غدت أرستقراطية جديدة تضطهد الجماهير وتسلبها ممتلكاتها (...) إن الشريحة العليا من البيروقراطية تعيش تقريباً، على غرار البرجوازية الثرية في الولايات المتحدة، وفي البلدان الرأسمالية الأخرى».

هذه الأقوال لا تتميز في شيء عما يقوله زعماء الناشفة، حينما كانوا يحملون السلاح، جنباً إلى جنب مع جيوش البيض، وجيوش التدخل الأجنبي، ولا عن لغة اليمين الكلاسيكي في البلدان الإمبريالية، من جهة أخرى.

قارنوا تروتسكي مع الإيديولوجي الرئيسي المعادي للشيوعية، في النقابة المسيحية ب. ج. سيرا رينز، الذي كتب في عام 1948:

«بفضل ستالين، صار هناك «طبقات» من «أشخاص أغنياء»، تماماً مثلما في المجتمع الرأسمالي وتم مكافأة النخبة بالمال والسلطة، لقد تشكل هناك ما تسميه مجلة «قوة العمال» بـ«الأرستقراطية السوفييتية» وهذه المجلة الأسبوعية تقارن هذه الارستقراطية بالأرستقراطية التي خلقها نابليون».

بعد الحرب العالمية الثانية تم تشكيل وتمويل نقابة ومجلة «قوة العمال» على يد الـ CIA مباشرة، وكانت المجموعة التروتسكية تشكل مهدها الدافئ. في تلك الفترة كانت الكونفدرالية الدولية للنقابات المسيحية، التي جعلت مقرها في إيطاليا أو في بلجيكا، تنشط هي أيضاً بالتعاون الوثيق مع الـ CIA. للدفاع عن النظام الرأسمالي، ولكي تحرض العمال ضد الشيوعية لم تكن تجد حرجاً في اللجوء إلى ديماغوجية «معارضة للرأسمالية» شبه ثورية كأن تقول: في الاتحاد السوفييتي هناك «طبقة جديدة من الأغنياء» و«أرستقراطية سوفييتية».

في مقابل هذه «الأرستقراطية الجديدة التي تضطهد الجماهير» كان هناك إذن، على ما يرى تروتسكي، الشعب الطيب، الـ «مئة والستون مليوناً من المستائين». وهذا «الشعب» يصون تجميع وسائل الإنتاج، والاقتصاد المخطط ضد «اللصوص الستالينيين الطغاة، والجهلة». وباختصارٍ فكل ما هو خارج «الستالينيين» من بقية المجتمع هو سليم من العلل تماماً، ويخوض نضالات مبررة. لنصغ إلى تروتسكي:

«اثنا عشر إلى خمسة عشر مليوناً من المحظوظين من ذوي الامتيازات. ذلكم هو الشعب، الذي يبني جنة النعيم، ويطلق المظاهرات والهتافات الحماسية. غير أنه خارج هؤلاء الرجال، وفي مقابلهم، هناك مئة وستون مليوناً من المستائين. إن العداء بين البيروقراطية وبين الشعب يترافق مع القسوة المتصاعدة للتنظيم الشمولي. لم يعد من الممكن سحق البيروقراطية إلا عبر ثورة سياسية جديدة».

«أصبح الاقتصاد مخططاً على قاعدة التدويل والتجميع لوسائل الإنتاج. وهذا الاقتصاد الدولتي له قوانينه الخاصة التي تتناغم شيئاً فشيئاً مع الاستبداد، والجهل، واللصوصية، والبيروقراطية الستالينية».

إن إعادة الرأسمالية في نظر تروتسكي أمر مستحيل، لذا فإن سائر المعارضة الاشتراكية الديمقراطية، والتحريفية، والبرجوازية، والمناهضة للثورة تغدو شرعية وهو يعبر عن صوت «160 مليوناً من المستائين» ويرمي في الوقت ذاته إلى «حماية» تجميع وسائل الإنتاج من «الأرستقراطية الجديدة».

البلشفية والفاشية

كان تروتسكي أحد الأوائل الذين طرحوا فكرة، أن البلشفية والفاشية أخوان توأمان. وهذه الموضوعة كانت شديدة الشعبية، خلال أعوام الثلاثينات، لدى الأحزاب الرجعية الكاثوليكية. فالحزب الشيوعي كان عدوها اللدود، والحزب الفاشي كان منافسها البرجوازي المخيف.

إليكم ما قاله تروتسكي:

«تحقق الفاشية نصراً بعد نصر، وحليفها المفضل، ذلك الذي يمهد لها الطريق في العالم أجمع، هو الستالينية».

«الواقع، أنه ما من شيء يميز المناهج السياسية لدى ستالين عن مثيلتها لدى هتلر. ولكن الفرق في النتائج على خشبة المسرح العالمي، يلوح أمام عيوننا».

«إن قسماً كبيراً، تتنامى أهميته باستمرار، من الجهاز السوفييتي مؤلف من الفاشيين الذين لم يعودوا يُعرفون كفاشيين. فالمماهاة بين النظام السوفييتي بمجمله مع الفاشية هو خطأ تاريخي شنيع (...) ولكن التماثل بين الطبقات العليا في كلا النظامين، والتشابه في المناهج الشمولية، والأنماط السيكولوجية مثير للدهشة حقاً (...) إن انحطاط الستالينية هو المشهد الأشد فظاعة والأكثر قبحاً في تاريخ الإنسانية».

يقدم تروتسكي هنا إحدى الروايات الأولى للصيغة التحريضية التي سترددها الـ CIA والفاشيون خلال أعوام الخمسينات. ألا وهي «الفاشية الحمراء». ففي أعقاب عامي 1944ـــ 1945 تنكر كافة الزعماء الفاشيون الألمان، والهنغار، والكروات، والأوكرانيين، الذين طلبوا النجاة في الغرب، تنكروا خلف القناع

«الديمقراطي»، ومجدوا «الديمقراطية» الأمريكية، قوة الهيمنة الجديدة، والدعامة الرئيسية لكافة القوى الرجعية والفاشية في العالم. وهؤلاء الفاشيون «القدماء»، الأوفياء لماضيهم الإجرامي، طوروا مقولة تروتسكي، وجعلوها: «البلشفية، هي الفاشية، ولكنها الأسوأ».

لنلاحظ أيضاً بأنه في الوقت الذي اندفعت فيه الفاشية إلى الحرب (حرب اثيوبيا وحرب إسبانيا، وضم النمسا، وتشيكوسلوفاكيا) شرع تروتسكي يؤكد بأن «المشهد الأكثر بشاعة ومقتاً» فوق الأرض هو مشهد «انحطاط الاشتراكية».

انهزامية واستسلامية أمام ألمانيا النازية

أصبح تروتسكي المروّج الرئيسي في الاتحاد السوفييتي للدعاية الانهزامية، وللروح الاستسلامية، وهو الذي كان يتكلم بصورة ديماغوجية عن «الثورة العالمية» بغية خنق الثورة السوفييتية. أشاع تروتسكي الفكرة التي تقول بأنه في حالة العدوان الفاشي ضد الاتحاد السوفييتي فإن ستالين ورفاقه «سيخونون» البلاد. وبأن الهزيمة في ظل قيادتهم لا مناص منها. وها هي ذي أطروحاته التي عبر عنها بهذه الكلمات:

«يتسم الوضع العسكري في روسيا السوفييتية بالتناقض. فمن جهة لدينا من السكان 170 مليون مواطن استيقظوا على أكبر ثورة في التاريخ، ويملكون صناعة حربية أكثر أو أقل تطوراً. ومن جهة أخرى، لدينا نظام سياسي شلّ كافة القوى في هذا المجتمع الجديد. أنا على يقين من أمر واحد: لن يصمد النظام السياسي في الحرب. فالنظام الاجتماعي الذي يجسد تأميم الإنتاج أقوى بما لا يقاس من النظام السياسي الذي يجسد الاستبداد. إن ممثلي النظام السياسي، أي البيروقراطية يشعرون بالهلع من آفاق الحرب، لأنهم يعرفون جيداً بأنهم لن يصمدوا في الحرب بصفتهم نظاماً سياسياً».

من جديد، لدينا من جهة «الـ170 مليوناً» من المواطنين «الطيبين» الذين استيقظوا جميعاً بفضل الثورة، ونحن نتساءل، بفضل من، إن لم يكن بفضل حزب البلاشفة وستالين استيقظ هؤلاء المواطنون؟ وهؤلاء الـ «170 مليوناً» يمتلكون «صناعة حربية متطورة». كما لو أن هذه الصناعة لم تكن نتيجة لسياسة التصنيع والتجميع الزراعي التي اقترحها ستالين، وتم تنفيذها بفضل إرادته الحديدية، تلك الإرادة التي تمخضت، وفي وقت قياسي، عن خلق مشاريع التسليح. فبفضل خطه السليم، وإرادته، وطاقته التنظيمية أيقظ النظام

البلشفي القوى الشعبية في المجتمع، تلك القوى التي ظلت غارقة حتى ذلك الوقت في الجهل والخرافة، وفي العمل الفردي البدائي. غير أن هذا النظام البلشفي، حسب أقوال المحرّض تروتسكي، شلّ كافة قوى المجتمع. وتروتسكي يقول في إحدى نبوءاته الهذيانية بأنه متأكد من أن النظام البلشفي لن يصمد في الحرب. فماذا يريد النازيون أفضل من موضوعات الدعاية التروتسكية؟

«تعرف برلين حق المعرفة إلى أية درجة من تثبيط العزائم، دفعت زمرة الكرملين الجيش والشعب عبر نضالها من أجل حماية ذاتها شخصياً (...) لقد واصل ستالين تقويض القوى الأخلاقية وروح المقاومة في البلاد عامة، وفي اللحظات العصيبة، سيجد الوصوليون عديمو الشرف والذمة أنفسهم مرغمين عن خيانة البلاد».

من خلال حقده على القيادة البلشفية، يحرض تروتسكي النازيين على الحرب ضد الاتحاد السوفييتي فهو «العارف الخبير» بشؤون الاتحاد السوفييتي يبلغ النازيين بأن لديهم كافة فرص النجاح في حربهم ضد ستالين. فالجيش والشعب مثبطو العزائم. وستالين قوّض المقاومة. والستالينيون سيستسلمون منذ بداية الحرب.

تروتسكي ومؤامرة توخاتشيفيسكي

سنعرض موقف تروتسكي بنصّه الحرفي في قضية توخاتشيفيسكي. يقول تروتسكي: «لم أحمل مطلقاً، على محمل الجد، القناعات الشيوعية لدى هذا الضابط القديم في الحرس».

«لقد ناضل الجنرالات المحيطين بتوخاتشيفيسكي للدفاع عن أمن الاتحاد السوفييتي ضد المصالح الشخصية لستالين».

«كان الجيش في حاجة إلى رجال أقوياء، شرفاء، على غرار رجال الاقتصاد ورجال العلم. رجال مستقلين يتحلون بذهن منفتح. غير أن كل رجل أو امرأة يتمتع بذهن مستقل، يدخل في نزاع مع البيروقراطية، وكان لا بد للبيروقراطية من أن تبتر أي قطاع مستقل من أجل حماية ذاتها (...) إن جنرالاً جيداً مثل توخاتشيفيسكي، كان بحاجة إلى مساعدين، إلى جنرالات آخرين حوله، وكان يقدّر كل إنسان بما هو إنسان، وحسب قيمته الذاتية. ولكن البيروقراطية كانت بحاجة إلى رجال طيّعين، فارغين وعبيد. هذان النموذجان من الرجال يدخلان دوماً في نزاع حاد، أينما كان ذلك».

«لقد هلك توخاتشيفيسكي ومعه زهرة الكوادر العسكرية، في النضال ضد الدكتاتورية البوليسية المخيمة على ضباط الجيش الأحمر. لم تكن البيروقراطية العسكرية، بخصائصها الاجتماعية أفضل من البيروقراطية المدنية، بطبيعة الحال. كانت البيروقراطية، بجملتها، تجمع بين يديها وظيفتين: السلطة والإدارة. وهاتان الوظيفتان دخلتا، اليوم، تحديداً، في تناقض حاد. فمن أجل ضمان إدارة جيدة، يتوجب تصفية السلطة الشمولية».

«ما الذي يمكن أن تعنيه الثنائية الجديدة في القيادة: إنها تعني تفكيك الجيش الأحمر في المرحلة الأولى، وبدء حرب أهلية جديدة في البلاد؟ إن قوميسيارات التشكيل الجديد يعبرون عن سيطرة الزمرة البونابرتية على الإدارة العسكرية والمدنية، وعبر هذه الزمرة، السيطرة على الشعب. إن القادة العسكريين الحاليين هم من نتاج الجيش الأحمر. وهم مرتبطون، من دون فكاك، بهذا الجيش، ولكن القوميسياريين، على النقيض من ذلك، فهم يُجندون من بين صفوف البيروقراطيين الذين لا يملكون لا التجربة الثورية، ولا المهارة العسكرية ولا الرصيد الإيديولوجي. ذلكم هو النموذج الناجز للوصوليين من خريجي المدرسة الجديدة. وهم لا يُستدعون إلى القيادة إلا لأنهم يجسدون «التيقظ»، أعني الرقابة البوليسية على الجيش. والقادة من الضباط العسكريين يكنوّن لهم كراهية يستحقونها. إن نظام ثنائية القيادة قد تحول إلى صراع مرير بين البوليس السياسي والجيش، حيث السلطة المركزية تقف إلى جانب البوليس».

«إن تطور البلاد، وعلى الأخص، تنامي حاجاتها، يتعارض أشد التعارض مع وحل الشمولية، ولهذا تظهر إلى الوجود اتجاهات لنبذ وصد ودفع البيروقراطية خارج كل ميادين الحياة، في ميدان التقنية، وفي ميدان التعليم، والثقافة، والدفاع. إن أهل التجربة، وأهل العلم، والحجة المؤثرة لينبذون أوتوماتيكياً عملاء الدكتاتورية الستالينية، الذين هم في غالبيتهم من الأوغاد الجهلة، والكلبيين من أمثال ميخيليس وإيجوف».

في البداية، يضطر تروتسكي إلى الاعتراف بأن توخاتشيفيسكي وأمثاله ليسوا شيوعيين، رغم أنه، في السابق، كان هو نفسه، من اختاره كمرشح لقيادة انقلاب عسكري على النمط النابليوني، من جهة أخرى، فلدواعي صراعه الأعمى ضد ستالين نفى تروتسكي وجود معارضة برجوازية مناهضة للثورة على رأس الجيش. ويؤكد تروتسكي بأن سائر هؤلاء الذين يقاتلون

ستالين وقيادة الحزب، في داخل الجيش ليس لهم سوى هم واحد فعلاً، هو أمن واستقرار البلاد، بينما الضباط المخلصون تجاه الحزب وقيادته ليسوا سوى مدافعين عن دكتاتورية ستالين ومصالحه الشخصية.

من المدهش ملاحظة أن التحليل الذي قدمه تروتسكي حول الصراع داخل الجيش الأحمر لا يختلف في شيء عن التحليل المقدم من قبل رومان كولكويكز في دراسته المخصصة للجيش الأمريكي. في البداية، يتخذ تروتسكي موقفاً ضد كل تدابير الحزب الرامية إلى ممارسة رقابته السياسية على الجيش الأحمر. ويهاجم تروتسكي، على الأخص، العودة إلى إدخال المفوضين السياسيين، الذين سيلعبون دوراً حاسماً في إيقاظ روح المقاومة في الحرب ضد الفاشيين، والذين سيحافظون على الخلق الثوري في كافة التجارب التي خاضوها، والذين سيساعدون صغار الجنود على استلهام خط سياسي واضح إزاء المشكلات المعقدة أشد التعقيد، التي طرحتها الحرب. ويوقظ تروتسكي المشاعر النخبوية والحصرية لدى العسكريين ضد الحزب وذلك لهدف بسيط هو تفجير الجيش الأحمر من داخله، وإشعال حرب أهلية ثم يعلن تروتسكي نفسه نصيراً لاستقلالية الضباط، وبالتالي احترافيتهم، منوهاً بأنهم ضباط أكفاء، وشرفاء، وذوو فكر منفتح طالما أنهم معارضون للحزب. مع ذلك، فمن البداهة بمكان أن كافة العناصر المعادية للشيوعية من أمثال توكاييف كانوا يدافعون عن أفكارهم الانشقاقية البرجوازية باسم الاستقلالية وانفتاح الفكر.

يؤكد تروتسكي بأن ثمة نزاعاً بسيطاً بين السلطة «الستالينية» وبين إدارة الدولة، وهو يؤيد هذه الأخيرة، والواقع أن المعارضة بين السلطة والإدارة، التي ذكرها، هي المعارضة بين سلطة الحزب البلشفي وبيروقراطية الدولة. وعلى منوال كل أعداء الدولة السوفييتية في العالم ينعت تروتسكي الحزب الشيوعي بالنعت الشائن «البيروقراطية». والحال أن الخطر الحقيقي لتبقرط النظام يكمن في الشلل الإدارية التي لا تقيم وزناً للمثل الشيوعية، والتي تسعى إلى التملص من الرقابة السياسية والإيديولوجية «الخانقة» للحزب لكي تضع نفسها فوق المجتمع. وتحظى بامتيازات ومنافع من كل صنف ولون. إن لرقابة الحزب السياسية على الإدارة العسكرية والمدنية، بالأساس هدفاً رئيسياً، يتمثل في القتال ضد نزعات الانحطاط البيروقراطي. وحين يصرح تروتسكي بالنص بأنه ينبغي التخلص من رقابة الحزب لتحقيق إدارة جيدة للبلاد، فإنما يجعل نفسه الناطق الرسمي باسم أسوأ النزعات البيروقراطية في داخل الأجهزة.

ومن ثم فإن تروتسكي ينصّب نفسه، فوق ذلك، مدافعاً عن «احترافية» الكوادر العسكرية، والتقنية، والعلمية، والثقافية. وباختصار، كافة التكنوقراطيين الذين يرغبون في التخلص من الرقابة الحزبية، ويتطلعون إلى «دفع الحزب خارج سائر ميادين الحياة» حسب نصيحة تروتسكي.

التحريض في خدمة النازيين

دافع تروتسكي عن الموضوعة التي تقول بأنه من أجل الاستعداد للحرب العدوانية النازية ينبغي ضرب ستالين والبلاشفة الذين حوله دون رحمة. وبدفاعه عن هذه الموضوعة غدا تروتسكي أداة في خدمة الهتلريين. فحين كان ينادي بالتمرد ضد البلاشفة سوف لن ينال التروتسكيون شيئاً فيما لو حدث هذا التمرد، وإنما النازيون. كان بإمكان تروتسكي فعلاً أن يبشر بالتمرد باسم «الدفاع الأفضل» ولكن ذلك لم يكن ليغير من الواقع شيئاً فقد كان النازيون أول من قدّروا تقديراً عالياً هذا «الدفاع الأفضل عن الاتحاد السوفييتي».

«لا أستطيع أن أكون «مع الاتحاد السوفييتي» بصورة عامة، ولكنني مع الجماهير الكادحة التي خلقت الاتحاد السوفييتي، وضد البيروقراطية التي اغتصبت مكاسب الثورة». «إن الواجب المترتب على كل ثوري حقيقي أن يعلن صراحة وبملء صوته: بأن ستالين يهيئ لهزيمة الاتحاد السوفييتي».

«إن منبع الخطر الرئيسي بالنسبة للاتحاد السوفييتي، في الظروف الحالية، يتمثل في ستالين والأوليغارشية التي يتزعمها. والنضال ضد هؤلاء الأشخاص بالنسبة إلي مرتبط، على نحو وثيق بالدفاع عن الاتحاد السوفييتي».

«لقد تحول الحزب البلشفي القديم إلى جهاز لطبقة مغلقة (...) أما نحن فسندافع، بكل قوانا عن الاتحاد السوفييتي ضد العدو الإمبريالي ومع ذلك، فإن انتصارات ثورة أوكتوبر لن تفيد الشعب في شيء إلا إذا غدا هذا الشعب قادراً على التحرك ضد البيروقراطية الستالينية، مثلما كان يتحرك سابقاً تجاه البيروقراطية القيصرية والبرجوازية».

«إن تمرداً للبروليتاريا السوفييتية ضد الاستبداد البغيض للطفيليين الجدد يمكنه وحده أن ينقذ ما تبقى في أسس المجتمع من انتصارات أوكتوبر. بهذا المعنى، وفقط بهذا المعنى، نحن ندافع عن ثورة أوكتوبر ضد الإمبريالية، الفاشية أو الديمقراطية وضد البيروقراطية الستالينية، وضد «أصدقائها» من قابضي الرواتب».

بهذه الاستشهادات يبرز بوضوح بأن كلمات «سندافع عن الاتحاد السوفييتي ضد الإمبريالية» هي كلمات رجل مناهض للشيوعية، وقد اضطر إلى التلفظ بها، لأنه كان يرغب في أن تكون له أدنى فرصة للإصغاء إليه من الجماهير السوفييتية جماهير المصممة على الدفاع، جسداً وروحاً عن النظام الاشتراكي. ولكن الأشخاص المصابين بالعمى السياسي، هم وحدهم الذين بوسعهم أن يخطئوا في معنى هذا «الدفاع».

«يدافع» تروتسكي عن الاتحاد السوفييتي... ولكن ليس الاتحاد السوفييتي الذي يقوده ستالين والحزب البلشفي. وهو يزعم بأنه يدافع عن الاتحاد السوفييتي «بكل قوانا»، أي ببضعة آلاف من أشياعه الذين يملكهم في الاتحاد السوفييتي. ولكن بانتظار ذلك، فإن على بضعة آلاف الهامشيين هؤلاء أن يبذلوا جهودهم لإثارة تمرد ضد ستالين وضد الحزب البلشفي. يا له من دفاع مجيد، في الحقيقة.

إن خصماً للاشتراكية، مثل توكاييف اعتبر بأن أقوال تروتسكي هذه قدّمت خدمة للمعتدين الألمان. وتوكاييف النصير للإمبريالية الإنكليزية، قدّم الملاحظات التالية في بداية الحرب:

«إن شعوب الاتحاد السوفييتي مستهدية بمشاعرها البسيطة في مواجهة خطر مميت كانت قد تماهت مع نظام ستالين. أما قوى المعارضة فقد أجمعت أمرها على مجابهة الألمان في حركة عفوية. وبوجه عام، اتجه التفكير على النحو التالي: التحالف حتى مع الشيطان لتحطيم هتلر. لهذا السبب فإن شنّ معارضة ضد ستالين لم يكن مضراً بالجبهة العالمية ضد قوى المحور وحسب، بل كان ذلك يعني اتخاذ موقف معاد تجاه شعوب الاتحاد السوفييتي».

مع اقتراب الحرب العالمية الثانية أضحى الهاجس الرئيسي لدى تروتسكي، إن لم نقل الهاجس الوحيد، هو الإطاحة بالحزب البلشفي في الاتحاد السوفييتي. وها هي ذي تصريحاته.

«ينبغي الإطاحة بالبيروقراطية الرجعية. وسيُطاح بها. إن ثورة سياسية في الاتحاد السوفييتي أصبحت محتمة».

«إن الإطاحة بالزمرة البونابرتية في الكرملين، يمكن لها وحدها تجديد القوة العسكرية في الاتحاد السوفييتي (...) إن النضال ضد الحرب، والإمبريالية، والفاشية يتطلب النضال من دون هوادة ضد الستالينية الغارقة في الجرائم. إن كل من يدافع، بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن الستالينية. كل من يلتزم

الصمت إزاء خياناتها، أو يبالغ في الحديث عن قوة جيشها، لهو أسوأ عدو للثورة، وللاشتراكية، وللشعوب المقهورة».

خلال عام 1938، حينما كتب تروتسكي هذه العبارات، كان قد تصاعد لهيب الصراع الطبقي على المسرح العالمي بين الإمبريالية والاشتراكية، بين الفاشية والبلشفية. والسياسيون الأكثر يمينية في الإمبريالية الفرنسية والإنكليزية والأمريكية، والإيديولوجيون الفاشيون هم وحدهم من كان يدافع عن هذه الموضوعة التي يشيعها تروتسكي.

تروتسكي يساهم في نشر الإرهاب، والتمرد المسلح

منذ عام 1935، نادى تروتسكي، علانية، ومن دون توقف، بالإطاحة بالبلاشفة من خلال الإرهاب، والتمرد المسلح. فقد أكد في نيسان عام 1938 بأن من المحتم أن تقع في الاتحاد السوفييتي محاولات اغتيال لستالين وللقادة البلاشفة الآخرين. وبالرغم من أنه نفى بلسانه أن يكون الإرهاب جزءاً من التكتيك اللينيني، إلا أنه ينسى ذلك ويصرح بأن «قوانين التاريخ تعلمنا بأن اغتيالات وأعمالاً إرهابية ضد الغانغستر (أوغاد) من أمثال ستالين لا مناص منها». وها هي ذي بضع عبارات قالها تروتسكي عام 1938 تدعو إلى نشر الإرهاب الفردي:

«دمر ستالين الجيش وداس كرامة البلاد. وحوله يتراكم الحقد الأسود، ثمة انتقام رهيب معلق فوق رأسه. اغتيال؟ من الممكن لهذا النظام، الذي يحصد رؤوس أفضل رجال البلد، تحت ذريعة النضال ضد الإرهاب، أن يستدعي ضده، في النهاية، الإرهاب الفردي، ويمكن أن نضيف، بأنه سيكون ضد قوانين التاريخ بأن لا يثير الغانغستر المتربعون على قمة السلطة ضدهم، انتقاماً من قبل إرهابيين يائسين. ولكن الأممية الرابعة لا علاقة لها البتة مع اليأس والإرهاب الفردي. ولهذا فإن المصير الشخصي لستالين يعنينا. ونحن لا يسعنا إلا أن نأمل بأن يعيش وقتاً طويلاً كي نرى نظامه ينهار، ولن يكون ذلك بعيداً جداً.»

وهكذا، فبالنسبة للتروتسكيين سيكون «ضد قوانين التاريخ» أن لا تحدث محاولة لقتل ستالين، أو أحد رفاقه، أو كلهم. إنها طريقة «ذكية» و«بارعة» لإبلاغ المنظمة السرية التروتسكية رسالته الإرهابية. لا تقول الرسالة «نظموا محاولات اغتيال» بل تقول: «الانتقام الإرهابي ضد ستالين يندرج في قوانين

التاريخ»، ونحن نذكر بأن الأوساط المعادية للبلاشفة هيأت عشرات المحاولات ضد القادة البلاشفة. ويمكننا الآن أن نرى جيداً أية قوى كان يمكنها أن «تستلهم» دعوات تروتسكي.

يناوب تروتسكي بين دعواته إلى الإرهاب الفردي وبين الدعاية من أجل تمرد مسلح، وهو يستخدم بوجه عام الصيغة المراوغة «ثورة سياسية»، وها هو ذا برنامج النضال المسلح المضاد للبلاشفة يعرضه لنا تروتسكي.

«عاش الشعب ثلاث ثورات وأطاح بالعائلة القيصرية وبالنبلاء والقياصرة وبمعنى ما، فإن البيروقراطية السوفييتية تجمع الآن ملامح كافة الطبقات المنهارة ولكن دون أن يكون لها، لا الجذور الاجتماعية ذاتها، ولا التقاليد ذاتها. وهي لا تستطيع أن تدافع عن امتيازاتها الكريهة، إلا عبر الإرهاب المنظم» لا يمكن ضمان الدفاع عن البلاد إلا بتدمير العصبة الأوتوقراطية من المخربين والانهزاميين».

ومن جديد، فتلك دعوة إلى القوى الرجعية أن تنقضّ على هذا النظام الممقوت والطارئ، وأن تقوم «بثورة رابعة».

في أيلول عام 1938 تم إلحاق النمسا بألمانيا. إنه الشهر الذي عقد فيه مؤتمر ميونيخ ـ والذي ستعطي الإمبريالية الإنكليزية والفرنسية الضوء الأخضر فيه إلى هتلر ليقوم باحتلال تشيكوسلوفاكيا. وقد بسط تروتسكي المهمات التي كان على منظمته أن تنجزها في داخل الاتحاد السوفييتي. رغم أنه يعترف بضعفها الشديد في داخل البلاد.

«من المستحيل إنجاز هذا البرنامج من دون الإطاحة بالبيروقراطية التي تحافظ على ذاتها من خلال العنف والخداع. إن انتفاضة ثورية ظافرة تقوم بها الجماهير المقهورة يمكنها وحدها إحياء النظام السوفييتي، وضمان السير إلى الأمام نحو الاشتراكية، ووحدهم حزب الأممية الرابعة يستطيع أن يقود الجماهير السوفييتية نحو الثورة».

هذه الوثيقة، التي تعتبرها سائر الطوائف التروتسكية، على الدوام كبرنامج رئيسي لها، تحتوي على جملة مثيرة للدهشة. متى سيأتي اليوم الذي تقوم فيه «الثورة» و«الانتفاضة» في الاتحاد السوفييتي؟ إن جواب تروتسكي هو على درجة من الصراحة تجعلنا نصاب بالذهول: فتروتسكي يصمم «ثورته»... حينما سينفذ الهتلريون عدوانهم على الاتحاد السوفييتي.

يكتب:

«إن اندفاعة الحركة الثورية للعمال السوفييت، سوف تظهر إلى العلن، عبر أحداث خارجية، على الأرجح».

هذا الاستشهاد السابق يقدم لنا مثالاً جيداً على النفاق. ففي عام 1933 أعلن تروتسكي أن إحدى «جرائم» الشيوعيين الستالينيين في ألمانيا كان رفضهم لإقامة جبهة مع الاشتراكيين الديمقراطيين ضد الفاشية. والحال، أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد ظل، حتى وصول هتلر إلى السلطة يدافع بأسنانه وأظفاره عن النظام الرأسمالي، ورفض كافة الاقتراحات بإقامة وحدة مناهضة للرأسمالية، ومناوئة للفاشية، والتي كان قد قدمها الحزب الشيوعي الألماني. ولكننا نحن الآن في أيار من عام 1940، والحرب العالمية الثانية بدأت منذ ثمانية أشهر. وفي هذه اللحظة المحددة، يدعو الاختصاصي العظيم «بالجبهة الموحدة» تروتسكي... يدعو الجيش الأحمر إلى الشروع في تمرد ضد النظام البلشفي. وقد كتب في رسالة مفتوحة إلى العمال السوفييت:

«إن هدف الأممية الرابعة هو بعث الاتحاد السوفييتي، عبر تطهيره من البيروقراطية الطفيلية. وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بطريقة واحدة: بسواعد العمال والفلاحين وجنود الجيش الأحمر وبحّارة الأسطول الأحمر الذين سيهبون ضد الطبقة المغلقة الجديدة من الطغاة والطفيليين. فمن أجل الإعداد لنهوض الجماهير لا بد من حزب جديد، هو حزب الأممية الرابعة».

الفصل
التاسع

ستالين والحرب ضد الفاشيين

منذ الانهيار الاقتصادي عام 1929 اضطربت أوضاع النظام الرأسمالي العالمي اضطراباً شديداً، وبدت الأجواء محمّلةً بنذر حرب كونية جديدة. ولكن في أي مكان من هذا العالم؟ وكيف سيمتد لهيبها؟ ومن سيقاتل من؟ جميع هذه الأسئلة ظلت دون جواب زمناً طويلاً. وحتى بعد الاندلاع «الرسمي» لهذه الكارثة عام 1940 كانت هذه الأسئلة ما تزال تنتظر الحسم.

تلك الأسئلة التي لم يكن لها إجابات ستتيح لنا بنحو أفضل فهم السياسة الخارجية لستالين خلال سنوات الثلاثينات.

الاتفاق الألماني - السوفييتي

وصل هتلر إلى السلطة في 30 كانون الثاني عام 1933. وأدرك الاتحاد السوفييتي وحده، كل الأخطار التي ستترتب على السلام العالمي. في كانون الثاني من عام 1934 أعلن ستالين في مؤتمر الحزب بأن السياسة «الجديدة» لألمانيا، تذكر، في خطوطها الأساسية بسياسة القيصر السابق لألمانيا التي أفضت في وقت سابق إلى احتلال أوكرانيا، وإلى الهجوم باتجاه لينينغراد، بعد أن حوّلت بلدان البلطيق إلى قاعدة لعملياتها للقيام بذلك الهجوم». وصرح ستالين أيضاً:

«إذا اقتضت مصالح الاتحاد السوفييتي تقارباً مع هذه أو تلك من البلدان، التي لا مصلحة لها بانتهاك السلام، فلن نتردد في فعل ذلك».

حتى وصول هتلر، قادت إنكلترا حملة صليبية ضد الاتحاد السوفييتي. وقد كان تشرشل، عام 1918، المحرض الرئيسي على التدخل العسكري، الذي جيّش قوى من 14 بلداً، لوأد الثورة الوليدة. وفي عام 1927 كانت إنكلترا قد

قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي، وقررت الحظر على صادراتها.

عام 1931، كانت اليابان قد اجتاحت شمالي الصين، وكانت قطعاتها العسكرية قد وصلت إلى الحدود السوفييتية، في سيبيريا. كان الاتحاد السوفييتي آنذاك على قناعة أكيدة بأن حرباً مع اليابان باتت وشيكة.

في عام 1935، احتلت إيطاليا الفاشية أراضي إثيوبيا. وفي مواجهة خطر التوسع الفاشي اقترح الاتحاد السوفييتي، منذ عام 1935 إقامة نظام جماعي للأمن في أوروبا. وضمن هذا المنظور أبرم الاتحاد السوفييتي معاهدات تعاون مشترك مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا، وأطلق تروتسكي منشورات تغلي بالسخط متهماً ستالين، بأنه «خان» البروليتاريا الفرنسية والثورة العالمية، لإبرامه هذه المعاهدات... وفي الوقت نفسه ارتفعت أصوات مأذون لها لبرجوازيين فرنسيين أكدت بأن فرنسا ليست مضطرة إلى مساعدة الاتحاد السوفييتي في حال تعرضت أراضيه إلى أي هجوم.

في عام 1936 أرسلت إيطاليا وألمانيا النازية صفوة قواتهما إلى إسبانيا لمقاتلة الحكومة الجمهورية الشرعية. وتبنت فرنسا وإنكلترا سياسة «عدم التدخل»، تاركتين للفاشيين التصرف على هواهم، ساعيتين إلى مداهنة هتلر، ودفعه باتجاه الشرق.

وفي تشرين الثاني من العام نفسه أبرمت ألمانيا واليابان ميثاق التحالف ضد الكومنترن الذي التحقت به إيطاليا بعد زمن قصير. حينذاك وجد الاتحاد السوفييتي نفسه مطوّقاً.

في 11 آذار عام 1938 أعلن راديو برلين عن قيام «انتفاضة شيوعية في النمسا» وأن الويرماخت (الجيش الألماني) قد توغل في ذلك البلد الذي أعلن عن ضمّه بعد مرور يومين. واتخذ الاتحاد السوفييتي موقف الدفاع عن النمسا، ودعا إنكلترا وفرنسا للتعجيل في خلق دفاع جماعي: «غداً، ربما نكون متأخرين»، هكذا أكد التصريح السوفييتي.

في منتصف أيار ركز هتلر قطعاته على الحدود التشيكوسلوفاكية، فسارع الاتحاد السوفييتي، الذي تربطه بالبلد المهدد، معاهدة تعاون مشترك إلى حشد 40 فرقة عسكرية على حدوده الغربية، واستدعى 330.000 جندي إحتياطي. ولكن إنكلترا وفرنسا عقدتا اجتماعاً في أيلول مع القوتين الفاشيتين، ألمانيا وإيطاليا، في ميونيخ. ولم يُدع إلى الاجتماع لا تشيكوسلوفاكيا ولا الاتحاد

السوفييتي. وقررت «الدولتان الديمقراطيتان» العظيمتان تسليم منطقة السوديت إلى هتلر، وهي جزء من أراضي تشيكوسلوفاكيا. وعلى إثر هذا الميثاق الغادر، وقعت إنكلترا في 30 أيلول، مع ألمانيا، على إعلان ينص على أن القوتين تعبران عن رغبتهما في «عدم الدخول إطلاقاً في حرب جديدة فيما بينهما».

حذت فرنسا حذو إنكلترا في كانون الأول. ورغم ذلك فقد عرض الاتحاد السوفييتي على تشيكوسلوفاكيا مساعدته في حال نفذت ألمانيا عدوانها. ولكن هذا العرض رُفض وفي 15 آذار عام 1939 استولى الويرماخت على براغ. ولدى تمزيقه لأوصال تشيكوسلوفاكيا قدّم هتلر قطعة من الكاتو إلى الحكومة الرجعية البولونية التي ابتلعت الطعم بشهية.

بعد مضي أسبوع، احتل الجيش الألماني الأراضي الليتوانية، بدءاً من كليبيرا، وهي ميناء هام على بحر البلطيق. وأدرك ستالين بأن الوحش النازي مندفع باتجاه الشرق، وأن بولونيا ستكون ضحيته المقبلة.

في أيار عام 1939، هاجم الجيش الياباني منغوليا، المرتبطة مع الاتحاد السوفييتي بمعاهدة تعاون عسكري. وتصدت القطعات السوفييتية، التي يقودها ضابط غير معروف، يدعى جوكوف للقتال ضد الجيش الياباني. وكانت المجابهة متسعة الأبعاد: فقدت فيها اليابان أكثر من 200 طائرة، وأكثر من 50.000 جندي قتلى أو جرحى، وفي 30 آب 1939، انسحبت آخر القطعات اليابانية من منغوليا.

بعد أيام، شبت نيران الحرب على أحد الحدود السوفييتية الأخرى. وشرعت الجيوش الألمانية تكتسح بولونيا.

كان الجميع يدركون مغزى هذا العدوان الداهم. فمن أجل تأمين موقف أفضل لشن الحربِ إما ضد إنكلترا وفرنسا، أو ضد الاتحاد السوفييتي، كان على هتلر أن «يرتب مصير» بولونيا، فلنعد بضعة أشهر إلى الوراء.

في عام 1939 شرع الاتحاد السوفييتي في مفاوضات لتشكيل حلف معاد للفاشية. كانت إنكلترا وفرنسا تتلكآن وتناوران. وعبر هذا الموقف كانت القوتان الكبيرتان «الديمقراطيتان» توحيان إلى هتلر بأن في إمكانه التوجه ضد ستالين، دون أن يكون لديه أي قلق من جهة الغرب. وفي حزيران وآب عام 1939 انعقدت محادثات سرية أنغلو ألمانية جرى خلالها الاتفاق على احترام ألمانيا لسلامة كامل أراضي الإمبراطورية البريطانية في مقابل سماح الإنكليز لهتلر بحرية الفعل باتجاه الشرق. وفي 29 تموز حمل شارل رودين بوكستون من

حزب العمال رسالة سرية إلى الوزير الأول البريطاني شامبرلين من السفارة الألمانية ، تتضمن الخطة التالية :

«تعلن بريطانيا العظمى بأنها مستعدة لعقد اتفاق مع ألمانيا من أجل تحديد مناطق النفوذ (...)

1ً- تلتزم ألمانيا بعدم التدخل في شؤون الإمبراطورية البريطانية.

2ً- تلتزم بريطانيا العظمى باحترام مناطق المصالح الألمانية في الشرق وفي الجنوب الشرقي لأوروبا وهذا يستتبع أن تلغي بريطانيا العظمى الضمانات التي منحتها لبعض البلدان الواقعة في منطقة المصالح الألمانية. وتلتزم بريطانيا العظمى أيضاً بالعمل على أن تتخلى فرنسا عن تحالفها مع الاتحاد السوفييتي.

3ً- تلتزم بريطانيا العظمى بأن تتوقف عن الحوارات المعقودة مع الاتحاد السوفييتي بهدف إبرام اتفاق فيما بينهما.

أطلعت دوائر الاستخبارات السوفييتية ستالين على كافة هذه المناورات التي تدور في الخفاء.

وفي آب عام 1939 دخلت المفاوضات بين إنكلترا وفرنسا من جهة وبين الاتحاد السوفييتي من جهة ثانية مرحلتها النهائية. غير أن القوتين الغربيتين أرسلتا إلى موسكو مندوبين، من الدرجة الثانية، من دون تفويض بإبرام اتفاق. وطالب فورشيلوف بتعهدات ملزمة، ومحددة، بأنه في حال عدوان ألماني جديد فإن الحلفاء الثلاثة يدخلون الحرب مجتمعين. أراد فورشيلوف أن يعرف كم عدد الفرق الإنكليزية والفرنسية التي ستجابه هتلر في حال عدوان ضد الاتحاد السوفييتي ولم يتلق أي جواب. كما أراد عقد اتفاق مع بولونيا يسمح للقطعات السوفييتية بمجابهة النازيين فوق الأراضي البولونية في حال حدوث اعتداء ألماني. فرفضت بولونيا ذلك، مقفلة الباب أمام أي اتفاق عسكري فعال. أدرك ستالين تماماً بأن فرنسا وإنكلترا مهيأتان لميونيخ جديد، وبأنهما مستعدتان للتضحية ببولونيا على أمل دفع هتلر إلى السير باتجاه الاتحاد السوفييتي. وقد كتب هارولد أكيز. الوزير المكلف بالشؤون الداخلية في الولايات المتحدة، كتب حينها في مذكرته مايلي:

«يداعب إنكلترا الأمل بإثارة مواجهة بين روسيا وألمانيا، وأن لا تتعرض هي نفسها لأي خطر»، «سيكون على فرنسا أيضاً أن تتخلى عن أوروبا الوسطى والشرقية لصالح ألمانيا على أمل أن تدخل هذه الأخيرة في حرب، أيضاً، مع الاتحاد السوفييتي. وعلى هذا النحو، سيمكن لفرنسا أن تظل آمنة خلف خط ماجينو».

وجد الاتحاد السوفييتي نفسه إزاء خطر مميت، وهو يرى بأم عينه تشكّل جبهة واحدة معادية للسوفييت من سائر القوى الإمبريالية، بتأييد ضمني من إنكلترا وفرنسا. وسيكون في وسع ألمانيا بعد احتلالها لبولونيا، أن تواصل اندفاعها، وتبدأ في «حرب معلنة» ضد الاتحاد السوفييتي. فيما ستهاجم اليابان سيبيريا.

في تلك اللحظة التاريخية، كان هتلر قد توصل إلى استخلاص مؤداه أن فرنسا وإنكلترا أضعف قوة وإرادة في المقاومة، فقرر الاستيلاء على أوربا الغربية قبل مهاجمة الاتحاد السوفييتي.

في 2 آب عرض هتلر على الاتحاد السوفييتي ميثاق عدم اعتداء. فاستجاب ستالين بسرعة. وفي 23 آب تم توقيع الاتفاق.

في الأول من أيلول هاجم هتلر بولونيا، ووقعت إنكلترا وفرنسا في الشرك الذي نصباه فقد سهّل البلدان كافة المغامرات التي أقدم عليها هتلر، على أمل استخدامه ضد الاتحاد السوفييتي ومنذ عام 1933، لم يتوقف البلدان عن تمجيد مزايا هتلر في القتال ضد الشيوعية. وها هما الآن يجدان نفسيهما مرغمين على إعلان الحرب ضد ألمانيا النازية، دون أن يكون لديهما أية نية للقيام بذلك فعلياً. وانفجر غضبهما في حملة مسعورة ضد الشيوعية، موضوعها الرئيسي هو: «البلشفية هي الحليف الطبيعي للفاشية» وبعد نصف قرن على ذلك، وجدت هذه الدعاية البليدة لها مكاناً دائماً في الكتب المدرسية كحقيقة لا يطالها الشك. مع ذلك أثبت التاريخ أن الميثاق الألماني ـ السوفييتي شكل مفتاح النصر في الحرب ضد الفاشية. يبدو ذلك تناقضاً في الظاهر. غير أن هذا الميثاق شكل انعطافاً أتاح للاتحاد السوفييتي تهيئة الشروط الضرورية لقهر ألمانيا النازية.

والواقع أن الاتحاد السوفييتي أبرم هذا الاتفاق بضمير مرتاح، ذلك أن الحرب مع ألمانيا النازية ستكون، عاجلاً أم آجلاً محتمة بلا ريب وما إن أعلنت ألمانيا عن عزمها على إبرام اتفاق مع الاتحاد السوفييتي حتى بادر ستالين إلى ابتزاز هتلر للحصول منه على الحد الأقصى من التنازلات من أجل تأمين أفضل الأوضاع للحرب المقبلة. كتبت البرافدا في 23 أيلول عام 1939:

«الشيء الوحيد الذي كان ما يزال ممكناً. هو حماية أوكرانيا الغربية، وبيلوروسيا الغربية من الاجتياح الألماني (هذان الإقليمان كانا قد انتزعا من الاتحاد السوفييتي عام 1920) وبلدان البلطيق أيضاً. وقدأخذت الحكومة

السوفييتية تعهداً من ألمانيا بأن لا تتجاوز خط شاس. وخط ناراو، والبوغ والفيستول».

في الغرب انطلق الآن زعيق يصم الآذان، من قبل أولئك الذين تعاطفوا على الدوام. مع سياسة هتلر المعادية للشيوعية. يرددون في جوقة واحدة: «الفاشية والبلشفية، الدولتان الشموليتان. تقاسمتا بولونيا» غير أن البرجوازيين الأكثر واقعية رأوا بوضوح أن تطوير قدرات الاتحاد السوفييتي العسكرية يمثل أفضل موقف للانطلاق إلى حربه المقبلة مع النازيين. هذا ما صرح به تشرشل في الأول من تشرين الأول من عام 1939:

«إن واقع انتهاج الجيوش الروسية لهذا الخط هو بالتأكيد ضرورة لأمن روسيا إزاء التهديد النازي. وفي كل الأحوال، فإن جبهة شرقية تشكلت، جعلت ألمانيا تتهيب من مهاجمتها».

حين تبين لفرنسا وإنكلترا أن اندفاعة الجيش النازي عبر الأراضي البولونية باتجاه الاتحاد السوفييتي كانت مجرد أمل خائب، اضطرتا إلى إعلان الحرب على ألمانيا... غير أن أية قنبلة واحدة لم تنفجر على الجبهة الغربية لتعكر هدوء النازيين أو تثير قلقهم، وبالمقابل، انطلقت شرارة حرب سياسية حقيقية داخل إنكلترا وفرنسا ضد الشيوعيين. وفي 26 أيلول، حُظر نشاط الحزب الشيوعي، وزج بالآلاف من الشيوعيين في السجون. كتب هنري كيريلليس:

«ثمة عاصفة هوجاء، يصعب وصفها، أيقظت الضمير البورجوازي، روحاً صليبية تنفث الحقد والسخط المتفجر. ولا يُسمع إلا صرخة واحدة: الحرب، الحرب ضد روسيا. وحينذاك بلغ الجنون المعادي للشيوعية ذروته».

في تلك البرهة من التاريخ، تحدث ستالين إلى جوكوف بتبصر نفّاذ:

«إن الحكومة الفرنسية، برئاسة دالادييه، والحكومة البريطانية برئاسة شامبرلين لا ترغبان قط في الالتزام جدياً بشنّ حرب ضد هتلر. إنهما تأملان دوماً بدفع هتلر إلى حرب ضد الاتحاد السوفييتي. وإذا ما رفضتا في عام 1939 تشكيل جبهة معنا ضد هتلر، فذلك لأنهما كانتا لا تريدان تقييد يدي هتلر. غير أن مساعيهما قد فشلت كلياً. وسيكون عليهما الآن أن تدفعا الثمن لقاء سياستهما القصيرة النظر».

إن الحكومة السوفييتية التي كانت تدرك بأن الحرب مع ألمانيا لا مناص منها. كان يساورها قلق شديد بشأن أمن مدينة لينينغراد، الواقعة على مسافة 23 كم من الحدود الفنلندية. وفي 14 تشرين أول عام 1939 أرسل ستالين إلى

الحكومة الفنلندية مذكرة دبلوماسية يـدور مضمونها حـول مشـكلة الدفـاع عـن لينينغراد. كان الاتحاد السوفييتي يريد أن يتثبّت مـن «إغـلاق مدخـل خليج فنلندا». وطلب من فنلندا أن تؤجر له ميناء هانكو، وأن تـترك لـه أربعـة جـزر كي يتمكن من الدفاع عن لينينغـراد. وطلـب أيضـاً جـزءاً مـن مضيـق كـاريلي. وبالمقابل يقدم الاتحاد السوفييتي لفنلندا جزءاً من كاريلي السـوفييتية. غـير أن فنلندا، وبضغط من ألمانيا، رفضت الطلب السـوفييتي مرتـين رفضـاً قاطعـاً. وفي 30 كانون أول من عام 1939، أعلن الاتحاد السوفييتي الحرب ضد فنلندا، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى أعطى هتلر تعليماتـه بشـن الحـرب ضـد الاتحـاد السوفييتي وقد قال، من جملة ما قال:

«على جانبي عملنا الحربي، سيكون بإمكاننا الاعتماد على التدخل الفعـال لرومانيا ولفنلندا في الحرب ضد روسيا السوفييتية».

لم تعـد إنكلـترا وفرنسـا الآن، وبعـد الهجـوم السـوفييتي باتجـاه فنلنـــدا، منشغلتين «بحرب كلامية مسلية» ضد الاتحاد السوفييتي. بل إنهما اندفعتا إلى حرب ملؤها الدم والنار ضد التهديد البلشـفي. وخـلال ثلاثـة شـهور، أرسـلت إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا الفاشية 700 طـائرة، و1500 مدفـع، و6,000 رشاش إلى فنلندا «ضحية العدوان البلشفي».

توجه الجـنرال الفرنسـي وايفـاند إلى سـوريا، وتركيـا ليجهـز هجومـاً ضـد الاتحاد السوفييتي انطلاقاً من الجنوب، وارتأت رئاسة الأركان الفرنسية قصف آبار النفط في باكو. وكتب الجنرال سيرينيي، في الوقت ذاته:

«إن باكو، في الحقيقة، بإنتاجها 23 مليون طن من النفط، تتحكـم بـالموقف تماماً. فإذا توصلنا إلى احتـلال القفقـاس، أو إذا مـا جعلنـا مصـافي النفـط فيهـا طعمة للنيران، ببساطة، بواسطة أسطولنا الجوي، فإن الوحـش سـيخر صريعـاً متخبطاً بدمه».

في الوقـت الـذي لم تطلـق فيـه الحكومـة الفرنسـية طلقـة واحـــدة باتجـــاه الهتلريين، الذين أعلنت عليهم الحرب، فقد جهـزت حملـة عسـكرية قوامهـا 50.000 رجل لقتال الحمر. وأعلن شامبرلن بأنه سيرسل 100.000 جندي. غـير أن هذه القوات لم تطأ أرض فنلندا لأن الجيش الأحمر شتت الجيـش الفنلنـدي بسرعة: وتم التوقيع إثر ذلك على اتفـاق سـلام بـين الطرفـين في 14 آذار عـام 1939. وفيمـا بعـد، وفي غمـرة الحـرب ظهـر منشـور ديغـولي في شـــوارع ريو دي جانيرو، جاء فيه:

«في نهاية شتاء عام 1939-1940 فشلت مؤامرة شامبرلين ودالادييه السياسية والعسكرية التي كان هدفها القيام بانعطاف صوب الاتحاد السوفييتي، ووضع حد للنزاع بين الحلف الفرانكو - إنكليزي وبين ألمانيا، عبر تسوية، وتحالف ضد الكومنترن. كانت تلك المؤامرة تتكون من إرسال حملة عسكرية فرانكو - إنكليزية لمؤازرة الفنلنديين، حيث سيؤدي تدخلهم إلى حالة حرب مع الاتحاد السوفييتي».

هيأ الميثاق الألماني - السوفييتي، والهزيمة الفنلندية، شروط انتصار الجيش الأحمر ضد النازيين. وكان لتلكما الواقعتين أربع نتائج أولية:

فقد حالتا دون تشكيل جبهة موحدة من القوى الإمبريالية ضد الاتحاد السوفييتي الاشتراكي. فهجوم الألمان عام 1939، لو حدث، لكان جرّ بالتأكيد تدخلاً عسكرياً يابانياً في سيبيريا. خلافاً لذلك، نجح الاتحاد السوفييتي، الآن في توقيع ميثاق عدم اعتداء مع اليابان ظل صامداً حتى هزيمة الفاشية.

إن فرنسا وإنكلترا اللتين كانتا قد رفضتا، طوال أعوام الثلاثينات، نظام أمن جماعي اضطرتا إلى الدخول في حلف عسكري فعلي مع الاتحاد السوفييتي في اللحظة التي تخلى فيها الألمان عن الميثاق الألماني - السوفييتي.

وتمكن الاتحاد السوفييتي من تقديم خطوط دفاعه من 150 إلى 300 كم. وكان لهذا العامل أثر كبير على الدفاع عن لينينغراد، وموسكو، في نهاية عام 1941.

لقد كسب الاتحاد السوفييتي 21 شهراً من السلام، مما سمح له بتعزيز صناعته الحربية وقواته المسلحة، بصورة حاسمة.

هل كان ستالين
سيئ الاستعداد للحرب ضد الفاشيين؟

حين تسلم خروشوف السلطة، انحرف كلياً بخط الحزب البلشفي. ولكي يتم له ذلك، كان عليه أن يشنع على ستالين، وعلى سياسته الماركسية اللينينية. وفي سلسلة من الافتراءات الخالية من أي صدق، مضى خروشوف إلى الحد الذي أنكر فيه الجدارات العظيمة لستالين في الاستعداد وفي قيادة الحرب ضد الفاشيين.

على هذا النحو، زعم خروشوف بأنه في غضون سنوات 1936ـ1941 كان ستالين قد أضعف استعداد البلاد للحرب. وهذه أقواله:

«روج ستالين للموضوعة التي تقول بأن المأساة التي حدثت كانت نتيجة للهجوم المفاجئ الذي شنه الألمان ضد الاتحاد السوفييتي. ولكن ذلك، أيها الرفاق غير صحيح كلياً. فمنذ أن سيطر هتلر على السلطة في ألمانيا، جعل همه تصفية الشيوعية (...) ثمة العديد من الوقائع في الفترة التي سبقت الحرب أظهرت بأن هتلر كان يعدّ العدة لحرب ضد الدولة السوفييتية». «لو كانت صناعتنا قد جُنّدت بطريقة ملائمة، وفي الوقت المطلوب لتزويد الجيش بالعتاد الضروري لكانت خسائرنا أقل بالتأكيد (...) كان جيشنا سيئ التجهيز (...) كانت التكنولوجيا السوفييتية قد أنتجت قبل الحرب نماذج ممتازة من الدبابات ومن قطع الرشاشات، ولكن الإنتاج الغزير من هذه النماذج أفقدها الجودة والإتقان».

أن يطيق المشاركون في المؤتمر العشرين سماع هذه الافتراءات دون أن يندّ عنهم ومن أية جهة، احتجاجات ساخطة، فإن ذلك يشهد شهادة بليغة على مدى الانحطاط السياسي القائم آنذاك. ومع ذلك، فقد وُجد داخل الصالة عشرات من الماريشالات والجنرالات من الذين كانوا يعرفون إلى أي حد كانت هذه الأقوال مثيرة للسخرية. ولكنهم، لأول وهلة لم ينبسوا بكلمة واحدة. فاحترافيتهم الصارمة، وحصريّتهم العسكرية، واستنكارهم للنضال السياسي في داخل الحزب، ورفضهم للقيادة الإيديولوجية والسياسية على الجيش، من قبل الحزب، كل ذلك كان يقرّبهم من تحريفية خروشوف. إن جوكوف وفاسيليفسكي، ورروكوسوفسكي، بل وجميع القادة العسكريين الكبار، لم يوافقوا، عملياً، على ضرورة التطهيرات التي تمت داخل الجيش في عامي 1937ـ 1938، ولم يكونوا يفهمون أيضاً الرهانات السياسية في محاكمة بوخارين. ولهذه الأسباب، أيدوا خروشوف حينما استبدل الماركسية اللينينية بموضوعات لقطها من المناشفة، ومن التروتسكيين والبوخارينيين. وهذا يفسر لماذا ابتلع الماريشالات أكاذيب خروشوف المتعلقة بالحرب العالمية الثانية. وهذه الأكاذيب سيدحضونها فيما بعد في مذكراتهم. حينما لن يعود لديهم أي رهان سياسي، وحينما ستغدو تلك المسائل، مسائل أكاديمية بالتحديد.

في مذكراته، المنشورة عام 1970، أكد جوكوف، بحق، وفي مواجهة مزاعم خروشوف بأن السياسة الدفاعية الحقيقية بدأت مع قرار ستالين بإطلاق عملية التصنيع عام 1928.

«كان من الممكن إرجاء التطوير المتسارع للصناعة الثقيلة، خمس سنوات أو ست، لإعطاء الشعب مواد استهلاكية رائجة في وقت أبكر، وبكميات أوفر. ألم يكن ذلك مغرياً؟».

«لقد هيأ ستالين الدفاع عن الاتحاد السوفييتي، ببنائه أكثر من 9.000 مشروع صناعي فيما بين عامي 1928 و1941، وباتخاذه القرار الستراتيجي بأن يقيم في شرق البلاد قاعدة صناعية جبارة». وبخصوص السياسة الصناعية أجزل جوكوف آيات الاحترام «لحكمة ونفاذ بصر ستالين اللذين أكدهما بنحو حاسم، الحكم الأعلى للتاريخ» إبان الحرب.

في عام 1920 توجب البدء من الصفر في كافة مجالات الإنتاج العسكري تقريباً. وخلال السنتين الأولى والثانية من الخطة الخمسية، كان الحزب قد قدّر بالنسبة للصناعات الحربية معدلاً للنمو أعلى من معدل الفروع الصناعية الأخرى.

لنلق نظرة على رقمين معبّرين في الخطتين الأولى والثانية:

كان إنتاج الدبابات السنوي 740 وحدة في عام 1930، وقد تصاعد في عام 1938 إلى 2271 وحدة، وبالنسبة للفترة نفسها فإن بناء الطائرات كان قد ازداد إلى 860 وحدة في العام، بعد أن كان 550 وحدة.

خلال الخطة الخمسية الثالثة، ما بين عامي 1938ـ1940 تصاعد معدل الإنتاج الصناعي 3٪ في السنة، غير أن الإنتاج الصناعي الدفاعي ازداد بمعدل 39٪.

إن المهلة التي وفرها الاتفاق الألماني ـ السوفييتي قد استغلها ستالين كي يدفع الإنتاج العسكري إلى أقصى مداه. ويشهد جوكوف على ذلك:

«كي تتمكن مصانع الدفاع في بعض المجالات ذات الأهمية من الحصول علي كل ما كان ضرورياً لها، فإن مندوبين من اللجنة المركزية، وخبراء مجرّبين واختصاصيين معروفين عيّنوا على رأس منظماتهم الحزبية كي يكون لديهم سرعة القرار. ينبغي علي القول بأن جوزيف ستالين قام بعمل هائل، مهتماً هو بنفسه بالمشاريع العاملة في مجال الدفاع. وكان يعرف معرفة جيدة عشرات من مدراء المصانع ومن المنظمين الحزبيين، والمهندسين الأساسيين، وكان يراهم في غالب الأحيان، ويتوصل بروح الدأب التي تميزه، إلى تحقيق الخطة المنصوص عليها».

إن تسليمات الأسلحة المنجزة ما بين 1 كانون الثاني 1939 و22 حزيران 1941 لتبعث على الذهول.

بلغ عدد المدافع المسلّمة 92.578 مدفعاً، كان 29.637 مدفعاً منها من مدفعية الميدان و52.407 مدافع هاون. ثم أُنتجت مدافع هاون جديدة من عيار 82 مم وعيار 122 مم قبل نشوب الحرب تماماً.

وحصلت القوى الجوية على 17.745 طائرة مقاتلة كان 3719 طائرة منها من النماذج الجديدة. وفي مجال الطيران، يقول جوكوف: «أفضت التدابير المتخذة بين عامي 1939 و1941 إلى خلق الشروط اللازمة للوصول بسرعة خلال الحرب إلى التفوق الكمي والنوعي على العدو النازي».

تلقى الجيش الأحمر أكثر من 7.000 دبابة، وفي عام 1940 بُدئ العمل بإنتاج دبابة متوسطة T-34 ودبابة ثقيلة KV متفوقة على الدبابات الألمانية، وأُنتج منها حينما انفجرت الحرب 1851 دبابة.

بصدد هذه الإنجازات، كما بصدد التعبير عن ازدرائه لاتهامات خروشوف أخضع جوكوف نفسه لنقد ذاتي معبّر:

«حينما أتذكر ما كنا نطلبه نحن العسكريين من الصناعة خلال الأشهر الأخيرة التي سبقت الحرب، وكيف كنا نطلب ذلك، أرى كما كنا غير مدركين لإمكانيات البلاد الاقتصادية الواقعية».

إن المواجهات العسكرية مع اليابان في منتصف آب عام 1939 ومع فنلندا ما بين كانون أول عام 1939 وآذار 1940 كانت مرتبطة مباشرة بالمقاومة ضد الفاشيين. وقد تم تحليل هذه التجارب القتالية في العمق لسد الثغرات ونقاط الضعف في الجيش الأحمر.

ففي آذار من عام 1940 خُصص اجتماع اللجنة المركزية لمراجعة العمليات القتالية ضد فنلندا.

يؤكد جوكوف: «كانت النقاشات بالغة العنف، ووُجهت انتقادات قاسية لتدريب قطعاتنا العسكرية وتشكيلها».

كانت كييف في رأي ستالين تكتسي أهمية عسكرية خاصة. فقد كان من المنتظر أن توجّه الضربة الرئيسة في العدوان الألماني إلى هذه المدينة. يقول جوكوف:

«كان ستالين مقتنعاً بأن الهتلريين في حربهم ضد الاتحاد السوفييتي سيحاولون في المقام الأول السيطرة على أوكرانيا وعلى حوض الدونيتز كي

يحرموا بلادنا من هـاتين المنطقتـين الاقتصـاديتين المهمتـين، وللاسـتيلاء علـى القمح الأوكراني، وعلى فحم الدونيـتز، وفيمـا بعـد علـى بـترول القفقـاس. وفي معرض مراجعة الخطة العملياتية، في ربيع عام 1941، قال سـتالين: مـن دون أن تمتلك ألمانيا هذه الموارد الحيوية الهامة، فلن يكون في وسع ألمانيـا الفاشـية أن تخوض حرباً طويلة».

في صيف وخريف عام 1940 أخضع جوكوف قطعاتـه العسـكرية لتدريبـات مكثفة على القتال. ولاحظ أن لديه العديد من الضباط الشباب، ومن الجنرالات الأكفاء. وعرض عليهم الدروس المستخلصة من العمليـات الألمانيـة ضـد فرنسـا. وجعلهم يتمثلونها.

ومن 23 كانون أول عام 1940 وحتى 13 كانون الثاني عام 1941 دُعي كافة الضباط الكبار إلى اجتماع موسّع. وكانت الحرب القادمة مع ألمانيـا هـي محـور المناقشات. دُرست باهتمام خـاص التجربـة المتراكمـة لـدى الفاشـيين والمتعلقـة بفرقهم المدرعة الهائلة. وغداة الاجتماع نفذ تدريب عملياتي وستراتيجي مرفـق بخارطة للعمليات. وقد حضر ستالين الاجتماع. وكتب جوكوف:

«كان الموقف الاستراتيجي يرتكز على الأحـداث الحربيـة المفترضـة، التـي سيكون من المحتمل أن تدور على حدودنا الغربية في حال هاجم الألمان الاتحاد السوفييتي».

وجرت مناورة تدريبيـة مثّـل فيهـا جوكـوف قيـادة العـدوان النـازي ومثّـل بافلوف قيادة المقاومة السوفييتية. يقول جوكوف:

«كانت التدريبات على مواجهة الظروف الطارئـة الدراماتيكيـة قائمـة علـى قدم وساق من قبل أعضاء الحزب. والأوضاع التي ظهرت بعد 22 حزيـران عـام 1941 (أي بعد الهجوم النازي) تشبه إلى حد كبير الأوضاع التي جرى التدريب عليهـا» وعلّق جوكـوف. خسـر بـافلوف الحـرب ضـد النـازيين (في المنـاورة التدريبية) ووبخه ستالين بعنف قائلاً:

«على قائد القوات في منطقة ما أن يمتلك الفن العسكري، وأن يعرف كيـف يجد الحل إزاء كل موقف يواجهه. ولم تكن هذه حالك».

في عـام 1940 كـان بنـاء القطاعـات المحصنـة علـى طـول الحـدود الغربيـة الجديدة قد شارف على نهايته. وفي بداية الحرب كان قد تم بناء حـوالي 2500 تحصين إسمنتي. وكان 140.000 رجل يعملون هناك كل يوم.

«وكان ستالين يستحثنا باستمرار على إنجاز ذلك» يقول جوكوف.

في مؤتمر الحـزب الثـامن عشـر مـا بـين 15 و20 شـباط عـام 1940 كُرسـت النقاشات لبحث الاستعدادات الصناعية. واستعدادات النقل، تحسـباً للحـرب وانتخب المندوبـون القـادمون مـن شـتى أرجـاء الاتحـاد السـوفييتي عـدداً مـن العسكريين كأعضاء احتياطيين في اللجنة المركزية.

في بداية آذار عام 1941 طلب تيموشـينكو وجوكـوف مـن سـتالين اسـتدعاء المشاة الاحتياطيين ورفض ستالين، كي لا يعطي حجة للألمان لإثـارة الحـرب. «وفي النهايـة وافـق في نهايـة آذار علـى اسـتدعاء 800.000 مـن جنـود المشـاة الاحتياطيين توجهوا فوراً إلى الحدود». وفي نيسان أخبر قـائد الأركـان العامـة، ستالين بأن قطعات المناطق العسكرية في البلطيق، وبيليروسيا وكييـف وأوديسـا لن تكون كافية لردّ الهجوم، «وقرر ستالين أن يدفع نحو الحـدود بـ 28 فرقـة تؤلـف أربعـة جيـوش وأشـار إلى ضـرورة التصـرف بـأقصى الحـذر لعـدم إثـارة النازيين».

في 5 أيار من عام 1941 تحدث ستالين في قصر الكرملـين الكبـير أمـام عـدد من الضباط، من خريجي الأكاديمية العسكرية. وكان موضوعه المركزي:

«يخطئ الألمان في اعتقادهم بأن جيشهم جيش لا يُقهر».

كل هذه الوقائع تسمح بدحض سـائر الانتقـادات المغرضـة، والـتي أطلقـت ببساطة ضد ستالين: مثل «كان ستالين قـد جهـز الجيـش للهجـوم لا للدفـاع» «إنه يثق بالميثاق الألماني ـ السوفييتي، وبهتـلر، شـريكه في الحـرب» «لم يكـن يتصور بأنه سيكون هناك حرب مع النازيين». هذه الافتراءات كانت ترمـي إلى التشنيع على المآثر التاريخية للشيوعيين وبالتالي، لزيادة هيبة خصومهم.

لقـد حـرص جوكـوف، الـذي لعـب دوراً أساسياً في وصـول خروشـوف إلى السلطة ما بين عامي 1953ـ 1957، حـرص في مذكراتـه علـى تكذيـب التقريـر السري الشهير لخروشوف، وعلى دحضه بطريقة لاذعة، وخاصـة فيمـا يتعلـق باستعداد البلاد للحرب، وقد استنتج جوكوف ما يلي:

«إن العمل الدفاعي الوطني، بخطوطه وتوجهاته الأساسية كـان قـد أنجـز على النحو المطلوب. وخلال أعوام، تم فعل كل ما كان يمكن فعلـه تقريبـاً، في القطاع الاقتصادي، مثلما في الميدان الاجتماعي. وفيما يتعلق بالفترة الممتـدة مـن عام 1939 وحتى أواسط عام 1941. فقد قدّم الشعب والحزب، من اجل تعزيـز الدفاع جهوداً جبارة بنحو خاص. جهوداً كـانت تتطلـب تجنيـد كافـة القـوى وكافة الوسائل. صناعة متطورة، زراعة جماعية تعاونية، تعليم شـعبي يشـمل

جميع السكان، وحدة الأمة، قوة الدولة الاشتراكية، مستوى عال من الروح الوطنية لدى الشعب، قيادة كانت مستعدة، من خلال الحزب للتوحيد بين الجبهة والمؤخرة. وكل هذه العوامل مجتمعة كانت هي السبب الأول في الانتصار العظيم الذي كان لابد أن يتوّج نضالنا ضد الفاشية. إن الواقعة الفريدة المتمثلة في أن صناعتنا السوفييتية كان في وسعها إنتاج كمية هائلة من الأسلحة، حوالي 490.000 مدفع ميدان ومدفع هاون وأكثر من 102.000 دبابة ومدفع ذاتي الدفع، وأكثر من 137.000 طائرة مقاتلة. إن هذه الواقعة لتشهد وحدها، على أن الأسس الاقتصادية، من وجهة النظر العسكرية كانت منجزة على النحو المطلوب. وكانت راسخة». «وفي كل ما هو جوهري وأساسي فقد استطاع الحزب والشعب أن يهيىء الدفاع عن الوطن. ذلكم هو الأساسي والجوهري، الذي هو في نهاية المطاف يقرر مصير أي بلد يخوض الحرب».

يوم الهجوم الألماني

من أجل مهاجمة الجدارة الفائقة لستالين، الذي كان بلا منازع أعظم قائد عسكري في الحرب ضد الفاشيين، يطيب لأعدائه أن يطنبوا في الحديث حول «الخطأ الفادح» الذي اقترفه ستالين حين لم يتنبأ بالتاريخ الدقيق للعدوان النازي.

يؤكد خروشوف في تقريره السري:

«ثمة وثائق تثبت أن تشرشل حذّر ستالين شخصياً في 3 نيسان عام 1941 بأن الألمان كانوا قد باشروا بتجميع قواتهم المسلحة بنية الهجوم على الاتحاد السوفييتي (...) ومع ذلك، فإن ستالين لم يلق بالاً إلى هذه التحذيرات».

يتابع خروشوف قائلاً بأن ملحقين عسكريين سوفييت في برلين كانوا قد نقلوا شائعات تفيد بأن الهجوم ضد الاتحاد السوفييتي سيبدأ إما في 15 أيار أو في 15 حزيران».

«بالرغم من هذه التحذيرات الخطيرة بنحو خاص، لم تُتخذ التدابير المطلوبة من أجل إعداد البلاد للدفاع عن نفسها»، «حينما اجتاحت الجيوش الفاشية فعلياً الأراضي السوفييتية أمرت موسكو بعدم الرد على إطلاق النار من قبل الألمان (...) «كان بعض المواطنين الألمان قد اجتازوا الحدود وبلّغوا بأن لجيوش الألمانية كانت قد تلقت الأمر. بشنّ هجومها في ليلة 22 حزيران، في

الساعة الثالثة. وقد أُبلغ ستالين بذلك فوراً. ولكن، حتى هذا التحذير تم تجاهله».

هذه الرواية يشيعها سائر الأدب البرجوازي والتحريفي. فيلتسين مثلاً كتب بأنه في ظل «النظام الدكتاتوري والشخصي الذي أقامه ستالين، لم يكن أحد ليجرؤ على تنبيهه، إلى هذا الخطأ الفادح في الرأي».

ماذا يمكن القول بشأن هذا اليوم الأول من أيام الحرب؟

كان ستالين يدرك تمام الأدراك بأن الحرب ستكون مريرة إلى أقصى الحدود، وأن الفاشيين سيبيدون، من دون رحمة، الشيوعيين السوفييت، وعبر إرهاب لا مثيل له سيحوّلون الشعوب السوفييتية إلى عبيد.

كان الهتلريون الألمان قد عززوا قواهم بكل طاقة الاقتصاد الأوروبي. وكان كل شهر، كل أسبوع من السلام يوفر تعزيزاً قيّماً للدفاع السوفييتي. سجل الماريشال فسيليفسكي:

«كانت القيادة السياسية للبلاد ترى دنو الحرب، وكانت تبذل الحد الأقصى من الجهود كي تؤخر مهلة انخراط الاتحاد السوفييتي في النزاع. كان ذلك توجهاً حكيماً وواقعياً. وكان وضعه موضع التنفيذ يتطلب قبل كل شيء إدارة بارعة للعلاقات الدبلوماسية مع البلدان الرأسمالية وبخاصة المعتدية منها. وقد تلقى الجيش تعليمات جدّ مشددة بأن «لا يبدر عنه أي تصرف يتيح للقادة الهتلريين أن يستغلوه كي يلهبوا الوضع أو يستغلوه كاستفزاز عسكري».

كان الوضع على الحدود بالغ التوتر منذ شهر أيار عام 1941، وكان ينبغي الاحتفاظ بالدم البارد، وعدم الانجرار إلى الرد على الاستفزازات الألمانية. كتب فاسيليفسكي بهذا الصدد: «كان استنفار القوات في المنطقة الحدودية بحد ذاته حدثاً استثنائياً. وكان وضع القوات المسلحة في حالة استنفار مبكر لا يقل ضرراً عن تأخره. فمن السياسة العدائية لبلد مجاور إلى حالة الحرب معه. هناك في الغالب مسافة واسعة».

لم يكن هتلر قد أفلح في اكتساح إنكلترا أو في زعزعة وضعها. فالإمبراطورية البريطانية كانت دائماً القوة العسكرية الأولى في العالم. كان ستالين يدرك بأن هتلر سيتحاشى، بكل ثمن حرباً بين الجبهتين الألمانية والسوفييتية. فقد كان ثمة حجج مقنعة للاعتقاد بأن هتلر سيعمل المستحيل من أجل قهر إنكلترا قبل أن يشنّ أعماله العدوانية ضد الاتحاد السوفييتي.

ومنذ عدة أشهر كان ستالين يتلقى معلومات من دوائر الاستخبارات السوفييتية تعلن بأن العدوان الألماني سيبدأ خلال أسبوع أو أسبوعين. كثير من هذه المعلومات كانت تسميماً للأجواء صادراً عن البريطانيين أو الأمريكان الذين كانوا يرغبون بأن تستدير الذئاب الفاشية صوب البلد الاشتراكي. وكان كل تدبير لتقوية الدفاع على الحدود السوفييتية يستغل من قبل الأوساط اليمينية الأمريكية للإعلان عن هجوم سوفييتي وشيك ضد ألمانيا. وقد سجل جوكوف:

«في ربيع عام 1941 لوحظ في داخل البلدان الغربية فيض من المعلومات ذات طبيعة تحريضية تتعلق باستعدادات عسكرية هامة يجريها الاتحاد السوفييتي ضد ألمانيا».

وهكذا، إذن، فقد كان اليمين الأنكلو ـ أمريكي يدفع بالفاشيين دفعاً باتجاه الاتحاد السوفييتي. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن في حوزة ستالين أية ضمانة حول الموقف الإنكليزي والأمريكي، في حال عدوان نازي على الاتحاد السوفييتي. وفي أيار من عام 1941 كان رودولف هيس، الرجل الثاني في الحزب النازي قد وصل إلى إنكلترا. وسجل شيفتون دملر الذي كان يدير محطة البث الإذاعي الإنكليزي الخاصة ببث السموم المضللة والمعكرة للأجواء الموجهة للقيادة الألمانية، سجل في كتابه ما يلي:

«أكد هيس بأن الهدف من رحلته إلى إنكلترا كان عرض السلام على الإنكليز «تحت أية شروط كانت» شرط أن توافق بريطانيا العظمى على الاشتراك في الهجوم على الاتحاد السوفييتي إلى جانب ألمانيا (...) إن انتصار ألمانيا، متحالفة مع الروس، أعلن هيس، سيعني انتصار البلاشفة في النهاية. وهو ما سيؤول إن عاجلاً أم آجلاً إلى احتلال ألمانيا وباقي أوروبا من قبل الروس».

في إنكلترا كان الاتجاه إلى الاتفاق مع هتلر ضد الاتحاد السوفييتي متأصل الجذور وثمة واقعة حديثة العهد جاءت لتشهد على ذلك. ففي عام 1993 انفجرت في بريطانيا العظمى مجادلة حول كتاب: نهاية الأمجاد. وهو سيرة لتشرشل، بقلم جون شارملي، وقد ورد فيها مداخلة لوزير الدفاع الأسبق لدى تاتشر، آلان كلارك: «كان من الأفضل لتشرشل أن يعقد اتفاق سلام مع الألمان، في ربيع عام 1941. فألمانيا النازية وروسيا البلشفية، كانتا ستلتهمان إحداهما الأخرى: وكانت إنكلترا ستحتفظ بإمبراطوريتها بعد هلاك الطرفين العدوين».

لنعد إلى بداية عام 1941: كان ستالين يتلقى، في مكتبه حينذاك العديد من الأخبار والمعلومات القادمة من شتى أرجاء العالم، معلنة جميعها، بأن هجوماً ألمانياً على إنكلترا بات وشيكاً. وحين كان ستالين يشاهد في الوقت نفسه تقارير صادرة من إنكلترا تعلن عن عدوان وشيك من النازيين ضد الاتحاد السوفييتي، كان عليه أن يتساءل: ضمن أي إطار يمكن فهم التضليل الإنكليزي المسموم الذي يرمي إلى تحويل اتجاه هجوم هتلري ضد بريطانيا العظمى؟

بعد انتهاء الحرب أصبح معروفاً بأن المارشال الألماني كيتل، مستخدماً أوامر من هتلر في 3 شباط 1941، كان قد نظم ما سُمي «بأكبر مناورة تضليلية، وأكثرها أهمية في التاريخ». وقد كتب جوكوف «بأن الجيش الألماني كان قد طبع كمية كبيرة من الوثائق المرجعية الشاملة عن إنكلترا، وعيّن للوحدات العسكرية الألمانية مترجمين للغة الأنكليزية. وكان قد جهّز عملية «لعزل» بضع مناطق على شاطئ المانش، وبادوكاليه، وفي النرويج، وأشاع معلومات عن فرق عسكرية محمولة جداً وهمية طبعاً. وكان قد أقام على امتداد الشواطئ بطاريات صواريخ مزيفة» «وفي الوقت الذي أوقفت فيه الدعاية الألمانية هجماتها المعتادة ضد الاتحاد السوفييتي، فإنها لم تعد تشنها إلا ضد إنكلترا».

«قال لي ستالين بأن رجلاً أبلغنا معلومات مهمة جداً حول موضوع نوايا الحكومة الهتلرية. ولكنّ لدينا بعض الشكوك حولها،... كان يتكلم، ربما، عن ج سورج».

في رأي جوكوف، فإن إدارة الاستخبارات السوفييتية تتحمل نصيبها من المسؤولية في خطأ تقديراتها لتاريخ العدوان النازي.

ففي 20 آذار عام 1941 نقل رئيس دائرة الاستخبارات، الجنرال غوليكوف إلى ستالين تقريراً يتضمن معلومات ذات أهمية استثنائية. وقد بيّن بوضوح بأن العدوان سيقع ما بين 15 أيار و15 حزيران. ولكنه أشار في استخلاصه بأن هذه المعلومات كانت «جزءاً من السموم والأضاليل الصادرة عن الدوائر الاستخبارية البريطانية، أو ربما، الألمانية». وقد قدّر غوليكوف بأن العدوان النازي سيحدث في «اللحظة التي تعقب انتصار الألمان على إنكلترا».

في 13 حزيران، طلب تيموشنكو من ستالين وضع القوات في حالة التأهب.

«سنفكر في ذلك» قال ستالين. وفي صبيحة الغد، أعاد تيموشنكو وجوكوف الكرّة، فرد عليهما ستالين:

«أنتما تقترحان علي تنفيذ الاستنفار، ولكنها الحرب، أأنتما تدركان ذلك؟»

فرد جوكوف بأنه حسب دوائر الاستخبارات، فإن الفرق الألمانية أصبحت جاهزة تماماً أجاب ستالين:

«لا يمكننا الوثوق بكل دوائر الاستخبارات».

في تلك اللحظة تماماً، تلقى ستالين نداء هاتفياً من خروشوف.

«من أجوبة ستالين، سيكتب جوكوف فيما بعد، فهمنا بأن الحديث كان يدور عن الزراعة «هذا جيد»، قال ستالين. كان خروشوف يصوّر له من دون شك بكثير من التفاؤل والتجميل آفاق موسم زراعي وفير».

بالنسبة لجوكوف فإن هذه الملاحظة تشير إلى غدر خروشوف الصريح فيما بعد. فنحن نعلم أن خروشوف هاجم بعنف في تقريره السري «فقدان التيقظ والحذر» و«اللامسؤولية» لدى ستالين. ولكنه في اللحظة ذاتها التي كان جوكوف وتيموشنكو وستالين يناقشون احتمالات عدوان ألماني داهم كان المتيقظ النبيه خروشوف يتحدث عن الخضار والحبوب...

في مساء يوم 21 حزيران نقل جندي ألماني هارب إلى الجانب السوفييتي خبراً بأن الهجوم الألماني سيبدأ في الليلة القادمة، وسارع جوكوف وتيموشنكو وفاتوتين للاجتماع بستالين الذي سألهم:

«ولكن إذا كان الجنرالات الألمان هم الذين أرسلوا لنا هذا الجندي الهارب كي نستثير نزاعاً فما قولكم؟

أجاب تيموشنكو: «إن الجندي الألماني يقول الحقيقة».

قال ستالين: وماذا سنفعل؟

رد تيموشنكو: ينبغي وضع القوات في حالة التأهب.

وبعد مناقشة قصيرة حرّر العسكريون الثلاثة نصاً، أدخل عليه ستالين بعض التعديلات. وها هو ذا جوهر النص:

«آمر بما يلي:

آ ـ احتلال مواقع الرمي في القطاعات المعززة على امتداد حدود الدولة. سراً، وخلال ليلة 21 إلى 1941/6/22.

ب ـ نشر كافة سلاح الطيران فوق مطارات الميدان قبل فجر 1941/6/22. بما فيه طيران الإسناد، وتمويه العملية بعناية.

ج ـ وضع كافة القطعات في حالة التأهب. واتخاذ كافة القطعات وضع الانتشار والتمويه.

توقيع: تيموشنكو وجوكوف. وقد تم تبليغ المناطق العسكرية بعد منتصف الليل بقليل. كان ذلك في 22 حزيران 1941.

بصدد الأشهر الأولى من الحرب، كتب خروشوف:

«بعد الهزائم الأولى، والكوارث الأولى على الجبهة، فكر ستالين بأن تلك كانت هي النهاية (...) لم يكن ستالين يقود فعلياً، ولفترة طويلة، العمليات العسكرية، وكفّ عن القيام بأي شيء مهما كان. ولم يستعد زمام القيادة الفعلية إلا بعد زيارة عدد من أعضاء المكتب السياسي». «كان ثمة محاولة لعقد دورة اجتماع للجنة المركزية في تشرين الأول عام 1941. وقد تم استدعاء أعضاء اللجنة المركزية إلى موسكو (...) لم يكن ستالين يرغب لا في لقاء أعضاء اللجنة المركزية ولا في التحدث إليهم. وهذا يُظهر كم كان ستالين مثبّطاً في الأشهر الأولى من الحرب».

«من 22 حزيران وحتى 3 تموز، اختفى ستالين عن الأنظار كلياً. كان قد غرق في شرب الفودكا، ولم يُفق من سكره خلال أحد عشر يوماً تقريباً».

لنعد إذن إلى ستالين، الثمل حتى الموت طيلة أحد عشر يوماً، والمثبط العزيمة أيضاً طوال أربعة أشهر.

حينما أخبره جوكوف في 22 حزيران من عام 1941 وفي الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين بأن طائرات ألمانية قصفت مدناً حدودية، طلب منه ستالين استدعاء المكتب السياسي واجتمع أعضاء المجلس في الساعة 4 والدقيقة 30. وأعلمهم فاتوتين بأن وحدة أرضية ألمانية بدأت الهجوم. وبعد وقت قصير تم إعلان الحرب مع ألمانيا.

أدرك ستالين أكثر من أي شخص آخر إلى أي درك من الهمجية والبربرية ستخضع بلاده منذ الآن. وقد لبث صامتاً وقتاً طويلاً. يتذكر جوكوف تلك اللحظة المأساوية:

«كان ستالين رجلاً عنيد الإرادة، مفعماً بالحيوية والشجاعة، ولمرة واحدة رأيته خائراً حزيناً، كان ذلك في فجر 22 حزيران عام 1941، كان يقينه بإمكانية تحاشي هذه الحرب قد تقوض تماماً».

اقترح جوكوف ساعتذاك مهاجمة الوحدات الألمانية مباشرة. طلب منه ستالين أن يحرّر أمراً بذلك، يبدأ من الساعة 7 والدقيقة 15. «ولكن هذا الأمر لم يعد مناسباً للواقع، ولم يجر تطبيقه» أوضح جوكوف.

إن تأكيد خروشوف بأن ستالين «أمر بأن لا يجري الرد على النيران الألمانية» هو إذن محض كذب.

إذا كان ستالين بدا مزعزعاً في لحظة إخباره بانفجار الحرب، فإنه كما كتب جوكوف: «بعد 22 حزيران 1941، وطوال فترة الحرب ضمن جوزيف ستالين قيادة صلبة للبلاد، وللحرب، ولعلاقاتنا الدولية».

من جهة أخرى، ففي يوم 22 حزيران نفسه، اتخذ ستالين قرارات على جانب كبير من الأهمية، يشهد بذلك جوكوف:

«في نحو الساعة 13 من يوم 22 حزيران، استدعاني ستالين وقال: إن قادة جبهاتنا يفتقرون إلى تجربة كافية في قيادة العمليات العسكرية، والعديد منهم يتخبطون حائرين كما هو واضح. لقد قرر المكتب السياسي إرسالك إلى الجبهة الجنوبية الغربية بصفتك ممثلا للستافاكا (مدرسة القادة العسكريين والسياسيين التي يرعاها القائد الأعلى ستالين) وسنرسل الماريشال شابوشنيكوف والماريشال كوليك إلى الجبهة الغربية.

في نهاية ذلك النهار، كان جوكوف في كييف. ووصل إليه تعليمات من ستالين بتنفيذ عمليات هجوم مضاد. وقد ارتأى جوكوف بأن ذلك سابق لأوانه، بناء على أن مجلس الأركان لا يملك معلومات عما يجري فعلياً على الجبهات، ومع ذلك، فمنذ 24 حزيران قاد جوكوف الجيش الثامن والخامس عشر الميكانيكيين في هجوم مضاد. وكان ذلك «أول هجوم مضاد تم تنفيذه بنجاح».

لفت جوكوف الانتباه، بحق إلى «المعارك المجيدة على الحدود، خلال الفترة الأولية للحرب» والتي لم تدرس بصورة كافية، كما يقول. ولكن خروشوف، لسبب في نفسه، ولحاجته إلى حبك دسائسه السياسية، كان عليه أن يصف تلك الفترة كما لو أنها نتيجة لأخطاء إجرامية من قبل ستالين الذي كان قد أفسد بناء نظام دفاع قوي إفساداً كاملاً. والواقع أنه في مواجهة حرب خاطفة مع النازيين فإن التشوش والهزائم والخسائر الفادحة كانت، في جزء كبير منها، محتمة. والواقعة المهمة هي أن الجيش وكوادره القيادية وجدوا أنفسهم ضمن ظروف بالغة الحرج والصعوبة، فاندفعوا في مقاومة عاتية، وشرسة. وعبر معاركهم البطولية شرعوا منذ الأيام الأولى يخلقون الشروط المناسبة لهزيمة الحرب الخاطفة. وكل ذلك كان ممكناً، وفي جانب كبير منه، بفضل القيادة الحازمة لستالين.

منذ 26 حزيران، اتخذ ستالين قراراً استراتيجياً ببناء جبهة احتياطية، على بعد 300 كم خلف الجبهة، كي توقف زحف العدو عندها، فيما لو حدث أن توصل هذا العدو إلى اختراق خطوط الدفاع.

في اليوم نفسه انهارت الجبهة الغربية، واندفعت جحافل النازيين حتى مينسك عاصمة بيليروسيا. وفي المساء استدعى ستالين تيموشنكو وجوكوف وفاتوتين، وقال لهم:

«فكروا معاً، وقولوا ما الذي يمكن عمله إزاء الوضع الذي نواجهه» كتب جوكوف «كل اقتراحاتنا وافق عليها ستالين: إنشاء وضع دفاعي متدرج في العمق عبر خطوط تصل إلى موسكو، إنهاك العدو. وبعد إيقافه عند خطوط الدفاع نبدأ بشنّ هجوم مضاد، حين سيتم حشد القوى الضرورية».

في 26 حزيران أقرّت سلسلة من التدابير، سيعلنها ستالين على الشعب في خطابه الشهير المذاع عبر الراديو في 3 تموز 1941. وقد أثر مضمون الخطاب بكافة السوفييت، عبر بساطته، وعزيمته الصلبة على قهر العدو، وتحدث ستالين خاصة:

«إن عدونا عدو مجرم، قاس لا يرحم. وقد حدد هدفاً له الاستئثار بأرضنا المروية بعرقنا، وبعث القيصرية من قبرها، والقضاء على الثقافة والاستقلال الوطني لروسيا، وأوكرانيا، وتتاريا، ومولدافيا، وجورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان وشعوب حرة أخرى في الاتحاد السوفييتي، وجرمنتها، وتحويلها إلى عبيد للأمراء والبارونات الألمان. وهذا يعني، أيضاً الحياة أو الموت للدولة السوفييتية، ويعني الحرية أو العبودية لشعوب الاتحاد السوفييتي (...) فلينزع رجالنا الخوف من قلوبهم في هذا الصراع القاسي، ولينطلقوا إلى حربنا التحريرية بكل تفان ونكران ذات من أجل إنقاذ الوطن، وتحطيم المستعبدين الفاشيين. لقد قال لينين العظيم، لينين الذي أسس دولتنا، بأن الخصلة الجوهرية في رجالنا السوفييت ينبغي أن تكون هي البسالة، هي الجرأة، وهي الإقدام في النضال وفي إرادة القتال مع الشعب ضد أعداء حزبنا (...) إن على عاتق الجيش الأحمر والأسطول الأحمر، مثلما على عاتق مواطني الاتحاد السوفييتي أن يهبوا للدفاع عن كل بوصة من أرضنا السوفييتية. وأن يقاتلوا حتى القطرة الأخيرة من دمائهم من أجل مدننا ومن أجل قرانا (...) يتوجب علينا أن نعزز مؤخرة الجيش الأحمر، بأن نكرس لهذا الهدف كافة جهودنا. وأن نضمن العمل الدؤوب والمنتظم لكافة مشاريعنا، وأن نصنع أكبر عدد من البنادق والرشاشات والمدافع، والكاتيوشا، والقنابل والطائرات (...) ينبغي

علينا أن نشن نضالاً ضارياً ضد سائر أنواع الفساد والاختلال في المؤخرة. ضد الفراريين، وباذري بذرة الخوف، ومطلقي الضجيج من كل صنف. وأن نمحق الجواسيس وعملاء التضليل، من طفيليي العدو (...) وفي حال تقهقر قسري لوحدات الجيش الأحمر ينبغي اصطحاب كافة قطارات السكك الحديدية دون أن نترك للعدو وراءنا قاطرة واحدة، دون أن نترك للعدو حفنة من القمح أو ليتراً من الوقود (...) وفي المناطق التي احتلها العدو يتوجب تشكيل مفارز من الأنصار، فرساناً وراجلين، ومجموعات للتخريب تدمر وحدات العدو، كي نشعل حرب العصابات في كل مكان (...) إلى الأمام من أجل النصر».

في 10 تموز بدأت معركة سمولينسك. فبعد الاستيلاء على هذه المدينة الستراتيجية اعتقد الهتلريون أن في مستطاعهم الاندفاع نحو موسكو، الواقعة على بعد 300 كم. ومن أجل سمولينسك سيجيش القتال شهرين كاملين، كتب جوكوف عن هذه المعركة:

«لقد لعبت دوراً هاماً في المرحلة الأولى من الحرب الوطنية العظمى (...) وخسر الهتلريون فيها 250.000 جندي وضابط (...) كنا قد كسبنا على هذا النحو وقتاً ثميناً من أجل تجهيز احتياطي استراتيجي واتخاذ تدابير دفاعية باتجاه موسكو».

وعلّق فاسيليفسكي على تلك المعركة:

«حددت معركة سمولينسك بداية الهزيمة للحرب الخاطفة (...) وشكلت في الواقع، مدرسة رفيعة القيمة، مدرسة امتلاك الفن العسكري في الحقيقة للجنود والضباط السوفييت، مدرسة ثمينة للقيادة السوفييتية، وللقيادة العليا، ولستالين من ضمنها».

في 30 أيلول بدأ النازيون الهجوم الأخير لاحتلال موسكو.

وفي الحال، تطوع 450.000 من سكان العاصمة، 75٪ منهم من النساء لبناء تعزيزات دفاعية ضد الدبابات. وخاضت فرق الجنرال بانفيلوف معارك مشهودة للدفاع عن طريق فولو كولماسك. وانهمرت قذائف الطيران الألماني على موسكو. كان النازيون قد أصبحوا على بعد 60 كم من العاصمة. أخليت بعض الدوائر الإدارية، وبدأ الهلع يسيطر على السكان ولكن ستالين قرر البقاء في موسكو. ويوماً بعد يوم غدت المعارك بالغة الضراوة. ومنذ بداية تشرين الثاني أوقف الزحف النازي. وبعد التشاور مع جوكوف قرر ستالين تنظيم عرض عسكري تقليدي في 7 تشرين الثاني، في الساحة الحمراء. وكان ذلك تحدياً

حقيقياً للقوات النازية القابعة على أبواب موسكو. وألقى ستالين خطاباً أذيع في سائر أرجاء البلاد: «يقف العدو على أبواب لينينغراد وموسكو، لقد حسب أن جيشنا سيتمزق أشلاء من الصدمة الأولى. وأن بلادنا ستخر على ركبتيها. ولكن العدو كان واهماً أشد الوهم. فبلادنا، كل بلادنا، شكلت معسكراً واحداً، كي تضمن، بالتناغم مع جيشنا، ومع أسطولنا، اندحار الغزاة الألمان. وهل بوسع أحد أن يراوده الشك أن بإمكاننا، ولابد أن يكون بإمكاننا قهر هؤلاء الغزاة؟ ليس العدو من القوة مثلما يصوره بعض المثقفين المذعورين، والشيطان نفسه ليس أسود مثلما صنعوا منه (...) أيها الرفاق الجنود، والبحارة الحمر، والقادة، والعاملون السياسيون والأنصار الأبطال والبطلات. إن العالم بأسره يرى فيكم قوة قادرة على إفناء قطعان الغزو الجائحة من قطاع الطرق الألمان، والشعوب المستعبدة في أوربا، الواقعة تحت النير الألماني تنظر إليكم على أنكم محرروها. إن رسالة عظيمة في تحرير الشعوب تقع على كاهلكم. فكونوا إذن جديرين بهذه الرسالة. وليجمعكم العلم الظافر للينين العظيم تحت طياته».

في 15 تشرين الثاني بدأ النازيون هجومهم الثاني باتجاه موسكو. وفي اليوم 25 اخترقت بضع وحدات متقدمة الضاحية الجنوبية لموسكو. غير أنه في 5 كانون أول تم احتواء الهجوم، وخلال كل ذلك الحين كانت تصل قرب موسكو قوات جديدة قادمة من جميع أنحاء البلاد. وحتى في أحلك اللحظات، احتفظ ستالين بتلك القوات الستراتيجية الاحتياطية، ولم يزجّها في المعركة. وقد كتب روكوسوفسكي:

«كان ذلك يتطلب حساباً بالغ الدقة، وسيطرة فائقة على الذات».

بعد أن استشار ستالين كافة القادة قرر البدء بهجوم مضاد واسع يبدأ في 5 كانون أول. وخلال ذلك الهجوم، فإن 720.000 جندي أحمر ردوا 800.000 هتلري على أعقابهم إلى مسافة 100 إلى 300 كم. وكتب روكوسوفسكي:

«لأول مرة كانت القوات الألمانية التي « لا تقهر» قد تكبدت هزيمة، وهزيمة نهائية. فأمام موسكو كان الفاشيون قد فقدوا أكثر من 500.000 رجل و1300 دبابة و2500 مدفع، وأكثر من 15000 عربة آلية، والكثير من المعدات الأخرى. ولم يكن جيش هتلر قد تكبد من قبل مثل هذه الخسائر».

يعتبر الكثيرون أن معركة موسكو شكلت منعطفاً في الحرب ضد الفاشيين، منعطفاً حدث بعد أقل من ستة أشهر على بداية الحرب. لقد كانت العزيمة الصلبة، والطاقة الجبارة في التنظيم، والتحكم بالمشكلات الستراتيجية الشائكة لدى ستالين، قد ساهمت بنصيبها في نتائج تلك المعركة.

ستالين في مواجهة حرب الإبادة النازية

حينما يجري الحديث عن الحرب العالمية الثانية، ينبغي أن نتذكر، بأنها لم تكن في الواقع حرباً واحدة، بل عدة حروب. فالحرب التي كان يخوضها الإمبرياليون الأنغلو ـ أمريكيون، والفرنسيون ضد منافسهم الألماني لم تكن شيئاً إذا قورنت بالحرب الوطنية التي خاضها الاتحاد السوفييتي. كانت الحرب في الغرب حرباً بين جيشين برجوازيين. ففي القتال ضد الغزو الهتلري لم تكن الطبقة السائدة في فرنسا تريد، ولم يكن في وسعها، حتى إذا أرادت، أن تعبئ وتسلح الجماهير العمالية لخوض صراع حتى الموت ضد النازية. فبعد هزيمة قوات بيتان، بطل الحرب العالمية الأولى، وقع ميثاق استسلام، ودخل بخفة ورشاقة في تعاون مع المحتلين. كما أن البرجوازية الكبيرة الفرنسية انحازت، بجملتها إلى الامتثال لأوامر هتلر، ساعية إلى الإفادة من أوربا الألمانية الجديدة. وظلت الحرب في الغرب، بشكل من الأشكال حرباً «متمدنة» إلى هذا الحد أو ذاك بين برجوازيات «متمدنة».

ما من شيء يعادل ما حدث في الاتحاد السوفييتي. كان على الشعب السوفييتي أن يواجه حرباً من طبيعة مختلفة تمام الاختلاف. فقبل بداية عملية بارباروسا (الاسم الذي أطلقه الألمان على هجومهم ضد الاتحاد السوفييتي) كان هتلر قد أعلن بوضوح طبيعة حربه مع السوفييت. دوّن الجنرال هالدر في إحدى مذكراته اليومية مقتطفات من خطاب هتلر الذي ألقاه أمام جنرالاته في 30 آذار عام 1941. كان الفوهرر يتكلم عن الحرب القادمة مع الاتحاد السوفييتي:

«صراع بين إيديولوجيتين اثنتين. حكم قاطع على البلشفية. فالبلشفية جريمة اجتماعية. والشيوعية خطر مخيف بالنسبة إلى المستقبل (...) إنها حرب إبادة. وإذا لم نأخذ المسألة من هذه الزاوية فإننا بعد أن نهزم العدو بالتأكيد، سيقف هذا العدو الشيوعي، بعد ثلاثين سنة في وجهنا من جديد. ونحن لم نخض هذه الحرب لكي نحافظ على حياته بل لنستأصله من الوجود (...) فإلى القتال ضد روسيا، إلى تحطيم المفوضين البلاشفة والإنتلجنسيا الشيوعية».

سنلاحظ إذن بأن المقصود هنا هو ما سمي بـ«الحل النهائي»، ولكن ليس لليهود قطعاً فالوعود الأولى «بحرب الإبادة» و«بالتصفية الجسدية» كانت موجهة للشيوعيين السوفييت.

والواقع، أن البلاشفة، والسوفييت كانوا الضحايا الأولى للإبادة الجماعية.

كتب الجنرال ناجيل في أيلول عام 1941

«خلافاً لما نقوم به من إطعام الأسرى الآخرين (يعني الإنكليز والأمريكيين) فنحن لسنا حريصين على أي التزام بإطعام الأسرى البلاشفة».

وفي معسكرات تجميع الأسرى، أوشفيتز وشيلمنو وغيرها «كان الأسرى البلاشفة أول، أو من بين الأوائل الذين كانوا يُقتلون عمداً بالحقن الميتة أو بالغاز».

وقد بلغ عدد الأسرى السوفييت الذين ماتوا في معسكرات التجميع «أثناء نقلهم» أو في «ظروف مختلفة أخرى 3.289.000 أسير، وحينما كانت تتفشى الجوائح الوبائية في أكواخ الأسرى السوفييت فإن الحرس النازي لم يكن يدخل إليها «ما عدا فرقة قاذفات اللهب. حينما كان المحتضرون والموتى من الأسرى السوفييت يحرقون معاً على فرشهم المعدة من الأسمال البالية والتي كانت تعيث فيها كافة أنواع الأوبئة، وذلك توخياً من النازيين لعدم انتشارها». من الممكن تقدير عدد الأسرى السوفييت الذين قتلوا بخمسة ملايين أسير. إذا لم نحسب الجنود السوفييت «الذين كانوا يقتلون ببساطة، في أرض المعركة» بعد استسلامهم مباشرة.

هذا ما كتبه أحد الباحثين الغربيين، ويدعى كلارك، في الفظائع النازية خلال الحرب داخل الاتحاد السوفييتي.

وهكذا فإن حملات الإبادة الأولى والأكثر اتساعاً كانت موجهة ضد الشعوب السوفييتية، ومن ضمنهم اليهود السوفييت. لقد كانت شعوب الاتحاد السوفييتي هي الأكثر مكابدة من هول تلك الحملات، وهي التي دفعت أكبر عدد من الضحايا من أبنائها ـ 23 مليوناً ـ ولكن هذه الشعوب أيضاً قدمت الدليل على العزيمة الأشد مضاء والبطولة الأكثر حمية واحتداماً.

حتى بداية العدوان ضد الاتحاد السوفييتي لم تكن قد حدثت مذابح كبرى للسكان اليهود في البلدان التي احتلها النازيون، وحتى تلك اللحظة، لم يكن النازيون قد واجهوا، أيضاً أية مقاومة جدية في أي مكان كان. ولكنهم، ومنذ أولى خطواتهم فوق التراب السوفييتي كان على هؤلاء النبلاء الألمان أن يواجهوا خصوماً، يقاتلون حتى آخر قطرة من دمائهم ومنذ الأسابيع الأولى، تكبد الألمان خسائر جسيمة، وكان ذلك من عرق أدنى، أي من السلاف، وأسوأ من ذلك أيضاً، من البلاشفة. لقد نجم سعار الإبادة لدى النازيين من الخسائر الفادحة

الأولى التي منوا بها. وحينما بدأ الوحوش النازيون يتفصدون دماً تحت حراب الجيش الأحمر، عقدوا النية على «الحل النهائي» للشعوب السوفييتية.

في 26 تشرين الثاني، كان الفيلق الثلاثون من الجيش النازي، والذي كان يحتل أراضي سوفييتية واسعة، قد أمر باعتقال «كل أفراد الأسر الذين لهم قريب من الأنصار» و«كل الأفراد المشبوهين بأن لهم علاقة مع رجال الأنصار» و«كل أعضاء الحزب والكومسول والنصراء الحزبيين» و«كل الأعضاء القدامى في الحزب» و«كل الأفراد الذين يشغلون وظائف رسمية» كان هذا الفيلق قد أمر باعتقال كل هؤلاء وزجهم في معسكرات تجميع كرهائن. ومقابل كل جندي ألماني يُقتل على يد الأنصار، قرر النازيون إعدام عشرة رهائن على الأقل.

في الأول من كانون الأول عام 1942 وأثناء محادثة مع هتلر حول الأنصار السوفييت لخص الجنرال جودل الموقف الألماني بهذه الكلمات:

«في القتال، يمكن لقواتنا أن تفعل ما تريد، أن تشنق الأنصار، أو حتى أن تعلقهم ورؤوسهم إلى الأسفل، أو أن تقطع أجسادهم».

إن الوحشية التي طارد بها الهتلريون، واجتثوا بها كل أعضاء الحزب، وكل الأنصار وكافة المسؤولين في الدولة السوفييتية، وجميع أفراد عائلاتهم، تجعلنا ندرك جيداً مغزى تطهيرات عام 1937ـ 1938. ففي الأراضي التي احتلها الألمان، شرعت في العمل مجموعات من الثورة المضادة المسعورة. لم يتم استئصال جذورها عام 1937ـ 1938 في خدمة الهتلريين، مقدمين لهم معلومات عن كافة البلاشفة، وعائلاتهم، ورفاقهم في النضال.

وكلما كان القتال في الشرق يتخذ طابعاً ضارياً أكثر فأكثر كان الجنون النازي الذي يبذر الموت الرهيب بين جميع أفراد الشعب يزداد حدة وسعاراً. وحين توجه هتلر مخاطباً قادة SS تحدث إليهم، في حزيران عام 1942 عن «حرب إبادة» بين «عرقين وشعبين» تخاض عبر قتال «غير مشروط». فهناك من جهة «هذه المادة الخام، هذه الكتلة، هؤلاء البشر البدائيون، أو بالأحرى، أشباه البشر الذين يقودهم القوميساريون السياسيون»، وهناك، من جهة أخرى «نحن، الألمان».

إرهاب دموي، لم يمارسه أحد من قبل. ذلكم هو السلاح الذي كان النازيون يريدون من خلاله إرغام السوفييت على الاستسلام المعنوي والسياسي.

«أثناء القتال لاحتلال خاركوف، يقول هملر، كانت سمعتنا في إثارة الرعب وبذر الإرهاب تسبقنا، إنها سلاح فعال ينبغي تعزيزه على الدوام».

وقد عزز النازيون سمعتهم في الإرهاب على نحو مريع. ففي 23 آب من عام 1942 وفي الساعة 18 تحديداً بدأت ألف طائرة في إسقاط قنابل حارقة على ستالينغراد. كان في تلك المدينة التي يقطنها 600.000 نسمة كثير من المساكن الخشبية ومن خزانات البنزين، وخزانات الوقود داخل المصانع. كتب أرمانكو قائد جبهة ستالينغراد:

«كانت ستالينغراد غارقة في لهيب الحرائق، محاطة بأعمدة الدخان والسخام. كانت النيران تلتهم المدينة برمتها، وتتصاعد في الجو سحب ملبدة من الأدخنة والنيران تدوّم فوق المصانع. وكانت خزانات البترول أشبه ببراكين تقذف حممها. مئات الآلاف من السكان الوادعين هلكوا، أي حزن ثقيل كان يعتصر القلب لهؤلاء الضحايا الأبرياء، ضحايا أكلة لحوم البشر الفاشيين».

ينبغي أن يكون لدى المرء نظرة متبصرة لهذه الوقائع الجهنمية كي يدرك بعض جوانب ما تسميه البرجوازية بـ«الستالينية». فخلال التطهير، وُجِّهت الضربة إلى بيروقراطيين لا علاج لهم وإلى انهزاميين واستسلاميين. والكثير من هؤلاء أبعدوا إلى سيبيريا. إن حزباً تتآكله الانهزامية، وروح الاستسلام، لن يكون بوسعه إطلاقاً تعبئة الشعب وتنظيمه كي يتصدى للإرهاب النازي، وهذا ما فعله السوفييت في داخل المدن المحاصرة، في لينينغراد وفي موسكو، وحتى في لهيب ستالينغراد. ومن بقي على قيد الحياة منهم لم يستسلم أبداً وشارك في الهجوم المضاد.

حين بدأ العدوان الألماني في حزيران عام 1941 أظهر الجنرال بافلوف، قائد الجبهة الغربية تقصيراً خطيراً وإهمالاً، وكانت خسارة مينسك عاصمة بيليروسيا في 22 حزيران هي النتيجة. واستدعى ستالين بافلوف وأركان حربه، وسجّل جوكوف بأنه «بناء على اقتراح المجلس العسكري للجبهة الغربية» حوكموا وأعدموا، وها هو ذا يلتسين يقول «أن ستالين كان يواصل على هذا النحو إرهاب حاشيته». والحال، أنه في مواجهة البربرية النازية كان على القيادة السوفييتية أن تطالب بموقف لا يتزعزع وبعزيمة حازمة إزاء كافة المحن والشدائد، وكل فعل لا مسؤول ينبغي أن يعاقب بالشدة اللازمة.

حينما بدأ الوحش الفاشي يُثخن بجراح قاتلة، جنّ جنونه، وراح يلعق الدم، ويرتكب المجازر ضد الشعب السوفييتي الذي وقع بين مخالبه.

أعلن هملر في 16 كانون أول عام 1943، في ريمار:

«حينما كنت مضطراً، في قرية من القرى، إلى إعطاء أمر بملاحقة الأنصار والمفوضين اليهود، كنت، وبنحو منهجي، أعطي الأمر بقتل نساء وأطفال

هؤلاء الأنصار والمفوضين. فأنا سأكون نذلاً وجباناً بنظر أحفادنا، فيما لو كنت أترك أطفال أشباه البشر هؤلاء وهم يكبرون مملوئين بالحقد، ينبغي علينا دائماً أن ندرك حقيقة أننا نخوض صراعاً عرقياً أولياً وطبيعياً، وعنصرياً».

وكان رئيس الـ SS قد قال في خطاب آخر في خاركوف، في 24 نيسان 1943:

«بأية وسيلة سنتوصل إلى أن ننتزع من روسيا أكبر عدد من الرجال الأموات والأحياء؟ سنتوصل إلى ذلك بقتلهم، وبأسرهم، وبجعلهم يعملون حقاً في خدمتنا، وبأن لا نعيد (بعض الأراضي) إلى العدو إلا بعد أن نفرّغها بالكامل من سكانها. أما إعادة الرجال إلى روسيا فسيكون خطأً جسيماً».

هذا الإرهاب الذي لم يُسمع بمثله والذي مارسه النازيون في الاتحاد السوفييتي ضد البلد الاشتراكي الأول، وضد الشيوعيين، يلقي عليه الأدب البرجوازي حجاباً سميكاً، يتكتم عليه، أو يقلل من شأنه. إن هذا الصمت يخدم هدفاً محدداً. فبالنسبة للأشخاص الذين يجهلون الفظائع الوحشية المرتكبة ضد السوفييت، يكون من الأسهل جعلهم يبتلعون فكرة أن ستالين نفسه كان «دكتاتوراً» شبيهاً بهتلر، تخفي البرجوازية المذبحة الحقيقية ضد الشيوعيين كي تتمكن من أن تعلن بحرية ما تشترك به مع النازية: الحقد اللاعقلاني تجاه الشيوعية، والحقد الطبقي تجاه الاشتراكية. ولكي تعتّم تعتيماً كاملاً على المذبحة الأكبر في الحرب، فإن البرجوازية تسلط الضوء، حصراً، على مذبحة أخرى هي مذبحة اليهود.

في كتاب قيّم يُظهر أرنو ماير الذي كان أبوه صهيونياً يسارياً، بأن إبادة اليهود لم تبدأ إلا في اللحظة التي تكبد فيها النازيون، ولأول مرة خسائر فادحة. حدث ذلك في حزيران ـ تموز عام 1941، وبأيدي الجيش الأحمر. إن الوحشية الممارسة ضد الشيوعيين، ثم الهزائم اللامتوقعة التي زعزعت الشعور بأن الويرماخت لا يُقهر خلقت مناخاً سمح بتنفيذ الهولوكوست (المحرقة). يقول ماير:

«لقد اصطنعت مذبحة اليهود في أتون حرب مروّعة من أجل احتلال «مدى حيوي» لا محدود من روسيا، ومن أجل سحق النظام السوفييتي، وتصفية البلشفة الأممية (...) ولو لم تحدث عملية بار باروسا (الاسم الذي أطلقه النازيون على حربهم مع الاتحاد السوفييتي) لما كان سيحدث، ولا كان ممكناً أن يحدث كارثة يهودية، و«حل نهائي»، ذلك أن النازيين حين واجهوا

حقيقة هزائمهم على الجبهة الروسية، قرروا «حلاً شاملاً وحاسماً» لـ«المسألة اليهودية» إبان مؤتمر وانسي في 22 كانون الثاني من عام 1942».

«كان النازيون يعلنون جهاراً ومنذ سنين طويلة كراهيتهم لـ«اليهودية ـ البلشفية» فالبلشفية كانت في رأيهم أسوأ ابتكار لليهود وكانت المقاومة المستميتة للبلاشفة تمنع الهتلريين من أن يتخلصوا من عدوهم الرئيسي، وحينذاك فقط حوّلوا خيباتهم المريرة ضد اليهود، حيث استأصلوهم في حركة انتقام عمياء».

وبما أن البرجوازية الكبيرة اليهودية كانت متساهلة جداً تجاه الدولة الهتلرية ـ وحتى متواطئة في بعض الحالات ـ فإن أغلبية اليهود استسلموا بخضوع إلى جلاديهم ولكن اليهود الشيوعيين، الذين كانوا يتصرفون بروح أممية، قاتلوا النازيين ببسالة وجرّوا جزءاً من اليسار اليهودي إلى المقاومة. أما الجماهير الواسعة من فقراء اليهود فقد ذهبوا إلى أفران الغاز. غير أن كثيرين من الأغنياء نجحوا في الفرار إلى الولايات المتحدة. وبعد انتهاء الحرب وضعوا أنفسهم، هناك، في خدمة الإمبريالية الأمريكية، وفي خدمة إسرائيل، رأس جسرها في الشرق الأوسط. وهم يتحدثون بإفراط عن مذبحة اليهود، ولكن من زاوية الولاء لإسرائيل، وفي الوقت نفسه، يطلقون العنان لمشاعرهم المعادية للشيوعية، مسيئين إساءة بالغة لذكرى الشيوعيين اليهود الذين واجهوا النازيين مواجهة فعلية.

لكي ننهي حديثنا بكلمة واحدة حول الطريقة التي هيأ فيها هتلر عقول النازيين لذبح 23 مليوناً من السوفييت دونما تمييز، ولكي يحوّل رجاله إلى أدوات للقتل، فقد رسّخ في أذهانهم أن أي بلشفي لم يكن سوى شبه إنسان، حيوان صرف، يقول ماير:

«كان هتلر ينبه قواته بأن قوات العدو كانت مؤلفة «من حيوانات حقيقية، وليسوا جنوداً، وهم مهيئون للقتال بشراسة الحيوان».

ولدفع القوات الألمانية إلى إفناء الشيوعيين كان هتلر يقول لهم بأن ستالين والقادة السوفييت الآخرون «مجرمون ملطخون بالدم. وأنهم أبادوا ملايين المثقفين الروس بدافع ظمئهم إلى الدم... وأنهم قد مارسوا الاستبداد الأشد قسوة في كل الأزمان». يقول هتلر:

«إن اليهودي الدموي والاستبدادي في روسيا قد قتل من خلال التعذيب اللاإنساني أو أباد من خلال المجاعة وبوحشية سافرة متعصبة حقاً حوالي ثلاثين مليوناً من البشر».

وهكذا فقد علقت في فم هتلر أكذوبة الـ «ثلاثين مليون ضحية ستالينية» واستخدمها لكي يهيئ نفسياً البربرية النازية، ومذابح الشيوعيين والأنصار السوفييت.

لنتمعن في هذا المقطع من كتاب كفاحي المؤلف عام 1926، والذي وضع فيه هتلر الـ «ثلاثين مليون ضحية» على عاتق لينين، وذلك قبل التجميع الزراعي وقبل التطهير بوقت طويل، مهاجماً اليهودية ـ البلشفية. كتب هتلر:

«بوحشية المتعصب قتل اليهودي في روسيا قرابة ثلاثين مليوناً من البشر، وأحياناً بواسطة التعذيب اللاإنساني».

بعد نصف قرن يستعيد برزجينسكي، الإيديولوجي الرسمي للإمبريالية الأمريكية، كلمة كلمة كل دناءات النازيين الشائنة:

«من الطبيعي تماماً (!) أن نقدر عدد ضحايا ستالين ليس أقل من عشرين وربما حتى أربعين مليون ضحية».

ستالين، شخصيته، مهاراته العسكرية

نشر العدوان الهتلري فوق الاتحاد السوفييتي وابلاً من النار والحديد، تجاوز بأشواط كل الأهوال التي كان العالم قد عرفها سابقاً. ولم يشهد تاريخ الإنسانية طوال عصوره، قط محنة أشد ترويعاً، وعنفاً أكثر قسوة وفظاعة، فرضا على شعب من الشعوب. وعلى كوادره وقيادته مثلما فرض على الشعب السوفييتي من قبل جحافل النازيين. وفي مثل هذه الشروط، فإن من المستحيل المواربة أمام الواقع، أو المراوغة مع الذات، أو الهروب عبر أوهام بائسة أو كلمات جوفاء.

كانت لحظة الحقيقة قد حانت بالنسبة لستالين، القائد الأعلى للحزب والبلاد. وستأخذ الحرب كل ما لديه من قوة معنوية وسياسية، وكل ما يتحلى به من عزيمة ومن جلد. وكل طاقاته الذهنية والتنظيمية.

في الوقت نفسه، فإن كل «الحقائق» حول ستالين التي يلوّح بها الهتلريون مثلما يلوّح بها اليمين الأكثر رصانة، على النحو الذي يخدم أهدافهم، ستوزن الآن بالميزان الدقيق، وستقول الحرب قولها القاطع عما كانه ستالين «الدكتاتور» الذي لم تكن «سلطته الشخصية» تطيق «أدنى معارضة»، و«الطاغية» الذي لم يكن يعير سمعه لأحد، والرجل «ذو الذكاء المتواضع»... الخ.

بعد مرور نصف قرن على الحرب، فإن هذه الافتراءات التي أذاعها أسوأ أعداء الاشتراكية غدت من جديد «حقائق» أولية. ومع الزمن، توصلت البرجوازية العالمية إلى أن تفرض على أوساط المثقفين احتكار حقيقتها عن الصراع الطبقي.

والحال، فإن الحرب العالمية الثانية كانت قد قدمت لنا كل المواد الضرورية كي «ندين» هذه «الحقيقة» الزائفة، والضرورية جداً لإنقاذ نظام الاستغلال والنهب.

ستالين «الدكتاتور»

لنبتدئ بهذه «الحقيقة» الأولى التي تبدو في الظاهر حقيقة دامغة لا تقبل المنازعة، ألا وهي: ستالين، الرجل الأوحد، الدكتاتور، الذي فرض إرادته الشخصية، والذي يتطلب خضوعاً كاملاً لشخصه.

إنه خروشوف بالتحديد الذي يعرض علينا ذلك:

«إن القوة المتجمعة بين يدي رجل واحد، هو ستالين، أدت إلى عواقب وخيمة، خلال الحرب الوطنية العظمى». «فستالين يتصرف بالنيابة عن الجميع، وهو لا يعتمد إلا على شخصه، ولا يطلب رأياً من أحد. وحين يكون ستالين حاضراً، فلا يعود ثمة مكان لأحد». «لم يكن ستالين يتصرف عبر الإقناع عن طريق الشرح والتوضيح، والتعاون الصبور مع الأشخاص من حوله، بل عن طريق فرض تصوراته، والمطالبة بانقياد مطلق لرأيه. وكل من كان يحاول أن يشرح وجهة نظره كان مصيره البتر من المجموعة القيادية، ثم يُحكم عليه لاحقاً بالتصفية المعنوية والجسدية» «هذا التشكك المرضي كان يخلق لدى ستالين انعدام ثقة شامل (...) أما الوضع الذي آلت إليه الأمور فكان بسيطاً. لم يعد من الممكن لأحد أن يفصح أيما إفصاح عن إرادته الشخصية».

يحذو يلتسين اليوم حذو خروشوف، ويدين بغاية الخفة والانشراح «نزوات الدكتاتور» الذي «كان يرتاب بكل أتباعه». «إن أخطاء قيادة ستالين، ذات العواقب الوخيمة، لم تكن ممكنة إلا بسبب الدكتاتورية السوفييتية، قبل كل شيء».

إن فاسيليفسكي، معاون جوكوف الذي كان رئيساً لهيئة الأركان العامة، في البداية، ثم أضحى رئيساً للأركان العامة، عمل إلى جانب ستالين طوال فترة الحرب وقد كتب فيما كتب:

«من أجل اتخاذ هذا القرار أو ذاك المتعلق بالعمليات الحزبية، أو مراجعة بعض المشكلات الهامة كان ستالين يستقدم إليه أشخاصاً مسؤولين، على علاقة مباشرة مع المسألة المطروحة للمراجعة (...) كان القائد الأعلى يستدعي على نحو دوري بعض أعضاء الستافكا (أكاديمية عسكرية مشهورة) الذين كانوا يقودون القطعات العسكرية وأعضاء المجالس العسكرية في الجبهات من أجل إعداد أو تفحّص، أو إقرار هذا أو ذاك من القرارات (...) كان المخطط الأولي لأي قرار استراتيجي، وخطة تنفيذه العملي، يجهزان ضمن حلقة ضيقة من المشاركين، الذين يكونون عادة من المكتب السياسي، ومن لجنة الدولة للدفاع (...) وكان هذا العمل يتطلب في الغالب عدة أيام، كان خلالها ستالين، عادة، يجري حوارات، ويتلقى خلالها معلومات، ونصائح ضرورية، مع قادة وأعضاء المجالس العسكرية في الجبهات». لنلاحظ بأن لجنة الدولة للدفاع، التي يقودها ستالين، كانت مكلفة بقيادة البلاد، وقد ركزت بين يديها كافة الصلاحيات. يتابع فاسيليفسكي:

«كان المكتب السياسي، وقيادة القطعات العسكرية يستندون دائماً إلى عقل جماعي. لذلك فإن القرارات الستراتيجية المتخذة من قبل القيادة العليا، والمعدّة إعداداً جماعياً، كانت تستجيب، بوجه عام للوضع الملموس على الجبهة، والمقتضيات المطلوبة من المنفذين كانت واقعية».

وقد رأى فاسيليفسكي أن أسلوب العمل الذي ينتهجه ستالين تحسّن أيضاً إبان معركة ستالينغراد، ثم خلال حملات الهجوم الكبرى ضد الهتلريين.

«حدّد شهر أيلول من عام 1942 حيث نشأ وضع حرج للغاية، وكان يتطلب قيادة مرنة ومؤهلة للعمليات العسكرية، حدد هذا الشهر انعطافاً جذرياً في قيادة ستالين، إذ ظهر تبدل عميق لديه بصفته قائداً عاماً، (...) صار مضطراً دائماً للاعتماد على التجربة الجماعية للقادة العسكريين. ومنذ ذلك الوقت، كان ستالين، وقبل اتخاذ قرار حول هذه أو تلك من المسائل الهامة في قيادة الكفاح المسلح يستشير، ويناقش بشأنها معاونيه، ومسؤولي رئاسة الأركان العامة، والقادة الرئيسيين في مفوضية الشعب للدفاع، وقادة الجبهات، وكذلك مفوضي الصناعة الحربية».

طوال فترة الحرب كان جنرال الجيش شتيمنكو يعمل في قيادة الأركان، رئيساً لمكتب العمليات في البداية، ونائباً لرئيس الأركان فيما بعد. وقد كتب:

«ينبغي علي القول بأن ستالين لم يكن يقرر، ولم يكن يجب أن يقرر لوحده، مسائل ذات أهمية تتعلق بالحرب، كان يدرك تماماً ضرورة العمل الجماعي في هذا الميدان المعقد. وكان يستشير الأشخاص الذين يُعتبرون حجة في هذه المسألة العسكرية أو تلك، وكان يحسب حساباً لرأيهم، ويوفيهم ما يستحقونه من احترام».

ويسرد جوكوف العديد من المناقشات البالغة الحيوية، ويبيّن الطريقة التي كان يتم فيها اتخاذ القرار.

«غالباً جداً ما كانت تنطلق نقاشات حية في جلسات لجنة الدولة للدفاع، تصاغ خلالها الآراء بطريقة محددة وحاسمة (...) وإذا لم يتم التوصل إلى الاتفاق كانت لجنة من الفريقين المتعارضين تُشكل داخل الجلسة، وتكلف بإعداد نص يوفق بين آراء الجميع، وعلى امتداد فترة الحرب اتخذت لجنة الدولة للدفاع حوالي عشرة آلاف قرار ذات طابع عسكري واقتصادي».

إن الصورة التي رغب خروشوف أن يعطيها لستالين «الرجل الوحيد الذي لا يعتمد على أحد» هي صورة كاذبة كلياً استناداً إلى واقعة حدثت في الحرب في أول آب عام 1941، وكانت تتعلق بخروشوف نفسه. إن فاسيليفسكي هو الذي روى الطرفة، فيما كان يفكر من دون شك بمقطع من التقرير السري، يقول فيه خروشوف:

«في بداية الحرب، لم يكن لدينا، حتى العدد الكافي من البنادق».

كان ستالين قد أعطى موافقته لخروشوف على شن هجوم في 5 آب عام 1941، ولكن ستالين، في الوقت نفسه، طلب منه أن يعدّ خطاً دفاعياً، كان ستالين قد اقترحه وحدده وشرح ستالين الوضع قائلاً:

«في الحرب، ينبغي أن نتوقع ليس فقط النتيجة الحسنة، بل والسيئة، وحتى الأسوأ. تلك هي الطريقة التي لا يسمح المرء لنفسه بأن يؤخذ على حين غرة».

«وطرح خروشوف كل أنواع المطالب الخرقاء واللامعقولة التي كانت القيادة العامة غير قادرة على تلبيتها. فقال ستالين:

«سيكون من غير المعقول التفكير بأن الأشياء ستكون جاهزة لك دائماً، مقدّمة من الخارج. تعلّم أن تحصل عليها، وتنجزها بنفسك، شكّل في قواتك وحدات احتياطية، هيئ بعض المصانع لتنتج لك البنادق، والرشاشات، حرّك نفسك (...) لقد نجحت لينينغراد في صنع بطاريات لقاذفات الصواريخ، والكاتيوشا. (...)».

ـ وقال خروشوف: رفيق ستالين، كل تعليماتك ستكون منفّذة. ولكن لسوء الحظ لا نعرف صنع هذه الآلات.

ـ رد ستالين: الرجال عندكم، يملكون المخططات، وثمة نسخ موجودة منذ زمن طويل ولكن الخطأ في ذلك، يكمن في عدم انتباهك بصدد هذه المسألة الجدية».

على هذا النحو كان ستالين يعلّم مرؤوسيه ــ وعلى الأخص خروشوف ــ بخلق المبادرة والإبداعية في العمل، وحس المسؤولية.

في تموز عام 1942 عُيّن روكوسوفسكي، الذي كان قد أثبت آنئذ، كفاءة عالية في قيادة أحد الجيوش، عُين من قبل ستالين قائداً لجبهة بريانسك، وتساءل روكوسوفسكي إن كان يستطيع حمل هذه المسؤولية. استقبله ستالين بحرارة وحدد له مهمته. يصف روكوسوفسكي نهاية محادثته مع ستالين:

«تهيأت للنهوض، ولكن ستالين قال لي:

ـ اصبر قليلاً، ابق جالساً.

وهتف ستالين إلى بروسكريبيشيف وطلب منه أن يستدعي أحد الجنرالات الذين سُحبت منهم قيادة الجبهات. ثم دار الحوار التالي:

ـ اشتكيت بأنك نلت عقوبة غير عادلة؟

ـ نعم. الواقع هو أنني قد تضايقت خلال قيادتي للجبهة من ممثل المركز.

ـ وبماذا ضايقك؟

ـ كان يتدخل في الأوامر التي كنت أوجهها، ويعقد اجتماعات في الوقت الذي كان ينبغي فيه العمل، ولم يعد يستشيرني، وكان يعطي تعليمات متناقضة.. وباختصار، احتل قيادة الجبهة مكاني.

ـ هكذا إذن، كان يضايقك. ولكنك كنت أنت من يقود الجبهة؟

ـ نعم، أنا.

ـ كنت أنت من عهد الحزب والحكومة إليه بقيادة الجبهة. أليس كذلك؟ هل كنت تهتف إلى المركز؟

ـ هتفت مرة واحدة.

ـ لماذا لم تكن تعلمهم بذلك. ولم تهتف سوى مرة واحدة لتبلغهم بأنهم يضايقونك في قيادتك للجبهة؟

ـ لم أجرؤ على أن أشتكي من ممثلك.

ـ لم تكن لتجرؤ على أن تهتف إلى المركز لأنك تسببت، تحديداً، في إخفاق العملية. ذلك هو السبب في عقوبتك.

خرجت من مكتب القائد الأعلى وأنا أفكر بأنه قد أعطاني، أنا الذي جئت لتسلم قيادة إحدى الجبهات، درساً واقعياً ملموساً، صدقوني، بأنني بذلت ما في وسعي لتمثله.

على هذا النحو عاقب ستالين الجنرالات الذين لم يكونوا يتجرؤون على الدفاع عن رأيهم حينما كانوا يخاطبونه مباشرة.

ستالين «هستيري»

لنتناول «حقيقة» ثانية تبدو أنها فوق كل جدال: لقد مارس ستالين دكتاتورية شخصية وتصرف غالباً كشخص هستيري، ومشعوذ، وقاد الحرب بطريقة لا مسؤولة دون معرفة منه بالوضع الحقيقي على الأرض.

إنه مرة أخرى، الرجل الذي «يرجع إلى لينين العظيم» المسيو خروشوف، والذي يكشف لنا كشوفاته في هذا المجال حين يقول:

«وحتى بعد أن بدأت الحرب كان تهيّج الأعصاب والهستيرية المتسلطان على ستالين يسببان لجيشنا خسائر كبيرة». «كان ستالين يكيل الشتائم والتعليقات السلبية لجوكوف وفيما يُروى لنا كان جوكوف قبل أن يشن عملية عسكرية، يبدأ على النحو التالي:

يتناول حفنة تراب من الأرض في يده، ويشمّها ثم يعلن: يمكننا الشروع في الهجوم. أو يقول على العكس: هذه العملية، لا يمكننا القيام بها الآن». ولكن «ستالين كان يوجّه خططه مستخدماً كرة أرضية فوق مكتبه (ضجة في الصالة) نعم أيها الرفاق. بالاعتماد على كرة أرضية كان ستالين يضع خطط القتال على الجبهة». «كان ستالين بعيداً عن تفهّم الوضع الواقعي الذي كان يجري على الجبهة، وهذا كان طبيعياً ما دام لم يكن قد زار أي موقع على الجبهة إطلاقاً».

لم يشأ يلتسين أن يورط نفسه بملاحظة جدّ بليدة على غرار ملاحظة خروشوف. وجعل من نفسه مهاجماً فذاً «لأساليب القيادة» الكريهة لدى ستالين:

«ثمة واقعة تستحق الإشارة: هي الغياب شبه الكامل لستالين عن مقاتلي الجيش الأحمر على الجبهات مثلما عن السكان المدنيين. فهو لم يتوجه مطلقاً

إلى الجبهة. وهذا الأمر في القيادة هو بالتأكيد أشد خطورة من واقع قيادة الحرب بمساعدة مجسّم لكرة أرضية».

لنصغ الآن كيف صور لنا جوكوف ستالين، ذلك «الهستيري العصبي» الذي لم يكن يطيق أدنى معارضة لرأيه.

«كان عمل الستافكا، يتم، تحت عنوان التنظيم والتروي. وكان باستطاعة الجميع التعبير عن آرائهم. كان جوزيف ستالين يتوجه إلى الجميع بلهجة صارمة، ورسمية إلى حد ما. وكان يجيد الإصغاء حينما كان يُعرض عليه تقرير غني بالمعلومات عن قضية من القضايا. ينبغي القول، مثلما تولدت لدي قناعة خلال سنوات طويلة من الحرب، بأن جوزيف ستالين لم يكن على الإطلاق ذلك الرجل الذي كان من غير الممكن طرح مشكلات عويصة أمامه، أو كان من غير الممكن مناقشته أو حتى الدفاع بقوة عن وجهةنظر تخالف وجهة نظره. وإذا كان البعض يؤكد عكس ذلك، فإنني سأقول ببساطة بأن ادعاءاتهم محض كاذبة».

دعونا نشهد الآن المشهد الذي لا ينسى، حين يذهب جوكوف إلى الدكتاتور، الذي يتأبط كرة أرضية صغيرة، كي يشير عليها، بصورة تقريبية بالتأكيد، خط القتال على الجبهة. ولدى عودته سيكتب جوكوف:

«الذهاب بتقرير من لدن الستافكا إلى جوزيف ستالين، مع خرائط غير موضحة بصورة كاملة، وتزويده بمعلومات تقريبية، أو بالأحرى مبالغ فيها، كان شيئاً مستحيلاً. لم يكن ستالين يقبل أي جواب كيفما اتفق. بل كان يطلب جواباً واضحاً، يستوفي الموضوع من كافة جوانبه» «كان لدى ستالين حاسة خاصة يميز بها نقاط الضعف في أي تقرير أو وثيقة. كان يكتشفها في الحال، ويعاقب بقسوة فاعليها بسبب معلوماتهم غير الدقيقة. ولأنه كان يتمتع بذاكرة قوية للغاية، فقد كان يتذكر بالضبط ما كان قد قاله سابقاً، ولم يكن يترك فرصة على الإطلاق كي يوبخ بخشونة كل من ينسى. ولذلك فقد كنا نبذل قصارى جهدنا كي نعدّ وثائق الأركان العامة بأقصى حد من العناية والاهتمام».

أما بالنسبة لجنرال الجيش شتيمنكو، فقد تناول مباشرة اتهام خروشوف لستالين بأنه لم يذهب إلى الجبهة قط، ولم يكن يعرف وقائع الحرب «من غير الممكن للقائد العام، في رأيي، أن يتردد إلى الجبهات في أي وقت يشاء. فقد كان من الخفة غير المقبولة أن يترك، إلا لوقت قصير، مقر القيادة العامة، من أجل حل مسألة جزئية على أية جبهة من الجبهات».

«إن تنقلاً من هذا النوع للقائد العام كان من غير جدوى. يؤكد فاسيليفسكي. فقد كان ستالين يتلقى من الستافكا المعلومات الأكثر تفصيلية والأكثر شمولاً». «لقد كان بوسعه وهو موجود في موسكو، أن يتخذ قرارات سليمة وفعالة». وكان ستالين يتخذ قراراته، انطلاقاً «ليس فقط، من معطيات معروفة في المركز، وإنما أيضاً باطلاعه على خصوصيات الوضع على الأرض». وكيف كان يتفق له ذلك؟ كان ستالين يتلقى كافة المعلومات الهامة التي كانت تصل إلى رئاسة الأركان العامة، وإلى مفوضية الدفاع، وإلى القيادة السياسية للجيش الأحمر، وكانت معرفته بخصوصيات مختلف الجبهات تصدر من مصدرين اثنين: أولاً، كان قادة الجبهات يسلمونه تقارير بصورة دورية. ومن ثم، فحسب شهادة لجوكوف.

«بالنسبة للمسائل الهامة، كانت آراء جوزيف ستالين تستند، في الجزء الكبير منها إلى التقارير المرسلة من ممثلي الستافكا، والتي كان يرسلها هو إلى القطعات. وكان ينبغي لهؤلاء الممثلين أن يكونوا ملمين بالوضع على الأرض، وأن يطلبوا من قادة الوحدات آراءهم حول الاستخلاصات التي توصلت إليها قيادة الأركان العامة. وحول الآراء والمقترحات التي وضعها قادة الجبهات، وحول التقارير الخاصة».

ممثلو الستافكا هؤلاء كانوا حريصين كل يوم على إرسال تقرير إلى ستالين. وفي 16 آب من عام 1943، وهو اليوم الأول من أيام عملية عسكرية كبرى في ضواحي خاركوف، كان فاسيليفسكي قد نسي إرسال تقريره. فأرسل إليه ستالين على الفور رسالة:

«في حال نسيان جديد لواجبك تجاه مقر القيادة العامة ستعفى من واجباتك كرئيس للأركان العامة، وتستدعى إلى الجبهة...» وشعر فاسيليفسكي بالارتباك، ولكنه لم يستأ لهذه «الخشونة» بل، بالعكس، فقد كتب:

«كان ستالين بالغ الصراحة مع الآخرين. وكان يطالب بانضباط مماثل من كل واحد من ممثلي الستافكا. وأعتبر أن غياب أي مجاملة تجاهنا كان مبرراً من أجل نجاح قيادة فعالة في الكفاح المسلح. كان القائد العام يتابع عن قرب شديد تطور الأحداث على مختلف الجبهات، ويستجيب بحيوية لكل التعديلات، ويتولى بحزم توجيه القطعات».

بعكس خروشوف الذي يزعم أنه رأى في ذلك العمل، قائداً لا مسؤولاً ومشعوذاً دجالاً، فإن فاسيليفسكي الذي عمل طوال أربعة وثلاثين شهراً إلى جانب ستالين، يحلل أسلوب عمل هذا القائد بطريقة مختلفة. لنقرأ:

«مارس ستالين تأثيراً كبيراً علـى تشكيل أسلوب عمل الستافكا، كانت سماته المميزة تتمثل في الاعتماد على التجربة الجماعية من أجل وضع الخطط العملياتية والستراتيجية. والتشدد الفائق والمثابرة، والاتصال الدائم بالقطعات. والمعرفة الدقيقة بالوضع على الجبهات. كان التشدد الصارم جزءاً مكوّناً من أسلوب عمل ستالين بصفته قائداً أعلى، ولم يكن هذا التشدد قاسياً وحسب، وهو ما كان مبرراً، بنحو خاص خلال الحرب، ولكن ستالين لم يكن يغفر على الإطلاق أي نقص في الوضوح والصراحة خلال العمل، والتقصير عن الوصول بالأشياء حتى غايتها».

إن مثلاً مفصلاً سيوضح بطريقة أكثر إقناعاً ما كانته «أساليب القيادة اللامسؤولة» لدى ستالين:

ففي نيسان من عام 1942 كان هجوم الجيش الأحمر من أجل تحرير سائر منطقة كريمي قد آل إلى الفشل. وأمرت الستافكا بإيقاف الهجوم، وتنظيم دفاعات متدرجة. كانت إحدى وعشرون فرقة سوفيتية قد جابهت عشر فرق نازية. غير أنه في 8 أيار شرع النازيون يهاجمون واخترقوا الدفاعات السوفييتية. فأرسل ممثل الستافكا ميخليس وهو معاون قريب من ستالين، أرسل تقريره. وأجابه القائد الأعلى بهذه الصورة:

«أنت تحتفظ بوضعك الغريب كمراقب من الخارج، دون أية مسؤولية عن شؤون جبهة كريمي. هذا الوضع مريح جداً في الحقيقة، ولكنه عملياً وضع متعفن نتن. في جبهة كريمي، أنت لست مسؤولاً من الخارج، ولكنك ممثل مسؤول للستافكا. مسؤول عن كافة النجاحات والإخفاقات في الجبهة، ملزم بتصحيح أخطاء قيادة الجبهة. إنك تؤكد ومعك قيادة الجبهة، بأن الجانب الأيسر للجبهة كان ضعيفاً كلياً. فإن كان الأمر كما تقول: «إن الوضع بمجمله كان يشير إلى أن العدو كان سيهاجم منذ الصباح».بينما لم تكن أنت قد اتخذت أي تدبير لتنظيم المقاومة، واقتصرت على نقد سلبي. فبئساً لك».

وهاجم ستالين يعنّف أساليب القيادة البيروقراطية والشكلية: يقول ستالين

«الرفيق كوزلوف (قائد الجبهة) وميخليس كانوا يعتقدون بأن مهمتهم الأساسية تتكون من إلقاء أمر. وما أن يصدر هذا الأمر، حتى يكون واجبهم الخاص في قيادة القطعات قد انتهى. إنهم لم يدركوا بأن إعطاء أمر من الأوامر ليس إلا بداية العمل فقط، وأن المهمة الرئيسية للقيادة تشتمل على ضمان تنفيذ هذا الأمر، وعلى توصيله إلى كل عناصر القطعات، وتنظيم المساعدة والدعم

لهذه القطعات بغية تنفيذ أمر القيادة. فكما أظهر تحليل مجرى العمليـة، فإن قيادة الجبهـة كانت تصدر أوامرها دون أن تحسب حساباً للوضـع علـى الجبهة، ودون أن تعرف الوضع الحقيقي للقطعات. بل وحتى أن هذه القيادة لم تضمن وصول أوامرها إلى جيوشها (...) وفي الأيام الحرجة من العمليـة، فإن قيادة جبهة كريمي ومعها الرفيق ميخليس بدلاً من القيام باتصال شخصي مع قادة الجيوش، وبدلاً من مشاركة شخصية في مجرى العملية، أمضـوا وقتهـم في جلسات طويلة وغير مثمرة في المجلس العسكري».

«ينبغي على ملاكنا القيادي أن يقطع على نحو بات مع الأساليب الفاسدة والبيروقراطية لدى قيادتهم للقوات، وأن لا يقتصروا على إلقاء الأوامر، بل أن يكونوا في الغالب الأعم في قلب القوات، في قلب الجيوش، والفـرق، وأن يساعدوا مرؤوسيهم على تنفيذ أوامرهم. على ملاكنـا القيـادي، مـن المفوضين، والمسؤولين السياسيين أن يقتلعـوا مـن الجـذور روح اللاإنضبـاط بـين الضبـاط، الكبار منهم والصغار».

ستالين، «ذكاء متواضع»

لنكمل الحديث بـ«الحقيقـة» الثالثـة حـول شخصية ستالين: رجـل فـظ، وبارد، وذو ذكاء متواضع، لا يقيم اعتباراً للرجال، ويعامل معاونيه باحتقار.

والواقع أن الرجال الذين «عانوا» من هذا الوحش، يوماً بعد يوم طوال أربـع سنوات رهيبة من الحرب يقدمون لنـا صـورة لسـتالين تتنـاقض كليـاً مـع تلـك اللوحة.

ها هي ذي صورة خاطفة يزودنا بها جوكوف عن «معلمه».

«لم يكن في ستالين شيء خاص يمكن أن يلفت إليـه الأنظـار، ولكنـه كـان يُحدث في النفس انطباعاً عميقاً. ولأنه مجرد من أي تصنع، فقـد كـان يجـذب محـاوره بالبسـاطة في علاقتـه، وبـالحديث الحـر الـذي يمتـاز بـه في حـواره، وببراعته في أن يصوغ أفكاره بوضوح، وبذهنه الذي ينزع، على نحـو طبيعـي، إلى التحليل. علم واسع، وذاكرة مدهشة تجـبران حتـى الشخصيات المحنكـة جداً، التي كانت تدير حواراً معه علـى الـتركيز وعلـى أخـذ الحـذر تجاهـه». «كان ستالين يمتلك ذكاء طبيعياً خارقاً، ولكنه كان يمتلك أيضاً معارف واسـعة ومذهلة. وقد أتيحت لي الفرصة كي ألاحظ حيوية فكره التحليلي طوال جلسات المكتب السياسي. ولجنة الدولة للدفاع. وخـلال العمـل المتواصـل في السـتافكا.

كان يصغي بانتباه إلى من يتكلم. وكان يطرح أحياناً أسئلة، ويعطي إجابات. وحالما ينتهي النقاش كان يصوغ منه بوضوح النتائج، وينجز حسابه الختامي». «إن طاقته اللامحدودة على العمل، وقدرته على الاستيعاب السريع لأي موضوع كانت تتيح له دراسة وتمثل كمية من الوقائع في غاية التنوع، خلال يوم واحد، وهو ما يقتضي طاقة استثنائية».

إلى هذه الصورة، يضيف فاسيليفسكي بعض اللمسات حول علاقات ستالين بالرجال من حوله:

«كان ستالين قد وُهِبَ طاقة نادرة على التنظيم. كان يعمل هو نفسه، بلا انقطاع ويعرف كيف يشغل الآخرين، ويستخلص منهم كل ما كان بمستطاعهم تقديمه». «كان ستالين يتحلى بذاكرة خارقة. ولم يكن على معرفة بكل قادة الجبهات والجيوش وحسب، رغم أنهم كانوا يُعدّون بالمئات، بل وكان يعرف أيضاً قادة الفيالق والفرق، مثلما يعرف مسؤولي مفوضية الشعب لشؤون الدفاع، من دون أن نذكر ملاكات القادة في الجهاز المركزي، والمنطقي، للحزب والدولة».

«وفوق ذلك، كان ستالين يعرف شخصياً عدداً كبيراً من صانعي الطائرات والمدفعية، والدبابات، وكان يستدعيهم في غالب الأحيان، ويستفهم منهم عن دقائق الأمور».

المزايا العسكرية لستالين

كيف ينبغي في النهاية تقييم المزايا العسكرية لذلك الذي قاد الجيش والشعب في الاتحاد السوفييتي، خلال الحرب الأكبر والأشد هولاً من بين الحروب التي عرفها التاريخ.

لنقدّم في البداية رأي خروشوف

«لقد حرص ستالين كثيراً على أن يبرز نفسه كقائد عسكري كبير. لنعد مثلاً إلى أفلامنا التاريخية. إنه لأمر منفر. لم يعد هناك من موضوع سوى نشر الموضوعة التي تؤكد بأن ستالين كان عبقرية عسكرية».

«ليس ستالين، وإنما الحزب بأسره، والحكومة السوفييتية، وجيشنا البطل وقادته الموهوبون وجنوده الشجعان، هم الذين حققوا النصر في الحرب الوطنية العظمى، (عاصفة تصفيق طويلة).

يتظاهر خروشوف بتمجيد الحزب، هذا الجسد الجماعي الذي شارك في القتال، كي يقلل من دور ستالين، فبإقامته لعبادة الشخصية كان ستالين سيسلب النصر الذي كان الحزب «بأجمعه» قد انتزعه. كما لو أن ستالين لم يكن القائد الأبرز في هذا الحزب. هذا الذي، في خضم الحرب أظهر أكبر طاقة في العمل وأصلب عزيمة، وأجلى بصيرة كما لو أن كافة القرارات الستراتيجية لم تكن مبتوتة من قبل ستالين.

إن لم يكن ستالين عبقرية عسكرية، فينبغي أن نستنتج بأن الحرب الأكبر في التاريخ، الحرب التي خاضتها الإنسانية ضد الفاشية، تكللت بالنصر من دون عبقرية عسكرية. ففي تلك الحرب الرهيبة، ما من إنسان لعب دوراً مماثلاً للدور الذي قام به ستالين. وحتى إفيريل هاريمان ممثل الإمبريالية الأمريكية، وبعد أن كرر الكليشات المجانية بشأن (المستبد الذي كانه ستالين) أشار إلى «ذكائه الخارق، وطاقته الخيالية في الدخول إلى التفاصيل، ونفاذ بصره وحساسيته الإنسانية المدهشة التي كان بإمكانه أن يظهرها، أثناء سنوات الحرب. على الأقل، لقد لمست بأنه كان أكثر اطلاعاً من روزفلت، وأكثر واقعية من تشرشل بالإضافة إلىالعديد من الكفاءات المتوفرة لدى قادة الحروب».

يقول خروشوف: «حين يكون ستالين حاضراً، لا يعود ثمة مكان لأحد، أين كان إذن قادتنا العسكريون؟» يداهن خروشوف المارشالات، ولسان حاله يقول: أليس كذلك، أيها المارشالات أيها العبقريات العسكرية الحقيقية في الحرب العالمية الثانية؟ في النهاية، فإن جوكوف وفاسيليفسكي القائدين العسكريين الأكثر شهرة، قدما رأيهما، على التوالي، بعد خمس عشرة سنة، وعشرين سنة من التقرير الدنيء لخروشوف.

لنستمع إلى حكم فاسيفيسكي:

«تكوّن ستالين بوصفه رجل ستراتيجا (...) فبعد معركة ستالينغراد، وعلى الأخص معركة كورسك حلق حتى الذرى في القيادة الستراتيجية. كان يفكر، مستعملاً كل مقولات الحرب الحديثة. وكان يجد نفسه كلياً داخل كل مسائل إعداد وتنفيذ العمليات، وكان يطالب بأن تقاد العمليات العسكرية بطريقة خلاقة، مهتماً أكبر الاهتمام بالعلم العسكري، بحيث تكون هذه العمليات حافلة بالفعالية والمناورة، رامية إلى تشتيت العدو ثم تطويقه. وقد أبدى فكره العسكري، بصورة جلية ميلاً إلى تكتيل القوى والوسائل، وإلى العناية بتنويع ما أمكن من الخطط المختلفة لبداية العمليات، ولقيادتها. لقد تمكن ستالين

ليس فقط من تمثل استراتيجية الحرب، فذلك كان سهلاً بالنسبة إليه بعد أن ملك فنّ الستراتيجا السياسية، وإنما فن التنظيم أيضاً». «لقد دخل ستالين بصورة دائمة في التاريخ العسكري، فجدارته العسكرية لا ريب فيها وتحت قيادته المباشرة بصفته قائدا أعلى صمدت القوات المسلحة السوفييتية في الحروب الدفاعية، وأنجزت بنجاح باهر كافة العمليات الهجومية. ولكن بقدر ما لاحظته لم يكن يتكلم مطلقاً عن مزاياه. وفي كل الأحوال، لم يتفق لي أن سمعته إطلاقاً يتحدث عن نفسه وجدارته. أما لقب بطل الاتحاد السوفييتي، ورتبة الجنرالية فقد منحا له باقتراح من قادة الجبهات في المكتب السياسي. وبالنسبة إلى الأخطاء المرتكبة خلال سنوات الحرب فقد تحدث عنها بأمانة وصراحة».

«كان ستالين، وأنا على قناعة عميقة بما أقول، بدءاً من النصف الثاني للحرب الوطنية العظمى، الشخصية الأكثر قوة، والأشد لمعاناً في القيادة الستراتيجية، وكان يحمل على عاتقه، إضافة إلى قيادته الناجحة لجبهات القتال، تنسيق كافة جهود البلاد على قاعدة السياسة الحزبية (...) وقد ظل ستالين في ذاكرتي كقائد عسكري بالغ الحزم قوي الإرادة دون أن ينقصه في الوقت نفسه سحره الشخصي».

أما جوكوف فيبدأ بإعطائنا مثالاً متكاملاً عن أسلوب القيادة قدمه ماوتسي تونغ: تركيز آراء الجماهير وأفكارهم الصحيحة لإعادتها على شكل توجيهات إلى الجماهير.

«إلى جوزيف ستالين، شخصياً، تُعزى كافة الحلول النظرية والمبدئية، ولا سيما ما يتعلق منها بطرائق الهجوم بالمدفعية، وامتلاك السيطرة الجوية، وطرائق تطويق العدو، وتشتيت حشوده المحاصرة، ثم تدميرها كعناصر مبعثرة..الخ. كل هذه المسائل المهمة في الفن العسكري كانت ثمرة لتجربة عملية اكتسبها ستالين في مجرى الاشتباكات والمعارك الواسعة، وثمرة لتفكير عميق ولاستخلاصات مأخوذة من تلك التجربة عبر مجموع القادة، وعبر القوات ذاتها. ولكن مزية جوزيف ستالين تتكون من أنه كان يتلقى، مثلما يليق بقائد مثله، آراء ونصائح خبرائنا العسكريين البارزين. وأنه كان يكملها، ويستثمرها ويبلغها بسرعة فائقة في شكل مبادئ عامة ضمن تعليمات وتوجيهات، موجهة إلى القطعات، من أجل ضمان القيادة العملية للعمليات القتالية».

«حتى نشوب معركة ستالينغراد لم يكن ستالين يمتلك سوى الخطوط الكبرى لمسائل الستراتيجيا، وللفن العملياتي، ولإعداد عمليات عسكرية حديثة

على مستوى جبهة من الجبهات وبالأحرى، على مستوى جيش من الجيوش. وفيما بعد، ولا سيما، بدءاً من ستالينغراد امتلك جوزيف ستالين كلياً فن تجهيز عملية لجبهة قتالية أو لعدة جبهات. وكان يقود مثل هذه العملية بكفاءة عالية، معالجاً بنجاح المسائل الستراتيجية الجدية».

«لقد كان ستالين، في قيادته للكفاح المسلح متحلياً، بوجه عام، بذكائه الطبيعي، وباستبصاره الغني. ومما لا جدال فيه، أنه كان جديراً بالقيادة العليا».



من ستالين إلى خروشوف

في 9 شباط من عام 1946، قدم ستالين أمام ناخبيه حساباً ختامياً للحرب ضد الفاشيين.

«كانت الحرب، يقول ستالين، مدرسة كبرى، امتحنت فيها كافة قوى الشعب نفسها وراجعت حساباتها».

وهاجم ستالين، بنحو غير مباشر، التصورات العسكرية التي تقول بأن الجيش الأحمر كان الصانع الرئيسي للنصر. والحقيقة أن الفكرة المتمثلة في صيغة: الجيش فوق الحزب، والتي كان يمجدها توخاتشيفيسكي، قد تنامت في نهاية الحرب داخل حاشية جوكوف. اعترف ستالين بالتأكيد، بالجدارات الفائقة للجيش، ولكنه قال: «قبل كل شيء، فإن نظامنا الاشتراكي السوفييتي هو الذي انتصر، وأثبتت الحرب بأن النظام الاشتراكي السوفييتي هو نظام شعبي حقيقي». إننا ندين بانتصارنا، في المقام الأول إلى «نظامنا السياسي السوفييتي... فدولتنا السوفييتية المتعددة القوميات صمدت لكل تجارب الحرب وأثبتت حيويتها».

سيكون من الخطأ، تابع ستالين، الاعتقاد «بأننا ندين بنصرنا إلى شجاعة قواتنا العسكرية، وحسب» فبطولة جيشنا ستكون غير مجدية من دون هذه الكتل الهائلة من الدبابات والمدافع والمعدات التي كان الشعب قد وضعها بين أيدي جنوده. وكل هذا الإنتاج الأسطوري ما كان ممكناً إنجازه إلا بفضل التصنيع «الذي تحقق في مهلة قصيرة للغاية لا تتجاوز ثلاث عشرة سنة»، «وبفضل التجميع الزراعي الذي كان قد أتاح لنا أن نتخلص، في زمن يسير، من تخلف قرون طويلة في زراعتنا»، وذكر ستالين بالمعركة التي خاضها التروتسكيون والبوخارينيون ضد التصنيع والتجميع.

«إن العديد من الأعضاء البارزين في الحزب شدوا حزبنا إلى الخلف، على نحو منهجي، وحاولوا بكل السبل أن يدفعوه على الطريق الرأسمالي للتطور».

وفي شباط عام 1946، أقرت الخطة الخمسية الجديدة.

عمد الجيش الألماني، خلال انسحابه إلى تدمير وإحراق كل ما كان ذا فائدة للسوفييت. وقد دمر كلياً أو جزئياً 2000 مدينة و70.000 قرية ومشروع يعمل فيها أربعة ملايين عامل صناعي أو زراعي.

ففي المناطق المحتلة، لحق التدمير الكامل بـ 40٪ إلى 60٪ من طاقة الصناعة الفحمية، ومن إنتاج الطاقة الكهربائية، ومن الصناعة الحديدية وغير الحديدية، والصناعة المعدنية، والصناعات الكيميائية.

كان البعض يقدرون بأن الاتحاد السوفييتي سيحتاج إلى عدة عقود كي يبرأ من جراحه التي كان قد تكبدها من قبل النازيين في شبكته الصناعية. والحال أنه بفضل جهود رائعة خلال ثلاث سنوات تجاوز الإنتاج الصناعي في عام 1948 مثيله في عام 1940. فبالمقارنة مع عام 1940، بلغ إنتاج الفحم في عام 1948 المؤشر 123، والكهرباء 130، والصفائح المعدنية 102، والسيارات والكميونات 161، والآلات والأدوات 134، والإسمنت 114.

في عام 1950، أواخر الخطة الخمسية ارتفع الإنتاج الصناعي بنسبة 73٪ عما كان عليه عام 1940 وتضاعف إنتاج السلع الأساسية. وزادت كمية إنتاج السلع الاستهلاكية بمعدل 23٪.

إن الخطة الخمسية الخامسة التي غطت الفترة الممتدة ما بين عامي 1951ــ 1956 قدّرت معدل النمو السنوي بـ12٪. ثمة واقع جديد. ستشهد فيه سلع الاستهلاك تطوراً كبيراً بزيادة مقدارها 65٪، كما ستشهد السلع الرئيسية نمواً مقداره 80٪ خلال خمس سنوات وهذا التغير في السياسة الاقتصادية، كان ستالين قد أعلن عنه في خطابه عام 1946.

«سنعطي اهتماماً خاصاً لزيادة إنتاج سلع الاستهلاك اليومي، ولرفع مستوى حياة العاملين، ولتقليص تدريجي لسعر كافة البضائع، وإنشاء كافة أنواع معاهد البحوث العلمية».

الولايات المتحدة
تأخذ دور البديل لألمانيا النازية

لم تكن الحرب ضد الفاشيين قد انتهت بعد، حين كان العديد من الجنرالات الأمريكيين يحلمون بالانقلاب ضد حلفائهم كي يشنوا عمليات

عسكرية ضد الاتحاد السوفييتي. وضمن هذه المغامرة كانوا يفكرون باستخدام الجيش النازي، مطهّراً من هتلر ومن بطانته. يكشف العميل السري كوكريدج بعض النوايا والخطط المرسومة في صيف عام 1945:

«كان الجنرال الألماني باتون يحلم بإعادة تسليح فرقتين من فرق الوفين ـ SS كي يلحقهما بالجيش الأمريكي الثالث ويقودهما في حرب جديدة ضد الحمر». وكان هذا الجنرال قد عرض بجدية خالصة مشروعه هذا على الجنرال مك نارني الحاكم العسكري الأمريكي في ألمانيا... «إن ما يفكر به هؤلاء الأشخاص البلاشفة هو ما الذي يمكن أن يفعلوه بكم؟» هذا ما كان يقوله الجنرال باتون. عاجلاً أم آجلاً سيتوجب عليكم أن تقاتلوا ضدهم. فلماذا ليس الآن، في الوقت الذي يكون فيه جيشنا بكامل قوته، والذي يمكننا فيه أن ندحر الجيش الأحمر إلى داخل روسيا؟ فبجنودي الألمان نكون قادرين على فعل ذلك. لأنهم يمقتون هؤلاء الهجناء الحمر». واستدعي باتون من قبل روبرت مورفي المستشار السياسي لمك نارني. وقد كتب مورفي:

«سأل باتون، إن كان هناك فرصة للمضي حتى أبواب موسكو، وأضاف، بأنه يأخذ على عاتقه الوصول إلى هناك في ثلاثين يوماً، بدلاً من انتظار أن يهاجم الروس الولايات المتحدة».

النازي غيهلن والـ CIA

كان الجنرال غيهلن رئيساً للجاسوسية النازية العاملة في الاتحاد السوفييتي، وفي أيار عام 1945 قرر أن يذهب، ومعه أرشيفاته إلى الأمريكيين. ومثل أمام الماجور جنرال لوثر سيبرت رئيس الاستخبارات في مجموعة جيوش الجنرال برادلي. وبطلب من سيبرت، حرر النازي غيهلن تقريراً من 129 صفحة بعنوان «مشروع إنشاء منظمة سرية تقوم بأعمال الاستخبارات، موجهة ضد الاتحاد السوفييتي برعاية الأمريكيين». وقدم غيهلن نفسه إلى أعلى السلطات العسكرية الأمريكية، وحينما طلب المندوبون الروس أخباراً عن غيهلن وعن سيللينبرغ، مجرمي الحرب اللذين كان ينبغي تسليمهما، أجاب الأمريكيون بأنهم لا يعرفون شيئاً عما جرى لهما. وفي 22 آب من عام 1945، نقلوا غيهلن سراً إلى الولايات المتحدة. وقد «تفاوض» النازي غيهلن هناك مع مسؤولي الاستخبارات الأمريكية، بمن فيهم آلان دوللي، وتوصلوا إلى «اتفاق»: ستواصل منظمة التجسس التي يرأسها غيهلن العمل داخل الاتحاد السوفييتي بطريقة

«مستقلة» «وسيقوم ضباط أمريكيون بتأمين الاتصال مع المخابرات الأمريكية» «ستستخدم منظمة غيهلن فقط من أجل تقديم معلومات عن الاتحاد السوفييتي، وعن البلدان التابعة له».

في 9 تموز عام 1946 عاد غيهلن إلى ألمانيا كي يجدد وظيفته التجسسية النازية تحت الإشراف الأمريكي، وجنّد عشرات الضباط من ذوي الرتب العالية في الغستابو وفي الـ SS وسلمهم أوراق سفر مزورة.

كان جون لوفيس مسؤولاً في دوائر المخابرات الأمريكية، مسؤولاً عن التحريات حول النازيين القدامى بعد الحرب، ولاحظ لوفيس بأن آلافاً من الفاشيين الأوكرانيين والكروات والهنغار أدخلوا إلى الولايات المتحدة من قبل إحدى الدوائر «المنافسة» لدائرته. كتب لوفيس:

«إن عدد مجرمي الحرب النازيين الذين يقيمون في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية يُقدر بعشرة آلاف».

منذ عام 1957، وبعد أن دشّن الأمريكيون الحرب الباردة، لعب هؤلاء النازيون «القدامى» دوراً كبيراً في الدعاية المضادة للشيوعية.

على هذا النحو، يمكن التأكيد بأن الإمبريالية الأمريكية كانت واقعياً المتابع المباشر للتوسع النازي.

القنبلة النووية... ضد الاتحاد السوفييتي

في 21 تموز من عام 1945، وفي غمرة انعقاد مؤتمر بوتسدام، وصل تقرير إلى الرئيس ترومان حول التجربة النووية الأمريكية الأولى.

«ذلك ما أعطى والدي، كتبت مارغريت ترومان، فرصة متابعة المناقشات (مع ستالين) بجرأة أكبر وتصلب أكثر» وتابعت:

«كان والدي قد فكر ملياً بالطريقة التي كان عليه أن يخبر ستالين بوجود القنبلة النووية فاقترب من الزعيم السوفييتي وأخبره بأن الولايات المتحدة كانت قد أنجزت صنع سلاح جديد ذي قوة تدمير لا حدود لها، وتقدم الوزير الأول تشرشل وسكرتير الدولة بيرن بضع خطوات باتجاههما كي يراقبا بانتباه رد فعل ستالين... ولكن ستالين احتفظ بأقصى درجة من الهدوء».

يتذكر جوكوف النقاش بين ستالين ومولوتوف بعد عودتهما إلى قصر الضيافة:

«انتفض مولوتوف فوراً:

ـ كانوا يحاولون أن يزيدوا الثمن.

وقال ستالين باسماً:

ـ دعهم. علي اليوم أن أتحدث مع خروشوف كي يسرّع الأشياء.

وفهمت بأنهما كانا يتحدثان عن القنبلة الذرية.

«كان ستالين رجلاً مصمماً وهادئاً بحيث لم يكن يسمح لنفسه مطلقاً بأية بادرة تنمّ عن التخوف، ولا حتى من الابتزاز النووي».

إن ترومان، ومنذ الانتهاء من صنع القنبلة النووية، جعل يصورها كما لو أنها سلاح إرهابي شديد الهول، قادر على أن يضمن للولايات المتحدة الهيمنة العالمية. وقد كتب في مذكراته:

«كنت أنظر إلى القنبلة على أنها سلاح عسكري، ولم يراودني الشك إطلاقاً بأن هذا السلاح سوف يُستخدم، وحين كنت أتحدث مع تشرشل، قال لي من دون تردد بأنه كان يحبذ استخدام القنبلة النووية».

في تموز، كان الاتحاد السوفييتي قد اتخذ القرار بالدخول في حرب ضد اليابان التي كانت منذ الآن وصاعداً على مشارف هزيمة عسكرية محتمة. ومع ذلك، ومن دون أدنى ضرورة عسكرية قرر الأمريكيون «تجريب» أسلحتهم الذرية على الكائنات البشرية. كانوا يأملون على هذا النحو إرهاب خصومهم إلى درجة لم ترق إليها حتى النوايا النازية. من الملاحظ بجلاء أن الهدف الرئيسي للإمبريالية الأمريكية، بقتلها أعداداً كثيفة من اليابانيين، كان إثارة الرعب لدى السوفييت، وكانت الرسالة الرئيسية موجهة إلى ستالين. ومنذ أن علم تشرشل بوجود القنبلة الذرية رغب في استخدامها.. ضد الاتحاد السوفييتي. كتب البروفسور غابرييل كولكو:

«كان المارشال آلان بروك يعتقد بأن الحماس الطفولي الذي يبديه الوزير الأول البريطاني قد غدا خطيراً للغاية، فقد كان يرى بعين أحلامه أنه قادر على تدمير المراكز الصناعية في روسيا».

«وفي بوتسدام «كان تشرشل يستحث الأمريكيين كي يستخدموا القنبلة النووية كوسيلة ضغط سياسية إزاء الروس».

في 6 آب عام 1945، وبعد أن أخبر ترومان بأن جزيرة هيروشيما قد أصبحت هباء تذروه الرياح بفعل القنبلة النووية صرح للأشخاص المحيطين به وبكل راحة ضمير:

«إنها أكبر عملية في التاريخ». وتجرأ ترومان على أن يكتب جملة مشابهة في مذكراته. إن قرار الإمبريالية الأمريكية بإفناء مئات الآلاف من اليابانيين، من دون استثناء يظهر جيداً طبيعتها اللاإنسانية والبربرية: وكانت على هذا النحو تتسلم الشعلة من يد القوى الفاشية، وفي تصريحه الرسمي، في اليوم نفسه، قال ترومان:

«إذا لم يقبل اليابانيون الآن بشروطنا فيمكنهم أن يتوقعوا مطراً مدراراً من الدمار قادماً إليهم من السماء، كما لم يُشاهد قط مثله على هذه الأرض».

وفي 9 آب، شُطبت مدينة يابانية جديدة، هي ناغازاكي، من الخارطة بالمطر الذري الموعود من قبل ترومان. وكلفت القنبلتان حياة 443.000 إنسان من بين سكان هيروشيما وناغازاكي.

بادعائها القوة الوحيدة المهيمنة على العالم، تطرح الولايات المتحدة نفسها خصماً لدوداً لكل حركة مناوئة للإمبريالية، مكافحة من أجل الاستقلال، والديمقراطية الشعبية والاشتراكية. ذلك هو مغزى «مذهب ترومان» مذهب التدخل في جميع الاتجاهات، بحجة «الدفاع عن الحرية (حرية السوق والاستغلال) ضد الخطر الشيوعي» وقد صاغه ترومان في 12 آذار عام 1947 على هذا النحو:

«أعتقد أنه ينبغي لسياسة الولايات المتحدة أن تتمثل في دعم الشعوب الحرة التي تقاوم محاولات الاستعباد من قبل الأقليات العسكرية، أو من قبل الضغوط الخارجية».

سياسة التدخل هذه كانت «مسوّغة» بصورة رئيسية بسبب «خطر الشمولية الروسية»، وقد صرح ترومان بأن التهديد الجدي الذي نواجهه لا يقل خطورة على ما يبدو عما كانت تمثله ألمانيا النازية. فما أن أزيح هتلر عن مسرح التاريخ، حتى استعاد منافسه على الهيمنة العالمية، ترومان، كل الافتراءات المعادية للشيوعيين التي أطلقها النازيون سابقاً. وحين تحدث ترومان عن الاتحاد السوفييتي، قال:

«مجموعة من المتعصبين المجرمين، ولكن البارعين، أقاموا دكتاتورية وزينوها بكل زينات عبادة الدولة... وغدا الفرد موضوعاً للدولة في ظل عبودية أبدية».

هكذا إذن، فما كاد النازيون يتكبدون الهزيمة حتى استعاد ترومان توجههم الرئيسي، التوجه المعادي للشيوعية، والمعادي للسوفييتية. والحال، فإن هتلر نفسه هو الذي كان قد بدأ الانفتاح على الأمريكيين. يقول هتلر:

«إن انتصاراً لخصومنا لا بد أن يؤدي حتماً إلى بلشفة أوربا» «إن التحالف الذي أقامه خصومنا مؤلف من عناصر... غير متجانسة... دول رأسمالية متطرفة، من جهة، ودول شيوعية متطرفة من الجهة الأخرى» «سيأتي يوم يتفكك فيه هذا التحالف» «والجميع ينتظر تلك اللحظة، مهما بلغت خطورة الوضع».

لكي ينقذوا أنفسهم من الهزيمة الوشيكة، ولكي يقوضوا التحالف كان النازيون يؤكدون، في أواخر أيام الحرب، افتراءاتهم الدنيئة ضد الشيوعية، واستعادها ترومان بعد مضي ثمانية عشر شهراً.

الكفاح ضد الإمبريالية، والكفاح من أجل السلام

على هذه الخلفية يمكن أن نفهم بنحو أفضل السياسة الدولية التي سار عليها ستالين منذ عام 1945 وحتى عام 1953. كان ستالين حازماً في عدائه للإمبريالية الأمريكية، ولخططها الحربية، وفي حدود وسائله المتاحة كان يقدم المساعدة للحركات الثورية لمختلف الشعوب ملتزماً أقصى حدود التيقظ والحذر.

خاض ستالين، ضد النظام الرأسمالي العالمي نضالاً على أربع جبهات: عزّز القوة الدفاعية للاتحاد السوفييتي، القاعدة الصلبة للشيوعية الأممية، ومد يد المساعدة للشعوب المصممة على السير في طريق الديمقراطية الشعبية والاشتراكية. وقدم الدعم للشعوب المستعمرة التي كانت تتطلع إلى الاستقلال، وشجع الحركة العالمية الواسعة من أجل السلام، إزاء المغامرات العدوانية الجديدة للإمبريالية.

أدرك ستالين بوضوح بأن هدف الإمبريالية الأنغلو أمريكية، هو «إنقاذ» الطبقات الرجعية في البلدان المتاخمة للاتحاد السوفييتي، تلك البلدان التي تعاونت مع النازيين، لإدماجها ضمن الاستراتيجية الانكلو ـ أمريكية في السيطرة العالمية. وكان هذا التوجه قد رسم خلال الحرب نفسها، بكل تأكيد.

ففي الأول من آب عام 1944 كانت الحكومة البولونية المقيمة في لندن قد أثارت التمرد ضد النازيين في فرصوفيا، واندفع هؤلاء الرجعيون في مغامرة إجرامية من أجل هدف وحيد هو منع الجيش الأحمر من تحرير العاصمة البولونية، وكان الجيش الأحمر الذي تقدم 600 كم في داخل بولونيا قد خسر العديد من الرجال والعتاد، وبات من المستحيل بالنسبة إلى هذا الجيش النفاذ إلى فرصوفيا لمساعدة المتمردين. كان الرجعيون البولونيون بالإضافة إلى ذلك، قد

أخفوا عمداً عن السوفييت نيتهم بإثارة التمرد. ولكن النازيين الذين كانوا قد ركزوا العديد من الفرق العسكرية في داخل فرصوفيا أقدموا على مذبحة بشعة للسكان، ودمروا العاصمة. وفهم ستالين بأن هناك حرباً داخل الحرب. وكتب إلى تشرشل وروزفلت:

«عاجلاً أو آجلاً ستظهر الحقيقة عن حفنة المجرمين الذين، من أجل أن يسيطروا على السلطة، أطلقوا مغامرتهم في فارصوفيا».

في 23 آب عام 1944 كان الجيش الأحمر قد حررالبلدة الأولى في هنغاريا، وبعد مضي يومين، عكفت الحكومة الفاشية برئاسة هورثي، والتي كانت في السلطة منذ عام 1919، على الاهتمام بالوضع الجديد، وأعدت العدة لاستلام السلطة.

«كان الأنكلوسكسون يرغبون في أن يوقف الهنغاريون تقدم الروس حتى يتاح لهم هم احتلال هنغاريا». هذا ما نقرأه في أحد المحاضر الرسمية.

شرع هورثي وعصابته في النضال ضد «الإمبريالية الحمراء» في الوقت الذي كانت فيه خمس وثلاثون فرقة نازية تستعد «للدفاع» عن بودابست ضد الجيش السوفييتي. ومنذ ذلك اليوم فإن الرجعية البرجوازية صار يراودها الأمل في إنقاذ نفسها بفضل مساعدة الأمريكيين الذين كان عليهم ضمان «استقلال الهنغاريين» ضد «نزعة التوسع السوفييتية» وسيغدو الشعار المرفوع في كل بلدان أوروبا الشرقية «الاستقلال الوطني» مستخدماً من قبل الطبقات الرجعية للقتال ليس فقط ضد الاشتراكية، بل وأيضاً، ضد المصالح الوطنية الأساسية، ومن أجل الاندماج في الستراتيجية الأمريكية للهيمنة العالمية.

في اليونان، كانت المقاومة الوطنية التي قادها الحزب الشيوعي قد تكبدت خسائر جسيمة على يد النازيين، وحينما جلا الألمان عن أثينا، في 12 تشرين أول من عام 1944، كانت المقاومة المؤلفة من 70 ألف مقاتل مسلح تسيطر على كل الأراضي اليونانية تقريباً. وتدخل الجيش الإنكليزي كي يمنع الشعب اليوناني من إقامة سلطة ثورية. ففي 5 كانون أول، كتب تشرشل إلى الجنرال سكوبي:

«لا تترددوا مطلقاً في التصرف كما لو كنتم في بلد محتل يثور فيه عصيان محلي».

على هذا النحو، ابتدأت الحرب الأنكلو ـ أمريكية الطويلة ضد المناضلين اليونايين المعادين للفاشيين.

بعد أن سحق الجيش الأحمر جحافل الفاشيين المسلحة في أوروبا الشرقية، عكف على خلق الشروط الملائمة لتطوير نضال العمال والفلاحين، وأعداء الفاشية.

وبفضل تلك المساعدة، فإن الجماهير بقيادة الأحزاب الشيوعية في تلك البلدان، أفلحت في إقامة السلطة الاشتراكية، وأنجزت، على هذا النحو استقلالها الوطني الحقيقي. وأفشلت دسائس القوى الفاشية والبرجوازية التي كانت حريصة على الاحتفاظ بسلطتها، كي تجعل من بلدان أوربا الشرقية مستعمرات جديدة أمريكية.

إن نظرية «الإمبريالية الحمراء» التي كانت من ابتكار النازيين في بداية الحرب، عام 1941، بغية تبرير عدوانهم، جرى استعادتها من قبل الأمريكيين منذ عام 1946. والطريقة التي كان الأنكلو أمريكيين يفهمون بها «استقلال» البلدان كانت موضحة أفضل توضيح في اليونان، حيث نفذ الأنكلو أمريكيون مجازر بالقوى النضالية الفعلية ضد الهتلريين.

إن التحليل الذي قام به ستالين للوضع العالمي الناشئ بعد هزيمة القوى الفاشية قد عرضه أحد المقربين منه، وهو جدانوف، المسؤول السياسي في لينينغراد إبان الحصار الفاشي الذي استمر 900 يوم.

وها هو ذا النص الذي قدمه في المؤتمر الإعلامي الذي عقدته تسع أحزاب شيوعية، في أيلول عام 1947، في بولونيا. إن المواقف المتضمنة في النص لتستحق اهتمامنا، ليس فقط لصحتها وصلتها الوثيقة بالأوضاع، ولكن أيضاً لأنها ستتعرض للهجوم والرفض، نقطة نقطة بعد تسع سنوات فقط، أي بعد انقلاب خروشوف.

«إن الهدف الذي يطرحه المسار الجديد للتوسعية الأمريكية هو إقامة هيمنة عالمية، ويرمي هذا المسار الجديد إلى توطيد احتكار الولايات المتحدة للأسواق، والذي نشأ في إثر اختفاء منافسيها الأكثر أهمية ـ ألمانيا واليابان، وعبر إضعاف شريكيها الرأسماليين ـ إنكلترا وفرنسا ـ يعتمد هذا المنحى الجديد على برنامج عسكري، وسياسي واقتصادي مكثف حيث سيتم تطبيقه في البلدان المستهدفة للهيمنة السياسية والاقتصادية الأمريكية وسيجعل من هذه البلدان بلداناً تابعة تدور في الفلك الأمريكي، وسيفرض على هذه البلدان نظماً داخلية تعمل على إزالة أية عقبة في وجه استثمار الرأسمال الأمريكي لهذه البلدان». «لقد بدأ الدبلوماسيون الإمبرياليون الأشد سعاراً واختلالاً في العقل بعد تشرشل، في رسم

مخططات بقصد الإعداد بأسرع ما يمكن، لحرب وقائية ضد الاتحاد السوفييتي، داعين، علناً، إلى استخدام الاحتكار الأمريكي المؤقت للسلاح النووي ضد سكان الاتحاد السوفييتي» «تنص الخطة العسكرية الستراتيجية للولايات المتحدة على القيام، خلال فترة السلم، بإنشاء العديد من القواعد، والمواقع العسكرية، بعيدة جداً عن القارة الأمريكية، مخصصة لاستخدامها في أهداف عدوانية ضد الاتحاد السوفييتي والبلدان الديمقراطية الجديدة» «تغذي الاحتكارات الأمريكية آمالاً خاصة حول إعادة إحياء ألمانيا الرأسمالية معتبرة أنها ستشكل الضمانة الأكثر أهمية من أجل نجاح النضال ضد القوى الديمقراطية في أوربا» «ولكن الولايات المتحدة، فيما هي تسير على طريق تحقيق تطلعاتها في السيطرة العالمية، تصطدم بالاتحاد السوفييتي، وبنفوذه العالمي المتنامي، كمعقل للسياسة المعادية للإمبريالية وللفاشية، التي تنتهجها بلدان الديمقراطية المنعتقة من السيطرة الإمبريالية الأنكلو ــ أمريكية، والطبقة العاملة في كافة البلدان». «إن التنازلات إزاء التوجه الجديد للولايات المتحدة الأمريكية والمعسكر الإمبريالي يمكن أن يدفع أرباب هذا التوجه إلى أن يصبحوا أشد سفاهة وعدوانية. ولهذا ينبغي على الأحزاب الشيوعية أن يكونوا طلائع المقاومة، وعلى كافة الصعد، لخطط الإمبرياليين التوسعية العدوانية».

«ألا لا يتوهمنّ أحد بأن قعقعة السلاح التي يثيرها مثيرو الحروب يمكن أن تخيفنا. فلسنا نحن الذين نخشى الحرب، وإنما الإمبرياليون والمعتدون (...) وهل يمكن أن يكون لأحد شك في ذلك؟ فإذا ما شن الإمبرياليون حرباً عالمية ثالثة، فإن تلك الحرب ستكون قبراً، ليس للدول الرأسمالية المعزولة هنا أو هناك، وإنما للرأسمالية العالمية برمتها؟»

في عام 1947 صنع الاتحاد السوفييتي أسلحته النووية الخاصة، وكان ستالين قد نجح في تحطيم سياسة الابتزاز النووي للأمريكيين. كان الاتحاد السوفييتي وكافة الشيوعيين في العالم يشنون حملة عالمية ضد خطط الحرب الأمريكية، ومن أجل حظر الأسلحة النووية، وقد كشف مؤتمر السلم العالمي عن أوسع حملة من أجل السلام لم يسبق لها مثيل إطلاقاً. وفي البيان المنشور في ختام مؤتمر السلم الثاني نقرأ:

«يوماً بعد يوم تضع شعوب العالم أملها فيكم، وفي صلابتكم، وفي إرادتكم الطيبة إن المعركة من أجل السلام هي معركتكم. واعلموا بأن مئات الملايين من أنصار السلام يمدون أيديهم إليكم. فالسلام لا يُنتظر وإنما يُكتسب اكتساباً. إننا نطالب بحظر الأسلحة النووية وبنزع شامل للأسلحة وبمراقبة هذه التدابير».

التحريفي تيتو والولايات المتحدة

إن الأحزاب الشيوعية في أوربا الشرقية التي خاضت معارك قاسية في غضون الأعوام 1945ـ 1948 من أجل تحقيق الانتقال إلى الاشتراكية كانت تفتقر إلى التجربة التي خاضها الحزب السوفييتي. وتعاني من الرخاوة الإيديولوجية، فانتساب مئات الآلاف من الأعضاء الجدد القادمين جزئياً من التيارات الاشتراكية الديمقراطية جعلها ضعيفة الحصانة إزاء النزعات الانتهازية والقومية البرجوازية.

في عام 1948 فرض التيار الاشتراكي الديمقراطي، المعادي للسوفييت، فرض نفسه على رأس الحزب الشيوعي اليوغسلافي.

حين شنّ ستالين عام 1948 حملة نضالية ضد التحريفي تيتو فقد أظهر أنه بعيد النظر، شديد التمسك بالمبادئ. وقد أكد التاريخ بعد خمسة وأربعين عاماً، صحة توقعاته كلياً.

حين بدأ الغزو الألماني ليوغسلافيا عام 1941 كان الحزب اليوغسلافي السري يضم اثني عشر ألف عضو، قُتل منهم خلال الحرب ثمانية آلاف. ولكن هذا الحزب انتفخ أثناء المقاومة ليضم 140.000 عضو، و360.000 آخرين قبل منتصف عام 1948. عشرات الآلاف من الكولاك والبرجوازيين والعناصر البرجوازية الصغيرة كانوا قد انتموا إلى الحزب. كان تيتو يعتمد أكثر فأكثر على هؤلاء العناصر في صراعه مع الشيوعيين الحقيقيين. لم يكن لدى الحزب حياة داخلية طبيعية، ولا نقاشات سياسية تدور في صفوفه، وبالتالي لم يكن هناك أي نقد أو نقد ذاتي ماركسي لينيني. ولم يكن القادة قد انتخبوا انتخاباً وإنما عُينوا تعييناً.

في حزيران من عام 1948، قام المكتب الإعلامي للأحزاب الشيوعية الذي يضم ثمانية أحزاب بنشر قرار نقدي للحزب اليوغسلافي، يؤكد على أن تيتو لم يكن يعير أي اهتمام لتفاقم الفروق الطبقية في الريف، ولا لتزايد العناصر البرجوازية في البلاد. وشدد القرار على أن الحزب اليوغسلافي، منطلقاً من موقف قومي برجوازي، كان قد صدّع الجبهة الموحدة للاشتراكية ضد الإمبريالية. وجاء في القرار:

«مثل هذا الخط القومي لا يمكن إلا أن يقود إلى انحدار يوغسلافيا إلى جمهورية برجوازية عادية».

قبل صدور هذا النقد، أطلق تيتو حملة تطهير مكثفة داخل الحزب، طالت كافة العناصر الماركسية اللينينية، وكان عضوان في اللجنة المركزية، هما زوجوفيتش وهيربانج قد اعتقلا في نيسان عام 1948، واعتقل الجنرال أرزو جوفانوفيتش، رئيس الأركان العامة في جيش الأنصار، ثم أعدم، وتبعه الجنرال سلافكو روديتش. وتحدثت صحيفة التايمز عن العديد من الاعتقالات في صفوف الشيوعيين المؤيدين لقرار الكومنترن، وقدرت عدد الأشخاص المعتقلين بين مئة ألف ومئتي ألف سجين.

بعد مضي أشهر استعاد التيتويون علناً النظرية القديمة للاشتراكية الديمقراطية في الانتقال من المرحلة البرجوازية إلى الاشتراكية من دون صراع طبقي، وصرح بيبلر، نائب وزير الشؤون الخارجية في نيسان عام 1949:

«ليس لدينا طبقة كولاك مثلما كان في الاتحاد السوفييتي، وقد شارك فلاحونا الأغنياء مع الجماهير في حرب التحرير الشعبية (...) فهل سيكون من الخطأ إن كنا قد أفلحنا في إدخال الكولاك إلى الاشتراكية من دون صراع طبقي».

في عام 1951 أعلنت زمرة تيتو بأن «الكولخوزات السوفييتية» هي صورة لرأسمالية الدولة مشوبة بالعديد من مخلفات الإقطاع. وقد طورت هذه الزمرة تصورات بوخارين فأحلت السوق الحر محل التخطيط الاقتصادي وأعاد تيتو العمل بحرية شراء وبيع الأراضي، واستخدام عمال زراعيين. وشبّه الشيوعيين اليوغسلاف الأوفياء للماركسية اللينينية بالطابور الهتلري الخامس مبرراً اعتقاله لآلاف الشيوعيين.

في بداية أعوام الخمسينات كانت يوغوسلافيا ما تزال في الجزء الأكبر منها بلداً إقطاعياً، وقد هاجم التحريفيون التيتويون مبدأ دكتاتورية البروليتاريا. وفي عام 1950 أثاروا نقاشات واسعة حول «مسألة إضعاف سلطة الدولة، وعلى الأخص إضعاف دورها في ميدان الاقتصاد»، من أجل تبرير العودة إلى الدولة البرجوازية. ووصف دجيلاس الدولة السوفييتية «ببنيان هائل لرأسمالية الدولة» «تضطهد وتستغل البروليتاريا». وحسب رأي دجيلاس فإن ستالين يناضل «لتوسيع إمبراطوريته المؤلفة من رأسمالية الدولة، ولتعزيز البيروقراطية في الداخل». «إن الستار الحديدي، والهيمنة على دول أوربا الشرقية، وممارسة سياسة عدوانية قد أصبحت كلها بالنسبة إلى ستالين ضرورية حالياً» وتحدث دجيلاس عن «بؤس سائر الطبقة العمالية التي تعمل من أجل المصالح «العليا» الإمبريالية ومن أجل امتيازات البيروقراطية في الاتحاد السوفييتي». «إن الاتحاد السوفييتي اليوم، قد غدا، موضوعيا، القوة الأكثر رجعية» وغدا ستالين

«أباً بطريركياً لرأسمالية الدولة، والزعيم والموجّه الروحي والسياسي للدكتاتورية البيروقراطية» وكعميل حقيقي للإمبريالية الأمريكية يتابع دجيلاس: «إننا نصادف لدى الهتلريين نظريات تتشابه في مضمونها وفي تطبيقها الاجتماعي مع نظريات ستالين مثلما تتشابه نقطتان من الماء».

لنضف بأن دجيلاس، الذي أقام فيما بعد، في الولايات المتحدة، كان يعود في نصه هذا إلى نقد تروتسكي لنظام ستالين.

في عام 1948 كان كراديلش ما يزال يقسم على الوفاء للنضال ضد الإمبريالية. ومع ذلك فبعد مضي عامين وقفت يوغسلافيا موقف المؤيد للعدوان الأمريكي على كوريا وقد كتبت صحيفة التايم:

«يرى الوزير اليوغسلافي السيد ديدجر الأحداث في كوريا كمظهر للإرادة السوفييتية في الهيمنة على العالم... وهو يناشد عمال العالم بأن يدركوا بأن طامعاً آخر بالهيمنة العالمية قد ظهر على المسرح العالمي، وأن تتخلص من الأوهام المتعلقة بالاتحاد السوفييتي المزعوم كقوة للديمقراطية والسلام».

على هذا النحو كان تيتو يتحول إلى بيدق بسيط في الستراتيجية الأمريكية المعادية للشيوعية وقد صرح لصحيفة نيويورك هيرالد تريبيون عام 1951 بأنه «في حالة هجوم سوفييتي على أي بلد من بلدان أوربا، حتى ولو حدث ذلك على بعد آلاف الكيلومترات من الحدود اليوغسلافية. فإنه سيقاتل على الفور إلى جانب الغرب... إن يوغسلافيا تعتبر نفسها جزءاً من جدار التضامن الجماعي المشيّد في وجه الإمبريالية السوفييتية».

في الميدان الاقتصادي تمت بسرعة كبيرة تصفية التدابير الاشتراكية التي تم تنفيذها قبل عام 1948. وقد كتب ألكساندر كليفود، مراسل الديلي ميل، بشأن الإصلاحات الاقتصادية التي أقرت عام 1951.

«إذا كانت هذه الإجراءات واقعية فإن يوغسلافيا ستكون في النهاية حقاً، أقل اشتراكية من بريطانيا العظمى» «ستكون أسعار السلع كافة، محددة من قبل السوق، أي حسب العرض والطلب». «وستحدد الأجور على قاعدة عائدات المشروع وأرباحه». «تقرر المشروعات بطريقة مستقلة ما تنتجه، والكمية التي تريدها» «لم يعد هنا الكثير من الماركسية الكلاسيكية التي نعرفها».

اعترفت البرجوازية الأنكلو أمريكية في وقت مبكر جداً بأنها كانت تمتلك، في شخص تيتو، سلاحاً فعالاً في القتال ضد الشيوعية. ولاحظت صحيفة بيزنس ويك في 12 نيسان عام 1950:

«بالنسبة للولايات المتحدة بوجه خاص، وللغرب بوجه عام، فإن تشجيع تيتو بدا على أنه أحد الوسائل الأقل كلفة من أجل احتواء الشيوعية الروسية. إن قيمة المساعدات الغربية لتيتو بلغت حتى الآن 51.7 مليون دولار. وهذا أقل بكثير من مبلغ المليار دولار تقريباً التي تنفقها الولايات المتحدة في اليونان من أجل الهدف نفسه»

كانت هذه البرجوازية تعوّل على استخدام تيتو من أجل تشجيع التحريفية، والقيام بالتخريب داخل البلدان الاشتراكية في أوربا الشرقية. وقد صرح إيدن في 12 كانون أول عام 1949 لصحيفة ديلي تلغراف:

«إن مثال تيتو، وتأثيره يمكن لهما أن يغيرا بطريقة حاسمة مجرى الأحداث في أوربا الوسطى والشرقية». أما صحيفة التايم فقدّرت ديماغوجية تيتو الشيوعية حق تقديرها. كتبت تقول: «ومع ذلك، ظلت التيتوية قوة شيوعية بالقدر الذي يستطيع فيه الماريشال تيتو أن يزعم ذلك».

ثبتت التيتوية سلطتها عام 1948 بوصفها تياراً قومياً برجوازياً، وانطلاقاً من القومية فإن كافة مبادئ دكتاتورية البروليتاريا قد تلاشت من يوغسلافيا. وهذا التوجه القومي كان قد ترك تأثيراً كبيراً في داخل الأحزاب الشيوعية في أوربا الشرقية، بعد الحرب العالمية الثانية.

بعد موت ستالين تنامت في موسكو النزعة الشوفينية لروسيا الكبرى، وكرد على ذلك انطلقت من عقالها النزعة الشوفينية القومية في أوربا الشرقية.

في عام 1923 كان ستالين قد وضّح جانباً جوهرياً من الأممية البروليتارية بهذه الكلمات:

«بالإضافة إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها، هناك أيضاً حق الطبقة العاملة في توطيد سلطتها... وقد يحدث أن حق تقرير المصير يدخل في تناقض مع الحق الآخر، الحق الأسمى. حق وصول الطبقة العاملة إلى السلطة، وتعزيز هذه السلطة، وفي تلك الحالات فإن حق حرية الشعوب في تقرير مصيرها ينبغي أن لا يصبح عائقاً أمام حق الطبقة العاملة في تحقيق دكتاتوريتها، وينبغي على الحق الأول أن يفسح المجال للحق الثاني».

بانطلاق ستالين من مبدأ الأممية البروليتارية، فقد كان خصماً لدوداً لكل نزعة قومية وفي البدء للنزعة الشوفينية لروسيا الكبرى. وفي عام 1923 أعلن ستالين:

«إن القوة الأساسية التي تعيق العمل على توحيد الجمهوريات في اتحاد وحيد... هي شوفينية روسيا الكبرى».

غير أنه في الصراع العالمي الدائر بين الاشتراكية والإمبريالية أدرك ستالين أيضاً بأن النزعة القومية البرجوازية كان من الممكن استخدامها كسلاح مضاد للاشتراكية، شديد الخطورة:

«في خضم الصراع المستميت بين روسيا البروليتارية وبين التحالف الإمبريالي، ليس ثمة سوى مخرجين أمام الشعوب المحيطة بروسيا (شعوب الجمهوريات السوفييتية)، إما أن تكون مع روسيا وهذا يعني التحرر من الاضطهاد الإمبريالي للجماهير العاملة في بلدان المحيط، أو أن تكون مع التحالف، وحينذاك فلا محيد لها عن النير الإمبريالي. وليس هناك من مخرج ثالث على الإطلاق. إن الاستقلال المزعوم الذي ينادي به الاستقلاليون المزعومون في جورجيا وأرمينيا وبولونيا وفنلندا... الخ، ليس إلا مظهراً خادعاً يخفي خلفه رغبة هذه القوى في الالتحاق بالمعسكر الامبريالي فيما لو دعاها داع من هذا الفريق الإمبريالي أو ذاك. إن مصالح الجماهير الشعبية تنص على أن المطالبة بانفصال المحيط في المرحلة التالية، عن مركز الثورة، هو موقف مناهض للثورة إلى أقصى الحدود».

في الجمهوريات نصف الإقطاعية في دول المحيط السوفييتية كانت القومية البرجوازية تمثل الشكل الرئيسي للإيديولوجيا البرجوازية التي كانت تقرض جسد الحزب البلشفي.

«ينبغي أن نتذكر بأن منظماتنا الشيوعية في الجمهوريات المحيطة وفي المناطق، ليس بمقدورها أن تثبت أقدامها وتغدو كادرات ماركسية أممية إلا إذا تغلبت على النزعة القومية. فهذه النزعة هي العقبة الإيديولوجية الرئيسية في طريق تشكيل كادرات ماركسية، طليعة ماركسية في جمهوريات المحيط».

ستالين ضد الانتهازية

يمكننا الآن أن نواجه السؤال التالي: كيف استطاع التحريفي خروشوف أن يتسلم السلطة مباشرة بعد موت ستالين؟

تظهر الكثير من الدلائل على أنه بدءاً من عام 1951 بدأ ستالين يشعر بقلق جدي إزاء حالة الحزب المتردية. فحتى ذلك الوقت، أي ما بين 1945 و1950 كان على ستالين أن يركز اهتمامه على إعادة البناء، وعلى المشكلات الدولية.

التيارات البرجوازية في أعوام الثلاثينات

إن التيارات البرجوازية الأكثر أهمية، والتي توجب على ستالين أن يواجهها بقوة خلال أعوام العشرينات والثلاثينات هي التروتسكية (المنشقية المتسترة خلف لغة يسارية متطرفة) والبوخارينية (الانحراف الاشتراكي الديمقراطي) والميول البونابرتية (التوجهات العسكرية داخل الجيش) والقومية البرجوازية. هذه التيارات الأربعة واصلت ممارسة تأثيرها خلال أعوام 1945ـ 1953.

لنقدم مثالين واضحين:

بعد الحرب، فرّ عبد الرحمن أفتورخانوف، وهو موظف شاب من أصل شيشاني يعمل في قسم الدعاية في اللجنة المركزية، فر إلى الولايات المتحدة. وتظهر مسيرته أنه كان على علاقة وثيقة مع التيارات الانتهازية في أعوام الثلاثينات، ومع هؤلاء الذين برزوا بعد عام 1945. يقول أفتورخانوف: «انتميت سياسياً إلى تيار بوخارين». ولكن كتابه المعنون: ستالين في السلطة، حفل أيضاً بالمدائح الموجهة إلى تروتسكي «أسد ثورة أكتوبر الذي كان ينبغي حسب «الوصية السياسية للينين» أن يقود الحزب بمساعدة بوخارين» «كان تروتسكي صديقاً للقوميين الجيورجيين» ويستأنف أفتورخانوف «كان تروتسكي يعتبر بأن محاولة فرض الاشتراكية البروليتارية في البلد الزراعي الأكثر تخلفاً في أوربا (...) سيدفع حفنة من الاشتراكيين من ذوي الميول إلى ممارسة دكتاتورية مطلقة».

إن أفتورخانوف هو، قبل كل شيء، نصير للتصورات الاشتراكية الديمقراطية «كان بوخارين يدافع عن حرية المنافسة بين القطاعين الاشتراكي والرأسمالي» «ستقضي الصناعة المشركة الواسعة تدريجياً على القطاع الرأسمالي (...) عبر اللعبة الحرة للمنافسة» «كان ينبغي أن نمتلك القدرة على أن نقول للفلاحين التعاونيين: بادروا إلى الإثراء» «لم تكن البرجوازية الصغيرة الريفية (الكولاك) قادرة على الصمود في المنافسة مع الفلاحين التعاونيين، لذا فقد كانت مرشحة للاضمحلال».

يدافع أفتورخانوف، في النهاية، عن مواقف القوميين البرجوازيين. يقول:

«كان جمهوريو القفقاس، دوماً، هم الأكثر نزوعاً إلى الانفصال» ثم يؤكد أفتورخانوف

«في عام 1921، وحينما احتل السوفييت بالقوة هذه البلاد، لجأ الديمقراطيون، وأنصار الاستقلال سريعاً إلى الاختفاء (...) «ثارت حركات تمرد، أكثر من مرة، من أجل نيل الاستقلال القومي».

وهكذا نرى أفتورخانوف يعبر عن تعاطفه مع التيارات الانتهازية الرئيسية الأربعة التي شكلت تهديداً للاشتراكية خلال سنوات العشرينات والثلاثينات: التروتسكية، والبوخارينية والقومية البرجوازية، والعسكرية.

إن المواقف التي اتخذها أفتوخانوف خلال فترة الحرب، والفترة الممتدة ما بين عامي 1945ـ1950 بالغة التعبير. وحين تحدث عن العدوان النازي، كتب أفتورخانوف

«لم يكن 90٪ من المواطنين السوفييت يتمنون إلا شيئاً واحداً وحيداً، الخلاص من ستالين حتى ولو كان الثمن انتصار هتلر (...) إن المعارك ضد الاتحاد السوفييتي، التي كان الجنود الألمان قد كسبوها في عام 1941 قد خسرها الـ SS» «كان هتلر طاغية، ولكنه لم يكن سوى ظل لستالين».

بعد مغازلته زمناً لهتلر سقط أفتوخانوف، عدو الشيوعية اللدود في أحضان الإمبرياليين الأنكلو أمريكيين:

«خلال العامين الأوليين للحرب بلغ الأمر بسكان الاتحاد السوفييتي إلى أن يفضلوا هتلر على ستالين (...) كان لدى الأنغلو سكسون تلك الفرصة الوحيدة بأن يتمكنوا من تشغيل الجبهتين ـ الجبهة الألمانية والجبهة السوفييتية. دون أن يقوموا بأدنى تدخل بقواتهما الخاصة، وأن يكسبوا الحرب على هذا النحو (...) كانت هذه العملية قد أصبحت ممكنة في اليوم الذي حول فيه هتلر مسار قواته باتجاه الشرق (...) وحينما يشتبك ستالين وهتلر، فسيكون في وسع الحلفاء بعد أن يدفنوا هتلر أن يراقبوا جموع الناس وهي تسير خلف جنازة ستالين». بعد استقبال أفتورخانوف في الولايات المتحدة غدا نصيراً متحمساً للهيمنة الأمريكية التي راح يحرضها ضد «التوسع الشيوعي» ويتحدث أفتورخانوف عن ستالين: «مخلصاً لتعاليم لينين توجه ستالين نحو الثورة العالمية، كانت الغاية التي وضعتها الستالينية نصب عينيها، إنشاء دكتاتورية الحزب الواحد الإرهابية في العالم بأسره» «يقف العالم أمام خيارين: إما الستالينية وإما الديمقراطية. ومن أجل أن يحسم هذه المسألة خلال حياته، بث ستالين طابوره الخامس في العالم بأكمله». والحال، يتابع أفتورخانوف «فإن التدابير الأمريكية المضادة جعلت خطة ستالين لاغية» «حينذاك لا يبقى أمام ستالين سوى حل واحد: الحرب».

يتعلق مثالنا الثاني بالمنظمة السرية التي كان توكايييف أحد قادتها، والتي كانت مرتبطة خلال أعوام الثلاثينات بالبونابرتيين، وبالبوخارينيين، وبالقوميين البرجوازيين. ثم واصلت نشاطها بعد الحرب.

في عام 1947، كان توكاييف في ألمانيا، في كارلشورست وقد سلمه رفيق في «منصب رفيع جداً» مجموعة من ميكروفيلمات، وآخر المستندات والأوراق الموجودة في ملفه الشخصي. يقول توكاييف: «كانوا يعرفون الكثير جداً، وكان الشروع في مطاردتنا قد أصبح قاب قوسين أو أدنى. وحين سيصبح قرار الاتهام جاهزا ستعقبه قرارات اتهام أخرى تعود إلى عام 1934» «في نهاية عام 1947 توصل الديمقراطيون الثوريون إلى نتيجة بأنه كان عليهم أن يتحركوا: فمن الأفضل للمرء أن يموت بشرف، من أن يجرجر نفسه كالعبيد. كنا نتوق إلى الاعتقاد بأن أحزاباً من التيار الليبرالي، وأولئك المنتمين إلى الأممية الثانية في الخارج سيحاولون مساعدتنا. وكنا نعلم بأنه كان هناك شيوعيون قوميون ليس فقط في يوغسلافيا. وإنما، أيضاً، في بولونيا، وبلغاريا، وهنغاريا، وفي دول البلطيق، وكنا نعتقد بأنهم هم أيضاً سيدعموننا قدر ما يستطيعون، على الرغم من أننا لم نكن قط شيوعيين. ولكن الـ MVD (أمن الدولة): كانوا يكسبون الجولة. فقد كنا متباطئين في تعبئة قوانا وفي أكثر من مرة، كانت تحل الطامة الكبرى. وتبدأ عجلة الاعتقالات في الدوران، كانت الاتهامات تعود إلى الوراء حتى اغتيال كيروف في عام 1934، وكان البعض يُتهمون بالمؤامرات البونابرتية التي جرت محاكمتها في عامي 1937 و1940، وبالقومية البرجوازية، وبمحاولات قلب النظام عام 1941 وحالما كانت الشبكة تنغلق علينا، كنت أكلف بمهمة إنقاذ جزء على الأقل من أرشيفاتنا».

بعد فرار توكاييف إلى إنكلترا، نشر سلسلة من المقالات في الصحافة الغربية، وأقر بأنه ساهم بتخريب عملية تطوير سلاح الطيران. وشرح ذلك قائلاً:

«إن عدم محاولة كبح اندفاع مواطنيّ في البحث عن القوة، يحدوهم توق إلى السيطرة العالمية سيعني دفعهم نحو المصير الذي قاد هتلر الألمان إليه» «ينبغي قطعاً أن يدرك الغربيون بأن ستالين لا هدف له سوى الهيمنة على العالم وبأية وسيلة كانت».

بقي أن نشير إلى أن أفتورخانوف، وتوكاييف، بعد فرارهما إلى الغرب دعما المواقف الأكثر تطرفاً للبرجوازية الأنكلو أمريكية خلال الحرب الباردة، كممثلين أمينين للتيارات البرجوازية في الاتحاد السوفييتي.

الضعف في النضال ضد الانتهازية

ليس ثمة شك إذن في أن ستالين، واصل، في سنوات حياته الأخيرة النضال ضد التيارات الاشتراكية الديمقراطية، والقومية البرجوازية وضد التخريب الذي تمارسه الإمبريالية الأنكلو أمريكية.

ومع ذلك، فمن الواضح أن هذا النضال لم يعد يخاض بالعمق والاتساع الضروريين من أجل تحديد وإصلاح الحزب إيديولوجيا وسياسياً.

والواقع أن الاتجاهات القديمة نحو الاحترافية العسكرية، ونحو التكنوقراطية قد تعززت كثيراً بعد الحرب التي كانت قد تطلبت جهوداً حرفية خارقة من قبل الكوادر العسكرية والتقنية والعلمية، وقد تفاقم أيضاً، التبقرط، والسعي إلى الامتيازات والحياة الرخية. وهذا التطور السلبي كانت قد شجعته «زهوة الانتصارات» وتحول الفخر الشديد الذي ملأ أعطاف الكادرات بعد النصر على الفاشيين في كثير من الأحيان إلى ازدهاء واعجاب بالذات وغطرسة. وقد لغمت كل هذه الظواهر اليقظة الايديولوجية والسياسية تجاه التيارات الانتهازية.

لم يدرك ستالين بوضوح أنه بعد اندثار الأسس الاقتصادية للاستغلال الرأسمالي والإقطاعي، كان ما يزال هناك، في الاتحاد السوفييتي تربة يمكن أن يبرز فوقها عناصر برجوازية. فقد ساهمت البيروقراطية، والتكنوقراطية، واللامساواة الاجتماعية، والامتيازات لدى البعض في إدخال أسلوب حياة برجوازية، وتطلعات إلى بعض الأشكال الرأسمالية في داخل بعض فئات المجتمع السوفييتي. إن استمرار الإيديولوجية البرجوازية داخل الجماهير، وبين صفوف الكوادر كان عاملاً إضافياً دفع شرائح بكاملها إلى الانعطاف نحو مواقف مضادة للاشتراكية. وقد وجد خصوم الاشتراكية دائماً بين أيديهم موارد ضخمة واحتياطات إيديولوجية ومواد مساعدة مقدمة من جانب الإمبريالية. ولم تتوقف هذه الإمبريالية إطلاقاً عن تسريب عملاء سريين، وعن شراء مرتدين بذلوا جميعاً، كل ما في وسعهم في استثمار وفي تنمية كافة أشكال الانتهازية الموجودة في الاتحاد السوفييتي، أما موضوعة ستالين التي تقول: بأنه ليس هناك أساس طبقي لهيمنة إيديولوجية برجوازية فهي موضوعة وحيدة الجانب، وغير ديالكتيكية. وقد أدخلت الوهن والعثرات في الخط السياسي.

والواقع أن ستالين لم يكن بمقدوره تحديد الأشكال الملائمة لتعبئة الجماهير العمالية والكولخوزية، من أجل مواجهة خطر الردة. لقد كان على الديمقراطية الشعبية أن تتطور نحو غاية محددة بدقة، ألا وهي التخلص من البيروقراطية والتكنوقراطية، والوصولية، والامتيازات. والحقيقة أن المساهمة الشعبية في جبهة الدفاع عن دكتاتورية البروليتاريا لم تكن مؤكدة مثلما كان ينبغي لها. وقد أوضح ستالين دوماً بأن تأثير البرجوازية والإمبريالية كان ينعكس داخل الحزب في ظل أشكال من الانتهازية، ولكن ستالين لم يكن بمستطاعه أن يصوغ نظرية حول الصراع الناشب بين خطي الحزب. كان ستالين قد شدد حصرا (على التجسس والنشاطات التآمرية لقادة التيار التروتسكي والبوخاريني، وعلى الطريقة التي تستغل فيها الدول البرجوازية نقاط الضعف لدى الأشخاص، وغرورهم، وخمولهم) وقلل ستالين من شأن الأسباب الداخلية التي ما إن تتمخض عن تيارات انتهازية حتى تنضوي من ثم، بتأثير العملاء السريين، تحت جناح الإمبريالية بطريقة أو بأخرى. لم يدرك ستالين بأن أخطار البيروقراطية والتكنوقراطية والسعي إلى الامتيازات كانت موجودة باستمرار، وعلى نطاق واسع، وأنها كانت تولد لا محالة، تصورات اشتراكية ديمقراطية متساهلة أشد التساهل مع الإمبريالية، وبالتالي فإنه لم ير من الضروري تعبئة مجموع أعضاء الحزب لمواجهة التيارات الانتهازية، ولإزالة الإتجاهات المنحرفة، ففي خضم تلك الصراعات الإيديولوجية والسياسية كان ستالين يفترض أن جميع الكوادر والأعضاء الحزبيين قد انصهروا وتحولوا عبر التربية السياسية في حومة النضال. وبعد عام 1945، ظل النضال ضد الانتهازية محصوراً في الدوائر القيادية للحزب، ولم يشمل مجموع الحزب من أجل ارتقاء روحه الثورية والنضالية.

لقد صاغ ماوتسي تونغ نظريته حول استمرارية الثورة عبر تحليله لهذه الحالات من الضعف والتراخي التي لا تني تتوالد في صفوف الحزب والثورة:

«يستغرق مسار المجتمع الاشتراكي فترة طويلة من الزمن، وخلال تلك الفترة يستمر وجود الطبقات، والتناقضات الطبقية، والصراع الطبقي، ومثلما أن هناك صراع بين النهج الاشتراكي والنهج الرأسمالي، فإن هناك خطراً لعودة الرأسمالية إلى الحياة. ينبغي أن ندرك بأن هذا الصراع سيكون طويلاً ومعقداً، وأن نضاعف يقظتنا، وأن نتابع تربيتنا الاشتراكية، وإلا فإن بلداً اشتراكياً كبلدنا سيتحول إلى نقيضه: سيغير طبيعته وسيشهد انبعاث الرأسمالية».

مجموعتا
بيريا وخروشوف التحريفيتان

تفاقم هذا التردي السياسي أيضاً عبر ظهور تيارات تحريفية في أواخر أعوام الأربعينات، في صفوف القيادة العليا للحزب.

كان ستالين يعتمد في قيادة مختلف قطاعات الحزب والدولة، على معاونيه باستمرار، ومنذ عام 1935 لعب جدانوف دوراً جوهرياً في تصليب الحزب، وقد ترك موته في عام 1948 فراغاً كبيراً. في بداية أعوام الخمسينات تدهورت صحة ستالين، على نحو خطير، في إثر الإرهاق الشديد والمتراكم الذي عاناه أثناء الحرب. وبدأت مسألة خلافته المتوقعة في مستقبل قريب تطرح بقوة.

في تلك الفترة بالتحديد برز إلى العلن فريقان تحريفيان داخل القيادة، وشرعا يحوكان المكائد، مقسمين الأيمان دوماً على إخلاصهم لستالين.

شكل فريق بيريا، وفريق خروشوف ثلّتين تحريفيتين متنافستين، وفيما كانا يلغمان سراً أعمال ستالين، اشتبكا فيما بينهما في حرب ضروس.

وبما أن بيريا قد أعدم من قبل خروشوف، في عام 1953 وبعد وفاة ستالين بوقت قليل، فسيمكننا الافتراض بأنه كان خصماً لدوداً لتحريفية خروشوف. ذلك هو الموقف الذي تبناه بيل بلاندن في دراسة موثّقة له حول موت ستالين.

مع ذلك، فثمة شهادات من مصادر معارضة تتفق في تأكيداتها بأن بيريا قد تبنى مواقف يمينية. على هذا النحو نشر المؤلف تادوس ويتلين سيرة لبيريا بالأسلوب المكارثي المثير للقرف، كي يعطيها ما تستحقه من التفخيم:

«كان ستالين، الدكتاتور، ينظر إلى شعبه، كإله جديد عديم الرحمة، يحرس ملايينه من العبيد». وبعد أن يعرض ويتلين الأفكار التي طوّرها بيريا عام 1951 يؤكد بأن بيريا كان يرغب في أن يطلق حرية المبادرة الخاصة في قطاع الصناعة الخفيفة، وأن «يقلص نظام المزارع الجماعية» كي يعود إلى «أساليب ما قبل ستالين أي أساليب النيب NEP» «وقد عارض بيريا السياسة الستالينية في ترويس الأمم والجمهوريات غير الروسية» وكان بيريا يتوق إلى إقامة علاقات طيبة مع البلدان الغربية «وينوي إعادة العلاقات مع تيتو». إن هذا الاحترام «للسياسة العقلانية» لبيريا، الذي خطه قلم مريض بالعداء للشيوعية ليثير فينا الدهشة.

أما توكاييف، المعارض السري الشهير، فيؤكد بأنه قد عرف بيريا منذ الثلاثينات «ليس من خلال دوره كخادم لستالين، بل كعدو للنظام» وكان غادينا شفيللي أحد المقربين من بيريا قد أقام علاقات وثيقة مع توكاييف.

كتب غاديناشفيللي الذي لم تكن له مصلحة في تصوير بيريا كرجل وفّي لستالين: «كان بيريا قد اعتاد على التعبير بوضوح، يوماً بعد يوم عن عدم احترامه لستالين، في غضون السنوات الأخيرة من حياة هذا الأخير» «كان ستالين يخشى أن يكون ضحية ثمينة لبيريا» و «كان ستالين يبدو أحياناً شديد الوجل من بيريا، وكان سيسعده فعلاً أن يتخلص منه، ولكنه لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك».

لا بد أيضاً أن نذكر رأي مولوتوف، الذي ظل على الدوام هو وكاغانوفيتش وفياً لماضيه الثوري: «لا أستبعد بأن يكون بيريا قد تسبب في موت ستالين، كنت أتوجس ذلك من خلال ما كان يقوله لي. وفي الأول من أيار من عام 1953، ومن على منبر موزولي كان قد ألمح إلى مثل هذه النية. كان يريد أن يخلق مشاعر التواطؤ معه. وكان يقول: «لقد جعلته يختفي من الوجود» كان يحاول أن يورطني وكان يقول «لقد أنقذتكم منه».

«أعتبر خروشوف كنموذج لليمين. ولكني أعتبر بيريا أكثر يمينية بكثير». كلا الاثنين كانا من اليمين. ومكويان أيضاً. وكان هؤلاء متبايني الشخصيات كان خروشوف يمينياً متعفناً كلياً. غير أن بيريا كان أكثر يمينية وأكثر تعفناً».

«كان خروشوف، بلا أدنى شك، نمطاً رجعياً. وقد أفلح في التسلل إلى الحزب. ولم يكن يؤمن بأي ذرة من الشيوعية، بكل تأكيد. وكنت أعتبر بيريا كعدوٍ لدود للشيوعية وقد تسلل إلى الحزب لغايات ملؤها الغدر. لقد كان بيريا رجلاً عديم المبادىء». خلال السنوات الأخيرة لستالين كان خروشوف ومكويان يكتمان أفكارهما السياسية لكي يحتل كل منهما بأيسر الطرق موقع الخلافة.

كان الاحتقار الذي يكنّه خروشوف لستالين يرشح من سطور مذكراته: «في رأيي، فإن ستالين خلال سنوات الحرب بدأت تظهر عليه أعراض اختلال العقل» «وفي نهاية عام 1949، كان الخلل قد أتلف عقله».

كشف انفير هوسكا كيف كان خروشوف ينتظر موت ستالين بنفاذ صبر. وقد وصف لنا حواراً أجراه في عام 1956 مع مكويان.

«لقد قال لنا مكويان ذاته بأن خروشوف وزمرته كانوا قد قرروا اغتيال ستالين والتخلص منه، ولكنهم تخلوا فيما بعد عن هذه الخطة»

هل كان ستالين مدركاً للمكائد التي كان التحريفيون من حوله يحوكونها في الخفاء؟ إن التقرير الرئيسي الذي عُرض في المؤتمر التاسع عشر من قبل مالينكوف في بداية تشرين الأول من عام 1952، وكذلك المؤلف الذي كتبه ستالين: مشكلات الاقتصاد الاشتراكي، والذي نشر في تلك المناسبة. يظهر بأن ستالين كان على قناعة بأن نضالاً جديداً ضد الانتهازية، وتطهيراً جديداً داخل الحزب كانا قد أصبحا ضروريين.

قدم مالينكوف تقريراً، يشي بحضور ستالين فيه وبأثره المميز. دافع التقرير عن الموضوعات الثورية التي سيلطخها خروشوف ومكويان ويفككا عراها بعد أربع سنوات. وانتقد بحدة ازدياد الاتجاهات السلبية في الاقتصاد وفي حياة الحزب، تلك الاتجاهات التي ستفرض نفسها عام 1956 تحت شكل التحريفية الخروشوفيه.

في البداية، وبعد عودة مالينكوف إلى تطهيرات عام 1937 ـ 1938 أشار إلى أنه «على ضوء نتائج الحرب يتمثل أمامنا، بكل العظمة والسمو، النضال العنيد الذي تابعه حزبنا طوال سنوات ضد أعداء الماركسية اللينينية، وضد الجهائض التروتسكية البوخارينية، وضد الانهزاميين والخونة الذين سعوا إلى حرف حزبنا عن نهجه الصحيح، وإلى تحطيم وحدة صفوفه (...) وليس من الصعب أن ندرك بأنه لو لم نكن قد أنجزنا ذلك في الوقت المطلوب، لكنا قد وجدنا أنفسنا خلال الحرب في وضع حرج للغاية، على الجبهة وفي المؤخرة، ولكنا قد خسرنا الحرب».

بعد أربع سنوات على ذلك سينفي خروشوف بأن التروتسكيين والبوخارينيين كانوا قد انحطوا بالحزب إلى حد الدفاع عن برنامج اشتراكي ديمقراطي، كما سينفي بأن البعض منهم كانوا قد أقاموا علاقة مع القوى العدوانية الأجنبية، وابتكر خروشوف حينذاك النظرية التي تقول بأن الاشتراكية كانت قد انتصرت فعلياً منذ عام 1936، ولم يعد هناك إذن أية قاعدة اجتماعية، لا للخيانة، ولا لإعادة الرأسمالية. وها هي ذي استخلاصاته الرئيسية: «كانت الدولة السوفيتية قد توطدت، وكانت الطبقات المستغلة قد تلاشت. وكانت العلاقات الاشتراكية قد تجذرت بقوة في كافة بنى الاقتصاد الوطني». «وتقلصت إلى أقصد الحدود الأسس الاجتماعية للحركات والمجموعات السياسية المعادية داخل الحزب».

واستنتج خروشوف من ذلك بأن التطهير كان فعلاً استبدادياً تعسفياً دونما أدنى تبرير معيداً الاعتبار، على هذا النحو إلى المواقف السياسية للانتهازيين وأعداء الاشتراكية.

أشار مالينكوف إلى أربعة من أشكال الضعف الفاضحة التي كانت قد أصابت جسد الحزب وإلى أن العديد من الكوادر البيروقراطية ترفض النقد والرقابة الصادرين عن القاعدة، بل إنها تنقاد مستسلمة إلى نوع من الشكلانية واللامبالاة. يقول مالينكوف: «إن النقد الذاتي، وعلى الأخص النقد الصادر عن القاعدة لم يعد النهج الرئيسي لكشف وتصحيح أخطائنا وجوانب تقصيرنا، ونواقصنا، وأمراضنا، لقد أصبح النقد موضوعاً للإزعاج والتنكيد ونحن نصادف غالباً مناضلين يعلنون باستمرار ولاءهم للحزب، ولكنهم في الواقع لا يطيقون كلمة نقد موجهة من المراتب الأدنى، وهم يخنقونها وينتقمون من أولئك الذين يتجرؤون على النطق بها، ونشهد أيضاً عدداً كبيراً من الحالات يعمد فيها الموقف البيروقراطي من النقد والنقد الذاتي إلى قتل المبادرة، ويغرس في بعض المنظمات أخلاق الأقلية البيروقراطية، الأعداء اللدودين للحزب. هاهنا، تضعف الرقابة الجماهيرية على نشاط المنظمات، وتتفشى البيروقراطية والفساد والتفكك والانحلال لدى مراتب واسعة من جهازنا (...) إن النجاحات قد ولدت في داخل حزبنا، رضى عن الذات، وتفاؤلاً على المستوى الرسمي وروح الطمأنينة والرغبة في التمتع بالراحة، والانتفاع من الكفاءات الماضية (...) وحوّل القادة الاجتماعات إلى تظاهرات للازدهاء والتباهي، وتوزيع المدائح بحيث أن الأخطاء والنواقص في العمل، والأمراض والتهاونات لم تعد تمس بأي إدانة أو نقد. وتغلغلت روح الاستهتار واللامبالاة إلى منظمات الحزب».

نحن نجد هنا موضوعة من موضوعات ستالين الثابتة منذ أعوام الثلاثينات ألا وهي دعوة القاعدة إلى النقد والرقابة المستمرة تجاه البيروقراطيين الذين يسعون إلى الطمأنينة الوادعة، والذين يكممون صوت المناضلين، ويستمتعون باللامبالاة وراحة البال ويتصرفون كأعداء للشيوعية. لقد قال هذا النص ما كان ستالين يريد أن يقوله ضد التحريفيين ولكن ستالين كان قد أنهكه الإعياء ومقارعة الرجال والأحداث. بعد أربع سنوات، وحين أدان خروشوف «اللاأمن، والخوف، والقنوط» التي كانت تسيطر، بحسب رأيه، على الجميع في ظل ستالين، فقد أجزل الوعود للعناصر البيروقراطية والانتهازية بالاستمتاع منذ الآن بالهدوء. وأنهم من الآن فصاعداً سوف لن يعودوا «يكابدون» انتقادات «اليساريين في قاعدة الحزب ومنذ الآن سيكون الرضى عن الذات وروح

الطمأنينة الرخية من السمات الرئيسية للبيروقراطية التحريفية، التي تربعت فعلياً على سدة السلطة في ظل خروشوف».

أدان مالينكوف في المقام الثاني الشيوعيين الذي يهزؤون من الانضباط الحزبي، ويتصرفون على غرار المالكين: «إن الموقف الشكلي تجاه قرارات الحزب والحكومة، والموقف السلبي تجاه تطبيقها، هي عيوب ينبغي استئصالها من دون رحمة. فليس الحزب بحاجة إلى موظفين متصلبين كالأخشاب، غير مبالين، يقدمون هدوءهم وراحتهم الشخصية على مستلزمات قضية النضال ولكنه في حاجة إلى مناضلين لا يعرفون الكلال، مفعمين بنكران الذات (...) لقد تناسى عدد لا بأس به من القادة بأن المشاريع التي عُهد إليهم بإدارتها تخص الدولة، وقد حولوها إلى إقطاعات خاصة بهم يديرون شؤونها حسب أهوائهم وأمزجتهم السيئة (...) أصبح حزبنا يعج بعدد كبير من القيادات الذين يعتقدون بأن قرارات الحزب، والقوانين السوفييتية ليست ملزمة لهم البتة، ولا تعنيهم هم بالذات (...) إن أولئك الذين يحاولون إخفاء الحقيقة عن الحزب ويمارسون خداعه وتضليله لا يمكن أن يكونوا أعضاء حزبيين حقاً»

سيجسد خروشوف كل أولئك الذين أدانهم مالينكوف في هذا المقطع. وسيكون خروشوف الناطق باسم البيروقراطيين. كذلك فإن نص مالينكوف يتيح لنا بصورة أفضل أن نفهم كل ما كان يحتجب خلف هجاءات خروشوف ونقده اللاذع لستالين. فستالين، كما يقول خروشوف «كان قد تخلى عن نهج النضال الإيديولوجي ليلصق بطاقة «عدو الشعب» على أي كان، وستالين كان يلجأ، على نحو منهجي إلى «القمع والإرهاب» وهذه العبارات كانت موجهة إلى تطمين أولئك الذين طالهم النقد المرير في نص مالينكوف. أولئك الذين جعلوا من مشاريع الدولة ومؤسساتها ملكية خاصة لهم. والذين كانوا يخفون الحقيقة عن الحزب كي يتمكنوا من السرقة والاختلاس بمنجاة من العقاب، والذين كانوا يوزعون الجمل «الماركسية اللينينية» دون أن يكون لديهم أية نية بالالتزام بها. ومع خروشوف، فإن جميع أولئك الذين يتطلعون إلى أن يصبحوا برجوازيين لم يعودوا يخشون (القمع والإرهاب) من السلطة السوفييتية.

يهاجم مالينكوف، في المقام الثالث الكوادر الذين يشكلون ما يشبه قبائل وعصبيات ضيقة، متملصين من كل رقابة، ومراكمين الثروات بطرق لا شرعية «يبدد بعض الموظفين موارد الكولخوزات، ويتملكون الأراضي التعاونية، ويرغمون إدارة الكولخوزات على أن تزودهم مجاناً بالحبوب واللحم والحليب

وكل المواد الغذائية» «كما ان بعض القادة لا يختارون الكوادر حسب مؤهلاتها السياسية والعملية، بل بمقتضى الروح العائلية وروح الرفقة والصداقة والمصاحبة. وهذه الانحرافات تولّد في بعض المنظمات طغمة من الناس يتبادلون الدعم والمساندة ويحلّون مصالح جماعتهم فوق مصالح الحزب والدولة. لن يكون مدهشاً أبداً، بعد ذلك. أن هذا المناخ يفضي عادة إلى الانحلال والتعفن». «إن الموقف الخالي من الشرف والعديم المسؤولية تجاه الالتزام بتوجيهات الأجهزة القيادية لهو المظهر الأشد خطورة وإجرامية للبيروقراطية» «إن هدف الرقابة على تنفيذ التوجيهات يتمثل في التخلص من النقائص والتقصيرات، ووضع حد للسلوكات اللامشروعة، ومساعدة العمال الشرفاء بالإرشاد والنصح، ومعاقبة الفاسدين».

في ظل خروشوف سوف لن يتم اختيار الكوادر من أولي المزايا والمؤهلات السياسية بل على النقيض من ذلك، فإن هؤلاء سيواجهون «التطهير من الحزب» بوصفهم «ستالينيين» وحول خروشوف، وبيريا، ومكويان، وبريجينيف ستتشكل زمر برجوازية، معفاة كلياً من الرقابة الشعبية الثورية، تماماً مثلما وصفهم مالينكوف، ولن يعود ستالين هنا كي «يعاقب الفاسدين» وإنما سيعاقب الفاسدون من الآن فصاعداً الشيوعيين الحقيقيين.

ينتقد مالينكوف أخيراً الكوادر التي تهمل العمل الإيديولوجي، متيحة للتيارات البرجوازية أن تبرز من جديد، وأن تمسك بزمام السلطة على الجبهة الإيديولوجية. «في العديد من منظمات الحزب، يجري التقليل من شأن العمل الإيديولوجي. فهذا العمل يشهد تراجعاً شديداً، وفي بعض منظمات الحزب ألغي تماماً. ... إن كل إضعاف للإيديولوجية الاشتراكية يقود إلى تعزيز نفوذ الإيديولوجية البرجوازية... فما يزال في داخلنا بقايا الإيديولوجيا البرجوازية، وعقلية وأخلاقية المالك. وهذه البقايا متأصلة وراسخة ويمكنها أن تنمو وتتطور في الوقت الذي ينبغي اجتثاثها قطعاً. ونحن لسنا محصنين أيضاً ضد تسرب أفكار إلى داخلنا، غريبة عنا، أفكار من الخارج، من الدول الرأسمالية، وأفكار من الداخل من جانب بقايا المجموعات المعادية للسلطة السوفييتية..» «إن من يعيش ضمن صيغ حفظها عن ظهر قلب، ولا يمتلك الإحساس بجدة الأشياء وجريانها، لهو عاجز عن التوجّه السليم في لجة الأوضاع الداخلية والخارجية». «تظهر بعض المنظمات ولعاً بالجانب الاقتصادي متناسين المسائل الإيديولوجية.. فها هنا، حيث يشهد الاهتمام بالمسائل الإيديولوجية تراخياً تتشكل أرضية مناسبة لانتعاش آراء وتصورات معادية لنا أشد العداء. فيما

تسعى العناصر الغريبة المتحدرة من بقايا المجموعات المعادية للينينية، والتي هزمت في السابق، تسعى إلى الهيمنة على قطاعات العمل الإيديولوجي».

لقد حقّر خروشوف اللينينية، وانحط بها ليصنع منها مجموعة من الصيغ الفارغة من كل روح ثورية. وهذا الخواء الذي تشكل على هذا النحو، سيلهم من جديد الإيديولوجيات الاشتراكية ـ الديمقراطية والبرجوازية العتيقة التي ستشهد منذ الآن ازدهاراً جديداً. وبإعادته الاعتبار إلى الانتهازيين، وإلى العناصر المدحورة خلال التطهيرات، سمح خروشوف بإحياء التيارات الإيديولوجية الاشتراكية الديمقراطية، والبرجوازية، والقيصرية.

خلال دورة انعقاد اللجنة المركزية التي أعقبت المؤتمر التاسع عشر للحزب كان ستالين قد وجّه أعنف حملة نقد إلى مكويان ومولوتوف وفوروشيلوف. كان قد دخل في نزاع مفتوح مع بيريا. وكان كافة أعضاء القيادة قد أدركوا تماماً بأن ستالين كان عازماً على تغيير قمة الهرم. وقد فهم خروشوف الرسالة بوضوح. يقول خروشوف:

«كان ستالين قد عزم، بكل جلاء علي التخلص من كافة الأعضاء القدامى في المكتب السياسي، وكان قد أعلن مراراً بأنه ينبغي الاستعاضة عنهم برجال جدد. وكان اقتراحه المصوغ بعد المؤتمر التاسع عشر، والمستند إلى انتخاب خمسة وعشرين شخصاً إلى اللجنة المركزية يرمي إلى إقصاء الأعضاء القدامى في المكتب السياسي، وإدخال أشخاص جدد أقل خبرة (...) يمكن افتراض أن إدخال هؤلاء الأعضاء الجدد كان يهدف إلى التصفية القادمة للأعضاء القدامى في المكتب السياسي وهو ما سيسمح له بأن يلقي حجاباً من الصمت على كل أفعاله الشائنة».

في تلك الفترة كان ستالين رجلاً هرماً أنهكه المرض، وكان يتصرف بكثير من الحذر وحين استنتج بأن أعضاء المكتب السياسي لم يعودوا على مستوى المسؤولية أدخل أعضاء من الشباب الأكثر ثورية إلى مجلس السوفييت الأعلى، كي يخضعهم إلى التجربة وإلى امتحان قدراتهم. وعرف التحريفيون والمتآمرون من أمثال خروشوف وبيريا وميكويان بأنهم على وشك فقدان مواقعهم في القريب العاجل.

وحسب خروشوف أيضاً، فإن ستالين سيقول لأعضاء المكتب السياسي بعد اكتشاف مؤامرة الأطباء في نهاية عام 1952: «أنتم عميان مثل الهررة الصغيرة، ماذا سيحدث من بعدي؟ ستهلك البلاد لأنكم عاجزون عن اكتشاف الأعداء».

قدم خروشوف استشهاده هذا كدليل على الجنون والبارانويا لدى ستالين، ولكن التاريخ أثبت كم كانت تلك الملاحظة التي أبداها ستالين في مكانها تماماً.

انقلاب خروشوف

دسائس بيريا

كان جدانوف، الخليفة المحتمل لستالين قد مات في آب عام 1948.

قبل موته، كانت إحدى الطبيبات واسمها ليديا تيماشوك، قد اتهمت أطباء ستالين بأنهم قدموا لجدانوف علاجاً مخالفاً للمطلوب كي يعجلوا في موته، وكررت هذه الاتهامات فيما بعد.

وخلال عام 1949 تم اعتقال كافة المقربين من جدانوف، وإعدامهم: كوزنيتسوف سكرتير اللجنة المركزية والذراع الأيمن لجدانوف، وروديونوف الوزير الأول في جمهورية روسيا كانا الضحيتين الرئيسيتين. وكانا من بين أبرز الكوادر الواعدة من الجيل الجديد. وقد نسب خروشوف تصفيتهم إلى مكائد بيريا بالتحديد.

فيما يتعلق باتهامات تيماشوك ضد الأطباء الذين قتلوا جدانوف، أفادت سفيتلانا ابنة ستالين بأن والدها، «لم يكن يصدق في البداية بأن الأطباء كانوا غير نزيهين» وكان اباكوموف وزير أمن الدولة وأحد المقربين من بيريا يقوم بالتحقيق آنئذ. وفي نهاية عام 1951، حل اغناتييف، وهو عضو في الحزب دون خبرة في شؤون الأمن، محل أباكوموف الذي اعتقل لضعف يقظته، فهل كان أباكوموف قد حمى معلمه بيريا؟

ثم تولى التحقيق ريومين، وهو مسؤول قديم في جهاز الأمن الشخصي لستالين، وانتهى التحقيق باعتقال تسعة أطباء اتهموا بأنهم «مرتبطين بمنظمة دولية مؤلفة من قوميين يهود» شكلتها دوائر الاستخبارات الأمريكية.

جرى تفسير هذه العملية كهجوم أول من قبل ستالين ضد بيريا. أما الهجوم الثاني فقد جرى بالتزامن مع قضية الأطباء ففي تشرين الأول عام 1951 اعتقل مسؤولون في اللجنة المركزية للحزب في جمهورية جورجيا بتهمة اختلاس أموال عامة، وسرقة ملكية الدولة، وأدينوا أيضاً بأنهم عناصر قومية برجوازية مرتبطين بدوائر الاستخبارات الانغلو أمريكية. وبعد التطهيرات التي

أعقبت ذلك، فإن أكثر من نصف أعضاء اللجنة المركزية المحسوبين على أنهم من رجال بيريا فقدوا مواقعهم. وقد قال سكرتير اللجنة المركزية الجديد بأن التطهيرات تمت من خلال «التعليمات الشخصية للرفيق ستالين».

موت ستالين

قبل أشهر من موت ستالين تم تقويض سائر النظام الأمني المكلف بحمايته. فقد طرد الكساندر بروسكريبيشيف، سكرتيره الشخصي الذي كان قد خدمه منذ عام 1928، بنشاط ملحوظ، ووضع تحت الإقامة الجبرية. واعتقل الليوتنانت كولونيل نيقولاي فلاسيك رئيس جهاز الأمن الشخصي لستالين منذ 25 سنة، في 16 كانون أول عام 1952، ثم مات بعد بضعة أسابيع في السجن. ومات بعد مدة قصيرة (بذبحة قلبية) الجنرال بيتركوسيكين نائب رئيس حرس الكرملين ومسؤول أمن ستالين وفي 17 شباط عام 1953 كتب ديريابين: «إن عملية تجريد ستالين من سائر جهاز أمنه الشخصي كانت عملية مدروسة ومنفذة بنحو جيد جداً».

كان بيريا هو الوحيد الذي يؤهله وضعه لتدبير مثل هذه المؤامرة وفي الأول من آذار، وفي الساعة 23 وجد الحارس ستالين ممدداً على الأرض في غرفته، فاقداً للوعي. وعبر الهاتف استدعى أعضاء المكتب السياسي. أكد خروشوف بأنه وصل هو أيضاً، ثم انصرف كل واحد إلى بيته. ما من أحد منهم قد استدعى طبيباً، اثنتا عشرة ساعة مضت على أزمته القلبية قبل أن يتلقى ستالين الاسعافات الأولى. وفي 5 آذار توفي ستالين. كتب لويس ويتيشيد فيما بعد:

«ترى بعض الروايات دلائل كثيرة على أن موت ستالين كان متعمداً وبفعل فاعل. ويرى عبد الرحمن افتورخانوف أسباب موته في التحضيرات المتخذة من قبل ستالين للقيام بتطهيرات مماثلة لتطهيرات أعوام الثلاثينات».

بعد موت ستالين مباشرة جرت الدعوة لعقد اجتماع للجنة المركزية. ومنذ الافتتاح، اقترح بيريا أن مالينكوف رئيساً لمجلس الوزراء، وطالب مالينكوف بأن يعين بيريا كنائب أول لرئيس الوزراء ووزيراً للشؤون الداخلية، ولأمن الدولة، وفي الأشهر التي أعقبت، هيمن بيريا على المسرح السياسي «لقد عشنا حينذاك فترة شديدة الخطورة» هذا ما كتبه خروشوف فيما بعد «ما أن استقر بيريا من جديد على رأس جهاز أمن الدولة حتى سارع إلى اعتقال

بروسكريبيشيف سكرتير ستالين، ثم ريوتين الذي قاد التحقيق حول الموت المشبوه لجدانوف وتبع ذلك اعتقال اغناتييف رئيس ريويتن، وأدين الثلاثة بسبب دورهم في القضية ذاتها وفي 3 نيسان أطلق سراح الأطباء المتهمين بقتلهم لجدانوف. وقد أكد الصهيوني ويتلين بأن بيريا أراد بإعادته الاعتبار للأطباء اليهود أن «يحط من قدر سياسة ستالين الخارجية التي كان ينتهجها حيال الغرب بصورة أساسية، وعلى الأخص الولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى». وفي نيسان أيضاً نظم بيريا هجوماً مضاداً في موطنه الأم جيورجيا. ووضع من جديد رجاله على رأس الحزب والدولة. وغدا ديكانوزوف «الذي أعدم مع بيريا» وزيراً لأمن الدولة بدلاً من روخادزه، وقد اعتقل فيما بعد «كعدو للشعب».

دسائس خروشوف ضد بيريا

في تلك الأثناء كان خروشوف يحوك الدسائس ضد بيريا، وقد كسب في البداية الدعم من مالينكوف (المحمي من بيريا) ثم أقام حواراً فردياً مع الآخرين. وكان آخرهم مكويان الصديق المفضل لدى بيريا، وفي 24 حزيران دُعي مجلس السوفييت الأعلى للاجتماع، وخلال ذلك الاجتماع تم اعتقال بيريا. أوضح مكويان في الاجتماع بأن بيريا «قد تلقى النقد الذي وجهناه له بقلب مفتوح، ولم تكن حالته ميؤوساً منها». ومن خلال إشارة متفق عليها دخل أحد عشر مارشالاً وجنرالاً متواطئين في المؤامرة، يقودهم جوكوف، إلى صالة الاجتماع، واعتقلوا بيريا، وفيما بعد، أعدم مع سائر أعوانه في 23 تشرين الثاني من عام 1953. في 14 تموز عام 1953 نفذ الجنرال الكسي انتونوف والماجور جنرال ايفيموف «انقلاباً» داخل الحزب الشيوعي الجيورجي، وطردوا رجال بيريا، وأصبح مزافانادزي الجنرال القديم سكرتيراً أول للحزب.

كان ريوتين قد اعتقل من بيريا في 5 نيسان عام 1953 وبعد خمسة عشر شهراً أدانه الخروشوفيون لدوره في «قضية الأطباء». وفي 23 تموز نفذ فيه حكم الإعدام. ولكن اغناتييف، رئيسه، المحمي من خروشوف، عُيّن سكرتيراً أول لجمهورية بشكيريا.

في نهاية كانون الأول من عام 1954 أدين أباخوموف، وزير أمن الدولة القديم ومساعدوه لأنهم فبركوا، بتعليمات من بيريا، «قضية لينينغراد» ضد فوزنيسنيسكي وأصدقائه، ونفذ فيهم حكم الإعدام.

وفي أيلول من عام 1955 أدين نيقولاي كوخادزي، مسؤول الأمن في جورجيا الذي كان قد قاد عملية التطهير ضد رجال بيريا عام 1951 ثم أعدم «كشريك متواطئ مع بيريا».

وهكذا، فمنذ عام 1950 وحتى عام 1955، فإن زمراً شتى من التحريفيين استلوا خناجرهم كي يسووا حساباتهم فيما بينهم، وقد استغلوا الفرصة أيضاً كي يتخلصوا من أنصار ستالين.

الأعداء «يعاد اعتبارهم»

بعد رحيل ستالين، وفي ظل خروشوف، أعيد الاعتبار إلى العديد من الانتهازيين، وأعداء اللينينية، الذين أبعدوا بحق إلى سيبيريا أيام ستالين، ثم عيّنوا في مناصب قيادية. يطلعنا على ذلك سيرجي ابن خروشوف. ففي أعوام الثلاثينات كان خروشوف ومكويان صديقين مقربين من شخص يدعى سينغوف، وقد أدين هذا عام 1938 كعدو للشعب وحكم بـ 25 عاماً، في السجن، وفي عام 1956 أخرجه خروشوف من المعسكر كي يشهد على «جرائم ستالين» ثم بادر إلى تعيينه مفوضاً في وزارة الداخلية، بعد أن أعاد إليه اعتباره بوصفه أحد «ضحايا الستالينية» وقام خروشوف أيضاً بانتشال النصاب سولجينيستين من معسكر العمل. وهكذا فإن زعيم التحريفيين الذي كان يقسم أغلظ الأيمان على رغبته في «العودة إلى اللينينية» عقد حلفاً مع رجعي قيصري بهدف محاربة «الستالينية». وقد توافق الوغدان أيما توافق. وفي دفقة حب رقيق لشريكه «الماركسي» سيكتب سولجينيستين فيما بعد:

«كان من غير الممكن أن نتوقع هذا الهجوم المفاجئ، الراعد والغاضب، الذي كان يحتفظ به خروشوف ضد ستالين حتى المؤتمر الثاني والعشرين. ولا أتذكر بأنني قد قرأت منذ زمن طويل شيئاً بمثل هذه الإثارة والروعة».

خروشوف والثورة المضادة السلمية

بعد إعدام بيريا، فرض خروشوف نفسه كشخصية مهيمنة على مجلس السوفييت الأعلى. وفي المؤتمر العشرين، في شباط من عام 1956 قلب خروشوف عالياً سافلاً الخط الإيديولوجي والسياسي للحزب. كان يزعق بملء صوته بأن «الديمقراطية اللينينية» و«القيادة الجماعية» قد توطدت بقوة، ولكنه فرض

تقريره السري عن ستالين على أعضاء مجلس السوفييت الأعلى. يشهد مولوتوف قائلاً:

«حينما تلا خروشوف تقريره على مسامع المؤتمر العشرين سرت مع السائرين على السكة بالتزام الصمت. وكثيراً ما يُوجه إلي السؤال، لماذا لم تكن قد بادرت في المؤتمر العشرين إلى الرد على خروشوف؟ لم يكن الحزب مهيأً لذلك. وسيلقى بنا خارج الباب. وبإبقائي في الحزب كنت آمل أنه سيكون في وسعنا إعادة الأمور إلى نصابها قليلاً».

إن الصراع بين الخطين السياسيين، بين الماركسية اللينينية وبين الانحراف البرجوازي لم يكن قد توقف البتة منذ 25 أوكتوبر عام 1917، ومع خروشوف انقلبت نسبة القوى وهيمنت الانتهازية المهزومة والمكبوحة حتى ذلك الحين على القيادة العليا داخل الحزب، وقد استفادت التحريفية من هذا الوضع كي تصفي شيئاً فشيئاً القوى الماركسية اللينينية. لدى موت ستالين، كان عدد أعضاء مجلس السوفييت الأعلى عشرة: مالينكوف، بيريا، خروشوف، مكويان، مولوتوف، كاغانوفيتش، فوروشيلوف، بولغانين، سابوروف وبيرفوكين. وبعد تصفية بيريا أكد مكويان بأن مجلس السوفييت الأعلى شكل «قيادة جماعية موحدة بقوة» غير أن خروشوف ومكويان، في السنة التالية طردوا الآخرين بأكملهم بحجة أن «هؤلاء المارقين... كانوا يريدون أن يُحيوا من جديد الفترة المريرة التي كانت تهيمن فيها الأساليب والأفعال الفاسدة، التي أنتجت عبادة الشخصية». هذا الفصل لأغلبية الماركسيين اللينينيين من مجلس السوفييت الأعلى كان ممكناً بسهولة بفضل تدخل الجيش، وعلى الأخص جوكوف وسكريترون مناطقيون هرعوا لنجدة خروشوف، وبعد أن أصبحوا أقلية فإن مولوتوف ومالينكوف وكاغانوفيتش، بسبب ترددهم، وروح التساهل لديهم، آلوا إلى الهزيمة.

على صعيد السياسة الدولية، فإن الخط الذي انتهجه ستالين ما بين عام 1945 وعام 1953 قد انتهك كلياً. واستسلم خروشوف أمام البرجوازية العالمية. وقد قال في المؤتمر العشرين:

«لقد حطم الحزب المفاهيم البالية» «نريد أن نكون أصدقاء مع الولايات المتحدة» «سجلت يوغسلافيا نتائج مهمة في البناء الاشتراكي» «يمكن للطبقة العاملة أن تنال أغلبية كبيرة في البرلمان وأن تحوله إلى أداة لإرادة شعبية حقيقية».

شرع خروشوف في تفكيك كل ما أنجزه ستالين، مطلقاً نبوءات مدهشة. ولدى إعادة الاستماع إلى خروشوف اليوم يبدو لنا في دوره الحقيقي كمهرج.

«في فترة عبادة الشخصية، يقول خروشوف، ظهر أشخاص كانوا يلقون الرماد في العيون» ويتابع خروشوف خطابه بجرأة:

«خلال السنوات العشر المقبلة (1961ـ1970) سيتجاوز الاتحاد السوفييتي الذي خلق القاعدة المادية والتقنية للشيوعية، بالنسبة لإنتاج الفرد، البلد الرأسمالي الأكثر قوة والأكثر غنى، الولايات المتحدة».

عشرون سنة مضت على «دخول الاتحاد السوفييتي مرحلة الشيوعية» الموعودة من قبل خروشوف حتى عام 1970، تفجر الاتحاد السوفييتي بعدها إلى شظايا تحت ضربات الإمبريالية الأمريكية. ورزحت جمهورياته تحت وطأة المافيات والرأسماليات الوحشية. وغرق الشعب في الفاقة والبطالة. الجريمة تهيمن في كل مكان، والقومية والفاشية تستثير الحروب الأهلية الشرسة، والقتلى يعدون بعشرات الألوف، واللاجئون بالملايين.

إن الاستخلاصات الواردة في كتاب تاريخ الحزب الشيوعي (البلشفي) في الاتحاد السوفييتي والمؤلف عام 1938 تستحق أن نعيد قراءتها على ضوء الأحداث الراهنة. وهي تحتوي على ستة دروس أساسية، مستخلصة من تجربة الحزب البلشفي. تقول المادة الرابعة منها:

«لم يكن في وسعنا التصديق بأن هناك في رئاسة أركان الطبقة العاملة، أشخاصاً مشبوهين، وانتهازيين، واستسلاميين وخونة، ولا يمكن أن نعتبر من قبيل الصدفة المحضة واقعة أن يغدو هؤلاء عملاء للاستخبارات الأجنبية. ذلك أنه من قلب القلعة بالتحديد برز هؤلاء بأيسر السبل».

على هذا النحو، كان ستالين قد تنبأ بما سيحدث في الاتحاد السوفييتي في اليوم الذي سيدخل فيه أي غورباتشيف وأيّ يلتسين إلى المكتب السياسي.

في نهاية هذا القرن العشرين تعود البشرية، إذا صح القول إلى خانة البداية، إلى سنوات 1900ــ 1914 حينما كانت القوى الإمبريالية تعتقد أن بإمكانها ترتيب مصير العالم واقتسامه فيما بينها. وخلال السنين القادمة، ستقدم الأجيال الجديدة آيات الاحترام لستالين، كلما تكشف لها الطابع الإجرامي والبربري واللاإنساني للإمبريالية، يوماً بعد يوم، وسيقبلون عن قناعة وإيمان كلام ماوتسي تونغ الذي قاله خلال الاحتفال بالذكرى الستين

لميلاد ستالين، في أحد الأدغال البعيدة من الصين الشاسعة، في 21 كانون أول عام 1939.

«الاحتفال بستالين يعني الانحياز له، ولأعماله. ولانتصار الاشتراكية، وللنهج الذي خطه للإنسانية. يعني تأييده ومناصرته كرفيق عزيز. ذلك أن أغلبية البشرية تعيش اليوم في العذاب والآلام، ولن تستطيع الانعتاق منها إلا من خلال اتباعها النهج الذي رسمه، ومن خلال دعم هذا الخط ومساندته».

الفهرس

دفاعاً عن ستالين نظرة أخرى إلى التاريخ: Un autre regarde sur Staline
/لودو مارتان؛ ترجمة حسن عودة. ـ دمشق، دار الطليعة الجديدة،
1998. ـ 341 ص؛ 24 سم.
1 ـ 923.1: ستالين، جوزيف م 2ـ 947.084 م ا ر د
3 ـ العنوان 4 ـ العنوان الموازي 5 ـ مارتان 6 ـ عودة
ع ـ 1998/8/1287
مكتبة الأسد



ستالين
نظرة أخرى

ليس هذا الكتاب سيرة لستالين، إنه يرمي إلى التصدي للهجمات الموجهة إلى ستالين، والتي هي الأكثر تردداً على مسامعنا: (وصية لينين)، التأميم المفروض، البيروقراطية الخانقة، إبادة الحرس البلشفي القديم، التطهيرات الكبرى، التصنيع القسري، التواطؤ بين ستالين وهتلر وتقصير ستالين أثناء الحرب العظمى.. إلخ. وقد التزمنا توضيح بعض الحقائق الكبرى عن ستالين، تلك التي أجملت ببعض جمل آلاف المرات على صفحات الصحف، وفي محاضرات التاريخ، وفي الحوارات التي تسللت والحق يقال إلى أعماق اللاشعور.

لقد حدث الكثير من التردد والشطط الأيديولوجي إزاء مسألة ستالين في كافة الأحزاب الماركسية اللينينية تقريباً.

....

يمكننا أن نستخلص الآن خلاصة ذات أهمية عامة:

حين نحكم على أية واقعة جرت بين عامي ١٩٢٣-١٩٥٣ علينا أن نبذل قصارى جهدنا لمعرفة النهج والسياسة اللذين دافع عنهما الحزب البلشفي، ودافع عنهما ستالين. ولا يجوز أن نقبل أي نقد للأعمال التي أنجزها ستالين دون أن ندقق في المعطيات الأولية للمسألة المطروحة.

لودو مارتينز.

دار الطليعة الجديدة

ص.ب 34494 تلفاكس 7775872